صيد الخاطر

العلامة المتفنن المشهور الواعظ الحافظ
أبي الفرج جمال الدين عبد الرحمن بن أبي الحسن
علي بن محمد بن الجوزي الحنبلي
المتوفى سنة ٥٩٧ هـ

تحقيق
عماد زكي البارودي

المكتبة التوفيقية
أمام الباب الأخضر - سيدنا الحسين
ت ٥٩٠٤١٧٥٠ - ٥٩٢٢٤١

التوفيقية
مكتبة
التوفيقية

صيد الخاطر

العلامة المتفنن المشهور الواعظ الحافظ
أبي الفرج جمال الدين عبد الرحمن بن أبي الحسن
علي بن محمد بن الجوزي الحنبلي
(المتوفى سنة ٥٩٧ هـ)

تحقيق

عماد زكي البارودي



أمام الباب الأخضر - سيدنا الحسين
ت ٥٩٠٤١٧٥ - ٥٩٢٢٤١٠

المقدمـة

إن الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا.

من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادى له، وأشهد أن لا إله إلا الله، وحده لا شريك له، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله.

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلا تَمُوتُنَّ إِلاَّ وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴾(١).

﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالاً كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا ﴾(٢).

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلاً سَدِيدًا ۝٧٠ يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا ﴾(٣).

أما بعد:

رحم الله السلف رحمة واسعة، فقد كان جل همهم الآخرة، ومن حرصهم عليها وخوفهم علينا تركوا لنا أزوادًا نستبصر بها فى الطريق، ومن ذلك ما تركه لنا العلامة ابن الجوزى فى سفره العظيم «صيد الخاطر» خواطر عديدة أتت إليه، وتأتى إلينا، فاصطادها بفكره الثاقب لعلها تنفعنا، فقيدها وعرضها لنا لعلنا نستفيد منها، ولا أظن أن هناك إنسانًا يقرأ هذا الكتاب إلا وخرج بشىء منه، ورحم الله هذا العالم الجليل، فما من كتاب تركه لنا إلا فيه خيرًا كثيرًا، وكانت مؤلفاته تغنى عن غيرها، ولا يغنى غيرها عنها، ولأنه

---

(١) سورة آل عمران: ١٠٢.

(٢) سورة النساء: ١.

(٣) سورة الأحزاب: ٧٠، ٧١.

طبق ما كان يقوله، فكان يمارس العلم والعمل، ولا يترك وقته بدون عمل، حتى أثمر لنا عن العديد من المصنفات النافعة جزاه الله عنا وعن المسلمين خير الجزاء.

وكتبه

أبو عمرو عماد زكي البارودي

١٤ صفر ١٤٢٠هـ

الموافق ٣٠ مايو ١٩٩٩م

عملى فى الكتاب

١ - تخريج الآيات القرآنية.

٢ - تخريج الأحاديث النبوية وذلك بعزوها إلى مصادرها من كتب السنة مع ذكر الكتاب والباب ودرجة الحديث معتمدين على أقوال علماء هذا الشأن قديمًا وحديثًا.

٣ - ترجمة أغلب الأعلام الواردة بالكتاب.

٤ - شرح بعض الكلمات الغريبة.

٥ - ضبط النص، وتصحيح بعض الأخطاء والتحريفات الواردة بمتن الكتاب.

٦ - عمل ترجمة موجزة للمصنف.

وأخيراً أسأل الله تعالى أن يجعل هذا العمل خالصًا لوجهه، ولا يجعل لأحد فيه شيئًا، إنه سميع قريب مجيب الدعوات، وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

وكتبه

أبو عمرو عماد زكى البارودى

ترجمة المؤلــف

* اسمه ولقبه وكنيته:

هو الإمام العلامــة جمال الدين، أبو الفرج، عبــد الرحمن بن على بن محمد بن على بن عبيد الله بن عبد الله حمادى بن أحمد بن جعفر الجوزى، الذى ينتهى نسبه إلى الخليفة الراشد أبى بكر الصديق.

و«الجوزى» نســبة إلى محلة بالبــصرة تسمى «مــحلة الجوز» وقيل غــير ذلك.

* ولادته ونشأته:

ولد تقريبًا سنة عشر وخمــسمائة أو نحوها، وتوفى أبوه، وله من العمر ثلاث سنين، فرعته أمه وعمته، وكــان أهله تجارًا بالنحاس، وهذا ما يفسر ما يوجد فى بعض ســماعــاته القديمة من لقب «ابن الجوزى الــصفار» نســبة إلى النحاس.

وما إن شب وترعــرع حتى حملته عــمته إلى خاله الحــافظ اللغوى أبى الفضل محمد بن ناصر البغدادى، فاعتنــى به وأسمعه الكثير، ولاسيما مسند أحمد بن حنبل، وجامع الترمذى، وصحــيحى البخارى، ومسلم، كما حفظ القرآن الكريم، وتعلم اللغة والأدب ومُرِّن على الوعظ، فحصل له من الحظوة على الوعظ ما لم يحصل لأحــد قط، فحضر مجــالسه ملوك ووزراء وخلفاء من وراء الستر.

* شيوخه:

سمع أبا القاسم بن الحصين، وعلى بن عبد الواحد الدينورى، وأبا عبد الله الحســين بن محمــد البارع، وأبــا السعادات أحــمد بن أحــمد المتــوكلى،

وإسماعيل بن أبى صالح المؤذن، والفقيه أبا الحسن بن الزغوانى، وهبة الله بن الطبر، وأبا غالب بن البناء، وأبا بكر محمد بن الحسين المزرفى، وغيرهم حتى بلغ عدد أساتذته وشيوخه سبعة وثمانين نفسًا.

* صفاته ومناقبه:

قال الموفق عبد اللطيف: كان ابن الجوزى لطيف الصورة، حلو الشمائل، رخيم النغمة، موزون الحركات، والنغمات، لذيذ المفاكهة، يحضر مجلسه مائة ألف أو يزيدون، لا يضيع من زمانه شيئًا يكتب فى اليوم أربع كراريس، وله فى كل علم مشاركة، ولكنه كان فى التفسير من الأعيان، وفى الحديث من الحفاظ، وفى التاريخ من المتوسعين، ولديه فقه كافٍ، وأما السجع الوعظى فله فيه ملكة قوية.

وله فى الطب «كتاب اللقط» مجلدان وكان يراعى حفظ صحته، وتلطيف مزاجه، ومما يفيد عقله قوة وذهنه حدة، جل غذائه الفراريج والمزاوير ويعتاض عن الفاكهة بالأشربة والمعجونات، ولباسه أفضل لباس، الأبيض الناعم الطيب، وله ذهن وقاد، وجواب حاضر، ومجون ومداعبات حلوة.

* مصنفاته:

١ - **فى التفسير وتعلقاته والقراءات:** المغنى فى التفسير، زاد المسير فى علم التفسير، تيسير البيان فى تفسير القرآن، تذكرة الأريب فى تفسير الغريب، غريب الغريب، نزهة العيون النواظر فى الوجوه والنظائر، الإشارة إلى القراءة المختارة، فنون الأفنان فى عيون علوم القرآن، عمدة الراسخ فى معرفة المنسوخ والناسخ، . . .

٢ - **فى أصول الدين:** منهاج الوصول إلى علم الأصول، دفع شبه التشبيه، منهاج أهل الإصابة، السر المصون، مسلك العقل، الرد على المتعصب العنيد، بيان غفلة القائل بقدم أفعال العباد، . . . .

٣ - **فى الحديث وتعلقاته:** جامع المسانيد بـألخص الأسانيد، الحدائق، المجتبى، عيون الحكايات، إرشاد المريدين فى حكايات السلف الصالحين، الموضوعات من الأحاديث المرفوعات، العلل المتناهية فى الأحاديث الواهية، الضعفاء والمتروكين، أخبار أهل الرسوخ فى الفقه والتحديث بمقدار المنسوخ من الحديث، مناقب أصحاب الحديث، . . . .

٤ - **فى الفقه وتعلقاته:** الإنصاف في مسائل الخلاف، جنة النظر وجبة النظر وهى التعليقة الوسطى، عمدة الدلائل فى مشتهر المسائل وهى التعليقة الصغرى، معتصر المختصر فى مسائل النظر، المذهب فى المذهب، مسبوك الذهب، العبادات الخمس، . . .

٥ - **فى التاريخ والتراجم:** تلقيح فهوم أهل الأثر فى عيون التواريخ والسير، المنتظم فى تاريخ الملوك والأمم، شذور العقود فى تاريخ العهود، طرائف الظرائف فى تاريخ السوالف، مناقب بغداد، الوفا بفضائل المصطفى -ﷺ-، مناقب أبى بكر، فضائل عمر بن الخطاب، مناقب على، فضائل عمر بن عبد العزيز، فضائل سعيد بن المسيب، فضائل الحسن البصرى، مناقب الفضيل بن عياض، مناقب بشر الحافى، مناقب إبراهيم بن أدهم، مناقب سفيان الثورى، مناقب الإمام الشافعى، مناقب أحمد بن حنبل، مناقب معروف الكرخى، مناقب رابعة العدوية، المختار من أخبار الأخيار، . . . .

٦ - **فى الوعظ، وفنون مختلفة:** منهاج القاصدين، ذم الهوى، صيد الخاطر، الأذكياء، الحمقى، تلبيس إبليس، الثبات عند الممات، العزلة، الرياضة، منهاج الإصابة فى محبة الصحابة، الظرفاء والمتحابين، المعشوق فى الوعظ، الفصول الوعظية على حروف المعجم، الوعظ المقبرى، قيام الليل، المحادثة، المناجاة، المرتقى لمن اتقى، زين القصص، نسيم الرياض، الأنس والمحبة، . . . .

* وفاته:

توفى ابن الجوزى ليلة الجمعة الثانى عشر من شهر رمضان بين العشاءين سنة ٥٩٧هـ، بعد أن مرض خمسة أيام، ودفن من الغد فى باب حرب، وحضر جنازته جم غفير، وغلقت الأسواق، وأفطر بعضهم من شدة الزحام والحر.

بسم الله الرحمن الرحيم

الانتفاع بالمواعظ

قال الشيخ الإمام العالم، أبو الفرج عبد الرحمن بن على بن محمد بن الجوزى، رحمة الله تعالى عليه: الحمد لله حمدًا يبلغ رضاه، وصلى الله على أشرف من اجتباه، وعلى من صاحبه ووالاه، وسلم تسليمًا لا يدرك منتهاه: لما كانت الخواطر تجول فى تصفح أشياء تعرض لها، ثم تعرض عنها فتذهب! كان من أولى الأمور حفظ ما يخطر لكيلا ينسى. وقد قال -عليه الصلاة والسلام-: **«قيدوا العلم بالكتابة»**(١).

وكم قد خطر لى شىء، فأتشاغل عن إثباته فيذهب، فأتأسف عليه. ورأيت من نفسى أننى كلما فتحت بصر التفكر، سنح له من عجائب الغيب، ما لم يكن فى حساب فانثال عليه من كثيب التفهيم ما لا يجوز التفريط فيه، فجعلت هذا الكتاب قيدًا -لصيد الخاطر- والله ولى النفع إنه قريب مجيب.

١ - **فصل** - قد يعرض عند سماع المواعظ للسامع يقظة، فإذا انفصل عن مجلس الذكر عادت القسوة والغفلة. فتدبرت السبب فى ذلك فعرفته ثم رأيت الناس يتفاوتون فى ذلك، فالحالة العامة أن القلب لا يكون على صفة من اليقظة عند سماع الموعظة بعدها لسببين:

أحدهما: أن المواعظ كالسياط، والسياط لا تؤلم بعد انقضائها وإيلامها وقت وقوعها.

---

(١) أخرجه الحاكم (٣٦٢) عن ابن عمرو مرفوعًا و(٣٦٠ و٣٦١) عن عمر وأنس موقوفًا. وهو عند الدارمى (٤٩١ و٤٩٧) عنهما أيضًا.

والثانى: أن حالة سماع المواعظ يكون الإنسان فيها مزاح العلة، قد تخلى بجسمه وفكره عن أسباب الدنيا، وأنصت بحضور قلبه، فإذا عاد إلى الشواغل اجتذبته بآفاتها، وكيف يصح أن يكون كما كان.

وهذه حالة تعم الخلق، إلا أن أرباب اليقظة يتفاوتون فى بقاء الأثر، فمنهم من يعزم بلا تردد ويمضى من غير التفات، فلو توقف بهم ركب الطبع لضجوا كما قال حنظلة عن نفسه: نافق حنظلة[١]، ومنهم أقوام يميل بهم الطبع إلى الغفلة أحيانًا، ويدعوهم ما تقدم من المواعظ إلى العمل أحيانًا فهم كالسنبلة تميلها الرياح، وأقوام لا يؤثر فيهم إلا بمقدار سماعه، كماء دحرجته على صفوان[٢].

٢ - **فصل** - جواذب الطبع إلى الدنيا كثيرة، ثم هى من داخل، وذكر الآخرة أمر خارج عن الطبع، ثم هى من خارج، وربما ظن من لا علم له أن جواذب الآخرة أقوى، لما يسمع من الوعيد فى القرآن، وليس كذلك لأن مثل الطبع فى ميله إلى الدنيا، كالماء الجارى فإنه يطلب الهبوط، وإنما رفعه إلى فوق يحتاج إلى التكلف، ولهذا أجاب معاون الشرع: بالترغيب والترهيب يقوى جند العقل، فأما الطبع فجواذبه كثيرة، وليس العجب أن يَغلب، إنما العجب أن يُغلب.

٣ - **فصل** - من عاين بعين بصيرته تناهى الأمور فى بداياتها، نال خيرها، ونجا من شرها. ومن لم ير العواقب، غلب عليه الحس، فعاد عليه بالألم، ما طلب منه السلامة، وبالنصَب ما رجا منه الراحة. وبيان هذا فى المستقبل، يتبين بذكر الماضى وهو أنك لا تخلو، أن تكون عصيت الله فى عمرك، أو أطعته، فأين لذة معصيتك؟ وأين تعب طاعتك! هيهات رحل كل بما فيها! فليت الذنوب إذا تخلت خلت!.

---

(١) صحيح: أخرجه مسلم (٢٧٥٠) فى كتاب التوبة، باب: فضل دوام الذكر والفكر فى أمور الآخرة.

(٢) الصفوان: الحجر الأملس الخالى من الشوائب.

وأزيدك فى هذا بيانًا مثل ساعة الموت، وانظر إلى مرارة الحسرات على التفريط، ولا أقول كيف تغلب حلاوة اللذات، لأن حلاوة اللذات استحالت حنظلاً، فبقيت مرارة الأسى بلا مقاوم. أتُراك ما علمت أن الأمر بعواقبه. فراقب العواقب تسلم، ولا تمل مع هوى الحس تندم.

٤ - **فصل** - من تفكر فى عواقب الدنيا، أخذ الحذر، ومن أيقن بطول الطريق تأهب للسفر، ما أعجب أمرك يا من يوقن بأمر ثم ينساه، ويتحقق ضرر حال ثم يغشاه! وتخشى الناس والله أحق أن تخشاه. تغلبك نفسك على ما تظن، ولا تغلبها على ما تستيقن. أعجب العجائب سرورك بغرورك، وسهوك فى لهوك، عما قد خبئ لك. تغتر بصحتك وتنسى دنو السقم، وتفرح بعافيتك غافلاً عن قرب الألم، لقد أراك مصرع غيرك مصرعَكَ، وأبدى مضجعُ سواك قبل الممات مضجعَكَ، وقد شغلك نيل لذاتك، عن ذكر خراب ذاتك:

كأنك لم تسمع بأخبار من مضى ... ولم تر فى الباقين ما يصنع الدهر
فإن كنت لا تدرى فتلك ديارهم ... محاها مجال الريح بعدك والقبر

كم رأيت صاحب منزل ما نزل لحده[1]، حتى نزل! وكم شاهدت والى قصر، وليه عدوه لما عزل! فيا من كل لحظة إلى هذا يسرى، وفعله فعل من لا يفهم ولا يدرى:

وكيف تنام العين وهى قريرة؟ ... ولم تدر فى أى المحلين[2] تنزل!

٥ - **فصل** - من قارب الفتنة، بعدت عنه السلامة، ومن ادعى الصبر وكل إلى نفسه، ورب نظرة لم تناظر! وأحق الأشياء بالضبط والقهر اللسان والعين، فإياك إياك أن تغتر بعزمك على ترك الهوى، مع مقاربة الفتنة؛ فإن الهوى مكايد، وكم من شجاع فى صف الحرب اغتيل؛ فأتاه ما لم يحتسب ممن يأنف النظر إليه! واذكر حمزة مع وحشى[3]:

(١) اللحد: القبر.
(٢) المحلين: يقصد بها: الجنة والنار.
(٣) وحشى: قاتل حمزة عم الرسول -ﷺ- فى غزوة أحد.

فــتــبــصّــر ولا تشم كل برق رب برق فــيــه صــواعق حين
واغضض الطرف تسترح من غرام تكتــسى فــيــه ثوب ذلك وشين
فـبـلاء الـفـتى مـوافـقـة النفس وبدء الـهـوى طمـوح الـعين

٦ - **فصل** - أعظم المعاقبة أن لا يحس المعاقب بالعقوبة، وأشد من ذلك أن يقع السرور بما هو عقوبة، كالفرح بالمال الحرام، والتمكن من الذنوب، ومن هذه حاله لا يفوز بطاعة.

وإنى تدبرت أحوال أكثر العلماء والمتزهدين، فرأيتهم فى عقوبات لا يحسون بها، ومعظمها من قبل طلبهم للرياسة، فالعالم منهم يغضب إن رد عليه خطؤه، والواعظ متصنع بوعظه، والمتزهد منافق أو مرائى. فأول عقوباتهم إعراضهم عن الحق؛ شغلاً بالخلق، ومن خفىِّ عقوباتهم سلبُ حلاوة المناجاة ولذة التعبد، إلا رجالاً مؤمنين، ونساء مؤمنات؛ يحفظ الله بهم الأرض، بواطنهم كظواهرهم؛ بل أجلى[1]، وسرائرهم كعلانيتهم، بل أحلى، وهممهم عند الثريا[2]، بل أعلى. إن عرفوا تنكّروا، وإن رئيت لهم كرامة أنكروا.

فالناس فى غفلاتهم، وهم فى قطع فلاتهم، تحبهم بقاع الأرض، وتفرح بهم أملاك[3] السماء، نسأل الله عز وجل التوفيق لاتباعهم، وأن يجعلنا من أتباعهم.

٧ - **فصل** - من علامة كمال العقل علو الهمة، والراضى بالدون دنى:

ولم أر فى عيوب الناس عيبًا كنقص القادرين على التمام

٨ - **فصل** - سبحان من سبقت محبته لأحبابه، فمدحهم على ما

(١) أجلى: أوضح.
(٢) الثريا: نجم معروف عند العرب بعلوه.
(٣) أملاك: جمع ملك، وهم الملائكة.

وهب لهم، واشترى منهم ما أعطاهم، وقدم المتأخر من أوصافهم لموضع إيثارهم، فباهى بهم فى صومهم، وأحب خلوف أفواههم، يا لها من حالة مصونة لا يقدر عليها كل طالب! ولا يبلغ كنه وصفها كل خاطب!

٩ - **فصل** - الواجب على العاقل أخذ العدة لرحيله، فإنه لا يعلم متى يفجؤه أمر ربه، ولا يدرى متى يُستدعى، وإنى رأيت خلقًا كثيراً غرّهم الشباب، ونسوا فقد الأقران(١)، وألْهاهم طول الأمل. وربما قال العالم المحض لنفسه: اشتغل بالعلم ثم أعمل به، فيتساهل فى الزهد بحجة الراحة، ويؤخر الرجا لتحقيق التوبة، ولا يتحاشى من غيبة أو سماعها، ومن كسب شبهة يأمل أن يمحوها بالورع، وينسى أن الموت قد يبغت. فالعاقل من أعطى كل لحظة حقها من الواجب عليه، فإن بغته الموت رؤى مستعدًا، وإن نال الأمل ازداد خيراً.

١٠- **فصل** - خطرت لى فكرة، فيما يجرى على كثير من العالم من المصائب الشديدة، والبلايا العظيمة، التى تتناهى إلى نهاية الصعوبة فقلت: سبحان الله! إن الله أكرم الأكرمين، والكرم يوجب المسامحة فما وجه هذه المعاقبة؟ فتفكرت، فرأيت كثيراً من الناس فى وجودهم كالعدم، لا يتصفحون أدلة الوحدانية، ولا ينظرون فى أوامر الله تعالى ونواهيه، بل يجرون على عاداتهم كالبهائم، فإن وافق الشرع مرادهم، وإلا فمعولهم على أغراضهم، وبعد حصول الدينار، لا يبالون أمن حلال كان أم من حرام، وإن سهلت عليهم الصلاة فعلوها، وإن لم تسهل تركوها. وفيهم من يبارز بالذنوب العظيمة مع نوع معرفة المناهى، وربما قويت معرفة عالم منهم، وتفاقمت ذنوبه؛ فعلمت أن العقوبات -وإن عظمت- دون إجرامهم، فإذا وقعت عقوبة لتمحص ذنبًا، صاح مستغيثهم: ترى هذا بأى ذنب؟ وينسى ما قد كان، مما تتزلزل الأرض لبعضه، وقد يهان الشيخ فى كبره، حتى ترحمه القلوب، ولا يدرى أن ذلك لإهماله حق الله تعالى فى شبابه، فمتى رأيت معاقبًا، فاعلم أنه لذنوب.

---

(١) الأقران: جمع قرين، وهو المثيل والند.

تصفية الأحوال فى تصفية الأعمال

١١- فصل - تأملت التحاسد بين العلماء، فرأيت منشأه من حب الدنيا، فإن علماء الآخرة يتوادون ولا يتحاسدون، كما قال عز وجل: ﴿وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّا أُوتُوا﴾(١) وقال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ جَاءُوا مِن بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ وَلَا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلًّا لِّلَّذِينَ آمَنُوا﴾(٢)، وقد كان أبو الدرداء(٣): يدعو كل ليلة لجماعة من إخوانه. وقال الإمام أحمد بن حنبل(٤) لولد الشافعى(٥): أبوك من الستة الذين أدعو لهم كل ليلة وقت السحر.

والأمر الفارق بين الفئتين: أن علماء الدنيا، ينظرون فى الرياسة فيها، ويحبون كثرة الجمع والثناء؛ وعلماء الآخرة، بمعزل من إيثار ذلك، وقد كانوا يتخوفونه، ويرحمون من بلى به، وكان النخعى(٦): لا يستند إلى سارية. وقال علقمة(٧): أكره أن يوطأ عقبى ويقال علقمة، وكان بعضهم: إذا جلس إليه أكثر من أربعة قام عنهم، وكانوا يتدافعون الفتوى، ويحبون الخمول.

---

(١) سورة الحشر: ٩.

(٢) سورة الحشر: ١٠.

(٣) هو: الصحابى الجليل، عويمر بن زيد بن قيس الأنصارى، أبو الدرداء، مشهور بكنيته، أول مشاهده أحد، وكان عابدًا، مات فى أواخر خلافة عثمان.

(٤) هو: أحد الأئمة الأربعة، أبو عبد الله، أحمد بن محمد بن حنبل بن هلال بن أسد الشيبانى المروزى، ثقة حافظ فقيه حجة، مات سنة ٢٤١هـ، وله ٧٧ سنة.

(٥) هو: ناصر السنة، أبو عبد الله، محمد بن إدريس الشافعى المكى، نزيل مصر، أحد الأئمة الأربعة المشهورين، مات سنة ٢٠٤هـ، وله ٥٤ سنة.

(٦) هو: إبراهيم بن يزيد بن قيس بن الأسود النخعى، أبو عمران الكوفى، فقيه مشهور، مات سنة ١٩٦هـ، وهو ابن خمسين سنة.

(٧) هو: علقمة بن قيس بن عبد الله النخعى الكوفى، ثقة ثبت فقيه عابد، مات بعد سنة ٦٠هـ، وقيل ٧٠ هـ.

ومثل القوم كمثل راكب البحر، وقد خب، فعنده شغل إلى أن يوقن بالنجاة، وإنما كان بعضهم يدعو لبعض ويستفيد منه؛ لأنهم رَكْبٌ تصاحبوا فتوادّوا، فالأيام والليالى مراحلهم إلى سفر الجنة.

١٢- فصل - من أحب تصفية الأحوال، فليجتهد فى تصفة الأعمال. قال عز وجل: **﴿وَأَلَّوِ اسْتَقَامُوا عَلَى الطَّرِيقَةِ لأَسْقَيْنَاهُم مَّاءً غَدَقًا﴾**(١) وقال النبى -ﷺ- فيما يروى عن ربه عز وجل: **«لو أن عبادى أطاعونى لسقيتهم المطر بالليل، وأطلعت عليهم الشمس بالنهار، ولم أسمعهم صوت الرعد»**(٢). وقال -ﷺ-: **«البر لا يبلى، والإثم لا ينسى، والديان لا ينام**(٣) **وكما تدين تدان»**(٤). وقال أبو سليمان الدارانى(٥): من صفّى صُفِّى له، ومن كدر كدر عليه، ومن أحسن فى ليله كوفئ فى نهاره، ومن أحسن فى نهاره كوفئ فى ليله.

وكان شيخ يدور فى المجالس، ويقول: من سره أن تدوم له العافية فليتق الله عز وجل. وكان الفضيل بن عياض(٦) يقول: إنى لأعصى الله فأعرف ذلك فى خلق دابتى وجاريتى.

واعلم -وفقك الله- أنه لا يحس بضربه مبنج(٧)، وإنما يعرف الزيادة من النقصان المحاسب لنفسه؛ ومتى رأيت تكديرًا فى حال، فاذكر نعمة ما

(١) سورة الجن: ١٦.

(٢) أخرجه أحمد (٢/٣٥٩)، والحاكم (٣٣٣١ و٧٦٥٧)، والطيالسى (٢٥٨٦)، وعبد بن حميد (١٤٢٤) من حديث أبى هريرة -رضي الله عنه-.

(٣) كذا بالأصل، وهى فى رواية «يموت».

(٤) ضعيف: أخرجه عبد الرزاق (٢٠٢٦٢) عن أبى قلابة مرسلاً، وانظر «ضعيف الجامع» (٢٣٦٩).

(٥) هو: عبد الرحمن بن أحمد بن عطية، من أهل دمشق من داريا قرية من قرى الغوطة، من أفاضل أهل زمانه وعبادهم وخيار أهل الشام، لم أقف على تاريخ وفاته.

(٦) هو: فضيل بن عياض بن مسعود التميمى، أبو على الزاهد المشهور، أصله من خراسان وسكن مكة، ثقة إمام عابد، مات سنة ١٨٧هـ.

(٧) مبنج: فاقد الحس.

شُكرت، أو زلة قد فُعلت، واحذر من نفار النعم، ومفاجأة النقم، ولا تغتر بسعة بساط الحلم، فربما عجل انقباضه. وقد قال الله عز وجل: ﴿إِنَّ اللَّهَ لا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ﴾(١) وكان أبو على الروذبارى(٢)، يقول: من الاغترار أن تسيء، فيحسن إليك، فتترك التوبة، توهمًا أنك تسامح فى الهفوات.

١٣- **فصل** - تفكرت يومًا فى التكليف، فرأيته ينقسم إلى سهل وصعب؛ فأما السهل فهو أعمال الجوارح، إلا أن منه ما هو أصعب من بعض؛ فالوضوء والصلاة أسهل من الصوم، والصوم ربما كان عند قوم أسهل من الزكاة؛ وأما الصعب فيتفاوت، فبعضها أصعب من بعض، فمن المستصعب النظر والاستدلال الموصلان إلى معرفة الخالق، فهذا صعب عند من غلبت عليه أمور الحس، سهل عند أهل العقل؛ ومن المستصعب غلبة الهوى، وقهر النفوس، وكف أكف الطباع عن التصرف فيما يؤثره؛ وكل هذا يسهل على العاقل النظر فى ثوابه، ورجاء عاقبته، وإن شق عاجلاً.

ولنا أصعب التكاليف وأعجبها، إنه قد ثبتت حكمة الخالق عند العقل، ثم تراه يفقر المتشاغل بالعلم المقبل على العبادة، حتى يعضه الفقر بناجذيه(٣)، فيذل للجاهل فى طلب القوت؛ ويغنى الفاسق مع الجهل حتى تفيض الدنيا عليه، ثم تراه ينشئ الأجسام ويحكمها، ثم ينقض بناء الشباب فى مبدأ أمره، وعند استكمال بنائه؛ فإذا به قد عاد هشيمًا. ثم تراه يؤلم الأطفال، حتى يرحمهم كل طبع، ثم يقال له: إياك أن تشك فى أنه أرحم الراحمين، ثم يسمع بإرسال موسى إلى فرعون، ويقال له: اعتقد أن الله تعالى أضل فرعون، واعلم أنه ما كان لآدم بدّ من أكل الشجرة، وقد وبخ

---

(١) سورة الرعد: ١١.

(٢) هو: محمد بن أحمد بن القاسم، أبو على الروذبارى، من كبار الصوفية، سكن مصر، وكان من أهل الفضل والفهم، كما أن له تصانيف حسان فى التصوف، مات سنة ٣٢٢هـ.

(٣) النواجذ: الأضراس.

بقوله: ﴿وَعَصَىٰ آدَمُ رَبَّهُ﴾(١) وفى مثل هذه الأشياء تحير خلق، حتى خرجوا إلى الكفر والتكذيب، ولو فتشوا على سر هذه الأشياء، لعلموا أن تسليم هذه الأمور، تكليف العقل ليذعن، وهذا أصلٌ -إذا فهم حصلت السلامة والتسليم. نسأل الله عز وجل أن يكشف لنا من الغوامض التى حيرت من ضل. إنه قريب مجيب.

١٤- فصل - ينبغى للإنسان أن يعرف شرف زمانه، وقدر وقته، فلا يضيع منه لحظة فى غير قربة، ويقدم الأفضل فالأفضل من القول والعمل. ولتكن نيته فى الخير قائمة، من غير فتور بما يعجز عنه البدن من العمل، كما جاء فى الحديث: «**نية المؤمن خير من عمله**»(٢).

وقد كان جماعة من السلف يبادرون اللحظات؛ فنقل عن عامر بن عبد قيس(٣): أن رجلاً قال له كلمنى، قال له: أمسك الشمس.

وقال ابن ثابت البنانى: ذَهَبْتُ أُلَقِّنُ أبى، فقال: يا بنى دعنى، فإنى فى وردى السادس. ودخلوا على بعض السلف عند موته -وهو يصلى- فقيل له؛ فقال: الآن تطوى صحيفتى.

فإذا علم الإنسان -وإن بالغ فى الجد- بأن الموت يقطعه عن العمل، عمل فى حياته ما يدوم له أجره بعد موته، فإن كان له شىء من الدنيا، وقف وقفًا، وغرس غرسًا، وأجرى نهرًا، ويسعى فى تحصيل ذرية تذكر الله بعده، فيكون الأجر له، أو أن يصنف كتابًا من العلم، فإن تصنيف العالم ولده المخلد، وأن يكون عاملاً بالخير، عالمًا فيه، فينقل من فعله ما يقتدى الغير به، فذلك الذى لم يمت.

---

(١) سورة طه: ١٢١.

(٢) ضعيف: أخرجه الطبرانى فى «الكبير» (٦/ ٢٢٨) من حديث سهل بن سعد، والحديث ضعفه الشيخ الألبانى فى «ضعيف الجامع» (٥٩٧٧).

(٣) هو: عامر بن عبد قيس العنبرى، تابعى ثقة من كبار التابعين وعبادهم، رآه كعب فقال: هذا راهب هذه الأمة، لم أقف له على تاريخ وفاة.

قد مات قوم وهم فى الناس أحياء

١٥- فصل - رأيت من أعظم حيل الشيطان ومكره، أن يخبط أرباب الأموال بالآمال، والتشاغل باللذات القاطعة عن الآخرة وأعمالها، فإذا أهّلهم بالمال تحريضًا على جمعه، وحثًّا على تحصيله، أمرهم بحراسته بخلاً به، فذلك من متين حيله، وقوى مكره. ثم دفن فى هذا الأمر من دقائق الحيل الخفية، أن خوف جمعه من المؤمنين، فنفر طالب الآخرة منه، وبادر التائب يخرج ما فى يده. ولا يزال الشيطان يحرضه على الزهد، ويأمره بالترك، ويخوفه من طرقات الكسب؛ إظهارًا لنصحه وحفظ دينه.

وفى خفايا ذلك عجائب من مكره، وربما تكلم الشيطان على لسان بعض المشايخ الذين يقتدى بهم التائب، فيقول له: اخرج من مالك وادخل فى زمرة الزهاد، ومتى كان لك غداء أو عشاء فلست من أهل الزهد، ولا تنال مراتب العزم، وربما كرر عليه الأحاديث البعيدة عن الصحة، والواردة على سبب ولمعنى، فإذا أخرج ما فى يده، وتعطل عن مكاسبه، عاد يعلق طمعه بصلة الإخوان. أو يحسن عنده صحبة السلطان، لأنه لا يقوى على طريق الزهد والترك إلا أيامًا. ثم يعود الطبع فيقاضى مطلوباته، فيقع فى أقبح مما فر منه، ويبذل أول السلع فى التحصيل دينه وعرضه، ويصير متمندلاً به، ويقف فى مقام اليد السفلى.

ولو أنه نظر فى سير الرجال ونبلائهم وتأمل صحاح الأحاديث عن رؤسائهم، لعلم أن الخليل -عليه الصلاة والسلام- كان كثير المال، حتى ضاقت بلدته بمواشيه، وكذلك لوط -عليه الصلاة والسلام-، وكثير من الأنبياء عليهم الصلاة والسلام، والجمع الغفير من الصحابة. وإنما صبروا عند العدم، ولم يمتنعوا من كسب ما يصلحهم، ولا من تناول المباح عند الوجود.

وكان أبو بكر[١] -ﷺ- يخرج للتجارة والرسول -ﷺ- حى، وكان

(١) هو: صديق هذه الأمة، عبد الله بن عثمان بن عامر، خليفة رسول الله -ﷺ-، له مناقب جمة، مات سنة ١٣هـ، وله ٦٣ سنة.

أكثرهم يخرج فاضل ما يأخذ من بيت المال، ويسلم من ذل الحاجة إلى الإخوان، وقد كان ابن عمر[1] لا يرد شيئًا ولا يسأل.

وإني تأملت أكثر أهل الدين والعلم على هذه الحال، فوجدت العلم شغلهم عن المكاسب في بداياتهم، فلما احتاجوا إلى نفوسهم ذلوا، وهم أحق بالعز، وقد كانوا قديمًا يكفيهم من بيت المال فضلات الإخوان، فلما عدمت في هذا الأوان، لم يقدر متدين على شيء إلا ببذل شيء من دينه، وليته قدر، فربما تلف الدين ولم يحصل له شيء.

فالواجب على العاقل أن يحفظ ما معه، وأن يجتهد في الكسب ليربح مداراة ظالم، أو مداهنة جاهل، ولا يلتفت إلى ترهات المتصوفة، الذين يدعون في الفقر ما يدعون.

فما الفقر إلا مرض العجزة، وللصابر على الفقر ثواب الصابر على المرض. اللهم إلا أن يكون جبانًا عن التصرف، مقتنعًا بالكفاف، فليس ذلك من مراتب الأبطال، بل هو من مقامات الجبناء الزهاد، وأما المكاسب ليكون المعطِي لا المعطى. والمتصدق لا المتصدق عليه، فهي من مراتب الشجعان الفضلاء، ومن تأمل هذا علم شرف الغنى ومخاطرة الفقر.

١٦- فصل - تأملت أحوال الفضلاء، فوجدتهم في الأغلب قد بخسوا من حظوظ الدنيا، ورأيت الدنيا -غالبًا- في أيدي أهل النقائص، فنظرت في الفضلاء، فإذا هم يتأسفون على ما فاتهم مما ناله أولو النقص، وربما تقطع بعضهم أسفًا على ذلك؛ فخاطبت بعض المتأسفين فقلت له: ويحك تدبر أمرك، فأنت غالط من وجوه:

أحدها: أنه إن كانت لك همة في طلب الدنيا، فاجتهد في طلبها تربح

(١) هو: أبو عبد الرحمن، عبد الله بن عمر بن الخطاب العدوي، ولد بعد المبعث بيسير، واستصغر يوم أحد، وهو ابن أربع عشرة سنة، كان من أشد الناس اتباعًا للأثر، مات سنة ٧٣هـ.

التأسف علــى فوتها، فـإن قعودك مـتأسـفًا على ما ناله غـيرك، مع قـصور اجتهادك غاية العجز.

والثانى: إن الدنيا إنما تراد لتـعبر لا لتعمـر، وهذا هو الذى يدلك عليه علمك ويبلغـه فـهمك، ومـا يناله أهل النـقص من فضـولهـا يؤذى أبدانهم وأديانهم، فـإذا عرفت ذلك ثم تأسفت عـلى فقد مـا فقد أصـلح لك، كان تأسفك عـقوبة لتأسفك على مـا تعلم المصلحة فى بعده، فـاقنع بذلك عذابًا عاجلاً إن سلمت من العذاب الآجل.

والثـالث: إنك قـد علمت بخس حظ الآدمى فى الجـملة، من مطاعم الدنيا ولذاتهـا بالإضافة إلى الحـيوان البهـيم، لأنه ينال ذلك أكثر مـقداراً مع أمن، وأنت تناله مـع خـوف وقلة مـقـدار. فـإذا ضـوعف حظك من ذلك لجنسك، كان لاحـقًا بالحـيوان البهـيم من جهـة أنه يشغله ذلك عن تحـصيل فضائل، وتخـفيف المؤمن يحث صاحبه على نـيل مراتب، فإذا آثرت مع قلة الفضول الفضـول، عدت على ما علمت بالأرزاء[1] فشتت علمك، ودللت على اختلاط رأيك.

١٧- فـصل - تأملت إقـدام العلمـاء بالعـقاب على شـهـوات النفس المحظور المنهى عنهـا، فرأيتها مـرتبة تزاحم الكفـر لولا تلوّح معنى: وهو أن الناس عند مواقـعة المحظور ينقســمون: فمنهم جـاهل بالمحظور أنه محظور، فهذا نوع عذر، ومنهم من يظن المحظور مكروهًا لا محـرمًا، فهذا قريب من الأول، وربما دخل فى هذا القسم آدم -ﷺ-، ومنهم من يتأول فيغلط، كما يقال أن آدم -عليه الصلاة والسلام- نهى عن شجـرة بعينها، فأكل من جنسها لا من عينهـا. ومنهم من يعلم التحريم، غيـر أن غلبات الشهوة أنسـته تذكر ذاك، فشـغله ما رأى عـما يعلم، ولهـذا لا يذكر السارق القطع، بـل يغيب بكليتـه فى نيل الحظ، ولا يذكر راكب الفاحشـة الفضيحـة ولا الحد؛ لأن ما يرى يذهله عما يعلم. ومنهم من يعلم الخطر ويذكـره، غير أن الأخذ بالحزم أولى بالعاقل، كـيف وقد علم أن هذا الملك الحكيم قطع الـيد فى ربع دينار،

(١) الأرزاء: جمع رزء، وهو النقص والمصيبة.

وهدم بناء الجسم المحكم بالرجم بالحجارة لالتذاذ ساعة، وخسف، ومسخ، وأغرق.

١٨- فصل - من تأمل أفعال البارى سبحانه، رآها على قانون العدل، وشاهد الجزاء مراصد للمجازاة، ولو بعد حين. فلا ينبغى أن يغتر مسامح، فالجزاء قد يتأخر.

ومن أقبح الذنوب التى قد أعد لها الجزاء العظيم الإصرار على الذنب، ثم يصانع صاحبه باستغفار وصلاة وتعبد، وعنده أن المصانعة تنفع، وأعظم الخلق اغتراراً من أتى ما يكرهه الله، وطلب منه ما يحبه هو، كما روى فى الحديث: والعاجز من أتبع نفسه هواها وتمنى على الله الأمانى(١).

ومما ينبغى للعاقل أن يترصده وقوع الجزاء، فإن ابن سيرين(٢) قال: عيرت رجلاً فقلت: يا مفلس، فأفلست بعد أربعين سنة، وقال ابن الجلاد: رآنى شيخ لى وأنا أنظر إلى أمرد، فقال: ما هذا؟ لتجدن غبها، فنسيت القرآن بعد أربعين سنة.

وبالضد من هذا كل من عمل خيراً أو صحح نية، فلينتظر جزاءها الحسن، وإن امتدت المدة. قال الله عز وجل: ﴿**إِنَّهُ مَن يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ اللَّهَ لا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ**﴾(٣) وقال -عليه الصلاة والسلام-: «**من غض بصره عن محاسن امرأة أثابه الله إيماناً، يجد حلاوته فى قلبه**»(٤). فليعلم العاقل أن ميزان العدل لا يحابى.

---

(١) ضعيف: أخرجه الترمذى (٢٤٥٩) فى كتاب صفة القيامة، باب: (٣٥)، وابن ماجة (٤٢٦٠)، فى كتاب الزهد، باب: ذكر الموت والاستعداد له، وأحمد (٤/ ١٢٤). والحديث ضعفه الشيخ الألبانى.

(٢) هو: محمد بن سيرين الأنصارى، أبو بكر بن أبى عمرة البصرى، ثقة ثبت عابد كبير القدر، مات سنة ١١٠هـ.

(٣) سورة يوسف: ٩٠.

(٤) ضعيف: وهو عند أحمد والطبرانى: بلفظ: ما من مسلم ينظر إلى امرأة أول رمقة، ثم يغض بصره إلا أحدث الله تعالى له عبادة يجد حلاوتها فى قلبه: كما فى «ضعيف الجامع» (٥٢٢١).

أحوال المتصوفة والزهاد

١٩- فصل - تأملت أحوال الصوفية والزهاد، فوجدت أكثرها منحرفًا عن الشريعة، بين جهل بالشرع، وابتداع بالرأى، يستدلون بآيات لا يفهمون معناها، وبأحاديث لها أسباب، وجمهورها لا يثبت. فمن ذلك، أنهم سمعوا فى القرآن العزيز: ﴿وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلاَّ مَتَاعُ الْغُرُورِ﴾[1] ﴿إِنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ﴾[2] ثم سمعوا فى الحديث: «**للدنيا أهون على الله من شاة ميتة على أهلها**»[3]، فبالغوا فى هجرها من غير بحث عن حقيقتها، وذلك أنه ما لم يعرف حقيقة الشىء فلا يجوز أن يمدح ولا أن يذم.

فإذا بحثنا عن الدنيا رأينا هذه الأرض البسيطة التى جعلت قرارًا للخلق، يخرج منها أقواتهم، ويدفن فيها أمواتهم، ومثل هذا لا يذم لموضع المصلحة فيه. ورأينا ما عليها من ماء وزرع وحيوان كله لمصالح الآدمى، وفيه حفظ لسبب بقائه، ورأينا بقاء الآدمى سببًا لمعرفة ربه، وطاعته إياه وخدمته، وما كان سببًا لبقاء العارف العابد يمدح ولا يذم، فبان لنا أن الذم إنما هو لأفعال الجاهل، أو العاصى فى الدنيا، فإنه إذا اقتنى المال المباح، وأدى زكاته لم يلم، فقد علم ما خلف الزبير[4] وابن عوف[5] وغيرهما، وبلغت صدقة

(١) سورة آل عمران: ١٨٥.

(٢) سورة محمد: ٣٦.

(٣) أخرجه ابن أبى شيبة فى مصنفه، (١٣/ ٢٤٥)، وعزاه المتقى الهندى فى كنز العمال (٦٢٠٤) للطبرانى عن سهل بن سعد.

(٤) هو: حوارى هذه الأمة، الزبير بن العوام، أبو عبد الله القرشى الأسدى، أحد العشرة المشهود لهم بالجنة، قتل سنة ٣٦هـ بعد منصرفه من وقعة الجمل.

(٥) هو: عبد الرحمن بن عوف القرشى الزهرى، أحد العشرة، أسلم قديمًا ومناقبه شهيرة، مات سنة ٣٢هـ.

على[١] -رضي الله عنه- أربعين ألفًا، وخلف ابن مسعود[٢]. تسعين ألفًا، وكان الليث بن سعد[٣]. يستغل كل سنة عشرين ألفًا، وكان سفيان[٤]: يتجر بمال، وكان ابن مهدى[٥]: يستغل كل سنة ألفى دينار.

وإن أكثر من النكاح والسرارى كان ممدوحًا لا ملومًا، فقد كان للنبى -صلى الله عليه وسلم- زوجات، وسرارى. وجمهور الصحابة، كانوا على الإكثار من ذلك. وكان لعلى بن أبى طالب -رضي الله عنه- أربع حرائر، وسبع عشرة أمة، وتزوج ولده الحسن[٦] نحوًا من أربعمائة. فإن طلب التزوج للأولاد، فهو الغاية فى التعبد، وإن أراد التلذذ فمباح، يندرج فيه من التعبد ما لا يحصى، من إعفاف نفسه والمرأة، إلى غير ذلك.

وقد أنفق موسى -عليه السلام- من عمره الشريف عشر سنين فى مهر بنت شعيب، فلولا أن النكاح من أفضل الأشياء، لما ذهب كثير من زمان الأنبياء فيه، وقد قال ابن عباس[٧] -رضي الله عنهما-: خيار هذه الأمة أكثرها نساء، وكان يطأ

---

(١) هو: على بن أبى طالب بن عبد المطلب، ابن عم رسول الله -صلى الله عليه وسلم-، وزوج ابنته، من السابقين الأولين، ورجح قوم أنه أول من أسلم، وهو أحد العشرة المبشرين بالجنة، مات سنة ٤٠هـ، وله ٦٣ سنة.

(٢) هو: عبد الله بن مسعود بن غافل، أبو عبد الرحمن، من السابقين الأولين، ومن كبار العلماء من الصحابة، مناقبه جمة، مات سنة ٣٢هـ.

(٣) هو: الليث بن سعد بن عبد الرحمن الفهمى، أبو الحارث المصرى، ثقة ثبت، فقيه إمام مشهور، مات سنة ١٧٥هـ.

(٤) هو: سفيان بن سعيد بن مسروق الثورى، أبو عبد الله الكوفى، ثقة حافظ فقيه عابد إمام حجة، مات سنة ١٦١هـ، وله ٦٤سنة.

(٥) هو: عبد الرحمن بن مهدى بن حسان العنبرى مولاهم، أبو سعيد البصرى، ثقة ثبت حافظ عارف بالرجال والحديث، مات سنة ١٩٨هـ، وله ٦٣ سنة.

(٦) هو: الحسن بن على بن أبى طالب الهاشمى، سبط رسول الله -صلى الله عليه وسلم- وريحانته، وقد صحبه وحفظ عنه، مات شهيدًا بالسم سنة ٤٩هـ، وله ٤٧ سنة.

(٧) هو: حبر هذه الأمة، عبد الله بن عباس بن عبد المطلب، ابن عم رسول الله -صلى الله عليه وسلم-، ولد قبل الهجرة بثلاث سنين، ودعا له رسول الله -صلى الله عليه وسلم- بالفهم فى القرآن، فكان يسمى البحر والحبر لسعة علمه، مات سنة ٦٨هـ بالطائف، وهو من أحد فقهاء الصحابة.

جاريــة له وينزل فى أخرى. وقــالت سرية الربيع بن خــثيم: كــان الربيع[١] يعزل. وأمــا المطعم فالمــراد منه تقوية هذا البــدن لخدمة الله عــز وجل، وحق على ذى الناقة أن يكرمها لتحمله.

وقد كان النبى -ﷺ-: يأكل ما وجد، فـإن وجد اللحم أكله، ويأكل لحم الدجاج، وأحب الأشياء إليه الحلوى والعسل، وما نقل عنه أنه امتنع من مباح.

وجيء على -رضي الله عنه- بفالوذج[٢] فأكل منه، وقال: ما هذا؟ قالوا: يوم النوروز[٣]، فقــال: نوروزنا كل يوم، وإنما يكره الأكل فوق الشــبع، واللبس على وجه الاختيال والبطر. وقــد اقتنع أقــوام بالدون من ذلك، لأن الحلال الصــافى لا يكاد يمكن فيــه تحصــيل المراد، وإلا فقــد لبس النبى -ﷺ- حلة اشتريت له بسبع وعشرين بعيراً.

وكان لتــميم الدارى[٤] حلة اشتــريت بألف درهم يصلى فيــها بالليل. فجاء أقوام، فأظهروا التزهد، وابتكروا طريقة زينها لهم الهوى، ثم تطلبوا لها الدليل، وإنما ينبــغى للإنــسان أن يتــبع الدلــيل، لا أن يتــبع طريقــًا ويتطلب دليلها، ثــم انقسمــوا: فمنهم متــصنع فى الظاهر، ليث الشــرى فى الباطن، يتناول فى خلواته الــشهــوات، وينعكف على اللــذات، ويرى الناس بزيه أنه متــصوف مــتزهد، وما تزهد إلا القــميص، وإذ نظر إلى أحــواله فعنده كــبر فرعون.

ومنهم سليم الباطن، إلا أنه بالشرع جاهل.

ومنهم من تصدر وصنف فاقتــدى به الجاهلون فى هذه الطريقة، وكانوا

---

(١) هو: الربيع بن خُثيم الثورى، أبو يزيد الكوفى، ثقة عابد مــخضرم، قال له ابن مسعود: لو رآك رسول الله -ﷺ- لأحبك، مات سنة ٦١هـ.

(٢) الفالوذج: نوع من الحلوى.

(٣) وهو من أعياد الفرس.

(٤) هو: تميم بن أوس بن خارجــة الدارى، أبو رقية، صــحابى مشهــور، سكن بيت المقدس بعد مقتل عثمان، مات سنة ٤٠هـ.

كعمى اتبعوا أعمى، ولو أنهم تلمـحوا للأمر الأول، الذى كان عليه الرسول -ﷺ- والصحابة -رضي الله عنهم- لما زاغوا.

ولقد كان جماعة من المحـققين لا يبالون بمعظّم فى النفوس إذا حاد عن الشريعة، بل يوسعونه لومًا.

فنقل عن أحمـد أنه قال له المروزى: ما تقول فى النكاح؟ فـقال: سنة النبى -ﷺ-، فقال: فقد قال إبراهيم. قال: فـصاح بى وقال: جئتنا ببنيات الطريق! وقـيل له: إن سريًا السـقطى[1] قال: لما خلق الله تعـالى الحروف، وقف الألف وسجدت الباء، فقال: نفروا الناس عنه.

واعلم أن المحـقق لا يهوله اسم مـعظم، كـما قـال رجل لعلى بن أبى طالب -رضي الله عنه-: أتظن أنا نظن أن طلحة[2] والزبير كـانا على الباطل؟ فـقال له: إن الحق لا يعرف بالرجال، اعرف الحق تعرف أهله.

ولعـمرى أنه قـد وقر فى النفـوس تعظيم أقوام، فـإذا نقل عنهم شىء فسمعه جاهل بالشرع قبله لتعظيمهم فى نفسه.

كـما يـنقل عن أبى يزيد[3] -رضي الله عنه-، أنه قـال: تراعنت على نفـسى فـحلفت لا أشرب الماء سـنة، وهذا إذا صح عنه، كان خطـأ قبـيحًـا، وزلة فاحـشة، لأن الماء ينفذ الأغـذية إلى البدن، ولا يقـوم مقامـه شىء، فإذا لم يشرب فقد سعى فى أذى بدنه، وقـد كان يستعذب الماء لرسول الله -ﷺ-، أفترى هذا فعل من يـعلم أن نفسه ليست له، وأنه لا يجوز التصـرف فيها إلا عن إذن مالكها وكذلك ينقلون عن بعض الصـوفية، أنه قال: سرت إلى مكة على طريق التوكل حـافيًا، فكانت الشوكة تدخل فى رجـلى فأحكها بالأرض

(١) هو: السرى السـقطى، من عبـاد البغداديين، يروى عن أبى نعـيم وأهل العراق، اشـتغل بالعبادة، وصحب معروف الكرخى، وهو أجل أصحابه، توفى سنة ٢٥١هـ.

(٢) هو: طلحة بن عـبيد الله بن عـثمان التيـمى، أبو محمد المـدنى، أحد العشرة المبـشرين بالجنة، استشهد يوم الجمل سنة ٣٦هـ، وله ٦٣سنة.

(٣) هو: سلطان العارفين، أبو يزيد، طيفور بن عيـسى بن شَرْوسَان البَسطامى، أحد الزهاد، توفى سنة ٢٦١هـ، وله ٧٣ سنة.

ولا أرفعها، وكان عليَّ مسح، فكانت عينى إذا آلمتنى أدلكها بالمسح. فذهبت إحدى عينيَّ.

وأمثال هذا كثير وربما حملها القصاص على الكرامات، وعظموها عند العوام، فيخايل لهم أن فاعل هذا أعلى مرتبة من الشافعى، وأحمد.

ولعمرى أن هذا من أعظم الذنوب، وأقبح العيوب، لأن الله تعالى قال: ﴿وَلَا تَقْتُلُوا أَنفُسَكُمْ﴾[1] وقال النبى -ﷺ-: «**إن لنفسك عليك حقًّا**»[2].

وقد طلب أبو بكر -رضي الله عنه-، فى طريق الهجرة للنبى -ﷺ- ظلاً حتى رأى صخرة ففرش له فى ظلها.

وقد نقل عن قدماء هذه الأمة بدايات هذا التفريط، وكان سببًا من وجهين: أحدهما: الجهل بالعلم، والثانى: قرب العهد بالرهبانية.

وقد كان الحسن[3] يعيب فرقدًا السبخى[4]، ومالك بن دينار[5] فى زهدهما، فرئى عنده طعام فيه لحم، فقال: لا رغيفى مالك، ولا صحنى فرقد. ورأى على فرقد كساء، فقال: يا فرقد إن أكثر أهل النار أصحاب الأكسية. وكم قد زوق قاص مجلسه بذكر أقوام، خرجوا إلى السياحة بلا زاد ولا ماء، وهو لا يعلم أن هذا من أقبح الأفعال! وأن الله تعالى لا يجرب عليه، فربما سمعه جاهل من التائبين، فخرج فمات فى الطريق، فصار للقائل نصيب من إثمه.

---

(١) سورة النساء: ٢٩.

(٢) صحيح: أخرجه البخارى (١١٥٣)، باب: (٢٠) من حديث عبد الله بن عمرو -رضي الله عنهما-.

(٣) هو: الحسن بن أبى الحسن البصرى، الأنصارى مولاهم، ثقة فقيه فاضل مشهور، هو رأس طبقة التابعين، مات سنة ١١٠هـ، وقد قارب التسعين.

(٤) هو: فرقد بن يعقوب السبخى، أبو يعقوب البصرى، صدوق عابد، مات سنة ١٣١هـ.

(٥) هو: مالك بن دينار البصرى، الزاهد، أبو يحيى، صدوق عابد، مات سنة ١٣٠هـ أو نحوها.

وكم يروون عن ذى النون[١]: أنه لقى امـرأة فى السيـاحة فكلـمهـا وكلمته، وينسون الأحاديث الصحاح: لا يحل لامرأة أن تسافر يومًا وليلة إلا بمحـرم[٢]! وكم ينقلون: أن أقـوامًـا مـشـوا عـلى الماء، وقـد قـال إبراهيم الحربى[٣]. لا يصح أن أحدًا مـشى على الماء قط! فإذا سـمعـوا هذا قالوا: أتنكرون كرامات الأولياء الصالحين؟ فنقول: لسنا من المنكرين لها، بل نتبع ما صح؛ والصـالحون هم الذين يتـبعـون الشرع، ولا يتـعبـدون بآرائهم، وفى الحديث: أن بنى إسرائيل شددوا، فشدد الله عليهم[٤].

وكم يحثون على الفقر حـتى حملوا خلقًا على إخراج أموالهم، ثم آل بهم الأمر إما إلى التسخط عند الحاجة، وإما إلى التعرض بسؤال الناس.

وكم تأذى مسلم بأمرهم الناس بالتـقلل! وقد قال النبى -ﷺ-: «**ثلث طعام، وثلث شـراب، وثلث نفس**»[٥]، فمـا قنعوا حـتى أمروا بالمبـالغة فى التقلل، فحكى أبو طالب المكى فى قوت القلوب: أن فيهم من كان يزن قوته بكُرَة رطبـة، ففى كل ليلة يذهب مـن رطوبتهـا قليل، وكنت أنا ممن اقتـدى بقوله فى الصـبا، فضاق المعى، وأوجب ذلك مرض سنـين؛ أفترى هذا شىء

(١) هو: ثوبان بن إبراهيم، أبو الفـيض، شيخ الديار المصرية، كـان عالـمًا فـصيحًا حكيـمًا واعظًا، توفى سنة ٢٤٥هـ، وكان من أبناء التسعين.

(٢) صحـيح: أخرجه البـخارى (١٠٨٨) فى كتـاب الجمعـة، باب: فى كم يقصـر الصلاة، ومسلم (١٣٣٩) فى كتاب الحج، باب: سفر المـرأة مع محرم إلى حج وغيره من حديث أبى هريرة -رضي الله عنه-.

(٣) هو. أبو إسحاق، إبراهيم بن إسحاق بن إبراهيم بن بشير البغدادى الحربى، كان إمامًا فى العلم، رأسًا فى الزهد، له تصانيف، مات سنة ٢٨٥هـ.

(٤) ضعيف. أخـرجه أبو داود (٤٩٠٤) فى كتاب الأدب، باب: فى الحـسد من حديث أنس ابن مالك -رضي الله عنه-. والحديث ضعفه الشيخ الألبانى.

(٥) صحيح: أخرجـه الترمذى (٢٣٨٠) فى كتاب الزهد، باب: ما جـاء فى كراهية الأكل، وابن ماجه (٣٣٤٩) فـى كتاب الأطعمة، باب: الاقـتصاد فى الأكل وكراهيـة الشبع من حديث المقدام بن معد يكرب.

بلفظ: «ما ملأ آدمى وعاءً شرًّا من بطنه، بحسب ابن آدم أكلات يقمن صلبه، فإن كان لا محالة فثلث لطعامه، وثلث لشرابه، وثلث لنفسه «والحديث» صححه الشيخ الألبانى.

تقتضيه الحكمة، أو ندب إليـه الشرع؟ وإنما مطية الآدمى قواه، فإذا سعى فى تقليلها ضعف عن العبادة.

فإنّا لو دخلنا ديار الروم، فوجدنا أثمان الخمور وأجرة الفجور، كان لنا حلالاً بوصف الغنيمة. أفتريد حلالاً على معنى أن الحبة من الذهب لم تتنقل مذ خرجت من المعدن على وجه لا يجـوز! فهذا شىء لم ينظر فيه رسول الله -ﷺ-. أو ليس قد سمعت أن الصدقـة عليه حرام؟ فلما تصدق على بُرَيْرة بلحم فأهدته، جاز له أكل تلك العين لتغير الوصف.

وقد قال أحـمد بن حنبل: أكره التـقلل من الطعام، فإن أقوامًـا فعلوه فعجزوا عن الفرائض، وهذا صحيح؛ فإن المتقلل لا يزال يتقلل إلى أن يعجز عن النوافل ثم الفرائض، ثـم يعجز عن مبـاشرة أهله وإعفـافهم، وعن بذل القوى فى الكسب لهم، وعن فعل خير قد كان يفعله، ولا يهولنك ما تسمعه من الأحاديث الـتى تحث على الجوع، فـإن المراد بها إما الحث عـلى الصوم، وإما النهى عن مقاومة الشبع.

فأما تنقيص المطعم على الدوام، فمؤثر فى القوى، فلا يجوز.

ثم فى هؤلاء المذمومين من يرى هـجر اللحم، والنبى -ﷺ- كان يود أن يأكله كل يوم، واسمع منى بلا مـحاباة، لا تحتجنَّ علىّ بأسـماء الرجال، فتقول قـد قال بشر(١)، وقـال إبراهيـم بـن أدهـم، وإن من احتـج بالرسـول -ﷺ-، وأصحـابه رضوان الله عليهم أقـوى حجة، على أن لأفـعال أولئك وجوهًا نحملها عليهم بحسن الظن.

ولقد ذاكرت بعض مـشايخنا ما يروى عن جمـاعة من السادات، أنهم دفنوا كتبهم، فقلت له: ما وجه هذا؟ فقال: أحسن ما نقول أن نسكت، يشير إلى أن هذا جهل من فاعله، وتأولت أنا لهم؛ فقلت: لعل ما دفنوا من كتبهم فيها شىء من الرأى، فما رأوا أن يعمل الناس به.

---

(١) هو: بشر بن الحارث المروزى، نزيل بغداد، أبو نصـر الحافى، الزاهد الجليل المشهور، ثقة قدوة، مات سنة ٢٢٧هـ، وله ٧٦ سنة.

ولقد روينا فى الحـديث عن أحمـد بن أبى الحوارى(١): أنه أخذ كـتبه فرمى بها فى البـحر وقال: نعم الدليل كنت، ولا حاجـة لنا إلى الدليل بعد الوصول إلى المدلول.

وهذا إذا أحسنا به الظن قلنا: كان فيها من كـلامهم ما لا يرتضيه، فأما إذا كانت علومًا صحيحـة، كان هذا من أفحش الإضاعة وأنا وإن تأولت لهم هذا، فهـو تأويل صحـيح فى حق العلماء منهم، لأنا قـد روينا عن سفـيان الثورى: أنه قـد أوصى بدفن كتـبه، وكان ندم على أشـياء كـتبهـا عن قوم، وقال: حملنى شهوة الحديث -وهذه لأنه كان يكتب عن الضعفاء والمتروكين- فكأنه لما عسر عليه التمييز، أوصى بدفن الكل.

وكذلك من كان له رأى من كـلامه ثم رجع عنه، جاز أن يدفن الكتب التى فيها ذلك، فهذا وجه التأويل للعلماء. فأما المتزهدون، الذين رأوا صورة فعل العلماء، ودفنوا كتـبًا صالحة لئلا تشغلهم عن التعـبد، فإنه جهل منهم، لأنهم شرعوا فى إطفـاء مصباح يضىء لهم، مع الإقدام على تضـييع مال لا يحل.

ومن جملة من عمل بواقعـة دفن كتب العلم، يوسف بن أسباط(٢) ثم لم يصبـر عن التحـديث فخلط فـعد فى الضـعفـاء. أنبانا عبـد الوهاب بن المبارك، قال: أخبرنا مـحمد بن المظفر الشامى قال: أخبرنا أحـمد بن محمد العتـيقى، قـال: حدثنا يوسف بن أحـمد، قال: حـدثنا محـمد بن عـمرو العقيلى، قال: حدثنا محمد بن عيسى، قال: أخبرنا أحمد بن خالد الخلال، قال: سمعت شعيب بن حرب يقول: قلت ليوسف بن إسباط: كيف صنعت بكتبك؟ قال: جئت إلى الجزيرة، فلما نضب الماء دفنتها حتى جاء الماء عليها، فـذهبت. قلت: مـا حـملك علـى ذلك؟ قـال: أردت أن يكون الهم همًّـا

(١) هو: أحمـد بن عبـد الله بن ميـمون التغلبى، يـكنى أبا الحسن، ابن أبى الحـوارى، ثقة زاهد، مات سنة ٢٤٦هـ.

(٢) هو: يوسف بن أسبـاط الزاهد، له مـواعظ وحكم، ونزل الثـغـور مـرابطًا، قـال عنه البخارى: دفن كتبه فكان حديثه لا يجىء كما ينبغى، لم أقف على تاريخ وفاته.

واحدًا. قال العقلى: وحدثنى العقيلى آدم، قال: سمعت البخارى قال: قال صدقة: دفن يوسف بن أسباط كتبه، وكان بعد يغلب عليه، فلا يجىء كما ينبغى، وقال المؤلف قلت: الظاهر أن هذه كتب علم ينفع، ولكن قلة العلم أوجبت هذا التفريط، الذى قصد به الخير، وهو شر. فلو كانت كتبه من جنس كتب الثورى، فإن فيها عن ضعفاء، ولم يصح له التمييز قرب الحال. إنما تعليله بجمع الهم، هو الدليل على أنها ليست كذلك، فانظر إلى قلة العلم، ماذا تؤثر مع أهل الخير.

ولقد بلغنا فى الحديث عن بعض من نعظمه، ونزوره، أنه كان على شاطئ دجلة، فبال ثم تيمم، فقيل له الماء قريب منك، فقال: خفت أن لا أبلغه، وهذا وإن كان يدل على قصر الأمل، إلا أن الفقهاء إذا سمعوا مثل هذا الحديث تلاعبوا به، من جهة أن التيمم إنما يصح عند عدم الماء، فإذا كان الماء موجودًا كان تحريك اليدين بالتيمم عبثًا، وليس من ضرورة وجود الماء أن يكون إلى جانب المحدث، بل لو كان على أذرع كثيرة كان موجودًا، فلا فعل للتيمم، ولا أثر حينئذ.

ومن تأمل هذه الأشياء، علم أن فقيهًا واحدًا -وإن قل أتباعه، وخَفَت إذا مات أشياعه- أفضل من ألوف تتمسح العوام بهم تبركًا، ويشيع جنائزهم ما لا يحصى؛ وهل الناس إلا صاحب أثر نتبعه، أو فقيه يفهم مراد الشرع ويفتى به؟ نعوذ بالله من الجهل، وتعظيم الأسلاف تقليدًا لهم بغير دليل! فإن من ورد المشرب الأول رأى سائر المشارب كدرة، والمحنة العظمى مدائح العوام، فكم غرت؛ كما قال على -رضي الله عنه-: ما أبقى خفق النعال وراء الحمقى من عقولهم شيئًا.

ولقد رأينا وسمعنا من العوام، أنهم يمدحون الشخص؛ فيقولون: لا ينام الليل، ولا يفطر النهار، ولا يعرف زوجة، ولا يذوق من شهوات الدنيا شيئًا، قد نحل جسمه، ودق عظمه، حتى أنه يصلى قاعدًا، فهو خير من العلماء الذين يأكلون ويتمتعون ذلك مبلغهم من العلم، ولو علموا أن الدنيا

لو اجتـمعت فى لقمة فـتناولها عالم يفتى عن الله، ويخـبر بشريعتـه، كانت فتوى واحدة منه يرشـد بها إلى الله تعالى خيراً وأفضل من عـبادة ذلك العابد باقى عمـره. وقد قال ابن عبـاس -رضي الله عنهما-: فقيه واحـد أشد على إبليس من ألف عابد(١).

ومن سمـع هذا الكلام فلا يظن أننى أمـدح من لا يعمل بعلمـه، وإنما أمدح العاملين بالعلم، وهم أعلم بمصالح أنفسـهم، فقد كان فيهم من يصلح على خشن العيش كأحـمد بن حنبل، وكان فيهم من يستـعمل رقيق العيش، كسفيان الثورى مع ورعه، ومالك(٢) مع تدينه، والشافعى مع قوة فقهه، ولا ينبغى أن يطالب الإنسان بما يقوى عليه غيـره، فيضعف هو عنه، فإن الإنسان أعرف بصلاح نفسه.

وقـد قالت رابعـة(٣): إن كـان صلاح قلبك فى الفـالوذج فكله، ولا تكونن أيهـا السامع ممن يرى صـور الزهد؛ فرب مـتنعم لا يريد التنعم، وإنما قصـد المصلحة. وليس كل بدن يقـوى على الخشونـة خصوصًـا من قد لاقى الكدّ وأجهده الفكر، أو مـضه الفقر، فإنه إن لم يرفق بنفسـه ترك واجبًا عليه من الرفق.

فهـذه جملة لو شـرحتهـا بذكر الأخبـار والمنقولات لطالت؛ غـير أنى سطرتها على عجل حين جالت فى خاطرى، والله ولى النفع برحمته.

---

(١) موضوع: أخرجه الترمذى (٢٦٨١) فى كتاب: العلم، باب: ما جاء فى فضل الفقه على العبادة، وابن مـاجه (٢٢٢) فى المقدمة، باب: فـضل العلماء والحث على طلب العلم، والحديث قال عنه الشيخ الألبانى فى «ضعيف الجامع» (٣٩٨٧): موضوع.

(٢) هو: إمام دار الهجرة، مـالك بن أنس بن مالك الأصبحى، أبو عبد الله المـدنى، الفقيه، رأس المفتين، وكبير المتثبتين، مات سنة ١٧٩هـ، وقد بلغ التسعين سنة.

(٣) هى: رابعة بـنت إسماعـيل، أم عمـرو، الزاهدة العابدة الخـاشعة، لهـا سيـرة فى جزء للمصنف، توفيت سنة ١٨٠هـ.

أحوال النفس.. وحقيقة العبودية

٢٠- فصل - قد أشكل على الناس أمر النفس وماهيتها، مع إجماعهم على وجودها، ولا يضر الجهل بذاتها مع إثباتها، ثم أشكل عليهم مصيرها بعد الموت، ومذهب أهل الحق أن لها وجودًا بعد موتها، وأنها تنعم وتعذب، قال أحمد بن حنبل: أرواح المؤمنين فى الجنة، وأرواح الكفار فى النار.

وقد جاء فى أحاديث الشهداء: إنها فى حواصل طير خضر تعلق[١] من شجر الجنة[٢]. وقد أخذ بعض الجهلة بظواهر أحاديث النعيم، فقال: إن الموتى يأكلون فى القبور، وينكحون. والصواب من ذلك، أن النفس تخرج بعد الموت إلى نعيم أو عذاب، وأنها تجد ذلك إلى يوم القيامة، فإذا كانت القيامة أعيدت إلى الجسد ليتكامل لها التنعم بالوسائل.

وقوله -فى حواصل طير خضر- دليل على أن النفوس لا تنال لذة إلا بواسطة، إلا أن تلك اللذة لذة مطعم أو مشرب، فأما لذات المعارف والعلوم فيجوز أن تنالها بذاتها، مع عدم الوسائط. والمقصود من هذا المذكور؛ أنى رأيت بعض الانزعاج من الموت، وملاحظة النفس بعين العدم عنده، فقلت لها: إن كنت مصدقة للشريعة فقد أخبرت بما تعرفين، ولا وجه للإنكار، وإن كان هناك ريب فى أخبار الشريعة، صار الكلام فى بيان صحة الشريعة. فقالت: لا ريب عندى، قلت: فاجتهدى فى تصحيح الإيمان وتحقيق التقوى، وأبشرى حينئذ بالراحة من ساعة الموت، فإنى لا أخاف عليك إلا من التقصير فى العمل، واعلمى أن تفاوت النعيم بمقدار درجات الفضائل فارتفعى بأجنحة

---

(١) تعلق: تأكل.

(٢) صحيح: أخرجه الترمذى (١٦٩١) فى كتاب فضائل الجهاد، باب: ما جاء فى ثواب الشهيد من حديث كعب بن مالك بلفظ الكتاب، والحديث صححه الشيخ الألبانى، وهو عند مسلم (١٨٨٧) بلفظ قريب من حديث ابن مسعود -رضي الله عنه-.

الجـد إلى أعلى أبراجـها، واحـذرى من قـانص هوى، أو شرك غـرة، والله الموفق.

٢١- فصل- قلت يومًا فى مجلسى: لو أن الجبـال حملَت ما حملت لعجـزت، فلما عـدت إلى منزلى، قالت لى النفس: كـيف قلت هذا، وربما أوهم الناس أن بك بلاء وأنـت فى عـافيـة فـى نفـسك وأهلك! وهل الذى حـملت إلا التكليف الذى يحـمله الخلق كلهـم؟ فمـا وجـه هذه الشكوى؟ فأجـبتـها: إنى لما عـجزت عمـا حملت، قلت هذه الـكلمة لا على سـبيل الشكوى، ولكن للاستروا‌ح، وقد قال كثير من الصحابة والتابعين قبلى: ليتنا لم نخلق! ومـا ذاك إلا لأثقال عجـزوا عنها، ثم من ظن أن التكاليـف سهلة فما عـرفها. أترى يظن الظان أن التكاليف غسل الأعـضاء برطل من الماء، أو الوقـوف فى محـراب لأداء ركـعتين؟ هـيهـات! هذا أسـهل التكليف، وإن التكليف هو الذى عـجزت عنه الجـبال، ومن جـملته، أننى إذا رأيت الـقدر يجرى بما لا يفهمه العقل، ألزمت الـعقل الإذعان للمقدر، فكان من أصعب التكليف، وخـصوصًـا فيـما لا يعلـم العقل مـعناه كإيلام الأطفـال، وذبح الحيـوان، مع الاعتقاد بأن المقـدر لذلك والآمر به أرحم الراحمين، فـهذا مما يتحير العقل فيه، فيكون تكليف التسليم، وترك الاعتراض.

فكم بين تكليف البدن وتكليف العقل! ولو شـرحت هذا لطال غير أنى أعتذر عما قلته، فأقول عن نفسى -وما يلزمنى حال غيرى- أننى رجل حبب إلى العلم من زمن الطفولة فتشاغلت به، ثم لم يحبب إلىّ فن واحد منه، بل فنونه، ثم لا تقـتصر همـتى فى فن على بعـضه، بل أروم[1] استـقصـاءه، والزمان لا يسع، والعمر أضيق، والشوق يقوى، والعـجز يظهر فيبقى وقوف بعض المطلوبات حسرات.

ثم إن العلم دلنى على معرفة المعبود، وحثنى على خدمته، ثم صاحت بى الأدلة عليـه إليه، فوقـفت بين يديه، فرأيتـه فى نعتـه وعرفـته بصـفاته، وعاينت بصيرتى من ألطافـه ما دعانى إلى الهيمان فى محـبته، وحركنى إلى

(١) أروم: من الفعل (رام)، وهو بمعنى طلب، فأروم بمعنى أطلب.

التخلي لخدمتـه، وصار يملكنى أمر كالوجد كلما ذكـرته، فعادت خلوتى فى خـدمـتى له أحلى عـندى من كل حـلاوة، فكلمـا ملت إلـى الانقطاع عن الشـواغل إلى الخلوة، صـاح بى العلم أين تمضى؟ أتعـرض عنى وأنا سـبب معـرفتك؟ فـأقول له: إنما كنت دليلاً، وبـعد الوصـول يستـغنى عن الدليل، قال: هيهـات! كلما زدت زادت معرفـتـك بمحبوبك، وفهـمت كيف القرب منه، ودليل هذا؛ إنك تعلم غداً أنك اليـوم فى نقصـان، أو ما سـمعته يقول لنبيه -ﷺ-: ﴿وَقُل رَّبِّ زِدْنِي عِلْمًا﴾[1] ثم ألست تبغى القرب منه فـاشتغل بدلالة عباده عليه، فهى حالات الأنبياء -عليهم الصلاة والسلام-، أما علمت أنهم آثروا تعليم الخلق على خلوات التعبد، لعلمهم أن ذلك آثر عند حبيبهم؟ أما قال الرسول -ﷺ- لعلى -رضي الله عنه-: «**لأن يهدى الله بك رجلاً خير لك من حمر النعم؟**»[2].

فلما فهمت صدق هذه المقالة تهوّست على تلك الحالة، وكلما تشاغلت بجمع الناس تفرق همى، وإذا وجدت مرادى من نفعهم ضعت أنا، فأبقى فى حيز التـحير متـردداً، لا أدرى على أى القدمين أعتمـد، فإذا وقفت متـحيراً صـاح العلم: قم لكسب العـيال، وادأب فى تحـصـيل ولد يذكر الله، فـإذا شرعت فى ذلك قلص ضرع الدنيا وقت الحلب، ورأيت باب المعاش مسدوداً فى وجهى، لأن صناعة العلم شغلتنى عـن تعلم صناعة، فإذا التفت إلى أبناء الدنيا، رأيتهم لا يبيعون شيئًـا من سلعها إلا بدين المشترى أو ليت من نافقهم أو رايأهم نال من دنيـاهم؛ بل ربما ذهب دينه ولم يحـصل مـراده، فإن قـال الضجر: اهرب. قال الشرع: «كـفى بالمرء إثمًا أن يضيع من يقوت»[3]، وإن

(١) سورة طه: ١١٤.

(٢) صحيح. أخـرجه البخارى (٣٠٠٩) فى كتاب الجـهاد، باب: فضل من أسلم على يديه رجل، ومـسلم (٢٤٠٦) فى كتـاب فضـائل الصحـابة، باب: من فضـائل على بن أبى طالب -رضي الله عنه- من حديث سهل بن سعد -رضي الله عنه-.

(٣) حسن: أخـرجه أبو داود (١٦٩٢) فى كتاب الزكـاة، باب: فى صلة الرحم، من حديث عبد الله بن عمرو -رضي الله عنهما-.

والحديث حسنه الشيخ الألبانى، وهو فى صحيح مسلم (ح٩٦٦) بلفظ: «كفى بالمرء إثمًا أن يحبس عمن يملك قوته» من حديث ابن عمرو أيضًا.

قال العزم: انفـرد. قال: فكيف بمن تعول؟ فغاية الأمـر أننى أشرع فى التقلل من الدنيا، وقد ربيت فى نعيمها، وغذيت بلبانها، ولطف مزاجى فوق لطف وضعه بالعادة. فـإذا غيرت لباسى وخشنت مطعمى، لأن الـقوت لا يحتمل الانبساط نفر الطبع لفراق العادة، فحل المرض فقطع عن واجبات، وأوقع فى آفات. ومعلوم أن لين اللقمة بعد التحصيل من الوجوه المستطابة وتخشينها لمن لم يألف سعيًا فى تلف النفس؛ فـأقول: كيف أصنع وما الذى أفعل؟ وأخلو بنفسى فى خلواتى وأتزيد من البكاء على نقص حـالاتى، أقول: أصف حال العلماء وجسمى يضـعف عن إعادة العلم، وحال الزهاد وبدنى لا يقوى على الزهد.

وحال المحبين، ومخالطة الخلق تشـتت همى، وتنتقش صور المحبوبات من الهوى فى نفسى؛ فتـصدأ مرآة قلبى، وشجرة المحبـة تحتاج إلى تربية فى تربة طيـبـة، لتـسقى مـاء الخلوة من دولاب الفكـرة، وإن آثرت التكسب لم أطق، وإن تعـرضت لأبنـاء الدنيـا مع أن طبـعى الأنفـة مـن الذل، وتدينى يمنعنى، فلا يبقى للميل مع هذيـن الجاذبين أثر. ومخالطة الخلق تؤذى النفس مع الأنفاس، ولا تحقيق التوبة أقـدر عليه، ولا نيل مرتبة من علم أو عمل أو محبة يصح لى. فإذًا رأيتنى كما قال القائل:

ألقاه فى الماء مكتوفًا وقال له　　　إياك إيـاك أن تبـــتلَ بـالماء

تحيرت فى أمرى، وبكـيت على عمرى، وأنادى فى فلوات خلواتى بما سمعته من بعض العوام وكأنه وصف حالى:

واحسـرتى كم أدارى فيك تعشيرى　　　مـثل الأسيـر بلا حيل ولا سيـرى
ما حيلتى فى الهوىٰ قد ضاع تدبيرى　　　لما شكلت جنـاحى قلت لى طيـرى

٢٢- فصل- تأمل أمر الدنيـا والآخرة فوجـدت حوادث الدنيا حسـية طبعية، وحوادث الآخرة إيمانية يقينية، والحسيات أقوى جذبًا لمن لم يقو علمه ويقـينه، والحـوادث إنما تبـقى بكثـرة أسـبابهـا، فـمـخـالطة الناس، ورؤية المستحسنات، والتعرض بالملذوذات، يقوى حوادث الحس.

والعزلة والفكر، والنظر فى العلم يقوي حوادث الآخرة، ويبين هذا بأن الإنسان إذا خرج يمشى فى الأسواق ويبصر زينة الدنيا ثم دخل إلى المقابر فتفكر ورقّ قلبه فإنه يحس بين الحالتين فرقًا بينًا، وسبب ذلك التعرض بأسباب الحوادث.

فعليك بالعزلة والذكر والنظر فى العلم، فإن العزلة حمية والفكر والعلم أدوية. والدواء مع التخليط لا ينفع، وقد تمكنت منك أخلاط المخالطة للخلق، والتخليط فى الأفعال؛ فليس لك دواء إلا ما وصفت لك، فأما إذا خالطت الخلق وتعرضت للشهوات، ثم رمت(١) صلاح القلب رمت الممتنع.

٢٣- فصل - تأملت حرص النفس على ما منعت منه، فرأيت حرصها يزيد على قدر قوة المنع، ورأيت فى السرب الأول أن آدم -عليه السلام- لما نهى عن الشجرة حرص عليها مع كثرة الأشجار المغنية عنها وفى الأمثال: المرء حريص على ما منع، وتواّق إلى ما لم ينل.

ويقال: لو أمر الناس بالجوع لصبروا، ولو نهوا عن تفتيت البعر لرغبوا فيه، وقالوا: ما نهينا عنه إلا لشيء. وقد قيل:

أحب شيء إلى الإنسان ما منعا

فلما بحثت عن سبب ذلك وجدت سببين:

أحدهما: أن النفس لا تصبر على الحصر فإنه يكفى حصرها فى البدن صورة، فإذا حصرت فى المعنى بمنع؛ زاد طيشها؛ ولهذا لو قعد الإنسان فى بيته شهرًا لم يصعب عليه، ولو قيل له: لا تخرج من بيتك يومًا طال عليه.

والثانى: أنها يشق عليها الدخول تحت حكم، ولهذا تستلذ الحرام، ولا تكاد تستطيب المباح. ولذلك يسهل عليها التعبد على ما ترى وتؤثر، لا على ما يؤثر.

٢٤- فصل - ما زالت نفسى تنازعنى بما يوجبه مجلس الوعظ وتوبة

(١) رمت: طلبت من الفعل (رام).

التـائبين ورؤية الزاهدين إلى الزهد والانقطاع عن الخـلق والانفراد بالآخـرة، فتأملت ذلك فوجدت عمومه من الشيطان؛ فإن الشيطان يرى أنه لا يخلو لى مجلس من خلق لا يحصون، يبكون ويندبون على ذنوبهم، ويقوم فى الغالب جماعة يتوبون ويقطعون شعور الصبا، وربما اتفق خمسون ومائة.

ولقد تاب عندى فى بعض الأيام أكثـر من مائة، وعمومهم صـبيان قد نشأوا على اللعب والانهماك فى المعاصى؛ فكأن الشيطان لبعد غوره فى الشر رآنى اجتـذب إلىّ من اجتـذب منه، فأراد أن يشـغلنى عن ذلك بما يزخـرفه ليخلو هو بمن أجتذبه من يده، ولقد حسّن إلىَّ الانقطاع عن المجالس، وقال: لا يخلو من تصنع للخلق. فـقلت: أما زخرفـة الألفاظ وتزويقهـا، وإخراج المعنى من مسـتحسن العـبارة ففـضيلة لا رذيلة، وأما أن أقـصد الناس بما لا يجوز فى الشرع فمعاذ الله.

ثم رأيته يرينى فى التزهد قطع أسباب؛ ظاهرها الإباحة من الاكتساب. فقلت له: فإن طاب لى الزهد، وتمكنت من العزلة، فنفـد ما بيدى أو احتاج بعض عائلتى، ألست أعود القـهقرى؟ فدعنى أجمع مـا يسد خلتّى ويصوننى عن مسـألة الناس، فإن مدّ عمـرى كان نعم السبب؛ وإلا كـان للعائلة، ولا أكون كراكب أراق ماءه لرؤية سراب، فلما ندم وقت الفوات لم ينتفع بالندم، وإنما الصواب توطئة المضجع قبل النوم، وجـمع المال الساد للخلة قبل الكبر، أخذاً بالحزم، وقد قال الرسول -ﷺ-: «**لأن تترك ورثتك أغنياء خير لك من أن تتـركـهم عـالة يتكفـفـون الناس**»[1]. وقال: «**نعم المال الصـالح للرجل الصالح**»[2].

وأما الانقطاع فـينبغى أن تكون العـزلة عن الشر لا عن الخيـر، والعزلة عن الشر واجبة على كل حال.

---

(١) صحيح: أخرجه البخارى (١٢٩٦) فى كتاب الجنائز، باب: رثى النبى -ﷺ- خزامة بن سعد، ومسلم (١٦٢٨) فى كتاب الوصية، باب: الوصية بالثلث من حديث سعد بن أبى وقاص -رضي الله عنه-.

(٢) أخرجه الإمام أحمد (٤/ ١٩٧).

وأما تعليم الطالبين وهداية المريدين فإنه عبادة العالم. وإن من تفضيل بعض العلماء إيثاره للتنفل بالصلاة والصوم، عن تصنيف كتاب، أو تعليم علم ينفع لأن ذلك بذر يكثر ريعه، ويمتد زمان نفعه.

وإنما تميل النفس إلى ما يزخرفه الشيطان من ذلك لمعنيين: أحدهما: حب البطالة لأن الانقطاع عندها أسهل. والثانى: لحب المدحة، فإنها إذا توسمت بالزهد كان ميل العوام إليها أكثر، فعليك بالنظر فى السرب الأول، فكن مع السرب المقدم؛ وهم الرسول -ﷺ- وأصحابه -رضى الله تعالى عنهم-؛ فهل نقل عن أحد منهم ما ابتدعه جهلة المتزهدين والمتصوفة من الانقطاع عن العلم؟ والانفراد عن الخلق، وهل كان شغل الأنبياء إلا معاناة الخلق، وحثهم على الخير ونهيهم عن الشر؟ إلا أن ينقطع من ليس بعالم بقصد الكف عن الشر، فذاك فى مرتبة المحتمى يخاف شر التخليط؛ فأما الطبيب العالم بما يتناول فإنه ينتفع بما يناله.

٢٥- فصل - تأملت المراد من الخلق فإذا هو الذل واعتقاد التقصير والعجز، ومثلت العلماء والزهاد العاملين صنفين، فأقمت فى صف العلماء مالكًا وسفيان وأبا حنيفة[١] والشافعى وأحمد، وفى صف العباد مالك بن دينار ورابعة ومعروفًا الكرخى وبشر بن الحارث؛ فكلما جد العباد فى العبادة وصاح بهم لسان الحال: عباداتكم لا يتعداكم نفعها وإنما يتعدى نفع العلماء وهم ورثة الأنبياء، وخلفاء الله فى الأرض وهم الذين عليهم المعول، ولهم الفضل، إذا أطرقوا وانكسروا وعلموا صدق تلك الحال.

وجاء مالك بن دينار إلى الحسن يتعلم منه ويقول: الحسن أستاذنا، وإذا رأى العلماء لهم بالعلم فضلاً صاح لسان الحال بالعلماء: وهل المراد من العلم إلا العمل؟

---

(١) هو: إمام الفقهاء، النعمان بن ثابت الكوفى، أبو حنيفة النعمان، فقيه مشهور، وهو أحد الأئمة الأربعة المشهورين، مات سنة ١٥٠هـ، وله ٧٠ سنة.

وقـال أحمـد بن حنبل: وهل يراد بالعلم إلا لما وصل إليـه معـروف؟ وصح عن سفيان الثورى قال: وددت أن يدى قطعت ولم أكتب الحديث.

وقالت أم الدرداء لرجل: هل عملت بما علمت؟ قال: لا. قالت: فلم تستكثـر من حجة الله عليك؟ وقال أبو الـدرداء: ويل لمن لم يعلم ولم يعمل مرة، وويل لمن علم ولم يـعمل سبـعين مرة. وقال الفـضيل: يغفـر للجاهل سبعون ذنبًا قبل أن يغفر لـلعالم ذنب واحد؛ فما يبلغ من الكل قوله تعالى: ﴿أَفَمَن يَعْلَمُ أَنَّمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ الْحَقُّ كَمَنْ هُوَ أَعْمَى﴾(١).

وجاء سفيان إلى رابعة: فجلس بين يديهـا ينتفع بكلامها، فدل العلماءَ العلم على أن المقصود منه العـمل به، وأنه آلة فانكسروا واعترفوا بالتـقصير؛ فحصل الكل على الاعتراف والذل، فاستخرجت المعرفة منهم حقيقة العبودية باعترافهم؛ فذلك هو المقصود من التكليف.

٢٦- فصل - تأملت قوله تعالى: ﴿يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ﴾(٢). فإذا النفس تأبى إثبات محبة للخالق توجب قلقًا، وقالت محبته طاعته فتدبرت ذلك فإذا بها قد جهلت ذلك لغلبة الحس، وبيان هذا: أن محبة الحس لا تتعدى الصور الذاتية، ومـحبة العلم والعـمل ترى الصور المعنوية فتـحبها؛ فـإنا نرى خلقًا يحبـون أبا بكر -رضي الله عنه-، وخلقًا يحبون على بن أبى طالـب -رضي الله عنه-، وقومًا يتعصبون لأحمـد بن حنبل، وقومًا للأشعرى(٣)، فيقتـتلون ويبذلون النفوس فى ذلك وليسوا ممن رأى صور القوم، ولا صـور القوم توجب المحبة؛ ولكن لما تصورت لهم المعانى فدلتـهم على كمال القوم فى العلوم، وقع الحب لتلك

---

(١) سورة الرعد: ١٩.

(٢) سورة المائدة: ٥٤.

(٣) هو: إمـام المتكلمين، أبو الحسن، على بن إسمـاعـيل بن أبى بشر الأشـعـرى اليمـانى البصرى، كـان عجبًا فى الذكاء وقوة الفـهم، ولما برع فى معرفة الاعتـزال، كرهه وتبرأ منه، وصعد للناس فتاب إلى الله تعالى، ثم أخذ يرد على المعتزلة ويهتك عوارهم، مات ببغداد سنة ٣٢٤هـ.

الصور التى شوهدت بأعين البصائر، فكيف بمن ضيَّع تلك الصور المعنوية وأبذلها.

وكيف لا أحب من وهب لى ملذوذات حسى، وعرفنى ملذوذات علمى، فإن التذاذى بالعلم وإدراك العلوم أولى من جميع اللذات الحسية، فهو الذى علمنى، وخلق لى إدراكًا وهدانى إلى ما أدركته، ثم إنه يتجلى لى فى كل لحظة فى مخلوق جديد أراه فيه بإتقان ذلك الصنع وحسن ذلك المصنوع. فكل محبوباتى منه وعنه وبه، الحسية والمعنوية، وتسهيل سبل الإدراك به، والمدركات منه، وألذ من كل لذة عرفانى له، فلولا تعليمه ما عرفته، وكيف لا أحب من أنا به، وبقائى منه، وتدبيرى بيده، ورجوعى إليه، وكل مستحسن محبوب هو صنعه وحسنه وزينه وعطف النفوس إليه، ورجوعى إليه، فكذلك الكامل القدرة أحسن من المقدور، والعجيب الصنعة أكمل من المصنوع، ومعنى الإدراك أحلى عرفانًا من المدرك، ولو أننا رأينا نقشًا عجيبًا لاستغرقنا تعظيم النقاش وتهويل شأنه، وظريف حكمته عن حب المنقوش، وهذا مما تترقى إليه الأفكار الصافية إذا خرق نظرها الحسيات ونفذ إلى ما ورائها؛ فحينئذ تقع محبة الخالق ضرورة.

وعلى قدر رؤية الصانع فى المصنوع يقع الحب له. فإن قوى أوجب قلقًا وشوقًا، وإن مال بالعارف إلى مقام الهيبة أوجبت خوفًا، وإن انحرف به إلى تلمح الكرم أوجب رجاء قويًا، ﴿قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَّشْرَبَهُمْ﴾(١).

٢٧- فصل - تأملت حالاً عجيبة، وهى أن الله سبحانه وتعالى قد بنى هذه الأجسام متقنة على قانون الحكمة فدل بذلك المصنوع على كمال قدرته، ولطيف حكمته؛ ثم عاد فنقضها فتحيرت العقول بعد إذعانها له بالحكمة فى سر ذلك الفعل. فأعلمت أنها ستعاد للمعاد وإن هذه البنية لم تخلق إلا لتجوز فى مجاز المعرفة، وتتجر فى موسم المعاملة، فسكنت العقول لذلك.

---

(١) سورة البقرة: ٦٠.

ثم رأت أشـياء من هذا الجنس أظرف منه، مـثل اختـرام شاب مـا بلغ بعض المقـصـود بنيـانه، وأعـجـب من ذلك أخـذ طفلٍ مـن أكف أبوين يتململان(١)، ولا يظهر سـر سلبه والله الغنى عن أخذه، وهمـا أشد الخلق فقرًا إلى بقائه. وأظرف منه إبقاء هرم لا يدرى مـعنى البقاء، وليس له فيه إلا مجرد أذى. ومن هذا الجنس تقتيـر الرزق على المؤمن الحكيم، وتوسعته على الكافر الأحمق. فـى نظائر لهذه المذكورات يتحـير العقل فى تعليلها، فـيبقى مبهوتًا.

فلم أزل أتلمح جملة التكـاليف، فإذا عجزت قـوى العقل عن الاطلاع على حكمة ذلك وقد ثبت لها حكمة الفاعل، علمت قصورها عن درك جمع المطلوب فأذعنت مـقرة بالعجـز. وبذلك يؤدى مفـروض تكليفهـا، فلو قيل للعقل: قد ثبت عندك حكمة الخالق بما بنى أفـيجوز أن ينقدح فى حكمته أنه نقض؛ لقال: لأنى عرفت بالبـرهان أنه حكيم، وأنا أعجز عن إدراك العلل، فأسلّم على رغمى مقرًّا بعجزى.

(١) يتململان: يتألمان من ألم الفراق، ولا يستـقران على فراش من الوجع، كأنهما على ملة، وهى الرماد الحار.

حكمة النكاح.. والصبر عن المعاصى

٢٨- فصل - تأملت فى فوائد النكاح ومعانيه وموضوعه. فرأيت أن الأصل الأكبر فى وضعه وجود النسل، لأن هذا الحيوان لا يزال يتحلل ثم يخلف المتحلل الغذاء، ثم يتحلل من الأجزاء الأصلية ما لا يخلفه شىء. فإذا لم يكن بدّ من فنائه، وكان المراد امتداد أزمان الدنيا جعل النسل خلفًا عن الأصل، ولما كانت صورة النكاح تأباها النفوس الشريفة من كشف العورة وملاقاة ما لا يستحسن لنفسه، جعلت الشهوة تحث ليحصل المقصود؛ ثم رأيت هذا المقصود الأصلى يتبعه شىء آخر، وهو استفراغ هذا الماء الذى يؤذى دوام احتقانه[1]، فإن المنى ينفصل من الهضم الرابع فهو من أصفى جوهر الغذاء، وأجوده، ثم يجتمع فهو أحد الذخائر للنفس؛ فإنها تدّخر لبقائها وقوتها الدم، ثم المنى، ثم تدّخر النفل الذى هو من أعمدة البدن كأنه لخوف عدم غيره.

فإذا زاد اجتماع المنى أقلق على نحو إقلاق البول للحاقن، إلا أن إقلاقه من حيث المعنى أكثر من إقلاق البول من حيث الصورة، فتوجب كثرة اجتماعه وطول احتباسه أمراضًا صعبة؛ لأنه يترقى من بخاره إلى الدماغ فيؤذى -وربما أحدث سُمِّيَّةً- ومتى كان المزاج سليمًا فالطبع يطلب بروز المنى إذا اجتمع كما يطلب بروز البول، وقد تنحرف بعض الأمزجة فيقل اجتماعه عنده فيندر طلبه لإخراجه، وإنما نتكلم عن المزاج الصحيح.

فأقول: قد بينت أنه إذا وقع به احتباسه أوجب أمراضًا وجدد أفكارًا رديئة، وجلب العشق والوسوسة إلى غير ذلك من الآفات، وقد نجد صحيح المزاج يخرج ذلك إذا اجتمع وهو بعد متقلقل، فكأنه الآكل الذى لا يشبع

(١) الاحتقان: الاحتباس.

فبحثت عن ذلك فرأيته وقوع الخلل فى المنكوح إما لدمامته، وقبح منظره، أو لآفة فيه، أو لأنه غـير مطلوب للنفس فحينئذ يخرج منه ويبـقى بعضه، فإذا أردت معرفة ما يدلك على ذلك فقس مـقدار خروج المنى فى المحل المشتهى، وفى المحل الذى هو دونه، كـالوطء بين الفـخذين بـالإضافـة إلى الوطء فى محل النكاح، ولوطء البكر بالإضـافة إلى وطء الثيب. فعلم حينئـذ أن تخير المنكوح يستـقصى فضـول المنى، فيحـصل للنفس كمال اللذة، لموضع كـمال بروز الفضول.

ثم قد يؤثر هذا فى الولد أيضًا فإنه إذا كان من شابين قد حبسا أنفسهما عن النكاح مديدة[1] كان الـولد أقوى منه من غـيرهمـا، أو من المدمن على النكاح فى الأغلـب، ولهذا كـره نكـاح الأقارب لأنـه مما يقـبض النفس عن انبساطها، يتخيل الإنسـان أنه ينكح بعضه، ومدح نكاح الغرائب لهذا المعنى، ومن هذا الفن يحصل كـثير من المقصود من دفع هذه الفـضول المؤذية بمنكوح مستجد، وإن كان مستقبح الصورة ما لا يحصل به فى العادة.

ومثال هذا أن الطاعم إذا امتلأ خبزًا ولحمًا حيث لم يبق فيه فضل لتناول لقمة، قـدمت إليه الحلوى فيتناول، فلو قدم أعـجب منها لتناول، لأن الجدة لها مـعنى عجـيب. وذلك أن النفس لا تميل إلى مـا ألفت، وتطلب غيـر ما عرفت، ويتـخايل لها فى الجديـد نوع مراد؛ فإذا لم تجد مـرادها صدفت إلى جديد آخر، فكأنهـا قد علمت وجود غرض تام بلا كدر، وهى تتخـايله فيما تراه.

وفى هذا المعنى دليل مـدفون على البعث؛ لأن خلق همـته متـعلقة بلا متعـلقٍ نوع عبث فافهم هذا، فـإذا رأت النفس عيوب ما خـالطت فى الدنيا عـادت تطلب جـديداً، ولذلك قـال الحكمـاء: العشـق العمى عن عـيـوب المحبـوب؛ فمن تأمل عـيوبه سـلا؛ ولذلك يستـحب للمرأة أن لا تبـعد عن زوجهـا بعدًا تنسيه إياهـا، ولا تقرب منه قربًا يملهـا، أو يظهر لديه مكنونات

(١) كذا بالأصل ولعلها: مدة مديدة.

عيوبهـا، وينبغى له أن لا يطلع منها على عورة، وتجتـهد فى أن لا يشم منها إلا طيب ريح، إلى غير ذلك من الخـصال التى تستعملها النسـاء الحكيمات؛ فإنهن يعلمن ذلك بفطرهن من غـير احتياج، فأمـا الجاهلات فإنهن لا ينظرن فى هذا فيتعجل التفات الأزواج عنهن.

فمن أراد نجابة الولد وقضاء الوطر فليتخير المنكوح إن كان زوجة فلينظر إليها فإذا وقعت فى نفسه فليتزوجها، ولينظر فى كيفية وقوعها فى نفسه. فإن علامـة تعلق حبها بالقلـب أنه لا يكاد يصرف الطرف عنه[1]، فإذا انصرف الطرف قلق القلب بتقاضى النظرة؛ فهـذا للغاية، ودونه مراتب على مقاديرها يكون بلوغ الأغراض.

وإن كان جارية تشترى فلينظر إليها أبلغ من ذلك النظر، ومن قدر على مناطقة المرأة أو مكالمتها بما يوجب التنبيـه، ثم ليرى ذلك منها فإن الحسن فى الفم والعينين.

وقد نص أحمد: على جواز أن يبصر الرجل من المرأة التى يريد نكاحها ما هو عـورة يشيـر إلى ما يزيد على الوجـه، ومن أمكنه أن يؤخر العـقد أو شراء الجارية لينظر كـيف توقان قلبه فإنه لا يخفى عـلى العاقل توقان النفس لأجل المستـجد، وتوقانهـا لأجل الحب، فإذا رأى قلق الحب أقدم، فـإنه قد أخبرنا مـحمد بن عبـد الباقى قال: أخبرنا حـمد بن أحمد قـال: أخبرنا أبو نعيم، قـال: حدثنا سليمان بن أحـمد قال: حدثنا عطاء الخـراسانى[2] قال: مكتوب فى التوراة كل تزويج على غير هوى حسرة وندامة إلى يوم القيامة.

ثم ينبغى للمتـخير أن يتفرس الأخلاق فإنهـا من الخفى فإن الصورة إذا خلت من المعنى كـانت كخضـراء الدمن، فإن نجابة الـولد مقصـودة، وفراغ النفس من الاهتـمام بود مـحبوس أصل عظيم، يـوجب إقبـال القلب على المهمات؛ ومن فرغ من المـهمات العارضة أقبل على المهمـات الأصلية؛ ولهذا

---

(١) لعل الأصح: عنها.

(٢) هو: عطاء بن أبى مسلم، أبو عثمان الخراسانى، صدوق يهم كثيراً، مات سنة ١٣٥هـ.

جاء في الحديث: «**لا يقضي القاضي بين اثنين وهو غضبان**»(١)، «**وإذا وضع العشاء وحضرت العشاء فابدءوا بالعشاء**»(٢).

فمن قدر على امرأة صالحة في الصورة والمعنى فليغمض عن عوراتها، ولتجتهد هي في مراضيه من غير قرب يمل، ولا بعد ينسى، ولتقدم على التصنع له يحصل الغرضان منها الولد وقضاء الوطر -مع الاحتراز الذي أوصيت به- تدوم الصحبة ويحصل الغناء بها عن غيرها.

فإن قدر على الاستكثار فأضاف إليها سواها عالـمًا أنه يبلغ الغرض الذي يفرغ قلبه زيادة تفريغ كان أفضل لحاله، فإن خاف من وجود الغيرة ما يشغل القلب الذي قد اهتممنا بجمع همته، أو خاف وجود مستحسنة تشغل قلبه عن ذكر الآخرة، أو يطلب منه ما يوجب خروجه عن الورع، ويدخل فيما أوصيت به أنه يبعد في المستحسنات العفاف، فليبالغ الواجد لهن في حفظهن وسترهن، فإن وجد ما لا يرضيه عجل الاستبدال، فإنه سبب السلو(٣)، فإن قدر على الاقتصار فإن الاقتصار على الواحدة أولى، فإن كانت على الغرض قنع، وإن لم تكن استبدل، نكاح المرأة المحبوبة يستفرغ الماء المجتمع، فيوجب نجابة الولد وتمامه، وقضاء الوطر بكماله.

ومن خاف وجود الغيرة فعليه بالسراري(٤) فإنهن أقل غيرة، والاستظراف لهن أمكن من استظراف الزوجات، وقد كان جماعة يمكنهم الجمع وكان النساء يصبرن فكان لداود -عليه الصلاة والسلام- مائة امرأة،

---

(١) صحيح: أخرجه البخاري (٧١٥٨) في كتاب: الأحكام، باب: هل يقضي القاضي أو يفتي وهو غضبان، ومسلم (١٧١٧) في كتاب الأقضية، باب: كراهة قضاء القاضي وهو غضبان من حديث أبي بكرة -رضي الله عنه-.

(٢) صحيح: أخرجه البخاري (٦٧١) في كتاب الأذان، باب: إذا حضر الطعام وأقيمت الصلاة. فابدءوا بالعشاء، ومسلم (٥٥٨) في كتاب المساجد ومواضع الصلاة، باب: كراهة الصلاة بحضرة الطعام من حديث عائشة -رضي الله عنها-. وهو في الصحيحين من حديث أنس وابن عمر.

(٣) السلو: الصبر.

(٤) السراري: جمع سرية، وهي الجارية العبدة.

ولسليمان -عليه الصلاة والسلام- ألف امرأة، وقد علم حال نبينا -ﷺ- وأصحابه، وقد كان لأمير المؤمنين على -رضي الله عنه- أربع حرائر، وسبع عشرة سرية، وتزوج ابنه الحسن -رضي الله عنه- بنحو من أربع مائة إلى غير هذا مما يطول ذكره. فافهم ما أشرت إليه تفز به إن شاء الله.

٢٩- فصل - كل شيء خلقه الله تعالى فى الدنيا فهو أنموذج فى الآخرة، وكل شيء يجرى فيها أنموذج ما يجرى فى الآخرة؛ فأما المخلوق منها فقال ابن عباس -رضي الله عنهما-: ليس فى الجنة شيء يشبه ما فى الدنيا إلا الأسماء، وهذا لأن الله تعالى شوَّق بنعيم إلى نعيم، وخوَّف بعذاب من عذاب، فأما ما يجرى فى الدنيا فكل ظالم معاقب فى العاجل على ظلمه قبل الآجل وكل مذنب ذنبًا، وهو معنى قوله تعالى: ﴿مَن يَعْمَلْ سُوءًا يُجْزَ بِهِ﴾[1].

وربما رأى العاصى سلامة بدنه وماله فظن أن لا عقوبة، وغفلته عما عوقب به عقوبة، وقد قال الحكماء: المعصية بعد المعصية عقاب المعصية، والحسنة بعد الحسنة ثواب الحسنة، وربما كان العقاب العاجل معنويًا كما قال بعض أحبار بنى إسرائيل: يا رب كم أعصيك ولا تعاقبنى، فقيل له: كم أعاقبك وأنت لا تدرى، أليس قد حرمتك حلاوة مناجاتى!

فمن تأمل هذا الجنس من المعاقبة وجده بالمرصاد، حتى قال وهب بن الورد[2]: وقد سئل أيجد لذة الطاعة من يعصى؟ فقال: ولا من همّ؛ فرب شخص أطلق بصره فحرم اعتبار بصيرته، أو لسانه فحرم صفاء قلبه، أو آثر شبهة فى مطعمه فأظلم سره، وحرم قيام الليل وحلاوة المناجاة إلى غير ذلك، وهذا أمر يعرفه أهل محاسبة النفوس.

وعلى ضده يجد من يتقى الله تعالى من حسن الجزاء على التقوى

---

(١) سورة النساء: ١٢٣.

(٢) كذا بالأصل، والصواب: وهيب بن الورد، القرشى المكى، أبو عثمان أو أبو أمية، ثقة عابد، لم أقف له على تاريخ وفاته.

عاجلاً، كما فى حديث أبى أمامة عن النبى -ﷺ- يقول الله تعالى: **«النظرة إلى المرأة سهم مسموم من سهام الشيطان، مـن تركه ابتغاء مرضاتى آتيته إيمانًا يجد حـلاوته فى قلبه»**(١) فهذه نبـذة من هذا الجنس تنبه على مغفلهـا، فأما المقابلة الصـريحة فى الظاهر فقل أن تحتـبس، ومن ذلك قول النبى -ﷺ-: **«الصبحة(٢) تمنع الرزق(٣)، وإن العبد ليحرم الرزق بالذنب يصيبه»**(٤).

وقد روى المفسـرون: أن كل شخص من الأسباط جـاء باثنى عشر ولدًا وجاء يوسف بأحد عشر بالهمّة(٥). ومثل هذا إذا تأمله ذو بصيرة رأى الجزاء وفهم؛ كـما قال الفضـيل: إنى لأعصى الله عز وجل فـأعرف ذلك فى خلق دابتى وجاريتى.

وعن عثمـان النيسابورى: أنه انقطع شـسع نعله فى مضيّه إلى الجـمعة فتعوق لإصلاحه ساعة، ثم قال: إنما انقطع لأنى ما اغتسلت غسل الجمعة.

ومن عجايب الجزاء فى الدنيا أنه لما امتدت أيدى الظلم من إخوة يوسف ﴿وَشَرَوْهُ بِثَمَنٍ بَخْسٍ﴾(٦) امـتـدت أكـفـهم بين يديه بالـطلب، يقـولون: ﴿وَتَصَدَّقْ عَلَيْنَا﴾(٧) ولما صبر هو يوم الهمة ملك المرأة حلالاً، ولما بغت عليه بدعواها: ﴿مَا جَزَاءُ مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوءًا﴾(٨) أنطقـها الحق بقـولها: ﴿أَنَا رَاوَدتُّهُ﴾(٩).

---

(١) ضعيف: ذكره الهيثمى فى «المجمع» (١٢٤٥٧) عن ابن مسعود وقال: رواه الطبرانى وفيه عبد الله بن إسحاق الواسطى، وهو ضعيف.

(٢) الصبحة: نومة الغداة.

(٣) ضعيف جدًّا: كذا قال الألبانى فى «ضعيف الجامع» (٣٥٣١).

(٤) ضعيف: أخرجـه الإمام أحمد فى «مسنده» (٥/٢٧٧، ٢٨٠)، والحاكم فى «مـستدركه» (٨١٤ و ٦٠٣٨)، وابن حـبـان فى «صـحـيحـه» (٨٧٣) من حـديث ثوبان -رضي الله عنه-، والحديث ضعفه الشيخ الألبانى فى «ضعيف الجامع» (١٤٥٢). إلا أن الأرناؤوطى حسن إسناده فى صحيح ابن حبان.

(٥) يقصد: همة يوسف بامرأة العزيز.

(٦) سورة يوسف: ٢٠.

(٧) سورة يوسف: ٨٨.

(٨) سورة يوسف: ٢٥.

(٩) سورة يوسف: ٥١.

ولو أن شخصًا ترك معصية لأجل الله تعالى لرأى ثمرة ذلك، وكذلك إذا فعل طاعة.

وفى الحديث: «**إذا أملقتم فتاجروا الله بالصدقة**» أى عاملوه لزيادة الأرباح العاجلة، ولقد رأينا من سامح نفسه بما يمنع منه الشرع، طلبًا للراحة العاجلة، فانقلبت أحواله إلى التنغص العاجل، وعكست عليه المقاصد.

حكى بعض المشايخ: أنه اشترى فى زمن شبابه جارية قال فلما ملكتها تاقت نفسى إليها فما زلت أسأل الفقهاء لعل مخلوقًا يرخص لى، فكلهم قال: لا يجوز النظر إليها بشهوة، ولا لمسها، ولا جماعها إلا بعد حيضها. قال: فسألتها فأخبرتنى أنها اشتريت وهى حائض. فقلت: قرب الأمر. فسألت الفقهاء فقالوا: لا يعتد بهذه الحيضة حتى تحيض فى ملكه، قال: فقلت لنفسى وهى شديدة التوقان لقوة الشهوة، وتمكن القدرة، وقرب المصاقبة: ما تقولين؟ فقالت: الإيمان بالصبر على الجمر شئت أو أبيت، فصبرت إلى أن حان ذلك فأثابنى الله تعالى على ذلك الصبر بنيل ما هو أعلى منها وأرفع.

الغفلـة.. واليقظة

٣٠- فصل - نظرت فى الأدلة على الحق سبحانه وتعالى فوجدتها أكثر من الرمل، ورأيت من أعـجبهـا أن الإنسان قد يخـفى ما لا يرضـاه الله عز وجل، فـيظهره الله سـبحانه عـليه ولو بعـد حين، وينطق الألسنة به وإن لم يشاهده الناس، وربما أوقع صاحبه فى آفة يفـضحه بها بين الخلق فيكون جوابًا لكل مـا أخفى من الذنوب، وذلك ليـعلم الناس أن هنالك من يجـازى على الزلل، ولا ينفع من قدره وقدرته حجاب ولا استتار، ولا يضاع لديه عمل.

وكذلك يخفى الإنســان الطاعة فتظهر عليه ويتحدث الـناس بها وبأكثر منهـا، حتى أنهم لا يعـرفون له ذنـبًا ولا يذكـرونه إلا بالمحاسن، ليـعلم أن هنالك ربًّا لا يضـيع عمل عــامل، وإن قلوب الناس لتعـرف حال الشـخص وتحبه، أو تأباه، وتذمـه، أو تمدحه، وربما لم يتحقق مـا بينه وبين الله تعالى فإنه يكفيه كل هم، ويدفع عنه كل شرٍّ.

وما أصلح عـبد مـا بينه وبين الخلق دون الحق، إلا انعكس مقـصوده، وعاد حامده ذامًا.

٣١- فصل - تأملت الأرض ومن عليـها بعين فكرى، فرأيت خـرابها أكثر من عمرانها، ثم نظرت فى المعمور مـنها، فوجدت الكفار مستولين على أكثـره، ووجدت أهل الإسـلام فى الأرض قليلاً بالإضـافة إلى الكـفار، ثم تأملت المسلمين فرأيت الأكساب قد شغلت جمهورهم عن الرازق، وأعرضت بهم عن العلم الدال عليه.

فالسلطان مشـغول بالأمر والنهى واللذات المعارضة له، ومـياه أغراضه جـارية لا شكر لهـا، ولا يتلقاه أحـد بموعظة بل بالمدحـة التى تقـوى هوى النفس، وإنما ينبغى أن تقاوم الأمراض بأضدادها؛ كمـا قال عمر بن المهاجر:

قال لي عمر بن عبد العزيز[١]: إذا رأيتني قد حدت عن الحق فخذ بثيابي وهزني، قل: مالك يا عمر؟

فأحوج الخلق إلى النصائح والمواعظ السلطان. وأما جنوده فجمهورهم في سكر الهوى، وزينة الدنيا، وقد انضاف إلى ذلك الجهل، وعدم العلم، فلا يؤلمهم ذهب[٢]، ولا ينزعجون من لبس حرير، أو شرب خمر، حتى ربما قال بعضهم: إيش يعمل الجندي، أيلبس القطن؟ ثم أخذهم للأشياء من غير وجهها، فالظلم معهم كالطبع.

وأرباب البوادي قد غمرهم الجهل، وأهل القرى؛ فكذلك تقلبهم في الأنجاس، والتهوين لأمر الصلوات، ربما صلت المرأة منهن قاعدة.

ثم نظرت في التجار فرأيتهم قد غلب عليهم الحرص، حتى لا يرون سوى وجوه الكسب كيف كانت؛ وصار الربا في معاملاتهم فاشيًا، فلا يبالي أحدهم من أين حصلت له الدنيا، وهم في باب الزكاة مفرطون، ولا يستوحشون من نكرها إلا من عصم الله.

ثم نظرت في أرباب المعاش، فوجدت الغش في معاملاتهم عامًّا، والتطفيف والبخس، وهم مع هذا مغمورون بالجهل.

ورأيت عامة من له ولد يشغله ببعض هذه الأشغال طلبًا للكسب قبل أن يعرف ما يجب عليه وما يتأدب به.

ثم نظرت في النساء، فرأيتهن قليلات الدين، عظيمات الجهل، ما عندهن من الآخرة خبر إلا من عصم الله.

---

(١) هو: أمير المؤمنين، عمر بن عبد العزيز بن مروان بن الحكم بن أبي العاص الأموي، أمه أم عاصم بنت عاصم بن عمر بن الخطاب، ولي إمرة المدينة للوليد بن عبد الملك، وكان مع سليمان كالوزير، وولي الخلافة بعده، فعد لعدله مع الخلفاء الراشدين، مات سنة ١٠١هـ، وله ٤٠ سنة، ومدة خلافته سنتان ونصف.

(٢) كذا بالأصل، ولعلها: ذنب.

فقلت: واعجبًا فمن بقى لخدمة الله عز وجل ومعرفته؟ فنظرت فإذا العلماء، والمتعلمون والعباد، والمتزهدون.

فتأملت العباد والمتزهدين فرأيت جمهورهم يتعبد بغير علم، ويأنس إلى تعظيمه، وتقبيل يده وكثر أتباعه، حتى أن أحدهم لو اضطر أن يشترى حاجة من السوق لم يفعل، لئلا ينكسر جاهه، ثم ترتقى بهم رتبة الناموس إلى أن لا يعودوا مريضًا، ولا يشهدوا جنازة، إلا أن يكون عظيم القدر عندهم، ولا يتزاورون، بل ربما ظن بعضهم على بعض، فقد صارت النواميس كالأوثان يعبدونها ولا يعلمون، وفيهم من يقدم على الفتوى بجهل لئلا يختل ناموس التصدر، ثم يعيبون العلماء لحرصهم على الدنيا، ولا يعلمون أن المذموم من الدنيا ماهم فيه، لا تناول المباحات.

ثم تأملت العلماء والمتعلمين؛ فرأيت القليل من المتعلمين من عليه أمارة النجابة، لأن أمارة النجابة طلب العلم للعمل به، وجمهورهم يطلب ما يصيره شبكة للكسب؛ إما ليأخذ قضاء مكان، أو ليصير قاضى بلد، أو قدر ما يتميز به عن أبناء جنسه ثم يكتفى.

ثم تأملت العلماء فرأيت أكثرهم يتلاعب به الهوى ويستخدمه، فهو يؤثر ما يصده العلم عنه، ويقبل على ما ينهاه، ولا يكاد يجد ذوق معاملة الله سبحانه، وإنما همته أن يقول: ألا إن الله لا يخلى الأرض من قائم له بالحجة، جامع بين العلم والعمل، عارف بحقوق الله تعالى، خائف منه، فذلك قطب الدنيا، ومتى مات أخلف الله عوضه، وربما لم يمت حتى يرى من يصلح للنيابة عنه فى كل نائبة، ومثل هذا لا تخلو الأرض منه، فهو فى مقام النبى فى الأمة، وهذا الذى أصفه يكون قائمًا بالأصول، حافظًا للحدود، وربما قلّ علمه أو قلت معاملته؛ فأما الكاملون فى جميع الأدوات فيندر وجودهم، فيكون فى الزمان البعيد منهم واحد.

ولقد سبرت السلف كلهم فأردت أن أستخرج منهم من جمع بين العلم حتى صار من المجتهدين، وبين العمل حتى صار قدوة للعابدين، فلم أر أكثر

من ثلاثة: أولهم الحسن البصرى، وثانيهم سفيان الثورى، وثالثهم أحمد بن حنبل، وقد أفردت لأخبار كل واحد منهم كتابًا، وما أنكر على من ربَّعهم بسعيد بن المسيب[١]، وإن كان فى السلف سادات، إلا أن أكثرهم غلب عليه فن، فنقص من الآخر، فمنهم من غلب عليه العلم، ومنهم من غلب عليه العمل، وكل هؤلاء كان له الحظ الوافر من العلم، والنصيب الأوفى من المعاملة والمعرفة، ولا يؤيس من وجود من يحذو حذوهم، وإن كان الفضل بالسبق لهم. فقد أطلع الله عز وجل الخضر على ما خفى من موسى -عليهما السلام-. فخزائن الله مملوءة وعطاؤه لا يقف على شخص.

ولقد حكى لى عن ابن عقيل أنه كان يقول عن نفسه: أنا عملت فى قارب ثم كسر، وهذا غلط فمن أين له؟ فكم معجب بنفسه كشف له من غيره ما عاد يحقر نفسه على ذلك، وكم من متأخر سبق متقدمًا وقد قيل:

إن الليالى والأيام حاملة وليس يعلم غير الله ما تلد

٣٢- فصل - رأيت ميل النفس إلى الشهوات زائدًا فى المقدار حتى أنها إذا مالت مالت بالقلب والعقل والذهن، فلا يكاد ينتفع بشىء من البدن. فصحت بها يومًا وقد مالت بكليتها إلى شهوة، ويحك قفى لحظة أكلمك كلمات ثم افعلى ما بدا لك. قالت: قل أسمع. قلت: قد تقرر قلة ميلك إلى المباحات من الشهوات. وأما جل ميلك إلى المحرمات. فأنا أكشف لك عن الأمرين، فربما رأيت الحلوين مرين.

أما المباحات من الشهوات: فمطلقة لك ولكن طريقها صعب، لأن المال قد يعجز عنها، والكسب قد لا يحصل معظمها، والوقت الشريف يذهب بذلك. ثم شغل القلب بها وقت التحصيل، وفى حالة الحصول يحذر الفوات. ثم ينغصها من النقص ما لا يخفى على مميز؛ إن كان مطعمًا فالشبع

(١) هو: سعيد بن المسيب بن حزن القرشى المخزومى، أحد العلماء الأثبات الفقهاء الكبار، من كبار طبقة التابعين، قال عنه ابن المدينى: لا أعلم فى التابعين أوسع علمًا منه، مات بعد التسعين، وقد جاوز الثمانين.

يحدث آفـات، وإن كان شخـصًا فللملل أو الفـراق، أو سوء الخلق. ثم ألذ النكاح أكثره إيهانًا للبدن، إلى غير ذلك مما يطول شرحه.

وأما المحـرمات: فيشـتمل[1] على ما أشرنا إليـه من المباحات، ويزيد بإيهان أنها[2] آفة العرض وخوف عقاب الدنيا وفضيحتها، ووعيد الآخرة، ثم الجزع كلما ذكرها التائب.

وفى قوة قـهر الهوى لذة تزيد على كل لـذة، ألا ترى إلى كل مغلوب بالهوى كـيف يكون ذليلاً، لأنه قُهـر؛ بخلاف غالب الهوى فـإنه يكون قوىّ القلب، عزيزًا لأنه قَـهر. فالحذر الحـذر من رؤية المشتهى بعين الحسـن، كما يرى اللص لذة أخذ المال من الحرز، ولا يرى بعـين فكره القطع. وليفتح عين البصيـرة لتأمل العواقب واستحـالة اللذة نغصة، وانقلابها عن كـونها لذة إما لملل أو لغيره من الآفات، أو لانقطاعها بامتناع الحبيب؛ فتكون المعصية الأولى كلقمـة تناولها جـائع، فما ردت كـلب الجوع، بل شهت الطعـام. وليتـذكر الإنسان لذة قـهر الهـوى مع تأمل فوائد الصـبر عنه، فمن وفـق لذلك كانت سلامته قريبة منه.

٣٣- فـصل - خطر لى خــاطر والمجلس قـد طاب، والقـلوب قـد حـضرت، والعـيـون جارية، والرءوس مـطرقة، والنفـوس قـد ندمت على تفريطها، والعزائم قد نهضت لإصلاح شئونها، وألسنة اللوم تعمل فى الباطن على تضييع الحـزم وترك الحذر؛ فقلت لنفسى: مـا بال هذه اليقظة لا تدوم، فإنى أرى النفس واليقظة فى المجلس متصافيـان متصادقان، فإذا قمنا عن هذه التربة، وقعت الغربة، فتأملت ذلك فرأيت أن النفس ما تزال متيقظة، والقلب ما يزال عارفًا، غير أن القواطع كثيرة، والفكر الذى ينبغى استعماله فى معرفة الله سبحانه وتعالى قد كلَّ، مما يستعـمل فى اجتلاب الدنيا، وتحصيل حوائج

---

(١) لعل الأصح: فتشتمل.
(٢) كذا بالأصل.

النفوس، والقلب منغمس فى ذلك، والبدن أسير مستخدم؛ بينما الفكر يجول فى اجتلاب الطعام والشراب والكسوة، وينظر فى صدد ذلك، وما يدّخره لغده وسنته، اهتم بخروج الحدث وتشاغل بالطهارة، ثم اهتم بخروج الفضلات المؤذية -ومنها المنى- فاحتاج إلى النكاح، فعلم أنه لا يصح إلا باكتساب كسب الدنيا.

فتفكر فى ذلك وعمل بمقتضاه، ثم جاء الولد فاهتم به وله، وإذا الفكر عامل فى أصول الدنيا وفروعها، فإذا حضر الإنسان المجلس فإنه لا يحضر جائعًا، ولا حاقنًا، بل يحضر جامعًا لهمته، ناسيًا ما كانَ من الدنيا على ذكره. فيخلو الوعظ بالقلب فيذكره بما ألف، ويجذبه بما عرف، فينهض عمال القلب فى زوارق عرفانه؛ فيحضرون النفس إلى باب المطالبة بالتفريط، ويؤاخذون الحس بما مضى من العيوب، فتجرى عيون الندم، وتنعقد عزائم الاستدراك.

ولو أن هذه النفس خلت عن المعهودات التى وصفتها، لتشاغلت بخدمة باريها، ولو وقعت فى سورة حبه، لاستوحشت عن الكل شغلاً بقربه؛ ولهذا اعتمد الزهاد الخلوات، وتشاغلوا بقطع المعوقات، وعلى قدر مجاهدتهم فى ذلك نالوا من الخدمة مرادهم، كما أن الحصاد على مقدار البذر؛ غير أنى تلمحت فى هذه الحالة -دقيقة- وهو أن النفس لو دامت لها اليقظة لوقعت فيما هو شر من فوت ما فاتها؛ وهو العجب بحالها، والاحتقار بجنسها، وربما ترقت بقوة علمها وعرفانها، إلى دعوى لى، وعندى، وأستحق، فتركها فى حومة ذنوبها تتخبط، فإذا وقفت على الشاطئ قامت بحق ذلة العبودية أولى لها.

هذا حكم الغالب من الخلق، ولذلك شغلوا عن هذا المقام؛ فمن بذر صلح له، فلابد له من هفوة يراقبها عين الخوف من عقابها رفقًا بها، تصح له

عبوديته، وتسلم له عبـادته، وإلى هذا المعنى أشار الحديث الصحيح: «**لو لم تذنبوا لذهب الله بكم وجاء بقوم يذنبون فيستغفرون فيغفر لهم**»[١].

٣٤- فصل - تفكرت فرأيـت أن حفظ المال من المتعين، ومـا يسمـيه جهلة المتزهدين توكلاً من إخراج ما فى اليد ليس المشروع؛ فإن النبى -ﷺ- قال لكعب بن مالك: «**أمسك عليك بعض مالك**»[٢] أو كما قال له. وقال لسـعد: «**لأن تتـرك ورثتك أغنيـاء خيـر مـن أن تتـركـهم عـالة يتكفـفـون الناس**»[٣]. فإن اعترض جاهل فقال: فقد جاء أبو بكر -رضي الله عنه- بكل ماله!

فالجواب: أن أبا بكر صاحب جـأش وتجارة، فإذا أخرج الكل أمكنه أن يستدين عليه، فيتمعـيش؛ فمن كان على هذه الصفة لا أذم إخراجه لماله وإنما الذم متطرق إلى من يخرج مـاله وليس من أرباب المعائش أو يكون من أولئك إلا أنه ينقطع عن المعاش فـيبقى كلاًّ[٤] على الناس، يستـعطيهم ويعتـقد أنه على الفتـوح، وقلبه متـعلق بالخلق، وطمعـه ناشب فيهم، ومـتى حرك بابه نهض قلبه، وقال: رزق قـد جاء، وهذا أمر قبيح بمـن يقدر به على المعاش، وإن لم يقدر كان إخراج ما يملـك أقبح، لأنه يتعلق قلبه بما فى أيدى الناس، وربما ذل لبـعـضـهم، أو تزين له بالزهد، وأقل أحـواله أن يزاحم الفـقـراء والمكافيف والزمنى فى الزكاة.

فعليـك بالشرب الأول[٥]، فانظر هل فـيهم من فـعل ما يفعـله جهلة المتزهدين، وقد أشـرت فى أول هذا إلى أنهم كسبوا أو خلفـوا الأموال، فرد

---

(١) صحيح: أخرجه مسلم (٢٧٤٩) فى كتاب: التـوبة، باب: سقوط الذنوب بالاستغفار من حديث أبى هريرة -رضي الله عنه-.

(٢) صحيح: أخرجه البخـارى (٢٧٥٧) فى كتاب: الوصايا، باب: إذا تصدق أو وقف بعض ماله. . .، ومسلم (٢٧٦٩) فى كتاب: التـوبة، باب: حديث توبة كعب بن مالك، من حديث كعب بن مالك -رضي الله عنه-.

(٣) صحيح: وقد تقدم.

(٤) كلاًّ: أى عبئًا.

(٥) أى: الرعيل الأول.

إلى الشرب الأول الذى لم يطرق فإنه الصافى، واحذر من المشارع المطروقة بالآراء الفاسدة الخارجة فى المعنى كالكمين على الشريعة، مذعنة بلسان حالها أن الشرع ناقص يحتاج إلى ما تمت به بما تمت به.

واعلم وفقك الله تعالى أن البدن كالمطية، ولابد من علف المطية، والاهتمام به؛ فإذا أهملت ذلك كان سببًا لوقوفك عن السير.

وقد رؤى سلمان(١) -رضي الله عنه-: يحمل طعامًا على عاتقه، فقيل له: أتفعل هذا وأنت صاحب رسول الله -صلى الله عليه وسلم-؟ فقال: إن النفس إذا أحرزت قوتها اطمأنت.

وقال سفيان الثورى: إذا حصَّلت قوت شهر فتعبد، وقد جاء أقوام ليس عندهم سوى الدعاوى فقالوا: هذا شك فى الرازق والثقة به أولى؛ فإياك وإياهم.

وربما ورد مثل هذا عن بعض صدور الزهاد من السلف فلا يعول عليه، ولا يهولنك خلافهم. فقد قال أبو بكر المروزى: سمعت أحمد بن حنبل يرغب فى النكاح؛ فقلت له: قال ابن أدهم. فما تركنى أتمم حتى صاح علىَّ، وقال: أذكر لك حال رسول الله -صلى الله عليه وسلم- وأصحابه، وتأتينى ببنيات الطريق.

واعلم وفقك الله: أنه لو رفض الأسباب شخص يدعى التزهد، وقال: لا آكل ولا أشرب، ولا أقوم من الشمس فى الحر، ولا أستدفئ من البرد، كان عاصيًا بالإجماع، وكذلك لو قال وله عائلة: لا أكتسب، ورزقهم على الله تعالى، فأصابهم أذى كان آثمًا؛ كما قال -عليه الصلاة والسلام-: «**كفى بالمرء إثمًا أن يضيّع من يقوت**»(٢).

---

(١) هو: الصحابى الجليل، سلمان الفارسى، أبو عبد الله، ويقال له: سلمان الخير، أصله من أصبهان من بلاد فارس، أول مشاهده الخندق، وهو الذى أشار على النبى -صلى الله عليه وسلم- بحفره، مات سنة ٣٤هـ، ويقال: أنه بلغ ٣٠٠ سنة.

(٢) تقدم تخريجه.

واعلم أن الاهتمام بالكسب يجـمع الهمَّ، ويفرغ القلب، ويقطع الطمع في الخلق. فإن الطبع له حق يتقاضاه.

وقد بين الشرع ذلك فقال: «إن لنفسك عليك حقًّا؛ وإن لعينك عليك حقًّا»(١).

ومثال الطبع مع المريد السالك، كمثل كلب لا يعرف الطارق، فكل من رآه يمشى نبح عليـه. فإن ألقى إليـه كسرة سكـت عنه؛ فالمراد من الاهتـمام بذلك جمع الهم لا غير؛ فافهم هذه الأصول فإن فهمها مهمّ.

---

(١) صحيح: وقد تقدم تخريجه.

شهوات الدنيا مصائد هلاك

٣٥- فصل - تأملت فى شهوات الدنيا فرأيتها مصائد هلاك، وفخوخ تلف، فمن قوى عقله على طبعه وحكم عليه يسلم، ومن غلب طبعه فيا سرعة هلكته؛ ولقد رأيت بعض أبناء الدنيا كان يتوق فى التسرى، ثم يستعمل الحرارات المهيجة للباه، فما لبث أن انحلت حرارته الغريزية وتلف.

ولم أر فى شهوات النفس أسرع هلاكًا من هذه الشهوة، فإنه كلما مال الإنسان إلى شخص مستحسن أوجب ذلك حركة الباه زائدًا عن العادة، وإذا رأى أحسن منه زادت الحركة وكثر خروج المنى زائدًا عن الأول، فيفنى جوهر الحياة أسرع شىء، وبالضد من هذا أن تكون المرأة مستقبحة فلا يوجب نكاحها خروج الفضلة المؤذية كما ينبغى، فيقع التأذى بالاحتباس وقوة التوق إلى منكوح.

وكذلك المفرط فى الأكل فإنه يجنى على نفسه كثيراً من الجنايات، والمقصر فى مقدار القوت كذلك. فعلمت أن أفضل الأمور أوساطها، والدنيا مفازة فينبغى أن يكون السابق فيها العقل، فمن سلم زمام راحلته إلى طبعه وهواه، فيا عجلة تلفه - هذا فيما يتعلق البدن والدنيا- فقس عليه أمر الآخرة فافهم.

٣٦- فصل - بلغنى عن بعض زهاد زماننا أنه قدم إليه طعام فقال: لا آكل. فقيل له: لم؟ قال: لأن نفسى تشتهيه، وأنا منذ سنين ما بلغت نفسى ما تشتهى فقلت: لقد خفيت طريق الصواب عن هذا من وجهين، وسبب خفائها عدم العلم.

أما الوجه الأول: فإن النبى -ﷺ- لم يكن على هذا ولا أصحابه، وقد كان -عليه الصلاة والسلام- يأكل لحم الدجاج، ويحب الحلوى

والعسل، ودخل فرقد السبخى على الحسن وهو يأكل الفالوذج. فقال: يا فرقد ما تقول فى هذا؟ فقال: لا آكله ولا أحب من أكله. فقال الحسن: لعاب النحل بلباب البر(١) مع سمن البقر، هل يعيبه مسلم؟

وجاء رجل إلى الحسن فقال: إن لى جارًا لا يأكل الفالوذج. فقال: ولم؟ قال يقول: لا أؤدى شكره، فقال: إن جارك جاهل وهل يؤدى شكر الماء البارد؟

وكان سفيان الثورى: يحمل فى سفره الفالوذج، والحمل المشوى، ويقول: إن الدابة إذا أحسن إليها عملت، وما حدث فى الزهاد بعدهم أمور من هذا الفن مسروقة من الرهبانية وأنا خائف من قوله تعالى: ﴿لَا تُحَرِّمُوا طَيِّبَاتِ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكُمْ﴾(٢). ﴿وَلَا تَعْتَدُوا﴾(٣).

ولا يحفظ عن أحد من السلف الأول من الصحابة من هذا الفن شىء إلا أن يكون ذلك لعارض، وسبب ما يروى عن ابن عمر -رضي الله عنهما-: أنه اشتهى شيئًا فآثر به فقيرًا، وأعتق جاريته رميثة، قال: إنها أحبّ الخلق إلىّ، فهذا وأمثاله حسن، لأنه إيثار بما هو أجود عند النفس من غيره، وأكثر لها من سواه، فإذا وقع فى بعض الأوقات، كسرت بذلك الفعل سورة هواها أن تطغى بنيل كل ما تريد، فأما من دام على مخالفتها على الإطلاق، فإنه يعمى قلبها، ويبلّد خواطرها، ويشتت عزايمها، فيؤذيها أكثر مما ينفعها.

وقد قال إبراهيم بن أدهم: إن القلب إذا أكره عمى، وتحت مقالته سرّ لطيف، وهو أن الله عز وجل قد وضع طبيعة الآدمى على معنى عجيب؛ وهو أنها تختار الشىء من الشهوات مما يصلحها، فتعلم باختيارها له صلاحه، وصلاحها به. وقد قال حكماء الطب: ينبغى أن يفسح للنفس فيما تشتهى من المطاعم -وإن كان فيه نوع ضرر- لأنها إنما تختار ما يلايمها، فإذا

---

(١) البر: القمح.
(٢) سورة المائدة: ٨٧.
(٣) سورة المائدة: ٨٧.

قمعـها الزاهد فى مثل هذا عاد على بدنه بالضـرر، ولولا جواذب فى الباطن من الطبيعـة ما بقى البدن. فإن الشهـوة للطعام تبور، فإذا وقـعت الغنيمة بما يتناول كفت الشهوة، فالشهوة مريد ورائد، ونعم الباعث على مصلحة البدن، غير أنها إذا أفرطت وقع الأذى، ومتى منعت ما تريد على الإطلاق مع الأمن من فسـاد العاقبة عاد ذلك بفسـاد أحوال النفس، ووهن الجسم، واخـتلاف السـقم؛ الذى تتداعى به جـملة، مثـل أن يمنعهـا الماء عند اشتـداد العطش، والغذاء عند الجـوع، والجماع عند قوة الشـهوة، والنوم عند غلبتـه، حتى إنّ المغتم إذا لم يتروح بالشكوى قتله الكمد، فهذا أصل إذا فهمه هذا الزاهد علم أنه قد خـالف طريق الرسول -ﷺ- وأصحـابه؛ من حيث النقـل، وخالف الموضوع فى الحكمة، ولا يلزم على هذا قول القائل: فمن أين يصفو المطعم؟ لأنه إذا لم يَصْفُ كان الترك ورعًا، وإنما الكـلام فى المطعم الذى ليس فيه ما يؤذى فى باب الورع، وكان مـا شرحته جـوابًا للقائل: ما أبلغ نفسـى شهوة على الإطلاق.

والوجـه الثانى: أنى أخـاف على الزاهد أن تكون شـهـوته انقلبت إلى الترك فصـار يشتهى أن لا يتناول. وللنفس فى هذا مكر خـفى، ورياء دقيق، فإن سلمت من الرياء للخلق، كـانت الآفة من جهة تعلقهـا بمثل هذا الفعل، وإدلالها فى الباطن به، فهذه مخاطرة وغلط.

وربما قال بعض الجهال: هذا صد عن الخير والزهد، وليس كذلك؛ فإن الحديث قد صح عن النبى -ﷺ- أنه قال: «**كل عمل ليس عـليه أمرنا فـهو رد**»[1].

ولا ينبغى أن يغتر بعبادة جـريج، ولا بتقوى ذى الخويصرة، ولقد دخل المتـزهدون فى طرق لم يسلكها الرسـول -ﷺ-، ولا أصحـابه. من إظهار التخـشع الزائد فى الحد، والتنوق[2] فى تخشين الملبس، وأشيـاء صار العوام

---

(١) صحيـح: أخرجه مسلم (١٧١٨) فى كـتاب الأقضيـة، باب: نقض الأحكام الباطلة ورد محدثات الأمور من حديث عائشة -رضي الله عنها-.

(٢) التنوق: التبالغ فى الشىء.

يستحسنونها، وصارت لأقوام كالمعاش يجتنون من أرباحها، كتقبيل اليد، وتوفير التوفير، وحراسة الناموس، وأكثرهم فى خلوته على غير حالته فى جلوته(١).

وقد كان ابن سيرين يضحك بين الناس قهقهة، وإذا خلا بالليل فكأنه قتل أهل القرية.

فنسأل الله تعالى علمًا نافعًا فهو الأصل، فمتى حصل أوجب معرفة المعبود عز وجل، وحرك إلى خدمته بمقتضى ما شرعه وأحبه، وسلك بصاحبه طريق الإخلاص، وأصل الأصول: العلم، وأنفع العلوم النظر فى سير الرسول -ﷺ- وأصحابه: ﴿أُوْلَئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ فَبِهُدَاهُمُ اقْتَدِهْ﴾(٢).

٣٧- فصل - تأملت جهاد النفس فرأيته أعظم الجهاد، ورأيت خلقًا من العلماء والزهاد لا يفهمون معناه، لأن فيهم من منعها حظوظها على الإطلاق، وذلك غلط من وجهين:

أحدهما: أنه ربَّ مانع لها شهوة أعطاها بالمنع أوفى منها، مثل أن يمنعها مباحًا فيشتهر بمنعه إياها ذلك فيرضى النفس بالمنع لأنها قد استبدلت به المدح، وأخفى من ذلك أن يرى بمنعه إياها ما منع أنه قد فضل عن سواه ممن لم يمنعها ذلك، وهذه دقائق تحتاج إلى منقاش فهم يخلصها.

والوجه الثاني: أننا قد كلفنا حفظها، ومن أسباب حفظها ميلها إلى الأشياء التى تقيمها، فلابد من إعطائها ما يقيمها، وأكثر ذلك أو كله ما تشتهيه، ونحن كالوكلاء فى حفظها؛ لأنها ليست لنا بل هى وديعة عندنا، فمنعها حقوقها على الإطلاق خطر، ثم رب شد أوجب استرخاء، ورب مضيق على نفسه فرت منه فصعب عليه تلاقيها، وإنما الجهاد لها كجهاد المريض العاقل، يحملها على مكروهها فى تناول ما ترجو به العافية، ويذوب

---

(١) أى: ظهوره من الجلاء، وهو الظهور.
(٢) سورة الأنعام: ٩٠.

فى المرارة قليلاً من الحلاوة، ويتناول من الأغذية مقدار ما يصفه الطبيب، ولا تحمله شهوته على موافقة غرضها من مطعم ربما جرّ جوعًا، ومن لقمة ربما حرمت لقمات، فكذلك المؤمن العاقل لا يترك لجامها، ولا يهمل مقودها، بل يرخى لها فى وقت والطول[١] بيده، فما دامت على الجادة لم يضايقها فى التضييق عليها، فإذا رآها قد مالت ردها باللطف، فإن ونت[٢] وأبت، وإلا فبالعنف، ويحبسها فى مقام المداراة، كالزوجة التى مبنى عقلها على الضعف والقلة، فهى تدارى عند نشوزها[٣] بالوعظ، فإن لم تصلح فبالهجر، فإن لم تستقم فبالضرب.

وليس فى سياط التأديب أجود من سوط عزم -هذه مجاهدة من حيث العمل. فأما من حيث وعظها وتأنيبها، فينبغى لمن رآها تسكن للخلق، وتتعرض بالدناءة من الأخلاق أن يعرفها تعظيم خالقها لها فيقول: ألست التى قال فيك: خلقتك بيدى، وأسجدت لك ملائكتى، وارتضاك للخلافة فى أرضه، وراسلك، واقترض منك واشترى؟ فإن رآها تتكبر، قال لها: هل أنت إلا قطرة من ماء مهين، تقتلك شرقة، وتؤلمك بقة. وإن رأى تقصيرها عرفها حق الموالى على العبيد، وإن ونت فى العمل، حدثها بجزيل الأجر، وإن مالت إلى الهوى، خوفها عظيم الوزر. ثم يحذرها عاجل العقوبة الحسية، كقوله تعالى: ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَخَذَ اللَّهُ سَمْعَكُمْ وَأَبْصَارَكُمْ﴾[٤]. والمعنوية كقوله تعالى: ﴿سَأَصْرِفُ عَنْ آيَاتِيَ الَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي الأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ﴾[٥] فهذا جهاد بالقول، وذاك جهاد بالفعل.

---

(١) الطَول: الحبل الذى تقاد به الدابة.
(٢) ونت: فترت وتعبت.
(٣) النشوز: العصيان.
(٤) سورة الأنعام: ٤٦.
(٥) سورة الأعراف: ١٤٦.

العلم بسنن الله تعالى يجلو البصيرة ويهدى إلى الصواب

٣٨- فصل - رأيت من البلاء العجاب؛ أن المؤمن يدعو فلا يجاب، فيكرر الدعاء وتطول المدة ولا يرى أثرًا للإجابة، فينبغى له أن يعلم أن هذا من البلاء الذى يحتاج إلى الصبر، وما يعرض للنفس من الوسواس فى تأخير الجواب مرض يحتاج إلى طب، ولقد عرض لى من هذا الجنس؛ فإنه نزلت بى نازلة، فدعوت وبالغت، فلم أر الإجابة، فأخذ إبليس يجول في حلبات كيده، فتارة يقول: الكرم واسع والبخل معدوم، فما فائدة تأخير الجواب؟ فقلت له: اخسأ يا لعين، فما أحتاج إلى تقاضى، ولا أرضاك وكيلاً، ثم عدت إلى نفسى فقلت: إياك ومساكنة وسوسته، فإنه لو لم يكن فى تأخير الإجابة إلا أن يبلوك المقدّر فى محاربة العدو لكفى فى الحكمة. قالت: فسلّنى عن تأخير الإجابة فى مثل هذه النازلة.

فقلت: قد ثبت بالبرهان أن الله عز وجل مالك، وللمالك التصرف بالمنع والعطاء، فلا وجه للاعتراض عليه.

والثانى: أنه قد ثبتت حكمته بالأدلة القاطعة، فربما رأيت الشىء مصلحة والحكمة لا تقتضيه، وقد يخفى فى الحكمة فيما يفعله الطبيب، من أشياء تؤذى فى الظاهر يقصد بها المصلحة، فلعل هذا من ذاك.

والثالث: أنه قد يكون التأخير مصلحة، والاستعجال مضرة، وقد قال النبى -ﷺ-: «**لا يزال العبد فى خير ما لم يستعجل، يقول دعوت فلم يستجب لى**»(١).

---

(١) أخرجه الإمام أحمد فى «مسنده» (٣/ ١٩٣ و٢٠١) من حديث أنس -رضي الله عنه- وقال الهيثمى فى «المجمع» (١٠/ ١٩٤): رواه أحمد وأبو يعلى بنحوه والبزار والطبرانى فى الأوسط، وفيه أبو هلال الراسبى، وهو ثقة وفيه خلاف، وبقية رجال أحمد وأبى يعلى رجال الصحيح.

والرابع: أنه قد يكون امتناع الإجابة لآفة فيك فربما يكون فى مأكولك شبهة، أو قلبك وقت الدعاء فى غفلة، أو تزاد عقوبتك فى منع حاجتك لذنب ما صدقت فى التوبة منه، فابحثى عن بعض هذه الأسباب لعلك تقعى بالمقصود.

كما روى عن أبى يزيد -رضي الله عنه-: أنه نزل بعض الأعاجم فى داره، فجاء فرآه، فوقف بباب الدار، وأمر بعض أصحابه فدخل، فقلع طينًا جديداً قد طينه، فقام الأعجمى وخرج، فسئل أبو يزيد عن ذلك فقال: هذا الطين من وجه فيه شبهة، فلما زالت الشبهة زال صاحبها.

وعن إبراهيم الخواص رحمة الله عليه: أنه خرج لإنكار منكر، فنبحه كلب له فمنعه أن يمضى، فعاد ودخل المسجد، وصلى ثم خرج، فبصبص الكلب[١] له فمضى، وأنكر فزال المنكر، فسئل عن تلك الحال فقال: كان عندى منكر. فمنعنى الكلب، فلما عدت تبت من ذلك، فكان ما رأيتم.

الخامس: أنه ينبغى أن يقع البحث عن مقصودك بهذا المطلوب، فربما كان فى حصوله زيادة إثم، أو تأخير عن مرتبة خير، فكان المنع أصلح، وقد روى عن بعض السلف أنه كان يسأل الله الغزو، فهتف به هاتف: إنك إن غزوت أسرت، وإن أسرت تنصرت.

السادس: أنه ربما كان فَقْدُ ما فقدتيه سببًا للوقوف على الباب واللُجا، وحصوله سببًا للاشتغال به عن المسئول، وهذا الظاهر بدليل أنه لولا هذه النازلة ما رأيناك على باب اللجا، فالحق عز وجل علم من الخلق اشتغالهم بالبر عنه، فلذعهم فى خلال النعم بعوارض تدفعهم إلى بابه، يستغيثون به، فهذا من النعم فى طى البلاء، وإنما البلاء المحض ما يشغلك عنه، فأما ما يقيمك بين يديه، فيه[٢] جمالك.

---

(١) بصبص الكلب: أى حرك ذنبه.
(٢) لعل الأصح: ففيه جمالك.

وقد حكى عن يحيى البكاء: أنه رأى ربه عز وجل فى المنام، فقال: يا رب كم أدعوك ولا تجيبنى؟ فقال: يا يحيى إنى أحب أن أسمع صوتك.

وإذا تدبرت هذه الأشياء تشاغلت بما هو أنفع لك، من حصول ما فاتك من وقع خلل، أو اعتذار من زلل، أو وقوف على الباب إلى رب الأرباب.

٣٩- فصل - من نزلت به بلية، فأراد تمحيقها، فليتصورها أكثر مما هى تهن، وليتخايل ثوابها وليتوهم نزول أعظم منها، يرى الربح فى الاقتصار عليها، وليتلمح سرعة زوالها، فإنه لولا كرب الشدة، ما روجيت ساعات الراحة، وليعلم أن مدة مقامها عنده كمدة مقام الضيف فليتفقد حوائجه فى كل لحظة، فيا سرعة انقضاء مقامه، ويا لذة مدايحه وبشره فى المحافل، ووصف المضيف بالكرم.

فكذلك الشدة، ينبغى أن تراعى الساعات، ويتفقد فيها أحوال النفس، ويتلمح الجوارح، مخافة أن يبدو من اللسان كلمة، أو من القلب تسخط، فكأن قد لاح فجر الأجر، فانجاب ليل البلاء، ومدح السارى بقطع الدجى، فما طلعت شمس الجزاء، إلا وقد وصل منزلة السلامة.

٤٠- فصل - لما رأيت رأى نفسى فى العلم حسنًا، فهى تقدمه على كل شىء وتعتقد الدليل، وتفضل ساعة التشاغل به على ساعات النوافل، وتقول: أقوى دليل على فضله فى النوافل أنى رأيت كثيراً ممن شغلهم نوافل الصلاة والصوم عن نوافل العلم، عاد ذلك عليهم بالقدح فى الأصول، فرأيتها فى هذا على الجادة السليمة[1] والرأى الصحيح، إلا أنى رأيتها واقفة مع صورة التشاغل بالعلم، فصحت بها: فما الذى أفادك العلم؟ أين الخوف، أين القلق، أين الحذر؟ أو ما سمعت بأخبار أخيار الأحبار فى تعبدهم واجتهادهم؟

أما كان الرسول -ﷺ- سيد الكل، أنه قام حتى ورمت قدماه، أما كان أبو بكر -رضي الله عنه- شجى النشيج، كثير البكاء.

(١) فى نسخة: الجادة السهلة.

أما كان فى خد عمر -رضي الله عنه- خطان من آثار الدموع.

أما كان عثمان(١) -رضي الله عنه- يختم القرآن فى ركعة.

أمـا كان على -رضي الله عنه- يبكى بالـليل فى محـرابه حـتى تخضل لحـيتـه بالدموع، ويقول: يا دنيا غرى غيرى.

أما كان الحسن البصرى على قوة القلق.

أما كان سـعيد بن المسيب ملازمًا للمـسجد فلم تفته صلاة فى جـماعة أربعين سنة.

أما صام الأسود بن يزيد(٢) حتى اخضر واصفر؟

أما قـالت بنت الربيع بن خثيم له: مـا لى أرى الناس ينامون وأنت لا تنام؟ فقال: إن أباك يخـاف البيات. أما كان أبو مـسلم الخولانى يعلق سوطًا فى المسجـد يؤدب نفسه إذا فتـر؟ أما صام يزيد الرقـاشى أربعين سنة، وكان يقول: والهفاه سبقنى العابدون، وقطع بى، أما صام منصور بن المعتمر أربعين سنة؟

أما كان سفيان الثورى يبكى الدم من الخوف؟

أما كان إبراهيم بن أدهم يبول الدم من الخوف؟ أما تعلمين أخبار الأئمة الأربعة فـى زهدهم وتعبـدهم، أبو حنيفـة، ومالك، والشـافعى، وأحـمد. احذرى من الإخلاد إلى صورة العلم، مع ترك العمل به، فإنها حالة الكسالى الزمنى:

وخـــذ لك منك عـلى مـهـلة ومـــقـبل عـيـشك لـم يدبر
وخَفْ هجـمـة لا تـقـيلُ العـثـا وتطوى الـورود على المصـــدر
ومـــثّل لـنفـــسك أى الـرعـيـ ـــل يضـمك فى حلبـة المحشـر

(١) هو: ذو النورين، عثمـان بن عفان بن أبى العاص الأموى، أميـر المؤمنين، أحد السابقين الأولين، والخلفاء الأربعة، والعشرة المبشرين بالجنة، استشهد سنة ٣٥هـ، وله ٨٠ عامًا.
(٢) هو: الأسود بن يزيد بن قيس النخـعى، أبو عمرو، أو أبو عبد الرحمن، مـخضرم، ثقة مكثر.فقيه، مات سنة ٧٤ (٧٥هـ).

٤١- فصل - مما يزيد العلم عندى فضلاً، أن قومًا تشاغلوا بالتعبد عن العلم، فوقفوا عن الوصول إلى حقائق الطلب، فروى عن بعض القدماء أنه قال لرجل: يا أبا الوليد، إن كنت أبا الوليد، يتورع أن يكنيه ولا ولد له، ولو أوغل هذا فى العلم لعلم أن النبى -ﷺ-: كنى صهيبًا أبا يحيى، وكنى طفلاً فقال: **«يا أبا عمير، ما فعل النغير»**؟![1] وقال بعض المتزهدين: قيل لى يومًا: كل من هذا اللبن. فقلت: هذا يضرنى، ثم وقفت بعد مدة عند الكعبة فقلت: اللهم إنك تعلم أنى ما أشركت بك طرفة عين، فهتف بى هاتف - ولا يوم اللبن- وهذا لو صح جاز أن يكون تأديبًا له، لئلا يقف مع الأسباب ناسيًا للمسبب، وإلا فالرسول -ﷺ- قد قال: **«ما زالت أكلة خيبر تعاودنى حتى الآن قطعت أبهرى»**[2]. وقال: **«ما نفعنى مال كمال أبى بكر»**[3].

من المتزهدين أقوام يرون التوكل قطع الأسباب كلها، وهذا جهل بالعلم. فإن النبى -ﷺ-: دخل الغار، وشاور الطبيب، ولبس الدرع، وحفر الخندق، ودخل مكة فى جوار المطعم بن عدى وكان كافرًا، وقال لسعد: **«لأن تدع ورثتك أغنياء خير لك من أن تدعهم عالة يتكففون الناس»**[4]، فالوقوف مع الأسباب مع نسيان المسبب غلط، والعمل على الأسباب مع تعلق القلب بالمسبب هو المشروع، وكل هذه الظلمات إنما تقطع بمصباح العلم، ولقد ضل من مشى فى ظلمة الجهل أو فى زقاق الهوى.

٤٢- فصل - ما أزل أتعجب ممن يرى تفضيل الملائكة على الأنبياء

---

(١) صحيح: أخرجه البخارى (٦١٢٩) فى كتاب الأدب، باب: الانبساط إلى الناس من حديث أنس -رضي الله عنه-، و(النغير) مصغر نغر، وهو طير كالعصفور محمر المنقار، يسميه أهل المدينة البلبل.

(٢) أخرجه البيهقى فى «الكبرى» (١٠/ ١١) و(الأبهر): عرق مستبطن القلب فإذا انقطع لم تبقى معه حياة، وقيل: هو عرق فى الظهر.

(٣) صحيح: أخرجه الترمذى (٣٦٦١) فى كتاب المناقب، باب: رقم (١٥)، وابن ماجه (٩٤) فى المقدمة، باب: فى فضائل أصحاب رسول الله -ﷺ- من حديث أبى هريرة -رضي الله عنه- والحديث صححه الشيخ الألبانى.

(٤) صحيح: وقد تقدم.

والأولياء، فإن كان التفضيل بالصور، فصورة الآدمى أعجب من ذوى أجنحة، وإن تركت صورة الآدمى لأجل أوساخها المنوطة بها فالصورة ليست الآدمى إنما هى قالب. ثم قد استحسن منها ما يستقبح فى العبادة، مثل خلوف فم الصائم، ودم الشهداء، والنوم فى الصلاة، فبقيت صورة معمورة، وصار الحكم للمعنى. أن لهم مرتبة يحبهم، أو فضيلة يباهى بهم، وكيف دار الأمر فقد سجدوا لنا وهو صريح فى تفضيلنا عليهم، فإن كان الفضيلة بالعلم فقد علمت القصة يوم ﴿**سُبْحَانَكَ لا عِلْمَ لَنَا**﴾(١) ﴿**يَا آدَمُ أَنبِئْهُم**﴾(٢). وإن فضلت الملائكة بجوهرية ذواتهم فجوهرية أرواحنا من ذلك الجنس، وعلينا أثقال أعباء الجسم، تالله لولا احتياج الراكب إلى الناقة فهو يتوقف لطلب علفها، ويرفق فى السير بها، لطرق أرض منى قبل العشر.

واعجبا أتفضل الملائكة بكثرة التعبد، فما ثم صعاد(٣)، أو يتعجب من الماء إذا جرى، أو من منحدر يسرع، إنما العجب من مصاعد؟ بلى قد يتصور منهم الخلاف، ودعى الإلهية لقدرتهم على دك الصخور، وشق الأرض لذلك توعدوا: ﴿**وَمَن يَقُلْ مِنْهُمْ إِنِّي إِلَهٌ مِّن دُونِهِ فَذَلِكَ نَجْزِيهِ جَهَنَّمَ**﴾(٤)، لكنهم يعلمون عقوبة الحق فيحذروه.

فأما بعدنا عن المعرفة الحقيقية وضعف يقيننا بالناهى، وغلبة شهوتنا مع الغفلة فتحتاج إلى جهاد أعظم من جهادهم، تالله لو ابتلى أحد المقربين بما ابتلينا به لم يقدر على التماسك، يصبح أحدنا وخطاب الشرع يقول له: اكسب لعائلتك، واحذر فى كسبك، وقد تمكن منه ما ليس من فعله، كحب الأهل، وعلوق الولد بنياط القلب، واحتياج بدنه إلى ما لابد منه، فتارة يقال للخليل -عليه السلام-: اذبح ولدك بيدك؟ واقطع ثمرة فؤادك بكفك، ثم قم إلى المنجنيق(٥) لترمى فى النار، وتارة يقال لموسى -عليه السلام-: صم شهراً ليلاً

---

(١) سورة البقرة: ٣٢.
(٢)سورة البقرة: ٣٣.
(٣) صعاد: صعود.
(٤) سورة الأنبياء: ٢٩.
(٥) المنجنيق: آلة ترمى بها الحجارة كالمدفع الآن.

ونهاراً، ثم يقال للغضبان: اكظم، وللبصير اغضض، ولذى المقول اصمت، ولمستلذ النوم تهجد، ولمن مات حبيبه اصبر، ولمن أصيب فى بدنه اشكر، وللواقف فى الجهاد بين اثنين لا يحل أن تفر، ثم اعلم أن الموت يأتى بأصعب المرارات فينزع الروح عن البدن، فإذا نزل فاثبت، واعلم أنك ممزق فى القبر فلا تتسخط، لأنه مما يجرى به القدر، وإن وقع بك مرض فلا تَشْكُ إلى الخلق، فهل للملائكة من هذه الأشياء شىء؟ وهل ثم إلا عبادة ساذجة ليس فيها مقاومة طبع، ولا رد هوى، وهل هى إلا عبادة صورية بين ركوع وسجود وتسبيح فأين عبادتهم المعنوية من عبادتنا؟ ثم أكثرهم فى خدمتنا بين كتبة علينا، ودافعين عنا، ومسخرين لإرسال الريح والمطر، وأكبر وظائفهم الاستغفار لنا، فكيف يفضلون علينا بلا علة ظاهرة؟ وإذا ما[(١)] حُكَّت على محك التجارب منهم كهاروت وماروت، خرجوا أقبح من بهرج.

ولا تظننَّ أنى أعتقد فى تعبد الملائكة نوع تقصير، لأنهم شديدو الإشفاق والخوف، لعلمهم بعظمة الخالق لكن طمأنينة من لم يخطئ، تقوّى نفسه، وانزعاج الغايص فى الزلل ترقى روحه إلى التراقى، فاعرفوا إخوانى شرف أقداركم، وصونوا جواهركم عن تدنيسها بلوم الذنوب فأنتم معرض الفضل على الملائكة، فاحذروا أن تحطكم الذنوب إلى حضيض البهائم، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلى العظيم.

٤٣- فصل - رأيت كثيراً من الخلق وعالماً من العلماء، لا ينتهون عن البحث عن أصول الأشياء التى أمروا بعلم جهلها، من غير بحث عن حقائقها، كالروح مثلاً، فإن الله تعالى سترها بقوله: ﴿قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي﴾[(٢)] فلم يقنعوا. وأخذوا يبحثون عن ماهيتها ولا يقعون بشىء. ولا يثبت لأحد منهم برهان على ما يدعيه.

وكذلك العقل؛ فإنه موجود بلا شك، كما أن الروح موجودة بلا

(١) فى نسخه: وأما.
(٢) سورة الإسراء: ٨٥.

شك، كلاهما يعرف بآثاره لا بحقيقة ذاته فإن قال قائل: فما السر فى كتم هذه الأشياء؟ قلت: لأن النفس ما تزال تترقى من حالة إلى حالة، فلو أجمع على هذه الأشياء لترقت إلى خالقها؛ فكان ستر ما دونه زيادة فى تعظيمه، لأنه إذا كان بعض مخلوقاته يعلم جملة فهو أجل وأعلا. ولو قال قائل: ما الصواعق، وما البرق، وما الزلازل؟ قلنا: شيء مزعج ويكفى، والسر فى ستر هذا؛ أنه لو كشفت حقائقه خف مقدار تعظيمه ومن تلمح هذا الفصل علم أنه فصل عزيز فإذا ثبت هذا فى المخلوقات فالخالق أجل وأعلى فينبغى أن يوقف فى إثباته على دليل وجوده.

ثم يستدل على جواز بعثه رسله، ثم تتلقى أوصافه من كتبه ورسله، ولا يزاد على ذلك ولقد بحث خلق كثير عن صفاته بآرائهم فعاد وبال ذلك عليهم، وإذا قلنا: أنه موجود وعلمنا من كلامه أنه سميع، بصير، حى، قادر؛ كفانا هذا فى صفاته، ولا نخوض فى شيء آخر.

وكذلك نقول: متكلم والقرآن كلامه، ولا نتكلف ما فوق ذلك. ولم يقل السلف تلاوة ومتلو، وقراءة ومقروء، ولا قالوا استوى على العرش بذاته، ولا قالوا ينزل بذاته، بل أطلقوا ما ورد من غير زيادة، ونقول لما ثبت بالدليل ما لا يجوز عليه، وهذه كلمات كالمثال فقس عليها جميع الصفات، تفز سليمًا من تعطيل، متخلصًا من تشبيه.

٤٤- **فصل** - رأيت أكثر الخلق فى وجودهم كالمعدومين، فمنهم من لا يعرف الخالق، ومنهم من يثبته على مقتضى حسه، ومنهم من لا يفهم المقصود من التكليف. فترى المترسمين بالزهد يدأبون فى القيام والقعود، ويتركون الشهوات، وينسون ما قد أنسوا به من شهوة الشهرة، وتقبيل الأيادى. ولو كلم أحدهم قال: ألمثلى يقال هذا؟ ومن فلان الفاسق، فهؤلاء لا يفهمون المقصود.

وكذلك كثير من العلماء فى احتقارهم غيرهم، والتكبر فى نفوسهم، فتعجبت كيف يصلح هؤلاء لمجاورة الحق، وسكنى الجنة؟ فرأيت أن الفائدة

فى وجودهم فى الدنيا، تجانس الفائدة فى دخولهم الجنة، فإنهم فى الدنيا بين معتبـر به، يعرف عارف الله سبحانه نعمـة الله عليه بما كشف له مما غطى عن ذاك، ويتم النظام بالاقتداء. تصور أولئك، فإن العـارف لا يتسع وقته لمخالطة من يقف مع الصـورة، فالزاهد كـراعى البهم. والعـالم كمـؤدب الصبـيان، والعارف ملقن الحكمـة، ولولا نعاظ الملك وحارسـه، ووقاد أتونه[1]، ما تم عيشه.

فمن تمام عيش العارف استعمـال أولئك بحسبهم، فإذا وصلوا إليه حرر مانعهم[2]، وفيـهم من لا يصل إليه، فيكون وجـود أولئك كزيادة -لا- فى الكلام وهى حشو، وهى مؤكدة، فـإن قال قائل: فهب هذا يصح فى الدنيا، فكيف فى الجنة؟ والجواب أن الأنس بالجيران مطلوب، ورؤية القاصر من تمام لذة الكامل[3]، ولكل شرب. ومن تأمل مـا أشرت إليه كفـاه رمز لفظى عن تطويل الشرح.

---

(١) وقاد أتونه: نار موقدة، الأتون: التنور، وهو شيء كالموقد.

(٢) فى نسخه: مانعهم.

(٣) فى نسخه: الكلام.

فتنة العلماء.. وقصور المعرفة

٤٥- فصل - لما تلمحت تدبير الصانع فى سوق رزقى، بتسخير السحاب، وإنزال المطر برفق، والبذر تحت الأرض كالموتى، قد عفن ينتظر نفخة من صور الحياة، فإذا به اهتز خضراً، وانقطع عنه الماء، مدّ يد الطلب يستعطى، وأمال رأسه خاضعًا، ولبس حلل التغير، فهو محتاج إلى ما أنا محتاج إليه من حرارة الشمس، وبرودة الماء، ولطف النسيم، وتربية الأرض.

فسبحان من أرانى فيما يربينى به، كيف تربيتى فى الأصل، فيا أيتها النفس التى قد اطلعت على بعض حكمه، قبيح بك والله الإقبال على غيره، ثم العجب كيف تقبلين على فقير مثلك، ينادى لسان حاله بى مثل ما بك، يا حمام! فارجعى إلى الأصل الأول، واطلبى من المسبب، ويا طوبى لك أن عرفتيه، فإن عرفانه ملك الدنيا والآخرة.

٤٦- فصل - كنت فى بداية الصبوة قد ألهمت سلوك طريق الزهاد، بإدامة الصوم والصلاة، وحببت إلىّ الخلوة، فكنت أجد قلبًا طيبًا، وكانت عين بصيرتى قوية الحدة تتأسف على لحظة تمضى فى غير طاعة، وتبادر الوقت فى اغتنام الطاعات، ولى نوع أنس وحلاوة مناجاة، فانتهى الأمر إلى أن صار بعض ولاة الأمور يستحسن كلامى، فأمالنى إليه فمال الطبع، ففقدت تلك الحلاوة، ثم استمالنى آخر، فكنت أتقى مخالطته ومطاعمه لخوف الشبهات، وكانت حالتى قريبة، ثم جاء التأويل فانبسطت فيما يباح، فعدم ما كنت أجد. وصارت المخالطة توجب ظلمة فى القلب إلى أن عدم النور كله، فكان حنينى إلى ما ضاع منى يوجب انزعاج أهل المجلس، فيتوبون ويصلحون، وأخرج مفلسًا فيما بينى وبين حالى.

وكثر ضجيجى من مرضى، وعجزت عن طب نفسى، فلجأت إلى الصالحين، وتوسلت فى صلاحى، فاجتذبنى لطف مولاى بى إلى الخلوة على

كراهة منى، ورد قلبى على بعد نفوره عنى، وأرانى عيب ما كنت أؤثره، فأفقت من مرض غفلتى! وقلت فى مناجاة خلوتى: سيدى كيف أقدر على شكرك؟ وبأى لسان أنطق بمدحك؟ إذ لم تؤاخذنى على غفلتى، ونبهتنى من رقدتى، وأصلحت حالى على كره من طبعى، فما أربحنى فيما سلب منى إذ كانت ثمرته اللجأ إليك، وما أوفر جمعى إذ ثمرته إقبالك(١) على الخلوة بك، وما أغنانى إذ أفقرتنى إليك، وما آنسنى إذ أوحشتنى بالتجارب لخلقك، آه على زمان ضاع فى غير خدمتك! أسفًا لوقت مضى فى غير طاعتك.

قد كنت إذا انتبهت وقت الفجر لا يؤلمنى نومى طول الليل، وإذا انسلخ عنى النهار لا يوجعنى ضياع ذلك اليوم، وما علمت أن عدم الإحساس لقوة المرض.

فالآن قد هبت نسائم العافية، فأحسست بالألم فاستدللت على الصحة؛ فيا عظيم الإنعام تمم لى العافية، آه من سكر لم يعلم قدر عربدته إلا فى وقت الإفاقة! لقد فتقت[٢] ما يصعب رتقه[٣]؛ فواأسفاه على بضاعة ضاعت، وعلى ملاّح تعب فى موج الشمال مصاعدًا مدة ثم غلبه النوم فرد إلى مكانه الأول.

يا من يقرأ تحذيرى من التخليط، فإنى وإن كنت خنت نفسى بالفعل نصيح لإخوانى بالقول، احذروا إخوانى من الترخص فيما لا يؤمن فساده؛ فإن الشيطان يزين المباح فى أول مرتبة، ثم يجر إلى الجناح، فتلمحوا المآل، وافهموا الحال، وربما أراكم الغاية الصالحة، وكان فى الطريق إليها نوع مخالفة، فيكفى الاعتبار فى تلك الحال بأبيكم: ﴿هَلْ أَدُلُّكَ عَلَىٰ شَجَرَةِ الْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَّا يَبْلَىٰ﴾[٤]؟ إنما تأمل آدم الغاية وهى الخلد، ولكنه غلط فى الطريق.

---

(١) كذا بالأصل، ولعل الصواب: إقبالى.

(٢) الفتق: القطع.

(٣) الرتق: الإصلاح.

(٤) سورة طه: ١٢٠.

وهذا أعجب مصايد إبليس يصيد بها العلماء، يتأولون لعواقب المصالح، فيستعجلون ضرر المفاسد؛ مثاله أن يقول للعالم ادخل على هذا الظالم فاشفع فى مظلوم، فيستعجل الداخل رؤية المنكرات، ويتزلزل دينه، وربما وقع فى شرك صار به أظلم من ذلك الظالم، فمن لم يثق بدينه فليحذر من المصائد، فإنها خفية، وأسلم ما للجبان العزلة، خصوصًا فى زمان قد مات فيه المعروف، وعاش المنكر، ولم يبق لأهل العلم وقع عند الولاة؛ فمن داخلهم دخل معهم فيما لا يجوز، ولم يقدر على جذبهم مما هم فيه.

ثم من تأمل العلماء الذين يعملون لهم فى الولايات يراهم منسلخين من نفع العلم قد صاروا كالشرط؛ فليس إلا العزلة عن الخلق، والإعراض عن كل تأويل فاسد فى المخالطة؛ ولأن أنفع نفسى وحدى خير لى من أن أنفع غيرى وأتضرر.

فالحذر الحذر من خوادع التأويلات، وفواسد الفتاوى، الصبر الصبر على ما توجبه العزلة؛ فإنه إن انفردت بمولاك فتح لك باب معرفته، فهان كل صعب، وطاب كل مر، وتيسر كل عسر، وحصلت على المطلوب، والله الموفق بفضله، ولا حول ولا قوة إلا به.

٤٧- فصل - تأملت على نفسى تأويلاً فى مباح أنال به شيئًا من الدنيا، إلا أنه فى باب الورع كدر؛ فرأيته أولاً قد احتلب در الدين فذهبت حلاوة المعاملة لله تعالى، ثم عاد فقلص ضرع حلبى له فوقع الفقد للحالين، فقلت لنفسى: ما مثلك إلا كمثل وال ظالم جمع من غير حله فصودر، فأخذ منه الذى جمع واجتر ما لم يجمع. فالحذر الحذر من فساد التأويل، فإن الله تعالى لا يخادع، ولا ينال ما عنده بمعصيته.

٤٨- فصل - رأيت نفسى كلما صفا فكرها، أو اتعظت بدارج، أو زارت قبور الصالحين، تتحرك همتها فى طلب العزة، والإقبال على معاملة الله تعالى.

فقلت لها يومًا: وقد كلمتني في ذلك؛ حدثيني ما مقصودك؟ وما نهاية مطلوبك؟ أتراك تريدين مني أن أسكن قفرًا لا أنيس به، فتفوتني صلاة الجماعة، ويضيع مني ما قد علمته لفقد من أعلّمه، وأن آكل الخشب الذي لم أتعوده، فيقع نضوي طلحًا[١] في يومين، وأن ألبس الخشن الذي لا أطيقه، فلا أدري من كرب محمولي أين أنا؟ وأن أتشال[٢] عن طلب ذرية تتعبد بعدي مع بقاء القدرة على الطلب؛ بالله! ما نفعني العلم الذي بذلت فيه عمري إن وافقتك، وأنا أعرفك غلط ما وقع لك بالعلم.

اعلمي أن البدن مطية، والمطية إذا لم يرفق بها لم تصل براكبها إلى المنزل، وليس مرادي بالرفق الإكثار من الشهوات، وإنما أعني أخذ البلغة الصالحة للبدن، فحينئذ يصفو الفكر، ويصح العقل، ويقوى الذهن، ألا ترى إلى تأثير المعوقات عن صفاء الذهن في قوله -عليه الصلاة والسلام-: «**لا يقضي القاضي بين اثنين وهو غضبان**»[٣]، وقاس العلماء على ذلك الجوع وما يجري مجراه من كونه حاقنًا، أو حاقبًا[٤]، وهل الطبع إلا ككلب يشغله الآكل، فإذا رمى له ما يتشاغل به طاب له الأكل.

فأما الانفراد والعزلة فعن الشر لا عن الخير، ولو كان فيها لك وقع خير لنقل عن رسول الله -ﷺ-، وعن أصحابه -رضي الله عنهم-.

هيهات لقد عرفت أن أقوامًا دام بهم التقلل واليبس إلى أن تغير فكرهم، وقوى الخلط السوداوي عليهم، فاستوحشوا من الناس، ومنهم من اجتمعت له من المآكل الرديّة أخلاط مجه. فبقي اليوم واليومين والثلاثة لا يأكل وهو يظن ذلك من إمداد اللطف، وإذا به من سوء الهضم.

وفيهم من ترقى به الخلط إلى رؤية الأشباح فيظنها الملائكة، فالله الله

---

(١) الطلح: الشجر العظام.
(٢) لعلها: أتشاغل.
(٣) صحيح: وقد تقدم.
(٤) الحاقن: الحابس بوله، والحاقب: المحبوس غائطه.

فى العلم، والله الله فى العقل، فإن نور العقل لا ينبغى أن يتعرض بإطفائه، والعلم لا يجوز الميل إلى تنقيصه، فإذا حُفظَا حَفظا وظائف الزمان، ودفعا ما يؤذى، وجلبا ما يصلح، وصارت القوانين مستقيمة فى المطعم والمشرب والمخالطة.

فقالت لى النفس: فوظف لى وظيفة وأحسبنى مريضًا قد كتبت له شربة. فقلت لها: قد دللتك على العلم وهو طبيب ملازم؛ يصف كل لحظة لكل داء دواء يلائم. وفى الجملة ينبغى لك ملازمة تقوى الله عز وجل فى المنطق والنظر، وجميع الجوارح، وتحقق الحلال فى المطعم، وإيداع كل لحظة ما يصلح لها من الخير، ومناهبة الزمان فى الأفضل، ومجانبة ما يؤدى إلى ما يؤذى من نقص ربح أو وقوع خسران. ولا تعملى عملاً إلا بعد تقديم النية، وتأهبى لمزعج الموت فكأن قد، وما عندك من مجيئه فى أى وقت يكون، ولا تتعرضى لمصالح البدن، بل وفريها عليه وناوليه إياها على قانون الصواب، لا على مقتضى الهوى، فإن إصلاح البدن سبب لإصلاح الدين.

ودعى الرعونة التى يدل عليها الجهل لا العلم؛ من قول النفس فلان يأكل الخل والبقل، وفلان لا ينام الليل، فاحملى ما تطيقين. وما قد علمت قوة البدن عليه؛ فإن البهيمة إذا أقبلت إلى نهر أو ساقية فضربت لتقفز؛ لم تفعل حتى تزن نفسها، فإن علمت فيها قوة الطفر[1] طفرت، وإن علمت أنها لا تطيق لم تفعل، ولو قتلت.

وليس كل الأبدان تتساوى فى الإطاقة، ولقد حمل أقوام من المجاهدات فى بداياتهم أشياء أوجبت أمراضًا قطعتهم عن خير، وتسخطت قلوبهم بوقوعها. فعليك بالعلم؛ فإنه شفاء من كل داء، والله الموفق.

٤٩- فصل - عجبت من أقوام يدعون العلم، ويميلون إلى التشبيه بحملهم الأحاديث على ظواهرها، فلو أنهم أمرّوها كما جاءت سلموا، لأن من أمرّ ما جاء من غير اعتراض ولا تعرض، فما قال شيئًا لا له ولا عليه،

---

(١) الطفر: القفز.

ولكنّ أقوامًا قصرت علومهم، فرأت أن حمل الكلام على غير ظاهره نوع تعطيل، ولو فهموا سعة اللغة لم يظنوا هذا؛ وما هم إلا بمثابة قول الحجاج لكاتبه وقد مدحته الخنساء فقالت:

إذا هبط الحجاج أرضًا مريضة ... تتبّع أقصى داءها فشفاها
شفاها من الداء العضال الذى بها ... غلام إذا هز القناة شفاها

فلما أتمت القصيدة. قال لكاتبه: اقطع لسانها؛ فجاء ذاك الكاتب المغفل بالموسى. فقالت له: إنما قال أجزل لها العطاء، ثم ذهبت إلى الحجاج فقالت: كاد والله يقطع مقولى. فكذلك الظاهرية الذين لم يسلموا بالتسليم، فإنه من قرأ الآيات والأحاديث ولم يزد لَمْ أَلُمْهُ. وهذه طريقة السلف.

فأما من قال: الحديث يقتضى كذا، ويحمل على كذا، مثل أن يقول: استوى على العرش بذاته، وينزل إلى السماء الدنيا بذاته؛ فهذه زيادة فهمها قائلها من الحس لا من النقل، ولقد عجبت لرجل أندلسى يقال له ابن عبد البر[١]؛ صنف كتاب «التمهيد» فذكر فيه حديث النزول إلى السماء الدنيا فقال: هذا يدل على أن الله تعالى على العرش؛ لأنه لولا ذلك لما كان لقوله «ينزل» معنى.

وهذا كلام جاهل بمعرفة الله عز وجل؛ لأن هذا استسلف من حسه ما يعرفه من نزول الأجسام، فقاس صفة الحق عليه. فأين هؤلاء وأتباع الأثر، ولقد تكلموا بأقبح ما يتكلم به المتأولون، ثم عابوا المتكلمين.

واعلم أيها الطالب للرشاد، أنه قد سبق إلينا من العقل والنقل أصلان راسخان. عليهما مر الأحاديث كلها، أما النقل فقوله سبحانه وتعالى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾[٢].

ومن فهم هذا لم يحمل وصفًا له على ما يوجبه الحس؛ وأما العقل فإنه

(١) هو: الإمام الحافظ المجود، أبو عبد الله، محمد بن عبد البر الأندلسى القرطبى، توفى سنة ٣٤١هـ.

(٢) سورة الشورى: ١١.

قد علم مبـاينة الصانع للمصنوعات، واسـتدل على حدثها بتغـيرها، ودخول الانفعال عليها، فثبت له قدم الصانع.

واعجبًا كل العجب من راد لم يفهم. أليس فى الحديث الصحيح: «**أن الموت يذبح بين الجنة والنار**»(١)، أو ليس العـقل إذا استغنى فـى هذا صرف الأمر عن حـقيـقته لما ثبت عند مـن يفهم ماهيـة الموت فقـال: الموت عرض يوجب بطلان الحيـاة؛ فكيف يمات الموت؟ فإذا قـيل له فما تـصنع بالحديث؟ قال: هذا ضـرب مثّل بإقامـة صورة ليعلم بتلك الصـورة الحسيـة فوات ذلك المعنى. قلنا له: فقـد روى فى الصحيح: «**تأتى البـقرة وآل عمـران كأنهـما غمامتان**»(٢). فقال: الكلام لا يكون غمامة، ولا يتشبه بها، قلنا له: أفتعطل النقل، قال: لا، ولكن يأتى ثوابهما، قلنا: فما الدليل الصارف لك عن هذه الحقائق؟ فـقال: علمى بأن الكلام لا يتشبـه بالأجسام، والموت لا يذبح ذبح الأنعام، ولقد عـلمتم سعة لغة العـرب. ما ضاقت أعطانكم من سـماع مثل هذا! فقال العلماء: صدقت.

هكذا نقول فى تفسـير مجىء البقرة، وفى ذبح الموت، فقـال: واعجبًا لكم صـرفـتم عن الموت والكلام مـا لا يليق بهـمـا، حـفظًا لما علمـتم من حقايقهما فكيف لم تصرفوا عن الإله الـقديم ما يوجب التشبيه له بخلقه، بما قد دل الدليل على تنزيهه عنه، فما زال يجـادل الخصوم بهذه الأدلة. ويقول: لا أقطع حتى أقطع، فما قطع حتى قطع.

٥٠- فـصـل - تفكرت فى السـر الـذى أوجب حـذف آية الرجم من القرآن لفظًا. مع ثبوت حكمها إجماعًا، فوجدت لذلك معنيين:

أحدهما: لطف الله تعالى بعباده فى أنه لا يواجههم بأعظم المشاق؛ بل

(١) صحيح: أخرجـه البخارى (٦٥٤٨) فى كتاب الرقاق، باب: صـفة الجنة والنار، ومسلم (٢٨٥٠) فى كتـاب الجنة وصفـة نعيمـها، باب: النار يدخلهـا الجبارون والنـار يدخلها الضعفاء، من حديث ابن عمر -رضي الله عنهما-.

(٢) صحـيح: أخرجه مـسلم (٨٠٤) فى كتـاب صلاة المسافـرين، باب: فضل قـراءة القرآن وسورة البقرة، من حديث أبى أمامة الباهلى -رضي الله عنه-.

ذكر الجلد، وستر الرجم، ومن هذا المعنى قال بعض العلماء: إن الله تعالى قال فى المكروهات ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ﴾(١). على لفظ لم يسم فاعله. وإن كان قد علم أنه هو الكاتب، فلما جاء إلى ما يوجب الراحة قال: ﴿كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَىٰ نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ﴾(٢).

والوجه الثانى: أنه يبين بذلك فضل الأمة فى بذلها النفوس قنوعًا ببعض الأدلة فإن الاتفاق لما وقع على ذلك الحكم كان دليلاً؛ إلا أنه ليس كالدليل المتفق لأجله، ومن هذا الجنس شروع الخليل -عليه الصلاة والسلام- فى ذبح ولده بمنام، وإن كان الوحى فى اليقظة آكد.

٥١- فصل - عرضت لى حالة لجأت فيها بقلبى إلى الله تعالى وحده، عالمًا بأنه لا يقدر على جلب نفعى ودفع ضرى سواه، ثم قمت أتعرض بالأسباب؛ فأنكر علىّ يقينى، وقال: هذا قدح فى التوكل، فقلت: ليس كذلك. فإن الله تعالى وضع من الحكم، وكان معنى حالى أن ما وضعت لا يفيد، وأن وجوده كالعدم. وما زالت الأسباب فى الشرع كقوله تعالى: ﴿وَإِذَا كُنتَ فِيهِمْ فَأَقَمْتَ لَهُمُ الصَّلاةَ فَلْتَقُمْ طَائِفَةٌ مِّنْهُم مَّعَكَ وَلْيَأْخُذُوا أَسْلِحَتَهُمْ﴾(٣) وقال تعالى: ﴿فَذَرُوهُ فِي سُنبُلِهِ﴾(٤).

وقد ظاهر النبى -ﷺ- بين درعين، وشاور طبيبين، ولما خرج إلى الطائف لم يقدر على دخول مكة؛ حتى بعث إلى المطعم بن عدى فقال أدخل فى جوارك، وقد كان يمكنه أن يدخل متوكلاً بلا سبب.

فإذا جعل الشرع الأمور منوطة بالأسباب؛ كان إعراضى عن الأسباب دفعًا للحكمة، ولهذا أرى أن التداوى مندوب إليه، وقد ذهب صاحب مذهبى(٥) إلى أن ترك التداوى أفضل، ومنعنى الدليل من اتباعه فى هذا فإن

(١) سورة البقرة: ١٨٣.
(٢) سورة الأنعام: ٥٤.
(٣) سورة النساء: ١٠٢.
(٤) سورة يوسف: ٤٧.
(٥) يقصد الإمام أحمد بن حنبل -رحمه الله-.

الحـديث الصحـيح أن النبى -ﷺ- قال: «**ما أنزل الله داءً إلا وأنزلَ لهُ دواءً فتداوَوا**»[١] ومرتبة هذه اللفظة الأمر، والأمـر إما أن يكون واجبًا، أو ندبًا، ولم يسبقه حظر؛ فيقال: هو أمر إباحة.

وكانت عائشة -رضي الله عنها- تقول: تعلمت الطب من كثرة أمراض رسول الله -ﷺ-، وما يُنعت له. وقال -عليـه الصلاة والسلام- لعلى بن أبـى طالب -رضي الله عنه-: «**كُلْ منْ هَذا فـإنّـه أَوْفَقُ لكَ منْ هَذَا**»[٢] ومن ذهب إلى أن تركـه أفضل احـتج بقوله -عليه الصـلاة والسلام-: «**يدخل الجنة سـبعون ألـفًا بلا حساب**» ثم وصفهـم فقال «**لا يكتوون، ولا يسـترقون، ولا يتطيرون، وعلى ربهم يتوكلون**»[٣] وهذا لا ينافى التداوى. لأنه قـد كان أقوام يكتـوون لئلا يمرضوا ويسترقون لئلا تصيبهم نكبة، وقد كوى -عليه الصلاة والسلام- أسعد ابن زرارة[٤]، ورخص فى الرقية فى الحديث الصحيح[٥]. فعلمنا أن المراد ما أشرنا إليه.

وإذا عرفت الحاجة إلى إسهال الطبع، رأيت أن أكل البلوط مما يمنع عنه علمى، وشـرب مـاء التـمـر هندى أوفق، وهذا طب. فـإذا لم أشـرب مـا

---

(١) ضـعيف: أخـرجه أبو داود (٣٨٧٤) فى كـتاب الـطب، باب: فى الأدوية المكروهة من حديـث أبى الدرداء -رضي الله عنه-، والحديث ضـعفـه الشيخ الألبـانى، وهو فى «الصحـيح» (٥٦٧٨) بدون لفظ «فتداووا».

(٢) أخرجه الترمذى (٢٠٣٧) فى كتاب الطب، باب: مـا جاء فى الحمية من حديث أم المنذر -رضي الله عنها- ولكنه فيه بلفظ: «يا على من هذا فأصب، فإنه أوفق لك».

(٣) صحـيح: أخرجه البـخارى (٦٤٧٢) فى كتـاب الرقاق، باب: ﴿**ومن يتوكل على الله فهو حسبه**﴾ ومسلم (٢١٨) فى كتاب الإيمان، باب: الدليل على دخول طوائف من المسلمين الجنة بغير حساب، من حديث عمران بن حصين -رضي الله عنه-.

(٤) هو: أسعد بن زرارة، أبو أمامة الأنصارى الخزرجى، قديم الإسلام، شهد العقبتين، وكان نقيبًا على قـبيلته، ولم يكن فى النقباء أصغر منه، ويقـال: أنه أول من بايع ليلة العقبة، وأول من جمع بالمدينة، مات فى السنة الأولى من الهجرة.

(٥) صحيح: والحديث أخـرجه البخارى (٥٧٤١) فى كتاب الطب، باب: الـشرط فى الرقية بقطيع من الغنم، ومسلم (٢١٩٣) فى كـتاب السلام، باب: استحبـاب الرقية من العين والنملة والحمة والنظر، من حديث عائشة -رضي الله عنها-.

يوافـقنى، ثم قلت اللهم عافنى، قـالت لى الحكمـة: أما سمـعت «**اعقلـها وتوكل؟**»(١) اشرب وقل عافنى، ولا تكن كمن بين زرعه وبين النهر كف من تراب، تكاسل أن يرفعه بيده، ثم قام يصلى صلاة الاستسقاء. وما هذه الحالة إلا كحال من سافر على التجربة وإنما سـافر على التجربة لأنه يجرب ربه عز وجل هل يرزقـه أو لا، وقـد تقدم الأمـر إليـه: ﴿وَتَزَوَّدُوا﴾(٢) فقـال: لا أتزود. فهذا هالك قبل أن يهلكه.

ولو جـاء وقت صلاة وليس مـعه مـاءٌ ليم على تفريطه، وقـيل له هلا استصحبت الماء قبل المفازة، فالحذر الحذر من أفعال أقوام دققوا فمرقوا(٣) عن الأوضـاع الدينية، وظـنوا أن كمـال الدين بالخـروج عن الطبـاع، والمخالفـة للأوضـاع، ولولا قوة العلـم والرسوخ فـيه؛ لمـا قدرت على شـرح هذا ولا عرفته، فافهم ما أشرت إليـه، فهو أنفع لك من كراريس تسمعها، ولكن مع أهل المعانى لا مع أهل الحشو.

---

(١) حسن: أخرجه التـرمذى (٢٥١٧) فى كتاب صفة القـيامة، باب: رقـم (٦٠) من حديث أنس -رضي الله عنه-.

(٢) سورة البقرة: ١٩٧.

(٣) مرقوا: خرجوا.

العناية بالبدن والصبر والرضا

٥٢- **فصل** - تلمحت على خلق كثير من الناس إهمال أبدانهم فمنهم من لا ينظف فمه بالخلال بعد الأكل، ومنهم من لا ينقى يديه فى غسلها من الزهم(١)، ومنهم من لا يكاد يستاك، وفيهم من لا يكتحل، وفيهم من لا يراعى الإبط إلى غير ذلك؛ فيعود هذا الإهمال بالخلل فى الدين والدنيا، أما الدين فإنه قد أمر المؤمن بالتنظف والاغتسال للجمعة لأجل اجتماعه بالناس، ونهى عن دخول المسجد إذا أكل الثوم، وأمر الشرع بتنقية البراجم(٢) وقص الأظفار، والسواك، والاستحداد(٣) وغير ذلك من الآداب، فإذا أهمل ذلك ترك مسنون الشرع، وربما تعدى بعض ذلك إلى فساد العبادة، مثل أن يهمل أظفاره فيجمع تحته الوسخ المانع للماء فى الوضوء أن يصل.

وأما الدنيا فإنى رأيت جماعة من المهملين أنفسهم يتقدمون إلى السرار؛ والغفلة التى أوجبت إهمالهم أنفسهم؛ أوجب جهلهم بالأذى الحادث عنهم؛ فإذا أخذوا فى مناجاة السر؛ لم يمكن أن أصدف عنهم، لأنهم يقصدون السر؛ فألقى الشدائد من ريح أفواههم، ولعل أكثرهم من وقت انتباههم ما أمرّ أصبعه على أسنانه، ثم يوجب مثل هذا نفور المرأة وقد لا تستحسن ذكر ذلك للرجل فيثمر ذلك التفاتها عنه، وقد كان ابن عباس -رضي الله عنهما- يقول: إنى لأحب أن أتزين للمرأة كما أحب أن تتزين لى.

وفى الناس من يقول: هذا تصنع وليس بشىء؛ فإن الله تعالى زيننا لما خلقنا؛ لأن للعين حظًا فى النظر، ومن تأمل أهداب العين والحاجبين، وحسن ترتيب الخلقة، علم أن الله تعالى زين الآدمى، وقد كان النبى -صلى الله عليه وسلم-

---

(١) الزهم: رائحة الدسم.
(٢) البراجم: جمع برجم، وهى مفاصل الأصابع.
(٣) الاستحداد: حلق شعر العانة بالموسى.

أنظف الناس وأطيب الناس، وفي الحديث عنه -ﷺ- يرفع يديه؛ حتى تبين عفرة إبطيه، وكان ساقه ربما انكشف فكأنها جمارة[١]، وكان لا يفارقه السواك، وكان يكره أن يشم منه ريح ليست طيبة.

وفي حديث أنس الصحيح: «**ما شانه الله ببيضاء**»[٢]. وقد قالت الحكماء: من نظف ثوبه قل همه، ومن طاب ريحه زاد عقله، وقال -عليه الصلاة والسلام- لأصحابه: «**ما لكم تدخلون عليّ قلحًا**[٣]. **استاكوا**»[٤] وقد فضلت الصلاة بالسواك على الصلاة بغير سواك، فالمتنظف ينعم نفسه، ويرفع منها عتدها، وقد قال الحكماء: من طال ظفره قصرت يده، ثم إنه يقرب من قلوب الخلق، وتحبه النفوس لنظافته وطيبه، وقد كان النبي -ﷺ- يحب الطيب[٥].

ثم إنه يؤنس الزوجة بتلك الحال، فإن النساء شقايق الرجال، فكما أنه يكره الشيء منها فكذلك هي تكرهه، وربما صبر هو على ما يكره وهي لا تصبر، وقد رأيت جماعة يزعمون أنهم زهاد، وهم من أقذر الناس، وذلك أنهم ما قوّمهم العلم.

وأما ما يحكى عن داود الطائي: أنه قيل له لو سرحت لحيتك، فقال: إني عنها مشغول، فهذا قول معتذر عن العمل بالسنة، والأخبار عن غيبته عن نفسه بشدة خوفه من الآخرة، ولو كان مفيقًا لذلك لم يتركه، فلا يحتج بحال المغلوبين، ومن تأمل خصائص الرسول -ﷺ- رأى كاملاً في العلم والعمل، فيه يكون الاقتداء وهو الحجة على الخلق.

---

(١) الجمار: قلب النخلة.
(٢) صحيح: أخرجه مسلم (٢٣٤١) في كتاب: الفضائل، باب: شيبه -ﷺ-.
(٣) القلح: الصفار الذي يصيب الأسنان.
(٤) أخرجه الإمام أحمد في مسنده (١/ ٢١٤).
(٥) للحديث الصحيح الذي رواه النسائي (٧/ ٦١) في كتاب: عشرة النساء، باب: حب النساء، من حديث أنس، بلفظ: «حبب إلي من الدنيا الطيب والنساء، وجعل قرة عيني في الصلاة».

٥٣- فصل - تأملت مبالغة أرباب الدنيا فى اتقاء الحر والبرد؛ فرأيتها تعكس المقصود فى باب الحكمة، وإنما تحصل مجرد لذة ولا خير فى لذة تعقب ألمًا. فأما الحرّ فإنهم يشربون الماء المثلوج، وذلك على غاية فى الضرر، وأهل الطب يقولون: إنه يحدث أمراضًا صعبة يظهر أثرها فى وقت الشيخوخة، ويصنعون الخيوش المضاعفة، وفى البرد يصنعون اللبود المانعة للبرد، وهذا من حيث الحكمة مضاد ما وضعه الله تعالى؛ فإنه جعل الحر لتحلل الأخلاط، والبرد لجمودها، فيجعلون هم جميع السنة ربيعًا، فتنعكس الحكمة التى وضع الحر والبرد لها، ويرجع الأذى على الأبدان.

ولا يظنن سامع هذا أنى آمره بملاقاة الحر والبرد وإنما أقول له: لا يفرط فى التوقى، ويعرض فى الحر لما يحلل بعض الأخلاط إلى حد لا يؤثر فى القوة. وفى البرد بأن يصيبك منه الأمر القريب لا المؤذى، فإن الحر والبرد لمصالح البدن. وقد كان بعض الأمراء يصون نفسه من الحر[1] والبرد أصلاً فزاد جوفه فمات عاجلاً، وقد ذكرت قصته فى كتاب لقط المنافع فى علم الطب.

٥٤- فصل - ليس فى التكليف أصعب من الصبر على القضاء؛ ولا فيه أفضل من الرضا به، فأما الصبر: فهو فرض، وأما الرضا فهو فضل، وإنما صعب الصبر لأن القدر يجرى فى الأغلب بمكروه النفس، وليس مكروه النفس يقف على المرض والأذى فى البدن، بل هو يتنوع حتى يتحير العقل فى جريان القدر. فمن ذلك: أنك إذا رأيت مغموراً بالدنيا قد سالت له أوديتها حتى لا يدرى ما يصنع بالمال، فهو يصوغه أوانى يستعملها. ومعلوم أن البلور والعقيق والشبه، قد يكون أحسن منها صورة، غير أن قلة مبالاته بالشريعة جعلت عنده وجود النهى كعدمه، ويلبس الحرير، ويظلم الناس، والدنيا منصبة عليه، ثم يرى خلقًا من أهل الدين، وطلاب العلم مغمورين بالفقر والبلاء، مقهورين تحت ولاية تلك الظالم، فحينئذ يجد الشيطان طريقًا

(١) فى نسخة: فبرد الحر.

للوسواس، ويبتدى بالقدح فى حكمة القدر؛ فيحتاج المؤمن إلى صبر على ما يلقى من الضر فى الدنيا، وعلى جدال إبليس فى ذلك، وكذلك فى تسليط الكفار على المسلمين، والفساق على أهل الدين، وأبلغ من هذا إيلام الحيوان، وتعذيب الأطفال، ففى مثل هذه المواطن يتمحض الإيمان.

ومما يقوى الصبر على الحالتين النقل والعقل. أما النقل فالقرآن والسنة. أما القرآن فمنقسم إلى قسمين:

أحدهما: بيان سبب إعطاء الكافر والعاصى، فمن ذلك قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ لِيَزْدَادُوا إِثْمًا﴾(١)، ﴿وَلَوْلَا أَن يَكُونَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً لَّجَعَلْنَا لِمَن يَكْفُرُ بِالرَّحْمَٰنِ لِبُيُوتِهِمْ سُقُفًا مِّن فِضَّةٍ﴾(٢). ﴿وَإِذَا أَرَدْنَا أَن نُّهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا فِيهَا﴾(٣) وفى القرآن من هذا كثير.

والقسم الثانى: ابتلاء المؤمن بما يلقى؛ كقوله تعالى: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنكُمْ﴾(٤) ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُم مَّثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلِكُم مَّسَّتْهُمُ الْبَأْسَاءُ وَالضَّرَّاءُ وَزُلْزِلُوا﴾(٥) ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تُتْرَكُوا وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنكُمْ﴾(٦) وفى القرآن من هذا كثير.

وأما السنة فمقسمة إلى قول وحال. أما الحال: فإنه -ﷺ- كان يتقلب على حصير تؤثر فى جنبه، فبكى عمر -رضي الله عنه-. وقال: كسرى وقيصر فى الحرير والديباج، فقال له -ﷺ-: «**أفى شك أنت يا عمر؟ ألا ترضى أن تكون لنا الآخرة ولهم الدنيا؟**»(٧) وأما القول فكقوله -عليه الصلاة

(١) سورة آل عمران: ١٧٨.
(٢) سورة الزخرف: ٣٣.
(٣) سورة الإسراء: ١٦.
(٤) سورة آل عمران: ١٤٢.
(٥) سورة البقرة: ٢١٤.
(٦) سورة التوبة: ١٦.
(٧) صحيح: أخرجه البخارى (٨٩) فى العلم، باب: التناوب فى العلم، ومسلم (١٤٧٩) فى كتاب الطلاق، باب: فى الإيلاء واعتزال النساء وتخييرهن، من حديث عمر بن الخطاب -رضي الله عنه-.

والسلام-: **«لو أن الدنيا تساوى عند الله جناح بعوضة ما سقى كافراً منها شربة ماء»**(١).

وأما العقل: فإنه يقوى عساكر الصبر بجنود منها أن يقول: قد ثبتت عندى الأدلة القاطعة على حكمة المقدّر، فلا أترك الأصل الثابت لما يظنه الجاهل خللاً.

ومنها أن يقول: ما قد استهولته أيها الناظر من بسط يد العاصى هى قبض فى المعنى، وما قد أثر عندك من قبض يد الطائع بسط فى المعنى، لأن ذلك البسط يوجب عقابًا طويلاً، وهذا القبض يؤثر انبساطًا فى الأجر جزيلاً، فزمان الرجلين ينقضى عن قريب، والمراحل تطوى، والركبان فى الحثيث.

ومنها أن يقول: قد ثبت أن المؤمن بالله كالأجير، وأن زمن التكليف كبياض نهار، ولا ينبغى للمستعمل فى الطين أن يلبس نظيف الثياب، بل ينبغى أن يصابر ساعات العمل، فإذا فرغ تنظّف ولبس أجود ثيابه. فمن ترفّه وقت العمل ندم وقت تفريق الأجرة. وعوقب على التوانى فيما كلف، فهذه النبذة تقوى أزر الصبر، وأزيدها بسطًا فأقول: أترى إذا أريد اتخاذ شهداء، فكيف لا يُخلق أقوام يبسطون أيديهم لقتل المؤمنين، أفيجوز أن يفتك بعمر إلا مثل أبى لؤلؤة؟ وبعلىّ إلا مثل ابن ملجم؟ أفيصح أن يقتل يحيى بن زكريا إلا جبار كافر، ولو أن عين الفهم زال عنها غشاء العشا(٢)؛ لرأيت المسبب لا الأسباب، والمقدر لا الأقدار، فصبرت على بلائه، إيثاراً لما يريد، ومن هنا ينشأ الرضا، كما قيل لبعض أهل البلاء: ادع الله بالعافية، فقال: أحبُّه إلىَّ أحبُّه إلى الله عز وجل.

إن كان رضاكم فى سهرى فسلام الله على وسنى(٣)

---

(١) أخرجه الترمذى (٢٣٢٠) فى كتاب: الزهد، باب: ما جاء فى هوان الدنيا على الله عز وجل من حديث سهل بن سعد -رضي الله عنه-.

(٢) العشا: مرض يصيب العين فلا يجعلها ترى بالليل.

(٣) الوسن: مقدم النوم.

٥٥- فصل - لما أنهيت كتابة الفصل المتقدم هتف بى هاتف من باطنى: دعنى من شرح الصبر على الأقدار، فإنى قد اكتفيت بأنموذج ما شرحت، وصف حال الرضا؛ فإنى أجد نسيمًا من ذكره فيه روح للروح، فقلت: أيها الهاتف اسمع الجواب، وافهم الصواب.

إن الرضا من جملة ثمرات المعرفة، فإذا عرفته رضيت بقضائه، وقد يجرى فى ضمن القضاء مرارات؛ يجد بعض طعمها الراضى، أما العارف فتقل عنده المرارات لقوة حلاوة المعرفة، فإذا ترقى بالمعرفة إلى المحبة، صارت مرارة الأقدار حلاوة كما قال القائل:

عذابه فيك عذب ... وبعدك فيه قرب
وأنت عندى كروحى ... بل أنت منها أحب
حسبى من الحب أنى ... لما تحب أحب

وقال بعض المحبين فى هذا المعنى:

ويقبح من سواك الفعل عندى ... فتفعله فيحسن منك ذاكا

فصاح بى الهاتف؛ حدثنى بماذا أرضى؟ قدر أنى أرضى فى أقداره بالمرض والفقر، أفأرضى بالكسل عن خدمته، والبعد عن أهل محبته؟ فبين لى ما الذى يدخل تحت الرضا مما لا يدخل؟ فقلت له: نعم ما سألت؛ فاسمع الفرق سماع من ألقى السمع وهو شهيد، ارض بما منه. فأما الكسل والتخلف فذاك منسوب إليك، فلا ترض به من فعلك، وكن مستوفيًا حقه عليك، مناقشًا نفسك فيما يقربك منه، غير راض منها بالتوانى فى المجاهدة، فأما ما يصدر من أقضيته المجردة التى لا كسب لك فيها. فكن راضيًا بها؛ كما قالت رابعة رحمة الله عليها وقد ذكر عندها رجل من العباد يلتقط من مزبلة فيأكل، فقيل: هلاّ سأل الله تعالى أن يجعل رزقه من غير هذا؟ فقالت: إن الراضى لا يتخير، ومن ذاق طعم المعرفة وجد فيه طعم المحبة، فوقع الرضا عنده ضرورة، فينبغى الاجتهاد فى طلب المعرفة بالأدلة، ثم

العمل بمقتضى المعرفة بالجد فى الخدمة، لعل ذلك يورث المحبة، فقد قال سبحانه وتعالى: **«لا يزال العبد يتقرب إلىّ بالنوافل حتى أحبه؛ فإذا أحببته كنت سمعه الذى يسمع به، وبصره الذى يبصر به»**[1]. فذلك الغنى الأكبر، ووافقراه.

٥٦- فصل - رأيت جمهور العلماء يشغلهم طلبهم للعلم فى زمن الصبا عن المعاش، فيحتاجون إلى ما لابد منه، فلا يصلهم من بيت المال شيء، ولا من صلات الإخوان ما يكفى، فيحتاجون إلى التعرض بالأذلّ، فلم أر فى ذلك من الحكمة إلا سببين:

أحدهما: قمع إعجابهم بهذا الإذلال.

والثانى: نفع أولئك بثوابهم، ثم أمعنت الفكر فتلمحت نكتة لطيفة، وهو أن النفس الأبية إذا رأت حال الدنيا كذلك، لم تساكنها بالقلب، ونبت عنها بالعزم، ورأت أقرب الأشياء شبهًا بها مزبلة عليها الكلاب، أو غائطًا يؤتى لضرورة، فإذا نزل الموت بالراحلة عن مثل هذه الدار، لم يكن للقلب بها متعلق متمكن فتهون حينئذ.

(١) صحيح: أخرجه البخارى (٦٥٠٢) فى كتاب الرقاق، باب: التواضع.

الانبساط فى المخالفات والمباحات

٥٧- فصل - ما زال جماعة من المتزهدين يزرون على كثير من العلماء إذا انبسطوا فى مباحات، والذى يحملهم على هذا الجهل؛ فلو كان عندهم فضل علم ما عابوهم؛ وهذا لأن الطباع لا تتساوى، فرب شخص يصلح على خشونة العيش، وآخر لا يصلح على ذلك، ولا يجوز لأحد أن يحمل غيره على ما يطيقه هو.

غير أن لنا ضابطًا هو الشرع، فيه الرخصة وفيه العزيمة؛ فلا ينبغى أن يلام من حصر نفسه فى ذلك الضابط، ورب رخصة كانت أفضل من عزائم، لتأثير نفعها، ولو علم المتزهدون أن العلم يوجب المعرفة بالله تعالى؛ فتنبتّ القلوب من خوفه، وتنحل الأجسام للحذر منه فوجب التلطف بالأجسام حفظًا لقوة الراحلة. ولأن آلة العلم والحفظ القلب والفكر، فإذا رفهت الآلة جاد العمل، وهذا أمر لا يعلم إلا بالعلم، فلجهل المتزهدين بالعلم أنكروا ما لم يعلموا، وظنوا أن المراد إتعاب الأبدان، وإنضاء الرواحل(١)، وما علموا أن الخوف المضنى يحتاج إلى راحة مقاومة، كما قال القائل: روحوا القلوب تعى الذكر.

٥٨- فصل - ليس فى الوجود شىء أشرف من العلم، كيف لا وهو الدليل؛ فإذا عدم وقع الضلال.

وإن من خفىّ مكائد الشيطان أن يزين فى نفس الإنسان التعبد؛ ليشغله عن أفضل التعبد وهو العلم، حتى أنه زين لجماعة من القدماء أنهم دفنوا كتبهم ورموها فى البحر، وهذا قد ورد عن جماعة، وأحسن ظنى بهم أن أقول: كان فيها شىء من رأيهم وكلامهم فما أحبوا انتشاره، وإلا فمتى كان

(١) أى: تهزيلها وإضعافها

فيها علم مفيد صحيح لا يخاف عواقبه؛ كان رميها إضاعة للمال لا يحل، وقد دنت حيلة إبليس إلى جماعة من المتصوفة حتى منعوا من حمل المحابر تلامذتهم، حتى قال جعفر الخلدى[١]: لو تركنى الصوفية جئتكم بإسناد الدنيا، كتبت مجلسًا عن أبى العباس الدورى فلقينى بعض الصوفية فقال: دع علم الورق، وعليك بعلم الخرق. ورأيت محبرة مع بعض الصوفية فقال له صوفى: استر عورتك، وقد أنشدوا للشبلى:

إذا طالبونى بعلم الورق برزت عليهم بعلم الخرق

وهذا من خفى حيل إبليس، ولقد صدق عليهم إبليس ظنه، وإنما فعل وزينه عندهم لسببين: أحدهما: أنه أرادهم يمشون فى الظلمة، والثانى: أن تصفح العلم كل يوم يزيد فى العالم، ويكشف له ما كان خفى عنه، ويقوى إيمانه ومعرفته، ويريه عيب كثير من مسالكه إذا تصفح منهاج الرسول -ﷺ-، والصحابة، فأراد إبليس سد تلك الطرق بأخفى حيلة، فأظهر أن المقصود العمل لا العلم لنفسه، وخفى على المخدوع أن العلم عمل وأى عمل، فاحذر من هذه الخديعة الخفية، فإن العلم هو الأصل الأعظم، والنور الأكبر.

وربما كان تقليب الأوراق أفضل من الصوم والصلاة، والحج والغزو، وكم من معرض عن العلم يخوض فى عذاب من الهوى فى تعبده، ويضيع كثيراً من الفرض بالنفل، ويشتغل بما يزعمه الأفضل عن الواجب، ولو كانت عنده شعلة من نور العلم لاهتدى، فتأمل ما ذكرت لك ترشد إن شاء الله تعالى.

٥٩- فصل - مرَّ بى حمّالان تحت جذع ثقيل وهما يتجاوبان بإنشاد التنغم، وكلمات الاستراحة، فأحدهما يصغى إلى ما يقوله الآخر ثم يعيده أو يجيبه بمثله، والآخر همته مثل ذلك؛ فرأيت أنهما لو لم يفعلا هذا زادت

---

(١) هو: جعفر بن محمد بن نصير بن القاسم الخلدى، أحد الصوفية، صحب الجنيد، لم أقف على تاريخ وفاته.

المشقة عليهما، وثقل الأمر، وكلما فعلا هذا هان الأمر، فتأملت السبب فى ذلك؛ فإذا به تعليق فكر كل واحد منهما بما يقوله الآخر، وطربه به، وإجالة فكره فى الجواب بمثل ذلك؛ فينقطع الطريق، وينسى ثقل المحمول، فأخذت من هذا إشارة عجيبة، ورأيت الإنسان قد حمل من التكليف أموراً صعبة، ومن أثقل ما حمل مداراة نفسه، وتكليفها الصبر عما تحب، وعلى ما تكره، فرأيت الصواب قطع طريق الصبر بالتسلية والتلطف للنفس، كما قال الشاعر:

فإن تشكّت فعلّلها المجرةَ من ضوءِ الصباح وعِدْها بالرواح ضُحى

ومن هذا ما يُحكى عن بشر الحافى رحمة الله عليه: سار ومعه رجل فى طريق؛ فعطش صاحبه. فقال له: أنشرب من هذا البئر؟ فقال بشر: اصبر إلى البئر الآخر، فلما وصلا إليها قال له: البئر الأخرى؛ فما زال يعلله. ثم التفت إليه فقال له: هكذا تنقطع الدنيا؛ ومن فهم هذا الأصل علل النفس، وتلطف بها، ووعدها الجميل؛ لتصبر على ما قد حملت.

كما كان بعض السلف يقول لنفسه: والله ما أريد بمنعك من هذا الذى تحبين إلا الإشفاق عليك.

وقال أبو يزيد[١] رحمة الله عليه: ما زلت أسوق نفسى إلى الله تعالى وهى تبكى؛ حتى سقتها وهى تضحك.

واعلم أن مداراة النفس والتلطف بها لازم، وبذلك ينقطع الطريق فهذا رمز إلى الإشارة، وشرحه يطول.

٦٠- فصل - تأملت أشياء تجرى فى مجالس الوعظ، يعتقدها العوام وجهال العلماء قربة وهى منكر وبعد، وذاك أن المقرئ يطرب ويخرج الألحان إلى الغناء، والواعظ ينشد بتطريب أشعار المجنون وليلى، فيصفق هذا، ويخرق ثوبه هذا؛ ويعتقد أن ذلك قربة، ومعلوم أن هذه الألحان كالموسيقى، يوجب طربًا للنفوس، فالتعرض بما يوجب الفساد غلط عظيم، وينبغى الاحتساب على الوعاظ فى هذا. وكذلك المقابريون منهم؛ فإنهم يهيجون

(١) هو: أبو يزيد البسطامى، وقد تقدمت ترجمته.

الأحزان ليكثر بكاء النساء؛ فيعطون على ذلك الأجرة، ولو أنهم أمروا بالصبر لم ترد النسوة ذلك، وهذه أضداد للشرع.

قال ابن عقيل: حضرنا عـزاء رجل قد مات له ولد، فقرأ المقرئ: ﴿يَا أَسَفَىٰ عَلَىٰ يُوسُفَ﴾[1]، فقلت له: هذه نياحة بالقرآن.

وفى الوعـاظ من يتكلم على طريق المعـرفـة والمحبـة، فـترى الحـائك والسـوقى الذى لا يعرف فـرائض تلك الصلاة يمزق أثوابـه دعوى لمحـبة الله تعالـى، والصافى حالاً مـنهم وهو أصلحهم، يتـخايل بوهمـه شخـصًا هو الخالق، فيـبكيه شوقًا إليـه لما يسمع من عظمتـه ورحمته وجمـاله، وليس ما يتخايلونه المعبود، لأن المعبود لا يقع فى خيال، وبعد هذا فالتحقيق مع العوام صعب، ولا يكادون ينتـفعون بمـر الحق؛ إلا أن الواعظ مأمور بأن لا يتـعدى الصواب، ولا يتعرض لما يفسـدهم؛ بل يجذبهم إلى ما يصلح بألطف وجه، وهذا يحتاج إلى صناعة، فإن من العـوام من يعجبه حسن اللفظ، ومنهم من يعجبه الإشارة، ومنهم من ينقاد ببـيت من الشعر، وأحوج الناس إلى البلاغة الواعظ ليجمع مطالبهم، لكنه ينبغى أن ينظر فى اللازم الواجب، وأن يعطيهم من المبـاح فى اللفظ؛ قـدر الملح فى الطعـام، ثم يجـتـذبهم إلى العـزائم، ويعرفهم الطريق الحق.

وقد حضر أحـمد بن حنبل؛ فسمع كلام الحارث المحـاسبى فبكى، ثم قال: لا يعـجبنى الحـضور، وإنما بكى لأن الحـال أوجبت البكاء، وقـد كان جماعة من السلف يرون تخليط القصاص؛ فينهون عن الحضور عندهم.

وهذا على الإطلاق لا يحـسن اليـوم لأنه كـان الناس فى ذلك الزمـان متشاغلين بالعلم، فرأوا حضور القصص صادًّا لهم، واليوم كثر الإعراض عن العلم، فأنفع مـا للعامى مجلس الوعظ، يرده عن ذنب، ويحـركه إلى توبة، وإنما الخلل فى القاص؛ فليتق الله عز وجل.

٦١- فصل - من أضـر الأشيـاء على العوام كـلام المتأولين، والنفـاة

---

(١) [illegible]

للصفات والإضافات، فإن الأنبياء عليهم الصلاة والسلام بالغوا في الإثبات ليتقرر في أنفس العوام وجود الخالق، فإن النفوس تأنس بالإثبات فإذا سمع العامي ما يوجب النفي طرد عن قلبه الإثبات، فكان أعظم ضرر عليه، وكأن هذا المنزه من العلماء على زعمه، مقاومًا لإثبات الأنبياء عليهم الصلاة والسلام بالمحو، وشارعًا في إبطال ما يفتون به، وبيان هذا أن الله تعالى أخبر باستوائه على العرش، فأنست النفوس إلى إثبات الإله ووجوده.

قال تعالى: ﴿وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ﴾(١).

وقال تعالى: ﴿بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ﴾(٢).

وقال ﴿وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ﴾(٣).

وقال: ﴿رَّضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ﴾(٤).

وأخبر أنه ينزل إلى السماء الدنيا. وقال: «قلوب العباد بين أصبعين»(٥)، وقال: «كتب التوراة بيده(٦)، وكتب كتابًا فهو عنده فوق العرش»(٧)، إلى غير ذلك مما يطول ذكره. فإذا امتلأ العامي والصبي من الإثبات، وكاد يأنس من الأوصاف بما يفهمه الحسّ قيل له: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾(٨) فمحى من قلبه ما نقشه الخيال، وتبقى ألفاظ الإثبات متمكنة،

(١) سورة الرحمن: ٢٧.
(٢) سورة المائدة: ٦٤.
(٣) سورة الفتح: ٦.
(٤) سورة المائدة: ١١٩.
(٥) صحيح: أخرجه مسلم (٢٦٥٤) في كتاب: القدر، باب: تصريف الله تعالى القلوب كيف شاء من حديث عبد الله بن عمرو بن العاص -رضي الله عنهما-.
(٦) صحيح: أخرجه البخاري (٦٦١٤) في كتاب: القدر، باب: تحاج آدم وموسى عند الله، ومسلم (٢٦٥٢) في كتاب: القدر، باب: حجاج آدم وموسى عليهما السلام، وابن ماجه (٨٠) في المقدمة، باب: في القدر واللفظ له من حديث أبي هريرة -رضي الله عنه-.
(٧) صحيح: أخرجه البخاري (٧٥٥٤) في كتاب: التوحيد، باب: قول الله تعالى: ﴿بل هو قرآن مجيد، في لوح محفوظ﴾، ومسلم (٢٧٥١) في كتاب: التوبة، باب: في سعة رحمة الله تعالى، وأنها سبقت غضبه من حديث أبي هريرة -رضي الله عنه-.
(٨) سورة الشورى: ١١.

ولهذا أقر الشرع على مثل هذا، فسمع منشدًا يقول: وفوق العرش رب العالمين، فضحك وقال له آخر: أو يضحك ربنا؟ فقال: نعم، وقال: إنه على عرشه هكذا، كل هذا ليقرر الإثبات فى النفوس، وأكثر الخلق لا يعرفون الإثبات إلا على ما يعلمون من الشاهد، فيقنع منهم بذلك إلى أن يفهموا التنزيه، ولهذا صح إسلام[1] من انفتل بالسجود.

فأما إذا ابتدئ بالعامى الفارغ من فهم الإثبات فقلنا: ليس فى السماء، ولا على العرش، ولا يوصف بيد، وكلامه صفة قائمة بذاته، وليس عندنا منه شىء، ولا يتصور نزوله، انمحى من قلبه تعظيم المصحف، ولم يترصع فى سره إثبات إله، وهذه جناية عظيمة على الأنبياء؛ توجب نقض ما تعبوا فى بيانه.

ولا يجوز لعالم أن يأتى إلى عقيدة عامى قد أنس بالإثبات فيهوشها[2]، فإنه يفسده ويصعب صلاحه، فأما العالم فإنا قد أمناه لأنه لا يخفى عليه استحالة تجدد صفة الله تعالى، وأنه لا يجوز أن يكون استوى كما يعلم، ولا يجوز أن يكون محمولاً، ولا أن يوصف بملاصقة ومس، ولا أن ينتقل، ولا يخفى عليه أن المراد بتقليب القلوب بين أصبعين، الإعلام بالتحكم فى القلوب؛ فإن ما يدبره الإنسان بين أصبعين هو متحكم فيه إلى الغاية، ولا يحتاج إلى تأويل من قال الإصبع: الأثر الحسن.

فالقلوب بين أثرين من آثار الربوبية، وهما الإقامة والإزاغة، ولا إلى تأويل من قال: يداه نعمتاه، لأنه إذا فهم أن المقصود الإثبات، وقد حدثنا بما نعقل، وضربت لنا الأمثال بما نعلم، وقد ثبت عندنا بالأصل المقطوع به أنه لا يجوز عليه ما يعرفه الحس، علمنا المقصود بذكر ذلك.

وأصلح ما نقول للعوام: أمرّوا هذه الأشياء كما جاءت، ولا تتعرضوا لتأويلها، وكل ذلك يقصد به حفظ الإثبات، وهذا الذى قصده السلف. وكان

---

(١) كذا بالأصل.

(٢) أى: يجعلها عرضة للفتنة والاضطراب.

أحمد يمنع من أن يقال: لفظى بالقرآن مخلوق أو غير مخلوق، كل ذلك ليحمل على الاتباع، وتبقى ألفاظ الإثبات على حالها، وأجهل الناس من جاء إلى ما قصد النبى -ﷺ- تعظيمه؛ فأضعف فى النفوس قوى التعظيم.

قال النبى -ﷺ-: «**لا تسافروا بالقرآن إلى أرض العدو**»(١) -يشير إلى المصحف-.

ومنع الشافعى أن يحمله المحدث بعلاقته تعظيمًا له، فإذا جاء متحذلق فقال: الكلام صفة قائمة بذات المتكلم، فمعنى قوله هذا إن ما ها هنا شيء يحترم، فهذا قد ضاد بما أتى به مقصود الشرع، وينبغى أن يفهم أوضاع الشرع ومقاصد الأنبياء عليهم الصلاة والسلام، وقد منعوا من كشف ما قد قنع الشرع، فنهى رسول الله -ﷺ- عن الكلام فى القدر(٢)، ونهى على(٣) الاختلاف(٤). لأن هذه الأشياء تخرج إلى ما يؤذى، فإن الباحث عن القدر إذا بلغ فهمه إلى أن يقول: قضى، وعاقب تزلزل إيمانه بالعدل، وإن قال: لم يقدر ولم يقض؛ تزلزل إيمانه بالقدرة والملك، فكان الأولى ترك الخوض فى هذه الأشياء، ولعل قائلاً يقول: هذا منع لنا عن الاطلاع على الحقايق، وأمر بالوقوف مع التقليد، فأقول: لا إنما أعلمك أن المراد منك الإيمان بالجمل، وما أمرت بالتنقير مع أن قوى فهمك تعجز عن إدراك الحقائق؛ فإن الخليل -عليه الصلاة والسلام- قال: ﴿أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِي﴾(٥) فأراه ميتًا أحيى، ولم يره كيف أحياه؛ لأن قواه تعجز عن إدراك ذلك. وقد كان النبى -ﷺ- بعث ليبين

(١) صحيح: أخرجه البخارى (٢٩٩٠) فى كتاب: الجهاد والسير، باب: كراهية السفر بالمصاحف إلى أرض العدو، ومسلم (١٨٦٩) فى كتاب: الإمارة، باب: النهى أن يسافر بالقرآن إلى أرض العدو من حديث ابن عمر -رضي الله عنهما- بلفظ: أن رسول الله -ﷺ- نهى أن يسافر بالقرآن إلى أرض العدو.

(٢) صحيح: أخرجه ابن ماجه (٨٥) فى المقدمة، باب: فى القدر، من حديث عبد الله بن عمرو -رضي الله عنهما-، والحديث صححه الشيخ الألبانى.

(٣) لعل الأصح: عن.

(٤) صحيح: والحديث أخرجه البخارى (٣٤٧٦) فى كتاب: أحاديث الأنبياء، باب: حديث الغار، من حديث ابن مسعود -رضي الله عنه-.

(٥) سورة البقرة: ٢٦٠.

للناس ما نزل إليهم. يقنع من الناس بنفس الإقرار واعتقاد الجمل، وكذلك كانت الصحابة، فما نقل عنهم أنهم تكلموا فى تلاوة ومتلو، وقراءة ومقروء، ولا أنهم قالوا استوى، بمعنى استولى وينزل بمعنى يرحم، بل قنعوا بإثبات الجمل التى تثبت التعظيم عند النفوس، وكفوا كف الخيال بقوله: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾(١).

ثم هذا منكر ونكير إنما يسألان عن الأصول المجملة فيقولان: من ربك؟ وما دينك؟ ومن نبيك؟ ومن فهم هذا الفصل سلم من تشبيه المجسمة، وتعطيل المعطلة، ووقف على جادة السلف الأول، والله الموفق.

٦٢- فصل - قرأت هذه الآية: ﴿أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَخَذَ اللَّهُ سَمْعَكُمْ وَأَبْصَارَكُمْ وَخَتَمَ عَلَىٰ قُلُوبِكُم مَّنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُم بِهِ﴾(٢)، فلاحت لى منها إشارة كدت أطيش منها، وذلك أنه إن كان عنى بالآية نفس السمع والبصر فإن السمع آلة لإدراك المسموع، والبصر آلة لإدراك المبصرات، فهما يعرضان ذلك على القلب، فيتدبر، ويعتبر. فإذا عرضت المخلوقات على السمع والبصر، فأوصلا إلى القلب أخبارها من أنها تدل على الخالق، وتحمل على طاعة الصانع، وتحذر من بطشه عند مخالفته.

وإن عنى معنى السمع والبصر، فذلك يكون بذهولهما عن حقائق ما أدركا شغلاً بالهوى؛ فيعاقب الإنسان بسلب معانى تلك الآلات، فيرى وكأنه ما رأى، ويسمع وكأنه ما سمع، والقلب ذاهل عن ما يتأدى به، فيبقى الإنسان خاطئًا على نفسه لا يدرى ما يراد به؛ لا يؤثر عنده أنه يبلى، ولا تنفعه موعظة تجلى، ولا يدرى أين هو، ولا المراد منه، ولا إلى أين يحمل، وإنما يلاحظ بالطبع مصالح عاجلته ولا يتفكر فى خسران آجلته، لا يعتبر برفيقه، ولا يتعظ بصديقه، ولا يتزود لطريقه كما قال الشاعر:

الناس فى غفلة والموت يوقظهم ... وما يفيقون حتى ينفد العمر

---

(١) سورة الشورى: ١١.
(٢) سورة الأنعام: ٤٦.

يشيّعون أهاليهم بجمعهم ... وينظرون إلى ما فيه قد فتروا
ويرجعون إلى أحلام غفلتهم ... كأنهم ما رأوا شيئًا ولا نظروا

وهذه حالة أكثر الناس، فنعوذ بالله من سلب فوائد الآلات، فإنها أقبح الحالات.

٦٣- فصل - نظرت فيما تكلم به الحكماء فى العشق وأسبابه وأدويته وصنفت فى ذلك كتابًا سميته (ذم الهوى) وذكرت فيه عن الحكماء أنهم قالوا سبب العشق حركة نفس فارغة، وأنهم اختلفوا، فقال قوم منهم: لا يعرض العشق إلا لظراف الناس. وقال آخرون: بل لأهل الغفلة منهم عن تأمل الحقائق، إلا أنه خطر لى بعد ذلك معنى عجيب أشرحه هاهنا: وهو أنه لا يتمكن العشق إلا مع واقف جامد، فأما أرباب صعود الهمم فإنها كلما تخايلت ما توجبه المحبة فلاحت عيوبه لها، إما بالفكر فيه أو بالمخالطة له، تسلت وتعلقت بمطلوب آخر؛ فلا يقف على درجة العشق الموجب للتمسك بتلك الصورة العامى عن عيوبها إلا جامد واقف.

وأما أرباب الأنفة[1] من النقائص، فإنهم أبدًا فى الترقى، لا يصدّهم صاد فإذا علقت الطباع محبة شخص لم يبلغوا مرتبة العشق المستأثر، بل ربما مالوا ميلاً شديدًا؛ أما فى البداية فلقلة التفكر، أو لقلة المخالطة، والاطلاع على العيوب، وإما لتشتت بعض الخلال الممدوحة بالنفوس من جهة مناسبة وقعت بين الشخصين، كالظريف مع الظريف، والفطن مع الفطن، فيوجب ذلك المحبة، فأما العشق فلا يفهم أبدًا فى السير فلا يوقف وابل الطبع حتى يتبع حادى الفهم؛ فإن للطبع متعلقًا لا نجده فى الدنيا، لأنه يروم ما لا يصح وجوده من الكمال فى الأشخاص، فإذا تلمح عيوبها نفر، وأما متعلق القلوب من محبة الخالق البارئ؛ فهو مانع لها من الوقوف مع سواه، وإن كانت محبته لا تجانس محبة المخلوقين، غير أن أرباب المعرفة ولَهى؛ قد شغلهم حبه عن حب غيره، وصارت الطباع مستغرقة لقوة معرفة القلوب ومحبتها كما قالت رابعة:

---

(١) الأنفة: العزة.

أحب حبيبًا لا أُعاب بحبه وأحببتم من فى هواه عيوب

ولقد روى عن بعض فقراء الزهاد أنه مر بامرأة فأعجبته، فخطبها إلى أبيها، فزوجه، وجاء به إلى المنزل وألبسه غير خلقانه، فلما جنَّ الليل صاح الفقير ثيابى ثيابى؛ فقدت ما كنت أجده، فهذه عثرة فى طريق هذا الفقير دلته على أنه منحرف عن الجادة، وإنما تعترى هذه الحالات أرباب المعرفة بالله عز وجل وأهل الأنفة من الرذائل.

وقد قال ابن مسعود: إذا أعجبت أحدكم امرأة فليتذكر مثانّها، ومثال هذه الحال أن العقل يغيب عند استخلاء تناول المشتهى من الطعام عن التفكر فى تقلبه فى الفم وبلعه، ويذهل عند الجماع عن ملاقات القاذورات لقوة غلبة الشهوة، وينسى عند بلع الرضاب(١) استحالته عند الغذاء، وفى تغطية تلك الأحوال مصالح، إلا أن أرباب اليقظة يعتريهم من غير طلب لها فى غالب أحوالهم، فينغص عليهم لذيذ العيش، ويوجب الأنفة من رذالة الهوى، وعلى قدر النظر فى العواقب يخف العشق عن قلب العاشق، وعلى قدر جمود الذهن يقوى القلق، قال المتنبى:

لو فكر العاشق فى منتهى حسن الذى يسبيه لم يسبه

ومجموع ما أردت شرحه أن طباع المتيقظين تترقى فلا تقف مع شخص مستحسن، وسبب ترقيها التفكر فى نقص ذلك الشخص وعيوبه، أو فى طلب ما هو أهم منه، وقلوب العارفين تترقى إلى معروفها، فيعتبر فى معبر الاعتبار، فأما أهل الغفلة فجمودهم فى الحالتين، وغفلتهم عن المقامين يوجب أسرهم وقسرهم وحيرتهم.

٦٤- فصل - عرض لى أمر يحتاج إلى سؤال الله عز وجل ودعائه، فدعوت وسألت، فأخذ بعض أهل الخير يدعو معى، فرأيت نوعًا من أثر الإجابة، فقالت لى نفسى هذا بسؤال ذلك العبد لا بسؤالك، فقلت لها: أما أنا فإنى أعرف من نفسى من الذنوب والتقصير ما يوجب منع الجواب، غير

(١) الرضاب: الريق.

أنه يجوز أن يكون أنا الذى أجبت، لأن هذا الداعى الصالح سليم مما أظنه من نفسى، إذ معى انكسار تقصيرى ومعه الفرح بمعاملته، وربما كان الاعتراف بالتقصير أنجح فى الحوائج، على أننى أنا وهو نطلب من الفضل لا بأعمالنا، فإذا وقفت أنا على قدم انكسار معترفًا بذنوبى، وقلت أعطونى بفضلكم فمالى فى سؤالى شىء أجبت به، وربما تلمح ذاك حسن عمله وكان صادًا له، فلا تكسرينى أيتها النفس فيكفينى كسر علمى بى لى، ومعى من العلم الموجب للأدب والاعتراف بالتقصير، وشدة الفقر إلى ما سألت، ويقينى بفضل المطلوب عنه، ما ليس مع ذلك العابد، فبارك الله فى عبادته، فربما كان اعترافى بتقصيرى أوفى.

٦٥- **فصل** - قرأت من غرائب العلم، وعجائب الحكم على بعض من يدعى العلم، فرأيته يتلوى من سماع ذلك، ولا يطلع على غوره، ولا يشرأب إلى ما يأتى، فصرفت عن أسماعه شيئًا آخر، وقلت: إنما يصلح مثل هذا لذى لب يتلقاه تلقى العطشان للماء، ثم أخذت من هذه إشارة -جعلت- لو كان هذا يفهم ما جرى، ومدحنى لحسن ما صنعت لعظم قدره عندى، ولأريته محاسن مجموعاتى وكلامى، ولكنى لما لم أره أهلاً صرفتها عنه، وصدفت بنظرى إليه وكانت الإشارة أن الله عز وجل: قد صنف هذه المخلوقات فأحسن التركيب، وأحكم الترتيب، ثم عرضها على الألباب، فأى لب أوغل فى النظر مدح على قدر فهمه فأحبه المصنف، وكذلك أنزل القرآن يحتوى على عجائب الحكم، فمن فتشه بيد الفهم وحادثه فى خلوة الفكر، استجلب رضا المتكلم به وحظى الزلفى لديه، ومن كان للذهن مستغرق الفهم بالحسيات، صرف عن ذلك المقام، قال الله عز وجل: ﴿سَأَصْرِفُ عَنْ آيَاتِيَ الَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي الأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ﴾(١).

(١) سورة الأعراف: ١٤٦.

التدين علم وعمل

٦٦- **فصل** - دعوت يومًا فقلت: اللهم بلغني آمالي من العلم والعمل، وأطل عمري لأبلغ ما أحب من ذلك، فعارضني وسواس من إبليس، فقال: ثم ماذا أليس الموت، فما الذي ينفع طول الحياة؟ فقلت له: يا أبله لو فهمت ما تحت سؤالي علمت أنه ليس بعبث، أليس في كل يوم يزيد علمي ومعرفتي، فتكثر ثمار غرسي فأشكر، يعني يوم حصادي؟[(١)] أفيسرني أني مت منذ عشرين سنة، لا والله؟ لأني ما كنت أعرف الله تعالى عشر معرفتي به اليوم وكل ذلك ثمرة الحياة التي فيها اجتنيت أدلة الوحدانية، وارتقيت عن حضيض التقليد إلى بقاع البصيرة، واطلعت على علوم زاد بها قدري، وتجوهرت بها نفسي، ثم زاد غرسي لآخرتي، وقويت تجارتي في إنقاذ المباضعين من المتعلمين، وقد قال لسيد المرسلين: ﴿**وَقُل رَّبِّ زِدْنِي عِلْمًا**﴾[(٢)].

وفي صحيح مسلم من حديث أبي هريرة -رضي الله عنه-.

عن النبي -صلى الله عليه وسلم- أنه قال: «**لا يزيد المؤمن عمره إلا خيراً**»[(٣)].

وفي حديث جابر بن عبد الله -رضي الله عنهما-، قال: قال رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: «**إن من السعادة أن يطول عمر العبد ويرزقه الله عز وجل الإنابة**»[(٤)] فيا ليتني قدرت على عمر نوح، فإن العلم كثير، وكلما حصل منه حاصل رفع ونفع.

---

(١) في نسخة: فاستكثر بذري يوم حصادي.

(٢) سورة طه: ١١٤.

(٣) صحيح: أخرجه مسلم (٢٦٨٢) في كتاب: الذكر والدعاء، باب: كراهة تمني الموت لضر نزل به، من حديث أبي هريرة -رضي الله عنه-.

(٤) ضعيف: أخرجه الإمام أحمد في «مسنده» (٣/ ٣٣٢) والحديث ضعفه الشيخ الألباني في «ضعيف الجامع» (٢٠٠٦).

٦٧- **فصل** - قلوب العارفين يغار عليها من الأسباب وإن كانت لا تساكنها؛ لأنها لما انفردت لمعرفتها انفرد لها بتولى أمورها، فإذا عرضت بالأسباب محى أثر الأسباب: ﴿**وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنكُمْ شَيْئًا**﴾(١) وتأمل فى حال يعقوب وحذره على يوسف -عليهما السلام-. حتى قال: ﴿**أَخَافُ أَن يَأْكُلَهُ الذِّئْبُ**﴾(٢). فقالوا: ﴿**أَكَلَهُ الذِّئْبُ**﴾(٣) فلما جاء أوان الفرج، خرج يهودا بالقميص فسبقه الريح ﴿**إِنِّي لَأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ**﴾(٤) وكذلك قول يوسف -عليه السلام- للساقى: ﴿**اذْكُرْنِي عِندَ رَبِّكَ**﴾(٥) فعوقب بأن لبث سبع سنين، وإن كان يوسف -عليه السلام- يعلم أنه لا خلاص إلا بإذن الله، وأن التعرض بالأسباب مشروع، غير أن الغيرة أثرت العقوبة، ومن هذا قصة مريم -عليها السلام- ﴿**وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا**﴾(٦) فغار المسبب من مساكنة الأسباب: ﴿**كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا الْمِحْرَابَ وَجَدَ عِندَهَا رِزْقًا**﴾(٧) ومن هذا القبيل ما يروى عن النبى -ﷺ- أنه قال: «**أبى الله أن يرزق عبده المؤمن إلا من حيث لا يحتسب**»(٨) والأسباب طريق، ولابد من سلوكها.

والعارف لا يساكنها غير أنه يجلى له أمرها ما لا يجلى لغيره من أنها لا تساكن، وربما عرفت إن مال إليها وإن كان ميله لا يقبله، غير أنه أقل الهفوات يوجب الأدب، وتأمل عقبى سليمان -عليه السلام- لما قال(٩): «**لأطوفن** الليلة على مائة امرأة، تلد كل واحدة منهن غلامًا» ولم يقل إن شاء الله. فما حملت إلا واحدة جاءت بشق غلام(١٠).

---

(١) سورة التوبة: ٢٥.
(٢) سورة يوسف: ١٣.
(٣) سورة يوسف: ١٧.
(٤) سورة يوسف: ٩٤.
(٥) سورة يوسف: ٤٢.
(٦) سورة آل عمران: ٣٧.
(٧) سورة آل عمران: ٣٧.
(٨) إسناده ضعيف. أخرجه القضاعى فى «مسنده» (١/ ٣٤١-٣٤٢).
(٩) سقطت هذه العبارة من بعض النسخ.
(١٠) صحيح: أخرجه البخارى (٣٤٢٤) فى كتاب: أحاديث الأنبياء، باب: قول الله تعالى: ﴿**ووهبنا لداود سليمان**﴾، ومسلم (١٦٥٤) فى كتاب: الأيمان، باب: الاستثناء من حديث أبى هريرة -رضي الله عنه-، وفى ذكر عدد النساء اختلاف.

ولقد طرقتنى حالة أوجبت التشبث ببعض الأسباب؛ إلا أنه كان من ضرورة ذلك لقاء بعض الظلمة، ومداراته بكلمة، فبينا أنا أفكر فى تلك الحال دخل علىّ قارئ فاستفتح؛ فتفاءلت بما يقرأ فقرأ: ﴿وَلا تَرْكَنُوا إِلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا فَتَمَسَّكُمُ النَّارُ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ اللَّهِ مِنْ أَوْلِيَاءَ ثُمَّ لا تُنصَرُونَ﴾(١). فبهت من إجابتى على خاطرى، وقلت لنفسى: اسمعى فإننى طلبت النصر فى هذه المداراة فأعلمنى القرآن أننى إذا ركنت إلى ظالم فإننى ما ركنت لأجله من النصر، فيا طوبى لمن عرف المسبب وتعلق به، فإنها الغاية القصوى، فنسأل الله أن يرزقنا.

٦٨- فصل - المؤمن لا يبالغ فى الذنوب وإنما يقوى الهوى ويتوقد نيران الشهوة فيتحدر، وله مداد لا يعزم المؤمن على مواقعته، ولا على العود بعد فراغه، ولا يستقصى فى الانتقام إن غضب، وينوى التوبة قبل الزلل، وتأمل إخوة يوسف عليهم السلام، فإنهم عزموا على التوبة قبل إبعاد يوسف فقالوا: ﴿اقْتُلُوا يُوسُفَ﴾(٢) ثم زاد ذلك تعظيمًا فقالوا: ﴿أَوِ اطْرَحُوهُ أَرْضًا﴾(٣) ثم عزموا على الإنابة فقالوا: ﴿وَتَكُونُوا مِنْ بَعْدِهِ قَوْمًا صَالِحِينَ﴾(٤). فلما خرجوا به إلى الصحراء هموا بقتله بمقتضى ما فى القلوب من الحسد، فقال كبيرهم: ﴿لا تَقْتُلُوا يُوسُفَ وَأَلْقُوهُ فِي غَيَابَةِ الْجُبِّ﴾(٥) ولم يرد أن يموت بل يلتقطه بعض السيارة، فأجابوا إلى ذلك والسبب فى هذه الأحوال أن الإيمان على حسب قوته فتارة يردها عند الهم، وتارة يضعف فيردها عند العزم، وتارة عن بعض الفعل، فإذا غلبت الغفلة، ووقع الذنب، فتر الطبع، فنهض الإيمان العدل، فينقص بالندم أضعاف ما التذ.

٦٩- فصل - أفضل الأشياء التزايد من العلم، فإنه من اقتصر على ما

(١) سورة هود: ١١٣.
(٢) سورة يوسف: ٩.
(٣) سورة يوسف: ٩.
(٤) سورة يوسف: ٩.
(٥) سورة يوسف: ١٠.

يعلمه فظنه كافيًا استبد برأيه، وصار تعظيمه لنفسه مانعًا له من الاستفادة، والمذاكرة تبين له أخطاءه، وربما كان معظمًا فى النفوس فلم يتجاسر على الرد عليه، ولو أنه أظهر الاستفادة لأهديت إليه مساويه فعاد عنها.

ولقد حكى ابن عقيل عن أبى المعالى الجوينى أنه قال: إن الله تعالى يعلم جمل الأشياء ولا يعلم التفاصيل، ولا أدرى أى شبهة وقعت فى وجه هذا المسكين حتى قال هذا، وكذلك أبو حامد حين قال: النزول التنقل، والاستواء مماسة، وكيف أصف هذا بالفقه والزهد وهو لا يدرى ما يجوز على الله مما لا يجوز، ولو أنه ترك تعظيم نفسه لرد صبيان الكتاب رأيه عليه؛ فبان له صدقهم.

ومن هذا الفن أبو بكر بن مقسم: فإنه عمل كتاب الاحتجاج للقراء، فأتى فيه بفوائد، إلا أنه أفسد علمه بإجازته أن يقرأ بما لم يقرأ به، ثم تفاقم ذلك منه حتى أجاز ما يفسد المعنى، مثل قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا اسْتَيْأَسُوا مِنْهُ خَلَصُوا﴾[1]. فقال: يصلح أن يقال هنا نجيًا أى خلصوا كرامًا برءاء من السرقة، وهذا سوء فهم للقصة، فإن الذى نسب إلى السرقة فظهرت معه ما خلص، فما الذى ينفع خلاصهم، وإنما سيقت القصة ليبين أنهم انفردوا وتشاوروا فيما يصنعون، وكيف يرجعون إلى أبيهم وقد احتبس أخوهم، فأى وجه للنجاة ها هنا؟!

ومن تأمل كتابه رأى فيه من هذا الجنس ما يزيد على الإحصاء أكثر من هذا الفن القبيح، ولو أنه أصغى إلى علماء وقته، وترك تعظيم نفسه لبان له الصواب، غير أن اقتصار الرجل على علمه إذا مازجه نوع رؤية للنفس حبس من إدراك الصواب، نعوذ بالله من ذلك.

٧٠- فصل - تأملت قوله عز وجل: ﴿يَمُنُّونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا قُل لاَّ تَمُنُّوا عَلَيَّ إِسْلامَكُمْ بَلِ اللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَاكُمْ لِلإِيمَانِ﴾[2] فرأيت فيه معنى

---

(١) سورة يوسف: ٨٠.

(٢) سورة الحجرات: ١٧.

عجيبًا، وهو أنهم لما وهبت لهم العقول فتدبروا بها عيب الأصنام، وعلموا أنها لا تصلح للعبادة، فوجهوا العبادة إلى من فطر الأشياء. كانت هذه المعرفة ثمرة العقل الموهوب لهم الذى به باينوا البهائم، فإذا آمنوا بفعلهم الذى ندب إليه العقل الموهوب، فقد جهلوا قدر الموهوب، وغفلوا عن من وهب. وأى شىء لهم فى الثمرة، والشجرة ليست ملكًا لهم، فعلى هذا كل متعبد ومجتهد فى علم وعمل إنما رأى بنور اليقظة، وقوة الفهم والعقل الصواب فوقع على المطلوب، فينبغى أن يوجه الشكر إلى من بعث له فى ظلم الطبع القبس، ومن هذا الفن حديث الثلاثة الذين دخلوا الغار، فانحطت عليهم صخرة فسدت باب الغار، فقالوا: تعالوا نتوسل بصالح أعمالنا، فقال كل منهم: فعلت كذا وكذا[(١)]، وهؤلاء إن كانوا لاحظوا نعمة الواهب للعصمة عن الخطأ توسلوا بإنعامه عليهم الذى أوجب تخصيصهم بتلك النعمة عن أبناء جنسهم، فبه فتوسلوا إليه، وإن كانوا لاحظوا أفعالهم فلمحوا جزاءها ظنًا منهم أنهم هم الذين فعلوا؛ فهم أهل غيبة لا حضور، ويكون جواب مسألتهم قطع مننهم الدائمة، ومثل هذا رؤية المتقى تقواه حتى أنه يرى أنه أفضل من كثير من الخلق، وربما احتقر أهل المعاصى وتشمخ عليهم؛ وهذه غفلة من طريق السلوك، وربما أخرجت.

ولا أقول لك خالط الفساق احتقارًا لنفسك، بل اغضب عليهم فى الباطن وأعرض عنهم فى الظاهر، وتلمح جريان الأقدار عليهم فى الباطن فأكثرهم لا يعرف لمن عصى، وجمهورهم لا يقصد العصيان، بل يريد موافقة هواه، وعزيز عليه أن يعصى، وفيهم من غلب عليه تلمح العفو والحلم فاحتقر ما يأتى لقوة يقينه بالعفو، وهذه كلها ليست باعتذار لهم، ولكن تلمحه أنت يا صاحب التقوى، واعلم أن الحجة عليك أوفى من الحجة عليهم، لأنك تعرف من تعصى، وتعلم ما تأتى، بل انظر إلى تقليب القلوب

(١) صحيح: والحديث أخرجه البخارى (٢٢١٠) فى كتاب: البيوع، باب: إذا اشترى شيئًا لغيره بغير إذنه فرضى، ومسلم (٢٧٤٣) فى كتاب: النذر والدعاء، باب: قصة أصحاب الغار الثلاثة من حديث ابن عمر -رضي الله عنهما-.

بين أصبعـين؛ فربما دارت الدائرة فصرت المنقطع، ووصل المقطوع، فـالعجب ممن يدل بخير علمه، وينسى من أنعم ووفق.

٧١- فصل - اعلم أن شرعنا مضبوط الأصول، محروس القواعد، لا خلل فيـه ولا دخل، وكذلك كل الشرائع، إنما الآفة تدخل من المبـتدعين فى الدين أو الجـهال، مـثل ما أثر عند النصـارى حين رأوا إحيـاء الموتى على يد عيسى -عليه السلام-، فتأملوا الفعل الخارق للعـادة الذى لا يصلح للبشر، فنسبوا الفـاعل إلى الإلهـيـة، ولو تأملوا ذاته لعلمـوا أنهـا مركـبـة على النقـائص والحاجـات، وهذا القدر يكفى فى عدم صـلاح إلهيته، فـيعلم حينئـذ أن ما جرى على يديه فعل غيره، وقد يؤثر ذلك فى الفروع؛ مثل ما روى أنه فرض على النصارى صوم شهر فزادوا عـشرين يومًا، ثم جعلوه فى فصل من السنة بآرائهم، ومن هذا الجنس تخـبيط اليـهود فى الأصـول والفروع، وقـد قارب الضلال فى أمتنا هذه المسالك، وإن كان عمومهم قد حفظ من الشرك والشك والخلاف الظاهر الشنيع، لأنهم أعقل الأمم وأفهمـها، غير أن الشيطان قارب بهم ولم يطمع فى إغراقهم، وإن كان قد أغرق بعضهم فى بحار الضلال فمن ذلك أن الرسول -صلى الله عليه وسلم-: جاء بكتاب عزيز من الله عـز وجل قيل فى صفته: ﴿مَا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِن شَيْءٍ﴾[1]. وبين ما عساه يشكل ممـا يحتاج إلى بيانه بسنته كما قيل له: ﴿لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ﴾[2]. فقال بعد البيان «**تركتكم على بيـضاء نقـية**»[3]، فجـاء أقوام فلم يقنعوا بتـبيينه، ولم يرضـوا بطريقة أصحابه، فبحثوا ثم انقسـموا. فمنهم من تعرض لما تعب الشرع فى إثباته فى القلوب فمحاه منها، فإن القرآن والحـديث يثبتان الإله عز وجل بأوصاف تقرر وجوده فى النفوس، كقوله تعالى: ﴿ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ﴾[4].

(١) سورة الأنعام: ٣٨. (٢) سورة النحل: ٤٤.

(٣) صحيح: أخرجـه ابن ماجه (٤٣) فى المقدمة، باب: اتباع سنة الخلفـاء الراشدين المهديين من حديث العرباض بن سارية. والحديث صححه الشيخ الألبانى.

(٤) سورة الأعراف: ٥٤.

وقوله تعالى: ﴿بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ﴾(١).

وقوله تعالى: ﴿وَلِتُصْنَعَ عَلَىٰ عَيْنِي﴾(٢).

وقول النبي -ﷺ-: «**ينزل الله إلى السماء الدنيا**(٣) **ويبسط يده لمسيء الليل والنهار**»(٤)، «**ويضحك**(٥) **ويغضب**»(٦).

وكل هذه الأشياء وإن كان ظاهرها يوجب تخايل التشبيه؛ فالمراد منها إثبات موجود، فلما علم الشرع ما يطرق القلوب من التوهمات عند سماعها قطع ذلك بقوله: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾(٧) ثم إن هؤلاء القوم عادوا إلى القرآن الذي هو المعجز الأكبر؛ وقد قصد الشرع تقرير وجوده فقال: ﴿إِنَّا أَنزَلْنَاهُ﴾(٨) ﴿نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ﴾(٩) ﴿فَذَرْنِي وَمَن يُكَذِّبُ بِهَٰذَا الْحَدِيثِ﴾(١٠) ﴿وَهَٰذَا كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ﴾(١١). وأثبته في القلوب بقوله تعالى: ﴿فِي صُدُورِ الَّذِينَ

(١) سورة المائدة: ٦٤. (٢) سورة طه: ٣٩.

(٣) صحيح: أخرجه البخاري (١١٤٥) في كتاب التهجد، باب: الدعاء والصلاة من آخر الليل، ومسلم (٧٥٨) في كتاب صلاة المسافرين، باب: الترغيب في الدعاء والذكر في آخر الليل من حديث أبي هريرة -رضي الله عنه-.

(٤) صحيح: أخرجه مسلم (٢٧٥٩) في كتاب التوبة، باب: قبول التوبة من الذنوب من حديث أبي موسى الأشعري -رضي الله عنه-.

(٥) صحيح: وثبتت هذه الصفة في الحديث الصحيح الذي رواه البخاري (٣٧٩٨) في كتاب مناقب الأنصار، باب: قول الله ﴿ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة﴾، ومسلم (٢٠٥٤) في كتاب الأشربة، باب: إكرام الضيف وفضل إيثاره من حديث أبي هريرة -رضي الله عنه-.

(٦) صحيح: وقد ثبتت هذه الصفة في الحديث الذي رواه البخاري (٣٣٤٠) في كتاب أحاديث الأنبياء، باب: قول الله تعالى: ﴿إنا أرسلنا نوحًا إلى قومه أن أنذر قومك من قبل أن يأتيهم عذاب أليم﴾، ومسلم (١٩٤) في كتاب الإيمان، باب: أدنى أهل الجنة منزلة فيها من حديث أبي هريرة -رضي الله عنه-.

(٧) سورة الشورى: ١١.

(٨) سورة يوسف: ٢، وسورة الدخان: ٣، وسورة القدر: ١.

(٩) سورة الشعراء: ١٩٣.

(١٠) سورة القلم: ٤٤.

(١١) سورة الأنعام: ٩٢.

أُوتُوا الْعِلْمَ﴾(١) وفى المصاحف بقوله تعالى: ﴿فِي لَوْحٍ مَّحْفُوظٍ﴾(٢) وقول الرسول -ﷺ-: «لا تسافروا بالقرآن إلى أرض العدو»(٣)؛ فقال قوم من هؤلاء: مخلوق فأسقطوا حرمته من النفوس، وقالوا: لم ينزل ولا يتصور نزوله؛ وكيف تنفصل الصفة عن الموصوف؟ وليس فى المصحف إلا حبر وورق؛ فعادوا على ما تعب الشارع فى إثباته بالمحو، كما قالوا: إن الله عز وجل ليس فى السماء، ولا يقال استوى على العرش، ولا ينزل إلى السماء الدنيا، بل ذاك رحمته، فمحوا من القلوب ما أريد إثباته فيها، وليس هذا مراد الشارع، وجاء آخرون فلم يقفوا على ما حده الشرع، بل عملوا فيه بآرائهم فقالوا: الله على العرش، ولم يقنعوا بقوله: ﴿ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ﴾(٤) ودفن لهم أقوام من سلفهم دفائن، ووضعت لهم الملاحدة أحاديث، فلم يعلموا ما يجوز عليه مما لا يجوز، فأثبتوا بها صفاته.

وجمهور الصحيح منها آت على توسع العرب؛ فأخذوه هم على الظاهر، فكانوا فى ضرب المثل كجحا، فإن أمه قالت له: احفظ الباب، فقلعه ومشى به، فأخذ ما فى الدار، فلامته أمه. فقال: إنما قلت احفظ الباب، وما قلت احفظ الدار. ولما تخايلوا صورة عظيمة على العرش، أخذوا يتأولون ما ينافى وجودها على العرش، مثل قوله: «ومن أتانى يمشى أتيته هرولة»(٥). فقالوا: ليس المراد به دنو الباب، وإنما المراد قرب المنزل والحظ، وقالوا فى قوله تعالى: ﴿إِلَّا أَن يَأْتِيَهُمُ اللَّهُ فِي ظُلَلٍ﴾(٦). هو محمول على ظاهرها فى مجىء الذات، فهم يحلونه عامًا ويحرمونه عامًا، ويسمون الإضافات إلى الله تعالى صفات، فإنه قد أضاف إليه النفخ والروح، وأثبتوا خلقه باليد، فلو قالوا خلقه لم يمكن إنكار هذا، بل قالوا هى صفة تولى بها

---

(١) سورة العنكبوت: ٤٩.
(٢) سورة البروج: ٢٢.
(٣) صحيح: وقد تقدم.
(٤) سورة الأعراف: ٥٤.
(٥) صحيح: وقد تقدم وهو جزء من حديث «لا يزال عبدى يتقرب إلىَّ بالنوافل حتى أحبه».
(٦) سورة البقرة: ٢١٠.

خلق آدم دون غيره، فأي مزية كانت تكون لآدم؛ فشغلهم النظر فى فضيلة آدم عن النظر إلى ما هو يليق بالحق مما لا يليق به؛ فإنه لا يجوز عليه المس، ولا العمل بالآلات، وإنما آدم أضافه إليه؛ فقالوا: نطلق على الله تعالى اسم الصورة لقوله: «خلق آدم على صورته».

وفهموا هذا الحديث وهو قوله -عليه السلام-: «**إذا ضرب أحدكم فليجتنب الوجه، ولا يقل قبح الله وجهك ولا وجهًا أشبه وجهك. فإن الله خلق آدم على صورته**»(١). فلو كان المراد به الله عز وجل لكان وجه الله سبحانه يشبه وجه هذا المخاصم لأن الحديث كذا جاء -ولا وجهًا أشبه وجهك- ورووا حديث خولة بنت حكيم: «**إن آخر وطأة وطئها الله بوج**»(٢) وما علموا النقل ولا السير وقول الرسول -ﷺ-: «**اللهم اشدد وطأتك على مضر**»(٣)، وإن المراد به آخر وقعة قاتل فيها المسلمون بوج؛ هى غزاة حنين، فقالوا: نحمل الخبر على ظاهره، وأن الله وطئ ذلك المكان، ولاشك أن عندهم أن الله تعالى كان فى الأرض ثم صعد إلى السماء، وكذلك قالوا فى قوله: «**إن الله لا يمل حتى تملوا**»(٤). قالوا: يجوز أن الله يوصف بالملل فجهلوا اللغة، وما علموا أنه لو كانت حتى هاهنا للغاية لم تكن بمدح؛ لأنه إذا مل حين يمل فأى مدح وإنما هو كقول الشاعر:

جلبت منى هذيل بخرق ... لا تمل الشر حتى يملوا

(١) صحيح: أخرجه مسلم (٢٦١٢) فى كتاب البر والصلة، باب: النهى عن ضرب الوجه من حديث أبى هريرة -رضي الله عنه-.
(٢) أخرجه أحمد فى «مسنده» (٦/ ٤٠٩) وقال الهيثمى فى «المجمع» (١٠/ ٥٤). رواه أحمد والطبرانى ورجالهما ثقات إلا أن عمر بن عبد العزيز لا أعلم له سماعًا من خولة.
(٣) صحيح: أخرجه البخارى (١٠٠٦) فى كتاب الاستسقاء، باب: دعاء النبى -ﷺ-: «اجعلها عليهم سنين كسنى يوسف»، ومسلم (٦٧٥) فى كتاب المساجد، باب: استحباب القنوت فى جميع الصلاة، إذا نزلت بالمسلمين نازلة من حديث أبى هريرة -رضي الله عنه-.
(٤) صحيح: أخرجه البخارى (١١٥١) فى كتاب التهجد، باب: ما يكره من التشدد فى العبادة، ومسلم (٧٨٥) فى كتاب صلاة المسافرين، باب: أمر من نعس فى صلاته أو استعجم عليه القرآن أو الذكر بأن يرقد من حديث عائشة -رضي الله عنها-.

والمعنى لا يمل وإن ملوا. وقـالوا فى قـوله -عليـه الصلاة والسـلام-: «الرحم شجنة(١) من الرحمن(٢) تتعـلق بحقوى الـرحمن». فقالـوا: الحقو صفة ذات، وذكروا أحاديث لو رويت فى نقض الوضوء مـا قبلت، وعمومها وضعته الملاحدة كما يروى عن عبد الله بن عمرو، قال: خلق الله الملائكة من نور الذراعين والصـدر. فـقالوا: نثـبت هذا على ظاهـره. ثم أرضوا العـوام بقولهم ولا نثبت جـوارح؛ فكأنهم يقولون فلان قائم وما هو قـائم، فاختلف قولهم هل يطلق على الله عز وجل أنه جالس أو قـائم كقوله تعالى: ﴿قَائِمًا بِالْقِسْطِ﴾(٣) وهؤلاء أخس فهمًا من جحا؛ لأن قوله: قائمًا بالقسط؛ لا يراد به القيام، وإنما هو كما يقال: الأمـير قائم بالعدل. وإنما ذكرت بعض أقوالهم لئـلا يسكن إلى شىء منهـا؛ فالحـذر من هؤلاء عـبـادة، وإنما الطريق طريق السلف.

على أننى أقول لك: قد قال أحمد بن حنبل رحمة الله عليه: من ضيق علم الرجل أن يقلد فـى دينه الرجال؛ فـلا ينبـغى أن تسـمع من مُـعَظَّم فى النفوس شـيئًا فـى الأصول فتـقلده فيه، ولو سـمعت عن أحـد ما لا يوافق الأصول الصـحيـحة فـقل هذا من الراوى؛ لأنه قد ثبت عن ذلـك الإمام أنه يقول بشىء من رأيه.

فلو قدرنا صحته عنه فـإنه لا يقلّـدُ فى الأصول، ولا أبو بكر ولا عمر -رضي الله عنهما-. فهذا أصل يجب البناء عليه، فلا يـهولنك ذكر معظم فى النفوس، وكان المقصود من شرح هذا أن ديننا سليم، وإنما أدخل أقوام فيه ما تأذينا به، ولقـد أدخل المتزهّدون فى الديـن ما ينفـر الناس، حـتى أنهم يرون أفعـالهم فيستبعدون الطريق، وأكثر أدلة هذه الطريق القُصَّاص فإن العامىَّ إذا دخل إلى مجلسهم، وهو لا يحـسن الوضوء كلموه بدقايق الجنيـد، وإشارات الشبلى؛

(١) الشجنة: عروق الشجر المشتبكة.
(٢) صحـيح: أخرجـه البخـارى (٥٩٨٨) فى كتـاب الأدب، باب: من وصل وصله الله من حديث أبى هريرة -رضي الله عنه-.
(٣) سورة آل عمران: ١٨.

فـرأى ذلك العـامى أن الطـريق الواضح لزوم زاوية، وترك الكسـب للعـائلة ومناجاة الحق فى خلوة على زعمه؛ مع كـونه لا يعرف أركان الصلاة ولا أدَّبه العلم، ولا قوّم أخـلاقه مـخالطة العلماء، فـلا يستفـيد من خلوته إلا كـما يستفـيد الحمار من الإصطبل. فإن امـتد عليه الزمان فى تقلله زاد يبـسه فربما خـايلت له الماليـخوليـا أشبـاحًـا يظنهم الملائكة ثم يطأطئ رأسـه، ويمد يده للتقبيل.

فكم قد رأينا من أكّار ترك الزرع وقعـد فى زاوية فصار إلى هذه الحالة؛ فاستراح من تعبه، فلو قيل له: عد مريضًا. قال: مالى عادة، فلعن الله عادة تخالف الشريعة. فيـرى العامى بما يورده القصاص طريق الشرع هذه؛ لا التى عليها الفقهاء، فيقعون فى الضلال.

ومن المتزهدين من لا يبالى عمل بالشرع أم لا؛ ثم تتـفاوت جهالتهم؛ فمـنهم من سلك مذهب الإباحـة ويقول: الشـيخ لا يعارض، وينهـمك فى المعاصى، ومنهم من يحـفظ ناموسه فيـفتى بغير علم، لئلا يـقال: الشيخ لا يدرى.

ولقد حـدثنى الشيخ أبو حكيم رحـمة الله عليه: أن الشـريف الدحالى وكان يقصد فـيزار، ويتبرك به، حضر عنده يومًـا فسئل أبو حكيم -هل تحل المطلقة ثلاثًا إذا ولدت ذكرًا- قال: فقلت لا والله. فقال لى الشريف: اسكت فوالله لقد أفتيت الناس بأنها تحل من هاهنا إلى البصرة.

وحكى لى الشـيخ أبو حكيم أن جـد آذاد الحداد وكـان يتـوسم بالعلم جاءت إليه امرأة فـزوجها من رجل؛ ولم يسأل عن انقضاء العدة، فاعـترضها الحـاكم وفرق بينهـا وبين الزوج، وأنكر على المزوج. قـال: فلقـيتـه المرأة. فقالت: يا سـيدى أنا امرأة لا أعلم فكيف زوجتنى. فقال: دعى حـديثهم ما أنت إلا طاهرة مطهرة.

وحدثنى بعض الفقهاء عن رجل من العبّاد أنه كان يسجد للسّهو سنين،

ويقول: والله مـا سهوت ولكـن أفعله احتـرازًا؛ فقال له الفـقيـه: قد بطلت صلاتك كلها لأنك زدت سجودًا غير مشروع.

ثم من الدخل الذى دخل فى ديننا طريق المتـصوفة فـإنهم سلكوا طريقًا أكثـرها تنافى الشـريعة؛ وأهل التـدين منهم يقللون ويخـففـون. وهذا ليس بشرع؛ حـتى أن رجلاً كان قـريبًا من زمانى يقـال له كثيِّـر؛ دخل إلى جامع المنصور، وقـال: عاهدت الله عهدًا ونقـضته، فقـد ألزمت نفسى أن لا تأكل أربعين يومًا؛ فحـدثنى من رآه أنه بقى عشرة أيام ثم فى العـشر الرابع أشرف على الموت. قال: فما انـقضت حتى تفرغ(١) فصب فى حلقه مـاء فسمعنا له نشيـشًا(٢) كنشيش المقـلاة؛ ثم مات بعد أيام. فـانظروا إلى هذا المسكين وما فعله به جهله.

ومنهم من فسح لنفسه فى كل ما يحب من التنعم واللذات، واقتنع من التصوف بالقميص والفوطة والعمامة اللطيفة، ولم ينظر من أين يأكل ولا من أين يشـرب، وخـالط الأمـراء من أرباب الدنيـا، ولبّاس الحـرير، وشُـرّاب الخمور، حفظًا لماله وجاهه.

ومنهم أقوام عملوا سننًا لهم تلقوها من كلمات أكثرها لا يثبت.

ومنهم من أكب على سـماع الغناء والرقص واللعب، ثم انـقسم هؤلاء فمنهم من يدعى العشق فيه، ومنهم من يقول بالحلول، ومنهم من يسمع على وجه الهوى واللعب؛ وكلا الطريقين يفسد العوام الفساد العام.

وهذا الشرح يطول، قد صنفت كتبًا ترى فيها البسط الحسن إن شاء الله تعالى، منها تلبيس إبليس.

والمقصـود أن تعلم أن الشرع تام كامل فـإن رزقت فهمًا له فـأنت تتبع الرسول -ﷺ- وأصحابه، وتترك بنيات الطريق ولا تقلد دينك الرجال؛ فإن

---

(١) فى نسخة: تنقوع.

(٢) النشيش: صوت غليان القدر.

فعلت لا تحتاج إلى وصية أخرى، واحذر جمود النقلة، وانبساط المتكلمين، وجموع المتزهدين، وشره أهل الهوى، ووقوف العلماء على صورة العلم من غير عمل، وعمل المتعبدين بغير علم، ومن أيده الله تعالى بلطفه ورزقه الفهم، وأخرجه عن ربقة التقليد، وجعله أمة واحدة فى زمانه؛ لا يبالى بمن عبث، ولا يلتفت إلى من لام؛ قد سلم زمامه إلى دليل واضح السبيل، عصمنا الله وإياكم من تقليد المعظمين. وألهمنا اتباع الرسول -ﷺ-، فإنه درة الوجود، ومقصود الكون -ﷺ- وعلى آله وأصحابه وأتباعه ورزقنا اتباعه مع أتباعه.

البـــلاء وأســباب رفعــه

٧٢- **فصل** - اعلم أن الزمان لا يثبت على حال كما قال عز وجل: ﴿وَتِلْكَ الأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ﴾(١). فتارة فقر وتارة غنى، وتارة عز وتارة ذل، وتارة يفرح الموالى وتارة يشمت الأعادى.

فالسيد(٢) من لازم أصلاً واحداً على كل حال وهو تقوى الله عز وجل؛ فإنه إن استغنى زانته، وإن افتقر فتحت له أبواب الصبر، وإن عوفى تمت النعمة عليه، وإن ابتلى جمَّلته(٣)، ولا يضره إن نزل به الزمان أو صعد، أو أعراه أو أشبعه أو أجاعه؛ لأن جميع تلك الأشياء تزول وتتغير.

والتقوى أصل السلامة حارس لا ينام، يأخذ باليد عند العثرة، ويوافق على الحدود، والمنكر من غرته لذة حصلت مع عدم التقوى؛ فإنها ستحول، وتخليه خاسراً. ولازم التقوى فى كل حال فإنك لا ترى فى الضيق إلا السعة، وفى المرض إلا العافية، هذا نقدها العاجل والآجل معلوم.

٧٣- **فصل** - تأملت أمراً عجيبًا، وأصلاً ظريفًا، وهو انهيال الابتلاء على المؤمن، وعرض صور اللذات عليه مع قدرته على نيلها؛ وخصوصًا ما كان فى غير كلفة من تحصيله كمحبوب موافق فى خلوة حصينة، فقلت: سبحان الله هاهنا يبين أثر الإيمان لا فى صلاة ركعتين، والله ما صعد يوسف -عليه السلام- ولا سعد إلا فى مثل ذلك المقام، فبالله عليكم يا إخوانى تأملوا حاله لو كان وافق هواه من كان يكون. وقيسوا بين تلك الحالة وحالة آدم -عليه السلام-، ثم زنوا بميزان العقل عقبى تلك الخطيئة، وثمرة هذا الصبر. واجعلوا فهم الحال عدة لكم عند كل مشتهى، وإن اللذات لتعرض على

---

(١) سورة آل عمران: ١٤٠.

(٢) فى نسخة: السعيد.

(٣) فى نسخة: حملته.

المؤمن فمتى لقيها فى صف حربه، قد تأخر عنه عسكر التدبر للعواقب هزم، وكأنى أرى الواقع فى بعض أشراكها، ولسان الحال يقول له قف مكانك! أنت وما اخترت لنفسك، فغاية أمره الندم والبكاء؛ فإن أمن إخراجه من تلك الهوة لم يخرج إلا مدهونًا بالخدوش، وكم من شخص زلت قدمه فما ارتفعت بعدها.

ومن تأمل ذل إخوة يوسف -عليهم السلام- يوم: ﴿وَتَصَدَّقْ عَلَيْنَا﴾(١) عرف شؤم الزلل، ومن تدبر أحوالهم قاس ما بينهم وبين أخيهم من الفروق -وإن كانت توبتهم قبلت- لأنه ليس من رقع وخاط كمن ثوبه صحيح؛ ورب عظم هيض(٢) لم ينجبر؛ فإن جبر فعلى وهن.

فتيقظوا إخوانى لعرض المشتبهات على النفوس، واستوثقوا من لجم الخيل، وانتبهوا للغيم إذا تراكم بالصعود إلى قلعة؛ فربما مرَّ الوادى فراح بالركب.

٧٤- فصل - تأملت حالة عجيبة وهو أن المؤمن تنزل به النازلة؛ فيدعو ويبالغ فلا يرى أثرًا للإجابة، فإذا قارب اليأس نظر حينئذ؛ إلى قلبه؛ فإن كان راضيًا بالأقدار غير قنوط من فضل الله عز وجل؛ فالغالب تعجيل الإجابة حينئذ؛ لأن هناك يصلح الإيمان ويندحر الشيطان، وهناك تبين مقادير الرجال، وقد أشير إلى هذا فى قوله تعالى: ﴿حَتَّىٰ يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ مَتَىٰ نَصْرُ اللَّهِ﴾(٣).

وكذلك جرى ليعقوب -عليه السلام- فإنه لما فقد ولدًا، وطال الأمر عليه لم ييأس من الفرج؛ فأخذ ولده الآخر ولم ينقطع أمله من فضل ربه ﴿أَن يَأْتِيَنِي بِهِمْ جَمِيعًا﴾(٤).

---

(١) سورة يوسف: ٨٨.
(٢) هيض: انكسر.
(٣) سورة البقرة: ٢١٤.
(٤) سورة يوسف: ٨٣.

وكذلك قال زكريا -عليه السلام- ﴿ وَلَمْ أَكُنْ بِدُعَائِكَ رَبِّ شَقِيًّا ﴾(١). فإياك أن تستطيل مدة الإجابة؛ وكن ناظرًا إلى أنه المالك وإلى أنه الحكيم فى التدبير والعالم بالمصالح، وإلى أنه يريد اختبارك ليبلو أسرارك، وإلى أنه يريد أن يرى تضرعك، وإلى أنه يريد أن يأجرك بصبرك إلى غير ذلك، وإلى أنه يبتليك بالتأخير لتحارب وسوسة إبليس، وكل واحدة من هذه الأشياء تقوى الظن فى فضله وتوجب الشكر له؛ إذ أهلّك بالبلاء للالتفات إلى سؤاله، والفقر المضطر إلى اللجأ إليه غنىّ كله.

٧٥- فصل - لما كان بدن الآدمى لا يقوم إلا باجتلاب المصالح ودفع المؤذى، ركب فيه الهوى ليكون سببًا لجلب النافع، والغضب ليكون سببًا لدفع المؤذى.

ولولا الهوى فى المطعم ما تناول الطعام، فلم يقم بدنه، فجعل له إليه ميل وتوق؛ فإذا حل له قدر ما يقيم بدنه زال التوق، وكذلك فى المشرب والملبس والمنكح.

وفائدة المنكح من وجهين؛ أحدهما: إبقاء الجنس وهو معظم المقصودين، والثانى: دفع الفضلة المحتقنة المؤذى احتقانها، ولولا تركيب الهوى المائل بصاحبه إلى النكاح ما طلبه أحد، ففات النسل وآذى المحتقن.

فأما العارفون فإنهم فهموا المقصود، وأما الجاهلون فإنهم مالوا مع الشهوة والهوى ولم يفهموا مقصود وضعها فضاع زمانهم فيما لا طائل فيه، وفاتهم ما خلقوا لأجله وأخرجهم هواهم إلى فساد المال وذهاب العرض والدين، ثم أداهم إلى التلف.

وكم قد رأينا من متنعم يبالغ فى شراء الجوارى ليحرك طبعه بالمستجد فما كان بأسرع من أن وهنت قواه الأصلية فتعجّل تلفه، وكذلك رأينا من زاد غضبه فخرج عن الحد ففتك بنفسه وبمن يحبه.

---

(١) سورة مريم: ٤.

فمن علم أن هذه الأشياء إنما خلقت إعانة للبدن على قطع مراحل الدنيا، ولم تخلق لنفس الالتذاذ وإنما جعلت اللذة فيها كالحيلة فى إيصال النفع بها، إذ لو كان المقصود التنعم بها لما جعلت الحيوانات البهيمية أوفى حظًا من الآدمى منها، فطوبى لمن فهم حقائق الوضع، ولم يمل به الهوى عن فهم حكم المخلوقات.

٧٦- فصل - من تأمل عواقب المعاصى رآها قبيحة، ولقد تفكرت فى أقوام أعرفهم يقرّون بالزنا وغيره، فأرى من تعثرهم فى الدنيا مع جلادتهم، ما لا يقف عند حد، وكأنهم قد ألبسوا ظلمة، فالقلوب تنفر عنهم؛ فإن اتسع لهم شىء فأكثره من مال الغير، وإن ضاق بهم أمر أخذوا يتسخطون على القدر، هذا وقد شغلوا بهذه الأوساخ عن ذكر الآخرة، ثم عكست فتفكرت فى أقوام صابروا الهوى، وتركوا ما لا يحل.

فمنهم من قد أينعت له ثمرات الدنيا من قوت مستلذ، ومهاد مستطاب، وعيش لذيذ، وجاه عريض، فإن ضاق بهم أمر وسعه الصبر، وطيبه الرضا، ففهمت بالحال معنى قوله تعالى: ﴿**إِنَّهُ مَن يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ اللَّهَ لا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ**﴾(١).

٧٧- فصل - ينبغى للعاقل أن يلازم باب مولاه على كل حال، وأن يتعلق بذيل فضله إن عصى وإن أطاع، وليكن له أنس فى خلوته به، فإن وقعت وحشة فليجتهد فى رفع الموحش، كما قال الشاعر:

أمستوحش أنت مما جنيـ ـت فأحسن إذا شئت واستأنس

فإن رأى نفسه مائلاً إلى الدنيا طلبها منه، أو إلى الآخرة سأله التوفيق للعمل لها، فإن خاف ضرر ما يرومه من الدنيا سأل الله إصلاح قلبه، وطب مرضه، فإنه إذا صلح لم يطلب ما يؤذيه، ومن كان هكذا كان فى العيش الرغد؛ غير أن من ضرورة هذه الحال ملازمة التقوى، فإنه لا يصلح الإنس

(١) سورة يوسف: ٩٠.

إلا بهـا، وقد كـان أرباب التـقوى يـتشـاغلون عن كل شىء إلا عن اللجـأ والسؤال.

وفى الحديث(١): إن قتيبة بن مسلم لما صـادف الترك هاله أمرهم فقال: أين محمد بن واسع؟(٢) فقيل هو فى أقصى الميمنة جـانح على سية قوسه(٣) يومئ بإصبعـه نحو السماء، فقـال قتيبة: تلـك الأصبع الفاردة أحب إلىَّ من مائة ألف سيف شهير، وسنان طرير(٤)؛ فلما فتح عليـهم. قال له: ما كنت تصنع؟ قال: آخذ لك بمجامع الطرق.

٧٨- فصل - ينبغى لمن تظاهرت نعم الله عز وجل عليه أن يظهر منها ما يبين أثرهـا، ولا يكشف جملتهـا، وهذا من أعظم لذّات الدنيـا التى يأمر الحزم بتركها، فإن العين حق.

وإنى تفقدت النعم فرأيت إظهارها حلواً عند النفس إلا أنها إن أظهرت لوديد(٥) لم يؤمن تشعـث باطنه بالغيظ، وإن أظهرت لعـدو فالظاهر إصـابته بالعين لموضع الحسد، إلا أننى رأيت بعد الحسود كاللازم، فإنه فى حال البلاء يتشفّى، وفى حال النعم يصيب بالعين، ولعـمرى إن المنعم عليه يشتهى غيظ حسـوده، ولكنه لا يؤمن أن يخاطر بنعمـته، فإن الغـالب إصابة الحاسـد لها بالعين، فلا يسـاوى الالتذاذ بإظهـار ما غيظ به مـا أفسدت عـينه بإصابتـها، وكتمان الأمور فى كل حالٍ فعل الحازم، فـإنه إن كشف مقدار سنّه استهرموه إن كان كـبيراً، أو احـتقروه إن كـان صغيـراً، وإن كشف ما يعـتقده ناصـبه الأضداد بالعداوة، وإن كشف قدر ماله استحقروه إن كان قليلاً، وحسدوه إن كان كثيراً، وفى هذه الثلاثة يقول الشاعر:

---

(١) كذا بالأصل.

(٢) هو: محمد بن واسع بن جابر بن الأخنس الأزدى، أبو بكر أو أبو عبد الله البصرى، ثقة عابد كثير المناقب، مات سنة ١٢٣هـ.

(٣) سية القوس: ما عطف من طرفيها.

(٤) طرير: محدد.

(٥) الوديد: المحب.

احفظ لسانك لا تبح بثلاثة سن ومال ما استطعت ومذهب
فعلى الثلاثة تبتلى بثلاثة بمموه ومخرق ومكذب

وقس على ما ذكرت ما لم أذكره، ولا تكن من المذاييع الغر الذين لا يحملون أسرارهم حتى يفشوها إلى من لا يصلح، ورب كلمة جرى بها اللسان، هلك بها الإنسان.

٧٩- فصل - رأيت كل من يعثر بشيء أو يزلق فى مطر يلتفت إلى ما عثر به، فينظر إليه طبعًا موضوعًا فى الخلق؛ إما ليحذر منه إن جاز عليه مرة أخرى من مثله، أو لينظر مع احترازه وفهمه كيف فاته التحرز من مثل هذا، فأخذت من ذلك إشارة، وقلت: يا من عثر مراراً هلاّ أبصرت ما الذى عثرك فاحترزت من مثله، أو قبحت لنفسك مع حزمها تلك الواقعة، فإن الغالب ممن يلتفت؛ أن معنى التفاته كيف عثر مثل مع احترازه بمثل ما أرى، فالعجب لك كيف عثرت بمثل الذنب الفلانى والذنب الفلانى؟ كيف غرك زخرف تعلم بعقلك باطنه، وترى بعين فكرك مآله؟ كيف آثرت فانيًا على باق؟ كيف بعت بوكس، كيف اخترت لذة رقدة على انتباه معاملة. آه لك لقد اشتريت بما بعت أحمال ندم لا يقلها ظهر، وتنكيس رأس أمسى بعيد الرفع، ودموع حزن على قبح فعل ما لمددها انقطاع، وأقبح الكل أن يقال لك بماذا؟ ومن أجل ماذا؟ وهذا على ماذا؟ يا من قلب الغرور عليه الصيحة، ووزن له والميزان راكب.

٨٠- فصل - تأملت قوله تعالى: ﴿فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلا يَضِلُّ ولا يَشْقَى﴾[١] قال المفسرون: هداى؛ رسول الله -ﷺ- وكتابى؛ فوجدته على الحقيقة أن كل من اتبع القرآن والسنة وعمل بما فيهما، فقد سلم من الضلال بلا شك، وارتفع فى حقه شقاء الآخرة بلا شك، إذا مات على ذلك. وكذلك شقاء الدنيا فلا يشقى أصلاً، ويبين هذا قوله تعالى: ﴿وَمَن يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَل لَّهُ مَخْرَجًا﴾[٢]. فإن رأيته فى شدة فله من اليقين بالجزاء ما يصير

(١) سورة طه: ١٢٣.
(٢) سورة الطلاق: ٢.

الصاب[١] عنده عسلاً، والأغلب طيب العـيش فى كل حال، والغالب أنه لا ينزل به شدة إلا إذا انحرف عن جادة التقـوى. فأما الملازم لطريق التقوى فلا آفة تطرقه، ولا بلية تنزل به، هذا هو الأغـلب؛ فإنه ندر من تطرقه البلايا مع التقوى؛ فذاك فى الأغلب لتقدم ذنب يـجازى عليه، فإن قدرنا عدم الذنب؛ فذاك لإدخال ذَهَب صبره كير البلاء حتى يخرج تبراً[٢] أحمر فهو يرى عذوبة العـذاب؛ لأنه يشاهد المبـتلى فى البـلاء الألم. قال الـشبلى: أحـبك الناس لنعمائك، وأنا أحبك لبلائك.

٨١- **فصل** - لا ينال لذة المعاصى إلا سكران الغفلة، فـأما المؤمن فإنه لا يلتذ لأنه عند التذاذه يقف بإزائه علم التحريم، وحـذر العقوبة، فإن قويت معرفته رأى بعين علمه قرب الناهى فيتنغص عيشه فى حال التذاذه، فإن غلب سكر الهوى كان القلب متنغصًا بهذه المراقبات، وإن كان الطبع فى شهوته وما هى إلا لحظة، ثم خذ من غريم ندم ملازم، وبـكاء متواصل، وأسف على ما كان مـع طول الزمان، حـتى أنه لو تيقن العـفو وقف بإزائه حـذر العـتاب، فأف[٣] للذنوب ما أقبح آثارها، وما أسوأ أخـبارها، ولا كانت شهوة لا تنال إلا بمقدار قوة الغفلة.

٨٢- **فصل** - بكرت يومًا أطلب الخلوة إلى جامع الرصـافة؛ فجعلت أجول وحـدى وأتفكر فى ذلك المكان، ومن كان به من العلمـاء والصالحين، ورأيت أقوامًا قد جاوروا فيـه، فسألت أحدهم: منذ كم أنت هاهنا فأومأ إلى قريب من أربعين سنة، فرأيته فى بيت كثير الدرن والوسخ وجعلت أتفكر فى حبسـه لنفسه عن النكاح هذه المدة، فأخذت النـفس تحسّن ذلك، وتذم الدنيا والاغترار بها، فأقبل العلـم ينكر على النفس، ونهض الفهم لحقائق الأمور، وموضوع الشرع يقوّى ما قال العلم.

فينحل من ذلك أن قلت للنفـس: اعلمى أن هؤلاء على ضربين: منهم

---

(١) الصاب: الشجر الذى يستخرج منه الصمغ، وهو مر الطعم.
(٢) التبر: الذهب.
(٣) أف: كلمة تقال عند التضجر.

من يجاهد نفسه فى الصبر على هذه الأحـوال؛ فتفوته فضائل المخالطة لأهل العلم والعمل وطلب الولد، ونفع الخلق، وانتفاع نفسه بمجالسة أهل الفهم، فيحدث له من نفسه حالة تشابه فيها الوحش فتؤثر الانفراد لنفس الانفراد، وربما حبس الطبع، وساء الخلق، وربما حدث من حبس مائه المحتقن سُمِّيَّة أفسدت بدنه وعقله، وربما أورثته الخلوة وسوسة، وربما ظن أنه من الأولياء واستغنى بما يعرفه، وربما خيل له الشيطان أشياء من الخيالات وهو يعدها كرامات، وربما ظن أن الذى هو فيه الغاية ولا يدرى أنه إلى الكراهة أقرب، فإن رسول الله -ﷺ-: نهى أن يبيت الرجل وحده[1]، وهؤلاء كل منهم يبيت وحده، ونهى عن التبتل[2] وهذا تبتل، ونهى عن الرهبانية[3] وهذا من خفى خدع إبليس التى يوقع بها فى ورطات الضلال بألطف وجه وأخفاه.

والضرب الثانى: مشايخ قد فنوا فانقطعوا ضرورة، إذ ليس لأحدهم مأوى؛ فهم فى مقام الزمنى، وإن كان الضرب الأول قد قطعوا حبل نفوسهم فى العلم والعمل والكسب، وتعلقت هممهم بفتوح يطرق عليهم الباب، فرضوا بالعمى بعد البصر، وبالزمن[4] بعد الإطلاق.

فقالت لى النفس: لا أرضى لك هذا الذى تقوله، فإنك إنما تميل إلى إيثار نكاح المستحسنات والمطاعم المشتهيات، فإذا لم تكن من أهل التعبد فلا

---

(١) صحيح: أخرجه الإمام أحمد فى مسنده، (٢/ ٩١) من حديث ابن عمر -رضي الله عنهما-، والحديث صححه الشيخ الألبانى فى «صحيح الجامع» (٦٩١٩).

(٢) صحيح: والحديث أخرجه البخارى (٥٠٧٤) فى كتاب النكاح، باب: ما يكره من التبتل والخصاء، ومسلم (١٤٠٢) فى كتاب النكاح، باب: استحباب النكاح لمن تاقت إليه نفسه من حديث سعد بن أبى وقاص -رضي الله عنه- وهو بلفظ: «رد رسول الله -ﷺ- على عثمان ابن مظعون التبتل، ولو أذن له لاختصينا» وهو عند الترمذى (١٠٨٢) فى كتاب النكاح، باب: ما جاء فى النهى عن التبتل، والنسائى (٦/ ٥٩) فى كتاب النكاح، باب: النهى عن التبتل، وابن ماجه (١٨٤٩) فى كتاب النكاح، باب: النهى عن التبتل من حديث سمرة بن جندب -رضي الله عنه- بلفظ المصنف.

(٣) أخرجه أحمد فى «مسنده» (٦/ ٢٢٦)، والدارمى فى «سننه» (٢١٧٩) من حديث عائشة -رضي الله عنها-.

(٤) فى نسخة: وبالقيد.

تطعن فيهم. فقلت لها: إن فهمت حدثتك وإن كنت تقلدين صور الأحوال فلا فهم لك؛ أما المستحسنات، فإن المقصود من النكاح أشياء منها طلب الولد، ومنها شفاء النفس بإخراج الفضلة المؤذية، وكمال خروجها لا يكون إلا بوجود المستحسن. واعتبر هذا بالوطء دون الفرج، فإنه يخرج من الفضلات ما لا يخرج بالوطء فى الفراغ وبتمام خروج تلك الفضلة تفرغ النفس عن شواغلها، فتدرى أين هى؛ كما نأمر القاضى بالأكل قبل الحكم، وننهاه عن الحكم وهو غضبان أو حاقن، وبكمال بلوغ هذا الغرض يكون كمال الولد؛ لتمام النطفة التى تخلق منها، ثم للنفس حظ فهو يستوفيه استيفاء الناقة حظها من العلف فى السفر، وذلك يعين على سيرها، وأما المطاعم فالجاهل من يطلبها لذاتها، أو النفس لذاتها.

وإنما المراد إصلاح عدم الناقة لجمع همها، ونيل مرادها من غرضها الصارف لها عن الفكر فى هواها، وإذا تأملت حال السرب الأول رأيت من هذا عجبًا.

فإن النبى -ﷺ- اختار لنفسه عائشة -رضي الله عنها- وكانت مستحسنة، ورأى زينب فاستحسنها فتزوجها، وكذلك اختار صفية، وكان إذا وصف له امرأة بعث يخطبها، وكان لعلى -رضي الله عنه- أربع حرائر، وسبع عشرة سرية مات عنهن، وقبل هذه الأمة فقد كان لداود -عليه السلام- مائة امرأة، ولسليمان -عليه السلام- ألف امرأة.

فمن ادعى خللاً فى هذه الطرق، أو أن هؤلاء آثروا هواهم، وأنفقوا بضائع العمر فى هذه الأغراض وغيرها أفضل، فقد ادعى على الكاملين النقصان، وإنما هو الناقص فهمه لاهم!

وقد كان سفيان الثورى إذا سافر ففى سفرته حمل مشوية وفالوذج، وكان حسن المطعم، وكان يقول إن الدابة إذا لم تحسن إليها لم تعمل، وهذه الفنون التى أشرت إليها إن قصدت للحاجة إليها، أو لقضاء وطر النفس منها، أو لبلوغ الأغراض الدينية والدنيوية منها، فكله قصد صحيح لا يعكر عليه حاله.

ومن يقوم ويقعد فى ركعات لا يفهم معناها، وفى تسبيحات أكثر ألفاظها ردية، كلا ليس إلا العلم الذى هو أفضل الصفات، وأشرف العبادات، وهو الآمر بالمصالح، والناطق بالنصائح، ثم منفعة العلم معروفة، وزهد الزاهد لا يتعدى عتبة بابه، وقد قال -ﷺ-: «**لأن يهدى الله بك رجلاً خير لك مما طلعت عليه الشمس**»(١).

ثم اعتبر فضل الرسل على الأنبياء عليهم الصلاة والسلام، والجوارح على التى لا تصيد، والطين الذى يعمل منه ما ينتفع به على الطين فى المقلع، وغاية العلماء تصرفهم بالعلم فى المباح، وأكثر المتزهدين جهلة يستعبدهم تقبيل اليد لأجل تركهم ما أبيح، فكم فوتت العزلة علمًا يصلح به أصل الدين، وكم أوقعت فى بلية هلك بها الدين، وإنما عزلة العالم عن الشر فحسب، والله الموفق.

٨٣- فصل - ينبغى لكل ذى لب وفطنة أن يحذر عواقب المعاصى؛ فإنه ليس بين الآدمى وبين الله تعالى قرابة ولا رحم، وإنما هو قائم بالقسط حاكم بالعدل -وإن كان حلمه يسع الذنوب- إلا أنه إذا شاء عفا فعفا كل كثيف من الذنوب، وإذا شاء أخذ باليسير، فالحذر الحذر.

ولقد رأيت أقوامًا من المترفين كانوا يتقلبون فى الظلم والمعاصى باطنة وظاهرة، فتعبوا من حيث لم يحتسبوا؛ فقلعت أصولهم، ونقض ما بنوا من قواعد أحكموها لذراريهم، وما كان ذلك إلا أنهم أهملوا جانب الحق عز وجل، وظنوا أن ما يفعلونه من خير يقاوم ما يجرى من شر، فمالت سفينة ظنونهم. فدخلها من ماء الكيد ما أغرقهم، ورأيت أقوامًا من المنتسبين إلى العلم أهملوا نظر الحق عز وجل إليهم فى الخلوات؛ فمحا محاسن ذكرهم فى الجلوات؛ فكانوا موجودين كالمعدومين، لا حلاوة لرؤيتهم، ولا قلب

---

(١) صحيح: أخرجه البخارى (٣٠٠٩) فى كتاب الجهاد والسير، ومسلم (٢٤٠٦) فضائل الصحابة، باب: من فضائل على بن أبى طالب -ﷺ- من حديث سهل بن سعد، إلا أنه فيه بلفظ: «خير لك من حمر النعم».

يحن إلى لقائهم، فالله الله فى مراقبة الحق عز وجل، فإن ميزان عدله تبين فيه الذرة، وجزاؤه مرصد للمخطئ ولو بعد حين.

وربما ظن العفو وهو إمهال، وللذنوب عواقب سيئة، فالله الله فى الخلوات؛ البواطن البواطن، النيات النيات، فإن عليكم من الله عينًا ناظرة، وإياكم والاغترار بحلمه وكرمه، فكم استدرج.

وكونوا على مراقبة الخطايا مجتهدين فى محوها، وما شىء ينفع كالتضرع مع الحمية عن الخطايا، فلعله.

وهذا فصل إذا تأمله المعامل لله تعالى نفعه. ولقد قال بعض المراقبين لله تعالى: قدرت على لذة هى غاية وليست بكبيرة؛ فنازعتنى نفسى إليها اعتمادًا على صغرها، وعظم فضل الله تعالى وكرمه، فقلت لنفسى: إن غلبت هذه فأنت أنت، وإذا أتيت هذه فمن أنت، وذكرتها حالة أقوام كانوا يفسحون لأنفسهم فى مسامحة كيف انطوت أذكارهم، وتمكنت عقوبة الإعراض عنهم فيهم؛ فارعوت ورجعت عما همت به والله الموفق.

٨٤- **فصل** - كثير من الناس يتسامحون فى أمور يظنونها قريبة، وهى تقدح فى الأصول، كاستعارة طلاب العلم جزءًا لا يردونه، وقصد الدخول على من يأكل ليأكل معه، وتناول طعام لم يدع الإنسان إليه، والتسامح بعرض العدو التذاذًا بذلك، واستصغارًا لمثل هذا الذنب، وإطلاق البصر فى المحرم هوانًا بتلك الخطيئة، وفتوى من لا يعلم لئلا يقال هو جاهل، ونحو ذلك مما يظن صغيراً وهو عظيم، وأهون ما يصنع ذلك بصاحبه أن يحطه من مرتبة المتميزين بين الناس، ومن مقام رفعة القدر عند الحق، وربما قيل له بلسان الحال: يا من اؤتمن على أمر يسير فخان، ما بلية حظك فانو به.

قال بعض السلف: تسامحت بلقمة فتناولتها فأنا اليوم أربعين سنة إلى خلف، فالله الله اسمعوا ممن قد جرب، كونوا على مراقبة، وانظروا فى العواقب، واعرفوا عظمة الناهى، واحذروا من نفخة تحتقر، وشررة تستصغر فربما أحرقت بلدًا.

وهذا الذى أشـرت إليـه يسيـر يدل على كـثيـر، وأنموذج يعـرف باقى المحقرات من الذنوب، والعمل والمراقبة يعرفانك ما أخللت بذكره، ويعلمانك إن تلمـحت بعين البصـيرة أثر شؤم فـعله، ولا حول ولا قـوة إلا بالله العلى العظيم.

٨٥- فصل - رأيت من نفسى عـجبًا تسـأل الله عز وجل حاجـاتها، وتنسى جناياتها، فقلت: يا نفس السوء أو مـثلك ينطق، فإن نطق فينبغى أن يكون لسؤال العفو فحسب، فقالت: فممن أطلب مراداتى؟ قلت: ما أمنعك من طلب المراد، إنما أقول: حـققى التوبـة، وانطقى. كما نقـول فى العاصى بسفره إذا اضطر إلى الميتة لا يجوز له أن يـأكل، فإن قيل لنا أفيموت: قلنا لا بل يتوب ويأكل! فالله الله من جراءة على طلب الأغـراض مع نسيان ما تقدم من الذنوب التى توجب تـنكيس الرأس، ولئن تشـاغلت بإصـلاح ما مـضى والندم عليه جـاءتك مراداتك، كـما روى: «**من شـغله ذكرى عـن مسـألتى أعطيته أفضل ما أعطى السائلين**»(١).

وقد كان بشر الحافى يبسط يديه للسـؤال، ثم يسبلهما ويقول: مثلى لا يسأل؛ مـا أبقت الذنوب لى وجهًا؛ وهذا يخـتص ببشر لقـوة معرفتـه. كان وقت السؤال كالمخاطب كفاحًا فاستحيى الزلل، فأما أهل الغفلة فسؤالهم على بعد، فافهم ما ذكرته.

وتشاغل بالتوبة من الزلل. ثم العجب من سؤالاتك فإنك لا تكاد تسأل مهمًا من الدنيا؛ بل فضـول العيش، ولا تسأل صلاح القلب والدين، مثل ما تسأل صلاح الدنيا؛ فاعقل أمرك فإنك من الانبساط والغفلة على شفا جرف، وليكن حزنك على زلاتك شاغل لك عن مراداتك، فقـد كان الحسن البصرى شديد الخـوف؛ فلما قيل له فى ذلك. قال: ومـا يؤمننى أن يكون اطلع على فى بعض ذنوبى فقال: اذهب لا غفرت لك.

---

(١) أخرجـه الترمـذى (٢٩٢٩) فى كتـاب فضائل القـرآن، باب: رقم (٢٥)، والدارمى فى «سننه» (٣٣٥٦) من حديث أبى سعيد الخدرى -رضي الله عنه-.

تقويم النفس أساس السعادة

٨٦- فصل - أعجب العجب دعوى المعرفة مع البعد عن العرفان بالله، ما عرفه إلا من خاف منه، فأما المطمئن فليس من أهل المعرفة، وفي المتزهدين أهل تغفيل يكاد أحدهم يوطن على أنه ولى محبوب ومقبول، وربما توالت عليه ألطاف ظنها كرامات، ونسي الاستدراج الذى لفت مساكنته الألطاف، وربما احتقر غيره وظن أن محلته محفوظة به؛ تغره ركيعات ينتصب فيها، أو عبادة ينصب بها، وربما ظن أنه قطب الأرض وأنه لا ينال مقامه بعده أحد.

وكأنه ما علم أنه بينا موسى مكالم نبئ يوشع، وبينا زكريا -عليهم السلام- مجاب الدعوة نشر بالمنشار، وبينا يحيى -عليه السلام- يوصف بأنه سيد سلط عليه كافر احتز رأسه، وبينا بلعام معه الاسم الأعظم صار مثله كمثل الكلب، وبينا الشريعة يعمل بها نسخت وبطل حكمها، وبينا البدن معموراً خرب وسلط البلاء عليه، وبينا العالم يدأب حتى ينال مرتبة يعتقدها، نشأ طفل في زمان ترقى إلى سبر عيوبه وغلطه، وكم من متكلم يقول: ما مثلي؛ لو عاش فسمع ما حدث بعده من الفصاحة عد نفسه أخرساً.

هذا وعظ ابن السماك، وابن عمار، وابن سمعون، لا يصلح لبعض تلامذتنا ولا يرضاه، فكيف يعجب ينفق شيئًا[(١)] وربما أتى بعدنا من لا يعدنا، فالله الله من مساكنة مسكن، ومخالفة مقام، وليكن المتيقظ على انزعاج محتقر للكثير من طاعاته، خائفًا على نفسه من تقلباته، ونفوذ الأقدار فيه.

واعلم أن تلمح هذه الأشياء التى أشرت إليها يضرب عنق العجب، ويذهب كبر الكبر.

---

(١) في نسخة: يتفق شيئًا.

٨٧- فـصل - من عـاش مـن الله عـز وجل طيب العـيش فى زمن السلامة، خُفْت عليه فى زمن البلاء، فهناك المحك.

إن الملك عـز وجل بينا يبنى نقض، وبينا يعطى سلب، فطيب العـيش والرضـا هناك يبين، فـأمـا من تواصلت لديه النعـم فإنه يـكون طيب القلب لتواصلها، فإذا مسته نفحة من البلاء فبعيد ثباته.

قال الحـسن البصـرى: كانوا يتـساوون فى وقت النعم فـإذا نزل البلاء تباينوا، فالعـاقل من أعد ذخرًا، وحصل زادًا، وازداد من العـدد للقاء حرب البلاء، ولابد من لـقاء البلاء، ولو لم يكن إلا عند صـرعة الموت، فـإنها إن نزلت والعـياذ بالله فلم تجـد معرفـة توجب الرضـا أو الصبر، أخـرجت إلى الكفر، ولقد سمعت بعض من كنت أظن فيه كثرة الخير، وهو يقول فى ليالى موته: ربى هو ذا يظلمنى، فلم أزل منزعـجًا مهتـمًا بتحصيل عـدة ألقى بها ذلك القرن.

كيـف وقد روى أن الشـيطان يقول لأعـوانه فى تلك السـاعـة: عليكم بهـذا، فإن فـاتكم لم تقـدروا عليـه، وأى قلب يثبت عنـد إمسـاك النفس، والأخذ بالكظم، ونزع النفس، والعلم بمـفارقة المحبوبات إلـى ما لا يدرى ما هو، وليس فى ظاهره إلا القـبر والبلاء، فنسـأل الله عز وجل يقينًا يقـينا شر ذلك اليوم، لعلنا نصبر للقـضاء أو نرضى به ونرغب إلى مالك الأمور فى أن يهب لنا من فـواضل نعـمه على أحـبابه، حـتى يكون لقـاؤه أحب إلينا من بقائنا، وتفـويضنا إلى تقديره أشهى لنا من اختـيارنا، ونعوذ بالله من اعـتقاد الكمال لتدبيرنا، حتى إذا انعكس علينا أمر عدنا إلى القدر بالتسخط وهذا هو الجهل المحض، والخذلان الصريح أعاذنا الله منه.

٨٨- فصل - ليس فى الدنيا ولا فى الآخرة أطيب عـيشًا من العارفين بالله عز وجل، فإن العـارف به مستأنس به فى خلوته، فإن عـمت نعمه علم من أهداها، وإن مَرَّ مُرٌّ حلا مذاقه فى فيه، لمعـرفته بالمبتلى، وإن سأل فتعوق مـقصـوده، صار مـراده ما جـرى به القدر، علمـًا منه بالمصلحـة بعد يقـينه بالحكمة، وثقته بحسن التدبير.

وصفة العارف أن قلبه مراقب لمعروفه، قائم بين يديه، ناظر بعين اليقين إليه، فقد سرى من بركة معرفته إلى الجوارح ما هذبها:

فـإن نطقت فلم أنطق بغيـركم　　　وإن سكت فأنتم عقد إضمارى

إذا تسلط على العـارف أذى أعـرض نظره عن السـبب، ولم ير سـوى المسبب، فهو فى أطيب عيش معـه. إن سكت تفكر فى إقامة حقه، وإن نطق تكلم بما يرضـيه، لا يسكن قلبـه إلى زوجة ولا إلى ولد، ولا يتشـبث بذيل محبة أحد، وإنما يعاشر الخلق، ببدنه وروحه عند مالك روحه.

فهذا الذى لا هم عليه فى الدنيـا ولا غم عنده وقت الرحيل عنها، ولا وحشة له فى القبر، ولا خوف عليه يوم المحشر.

فأما مـن عدم المعرفة فـإنه معثّر لا يزال يضج من البـلاء لأنه لا يعرف المبتلى، ويستوحش لفقد غرضه لأنه لا يعرف المصلحة، ويستأنس بجنسه لأنه لا معـرفة بينـه وبين ربه، ويخـاف من الرحيـل لأنه لا زاد له ولا معـرفـة بالطريق.

وكم من عالم وزاهد لم يرزقـا من المعرفة إلا ما رزقـه العامى البطال، وربما زاد عليهما.

وكم من عامى رزق منها ما لم يرزقاه مع اجتهادهما، وإنما هى مواهب وأقسام. ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء.

٨٩- فصل - بالله عليك يا مـرفوع القـدر بالتـقوى لاتبع عـزها بذل المعاصى، وصابر عطش الهوى فى هجير المشتهى وإن أمضَ وأرمض(١)، فإذا بلغت النهاية من الصبر فاحتكم وقل: فهو مقام من لو أقسم على الله لأبره.

تالله لولا صبر عمر مـا انبسطت يده بضرب الأرض بالدرة، ولولا جدّ أنس بن النضر فى ترك هواه -وقد سمعت من آثار عـزمته: لئن أشهدنى الله مشـهداً ليرين الله مـا أصنع، فأقبل يوم أحـد يقاتل حتى قـتل فلم يعرف إلا

---

(١) أرمض: أوجع وأحرق.

بنانه؛ فلولا هذا العزم ما كان انبساط -يوم والله لا انكسر سن الربيع- وجه، بالله عليك تذوق حلاوة كف الكف عن المنهى، فإنها شجرة تثمر عز الدنيا وشرف الآخرة، ومتى اشتد عطشك إلى ما تهوى فابسط أنامل الرجاء إلى من عنده الرى الكامل، وقل قد عيل صبر الطبع فى سنينه العجاف، فعجل لى العام الذى فيه أغاث وأعصر.

بالله عليك تفكر فيمن قطع أكثر العمر فى التقوى والطاعة ثم عرضت له فتنة فى الأخير، كيف نطح مركبه الجرف فغرق وقت الصعود، أفٍّ والله للدنيا لا بل للجنة إن أوجب نيلها إعراض الحبيب! إنما نسب العامى باسمه واسم أبيه، فأما ذوو الأقدار فالألقاب قبل الأنساب.

قل لى من أنت وما عملك وإلى أى مقام ارتفع قدرك؟ يا من لا يصبر لحظة عما يشتهى. بالله عليك أتدرى من الرجل؟ الرجل والله من إذا خلا بما يحب من المحرم وقدر عليه وتقلقل عطشًا إليه نظر إلى نظر الحق إليه فاستحيى من إجالة همه فيما يكرهه، فذهب العطش. كأنك لا تترك لنا إلا ما لا تشتهى، أو ما لا تصدق الشهوة فيه، أو ما لا تقدر عليه، كذا والله عادتك إذا تصدقت أعطيت كسرة لا تصلح لك، أو فى جماعة يمدحونك، هيهات والله لا نلت ولايتنا حتى تكون معاملتك لنا خالصة.

تبذل أطايبك، وتترك مشتهياتك، وتصبر على مكروهاتك، علمًا منك إن كنت معاملاً بأنك أجير وما غربت الشمس؛ فإن كنت محبًّا رأيت ذلك قليلاً فى جنب رضا حبيبك عنك، وما كلامنا مع الثالث.

٩٠- فصل - رأيت فى العقل نوع منازعة للتطلع إلى جميع حكم الحق عز وجل فى حكمه، فربما لم يبن له بعضها مثل النقض بعد البناء فيقف متحيراً وربما انتهز الشيطان تلك الفرصة، فوسوس إليه أين الحكمة من هذا؟ فقلت له: احذر أن تخدع يا مسكين، فإنه قد ثبت بالدليل القاطع لما رأيت من إتقان الصنايع عندك حكمة الصانع، فإن خفى عليك بعض الحكم فلضعف إدراكك ثم ما زالت للملوك أسرار. فمن أنت حتى تطلع بضعفك

على جميع حكـمه؟ يكفيك الجمل، وإياك إياك أن تتعـرض لما يخفى عليك؛ فإنـك بعض موضـوعاته وذرة من مـصنوعاته فكيف تحكم على مـن صدرت عنه؟ ثم قد ثبتت عندك حكمته وحكمه وملكه، فاعمل آلتك على قدر قوتك في مطالعة ما يمكن مـن الحكم، فإنه سيورثك الدهش، وغمّض عـما يخفى عليك؛ فحقيق بذي البصر الضعيف ألا يقاوي نور الشمس.

٩١- فصل - أعجب الأشياء مجـاهدة النفس، لأنها تحتاج إلى صناعة عجيـبة. فإن أقوامًا أطلقـوها فيما تحب، فأوقعـتهم فيما كـرهوا، وإن أقوامًا بالغوا في خلافها حتى منعوها حقها، وظلموها.

وأثر ظلمهم لها في تعبداتهم فمنهم من أساء غذاءها؛ فأثر ذلك ضعف بدنهـا عن إقامة واجـبهـا، ومنهم من أفردها في خـلوة أثمرت الوحـشة من الناس، وآلت إلى ترك فرض، أو فضل من عيادة مريض، أو بر والدة.

وإنما الحازم من تعلم منه نفسه الجد وحـفظ الأصول، فإذا فسح لها في مباح لم تتجاسر أن تتعداه، فيكون معها كالملك إذا مازح بعض جنده، فإنه لا ينبسط إليه الغلام؛ فإن انبسط ذكـر هيبة المملكة، فكذلك المحق يعطيها حظها ويستوفي منها ما عليها.

٩٢- فصل - رأيت عموم الخلائق يدفعون الزمان دفعًا عجيبًا؛ إن طال الليل فبـحديث لا ينفع، أو بقراءة كـتاب فيـه غزاة وسمـر، وإن طال النهار فـبالنوم، وهـم في أطراف النهـار على دجلة أو في الأسـواق، فشـبـهتـهم بالمتحدثين في سفينة وهي تجري بهم، وما عندهم خبر.

ورأيت النادرين قد فهـموا معنى الوجود، فهم في تعبـية الزاد والتأهب للرحيل، إلا أنهم يتفاوتون، وسبب تفاوتهم قلة العلم وكثرته بما ينفق في بلد الإقامة، فالمتيقظون منهم يتطلعون إلـى الأخبار بالنافق هناك، فيستكثرون منه فيزيد ربحهم، والغافلون منهم يحملون مـا اتفق، وربما خرجوا لا مع خفير؛ فكم ممن قد قطعت عليه الطريق فبقي مفلسًا.

فالله الله في مـواسم العمر، والبـدار البدار قبل الفـوات، واستشـهدوا

العلم، واستدلوا الحكمة، ونافسوا الزمان، وناقشوا النفوس، واستظهروا بالزاد. فكأن قد حدا الحادى فلم يفهم صوته من وقع دمع الندم.

٩٣- فصل - أضر ما على المريض التخليط، وما من أحد إلا وهو مريض بالهوى، والحمية عنه رأس الدواء، والتخليط يديم المرض.

وتخليط أرباب الآخرة على ضربين:

أحدهما: تخليط العلماء، وهو إما لمخالطة الأضداد كالسلاطين فإنهم يضعفون قوى يقينهم كلما زادت المخالطة، ويقدمون دليلهم عند المريدين، فإنى إذ رأيت طبيبًا يخلط ويحمينى شككت أو وقفت.

والثانى: تخليط الزهاد، وقد يكون بمخالطة أرباب الدنيا، وقد يكون بحفظ الناموس فى إظهار التخشع، لاجتلاب محبة العوام. فالله الله فإن ناقد الجزاء بصير، والإخلاص فى الباطن، والصدق فى القلب، ونعم طريق السلامة ستر الحال.

٩٤- فصل - لقيت مشايخ أحوالهم مختلفة يتفاوتون فى مقاديرهم فى العلم، وكان أنفعهم لى فى صحبته العامل منهم بعلمه، وإن كان غيره أعلم منه، ولقيت جماعة من علماء الحديث يحفظون ويعرفون ولكنهم كانوا يتسامحون بغيبة يخرجونها مخرج جرح وتعديل، ويأخذون على قراءة الحديث أجرة، ويسرعون الجواب لئلا ينكسر الجاه وإن وقع خطأ.

ولقيت عبد الوهاب الأنماطى فكان على قانون السلف لم يسمع فى مجلسه غيبة، ولا كان يطلب أجرًا على سماع الحديث، وكنت إذا قرأت عليه أحاديث الرقائق بكى واتصل بكاؤه، فكنت -وأنا صغير السن حينئذ- يعمل بكاؤه فى قلبى، ويبنى قواعد، وكان على سمت المشايخ الذين سمعنا أوصافهم فى النقل.

ولقيت الشيخ أبا منصور الجواليقى، فكان كثير الصمت، شديد التحرى فيما يقول، متقنًا محققًا، وربما سئل المسألة الظاهرة التى يبادر بجوابها بعض

غلمانه فيتوقف فيها حتى يتقين، وكان كثير الصوم والصمت فانتفعت برؤية هذين الرجلين أكثر من انتفاعى بغيرهما، ففهمت من هذه الحالة أن الدليل بالفعل أرشد من الدليل بالقول.

ورأيت مشايخ كانت لهم خلوات فى انبساط ومزاح، فراحوا عن القلوب، وبدد تبديدهم ما جمعوا من العلم، فقل الانتفاع بهم فى حياتهم، ونسوا بعد مماتهم، فلا يكاد أحد أن يلتفت إلى مصنفاتهم، فالله الله فى العلم بالعمل فإنه الأصل الأكبر، والمسكين كل المسكين من ضاع عمره فى علم لم يعمل به، ففاته لذات الدنيا وخيرات الآخرة، فقدم مفلسًا على قوة الحجة عليه.

٩٥- فصل - سبحان الملك العظيم الذى من عرفه خافه، ومن أمن مكره قط ما عرفه.

لقد تأملت أمرًا عظيمًا أنه عز وجل يمهل حتى كأنه يهمل فيرى أيدى العصاة مطلقة كأنه لا مانع، فإذا زاد الانبساط ولم ترعو العقول أخذ أخذ جبار؛ وإنما كان ذلك الإمهال ليبلو صبر الصابر، وليملى فى الإمهال للظالم، فيثبت هذا على صبره، ويجزى هذا بقبيح فعله -مع أن هنالك من الحلم فى طى ذلك ما لا نعلمه- فإذا أَخَذَ أخْذَ عقوبة رأيت على كل غلطة تبعة، وربما جمعت فضرب العاصى بالحجر الدامغ، وربما خفى على الناس سبب عقوبته؛ فقيل: فلان من أهل الخير فما وجه ما جرى له؟ فيقول القدر: حدود لذنوب خفية صار استيفاؤها ظاهرًا، فسبحان من ظهر حتى لا خفاء به، واستتر حتى كأنه لا يعرف، وأمهل حتى طمع فى مسامحته، وناقش حتى تحيرت العقول من مؤاخذته، لا حول ولا قوة إلا بالله.

٩٦- فصل - تأملت العلم والميل إليه والتشاغل به، فإذا هو يقوى القلب قوة يميل به إلى نوع قساوة، ولولا قوة القلب وطول الأمل يوم لم يقع التشاغل به، فإنى أكتب الحديث أرجو أن أرويه، وأبتدئ بالتصنيف أرجو أن أتمه، فإذا تأملت إلي باب المعاملات قل الأمل، ورق القلب، وجاءت

الدموع، وطابت المناجـاة، وغنيت السكينة، وصرت كأنى فى مقـام المراقبة. إلا أن العلم أفضـل وأقوى حجـة، وأعلى رتبة، وإن حدث مـنه ما شكوت منه، والمعاملة -وإن كـثرت الفوائد التى أشـرت إليها منهـا -فإنها قـريبة إلى أحوال الجبان الكسلان، الذى قد اقتنع بـصلاح نفسه عن هداية غيره، وانفرد بعزلته عن اجتذاب الخلق إلى ربهم.

فالصواب العكوف على العلم مع تلذيع النفس بأسـباب المرققات تلذيعًا لا يقدح فى كمال التشاغل بالعلم؛ فـإنى لأكره لنفسى من جهة ضعف قلبى ورقته أن أكـثر زيارة القبور وأن أحضر المحـتضرين؛ لأن ذلك يؤثر فى فكرى ويخرجنى من حـيز المتشـاغلين بالعلم إلى مقام الـفكر فى الموت، ولا أنتفع بنفسى مدة.

وفصل الخطاب فى هذا أنه ينبغى أن يقاوم المرض بضده، فمن كان قلبه قاسـيًا شديد القـسوة، وليس عنده من المراقـبة ما يكفـه عن الخطأ قاوم ذلك بذكر الموت ومحاضرة المحتضرين.

فأما من قلبه شديد الرقة فيكفيه ما به؛ بل ينبغى له أن يتشاغل بما ينسيه ذلك لينتـفع بعيشـه، وليفـهم ما يفـتى به، وقد كـان الرسول -ﷺ- يمزح ويسابق عائشة، ويتلطـف بنفسه؛ فمن سار سيرته عليـه الصلاة والسلام فهم من مضمونها ما قلته من التلطف بالنفس.

٩٧- فصل - أظرف الأشياء إفاقة المحتضر عند موته، فإنه ينتبه انتباهًا لا يوصف، ويقلق قلقًـا لا يحد، ويتلهف على زمـانه الماضى، ويود لو ترك والتدارك ويصدق توبته على مقدار يقينه بـالموت، ويكاد يقتل نفسه قبل موتها بالأسف، ولو وجـدت ذرة من تلك الأحـوال فى أوان العـافيـة حـصل كل مقـصود من العمل بالتقـوى، فالعاقل من مـثل تلك الساعة وعمل بمقـتضى ذلك. فإن لم يتهـيأ تصوير ذلك على حقيـقته تخايله على قـدر يقظته، فإنه يكف كفّ الهوى ويبعث على الجد.

فأما من كانت تلك الساعة نصب عينيه كان كالأسير لها، كما روى عن حبيب العجمى أنه كان إذا أصبح يقول لامرأته: إذا مت اليوم ففلان يغسلنى، وفلان يحملنى.

وقال معروف لرجل صلّ بنا الظهر فقال: إن صليت بكم الظهر لم أصل بكم العصر، فقال: وكأنك تؤمل أن تعيش إلى العصر! نعوذ بالله من طول الأمل، وذكر رجل رجلاً بين يديه بغيبة، فجعل معروف يقول له: اذكر القطن إذا وضعوه على عينيك.

٩٨- فصل - ربما أخذ المتيقظ بيت شعر فأخذ منه إشارة انتفع بها، قال الجنيد: ناولنى سرى رقعة فيها مكتوب سمعت حاديًا فى طريق مكة شرفها الله تعالى يقول:

أبكى وما يدريك ما يبكينى   أبكى حذار أن تفارقينى
وتقطعى حبلى وتهجرينى

فانظر رحمك الله ووفقك إلى تأثير هذه الأبيات عند سرى حتى أحب أن يطلع منها الجنيد على ما اطلع عليه، ولم يصلح للاطلاع على مثلها إلا الجنيد، فإن أقوامًا فيهم كثافة طبع وخشونة فهم يعترضون.

قال بعضهم لما سمع مثل هذه: إلام يشار بهذه؟ إن كان إلى الحق؛ فالحق عز وجل لا يشار إليه بلفظ تأنيث، وإن كان إلى امرأة فأين الزهد؟ ولعمرى إن هذا حداء أهل الغفلة إذا سمعوا مثل هذا، ولذلك ينهى عن سماع القصائد وأقوال أهل الغناء، لأن الغالب حمل تلك الأبيات على مقاصد النفس، وغلبات الهوى؛ ومن أين لنا مثل الجنيد وسرى؟ وإذا وجدنا مثلهما فهما خبيران بما يسمعان. وأما اعتراض هذا الكثيف الطبع.

فالجواب: أن سريًا لم يأخذ الإشارة من اللفظ، ولم يقس ذلك على مطلوبه فيصير تأنيثًا أو تذكيراً، وإنما أخذ الإشارة من المعنى؛ فكأنه يخاطب حبيبه بمعنى الأبيات، فيقول: أبكى حذراً من إعراضك وإبعادك؛ فهذا الحاصل له، وما التفت قط إلى تذكير ولا إلى لفظ تأنيث فافهم هذا.

وما زال المتيقظون يأخذون الإشارة من مثل هذا؛ حتى كانوا يأخذونها من هذا الذى تقوله العامة، ويلقبونه بكان وكان، فرأيت بخط ابن عقيل عن بعض مشايخه الكبار أنه سمع امرأة تنشد:

غسلت له طول الليل فركت له طول النهار
خرج يعاين غيرى زلق وقع فى الطين

فأخذ من ذلك إشارة معناها: يا عبدى إنى حسنت خلقك، وأصلحت شأنك، وقومت بنيتك، فأقبلت على غيرى، فانظر عواقب خلافك لى، وقال ابن عقيل: وسمعت امرأة تقول: من هذا المكان وكان كلمة بقيت فى قلقها مدة:

كم كنت بالله أقل لك لذا التوانى غائلة
وللقبيح خميرة تبين بعد قليل

قال ابن عقيل: فما أوقعه من تخجيل على إهمالنا لأمور غدًا تبين خمايرها بين يدى الله تعالى.

٩٩- فصل - أمكننى تحصيل شىء من الدنيا بنوع من أنواع الرخص؛ فكنت كلما حصل شىء منه فاتنى من قلبى شىء؛ فكلما استنارت لى طريق التحصيل؛ تجدد فى قلبى ظلمة.

فقلت: يا نفس السوء -الإثم حزاز القلوب- وقد قال: «استفت نفسك»(١) فلا خير فى الدنيا كلها إذا كان فى القلب من تحصيلها شىء أوجب نوع كدر، وأن الجنة لو حصلت بسبب يقدح فى الدين أو فى المعاملة ما لذت، والنوم على المزابل مع سلامة القلب من الكدر ألذ من تكآت الملوك.

وما زلت أغلب نفسى تارة وتغلبنى أخرى، ثم تدّعى الحاجة إلى

---

(١) حسن: أخرجه البخارى فى التاريخ عن وابصة، كما فى «صحيح الجامع» (٩٤٨).

تحصيل ما لابد لها منه، وتقول: فما أتعدى في الكسب المباح في الظاهر، فقلت لها: أوليس الورع يمنع من هذا؟ قالت: بلى. قلت: أليس القسوة في القلب تحصل به؟ قالت: بلى. قلت: فلا خير لك في شيء هذا ثمرته، فخلوت يومًا بنفسي؛ فقلت لها: ويحك اسمعي أحدثك: إن جمعت شيئًا من الدنيا من وجه فيه شبهة أفأنت على يقين من إنفاقه؟ قالت: لا. قلت: فالمحنة أن يحظى به الغير، ولا تنالين إلا الكدر العاجل، والوزر الذى لا يؤمن، ويحك اتركى هذا الذى يمنع منه الورع لأجل الله فعامليه بتركه، وكأنك لا تريدين أن تتركى إلا ما هو محرم فقط، أو ما لا يصح وجهه، أو ما سمعت أن «من ترك شيئًا لله عوضه الله خيراً منه»(١)، أما لك عبرة فى أقوام جمعوا فحازه سواهم، وأملوا فما بلغوا أمناهم، كم من عالم جمع كتبًا كثيرة ما انتفع بها، وكم من منتفع ما عنده عشرة أجزاء، كم من طيب العيش لا يملك دينارين وكم من ذى قناطير منغص، أمالك فطنة تتلمح أحوال من يترخص من وجه فيسلب منه من أوجه.

ربما نزل المرض بصاحب الدار أو ببعض من فيها فأنفق فى سنته أضعاف ما ترخص فى كسبه، والمتقى معافى؛ فضجت النفس من لومى، وقالت: إذا لم أتعد واجب الشرع فما الذى تريد منى؟ فقلت لها: أضن بك عن الغبن، وأنت أعرف بباطن أمرك قالت: فقل لى ما أصنع؟ قلت: عليك بالمراقبة لمن يراك، ومثلى نفسك بحضرة معظم من الخلق فإنك بين يدى الملك الأعظم يرى من باطنك ما لا يراه المعظمون من ظاهرك؛ فخذى بالأحوط، واحذرى من الترخص فى بيع اليقين، والتقوى بعاجل الهوى، فإن وقع الطبع مما تلقين فقولى له: مهلاً، فما انقضت مدة الإشارة، والله مرشدك إلى التحقيق، ومعينك بالتوفيق.

١٠٠- فصل - ما زلت أسمع عن جماعة من الأكابر وأرباب المناصب أنهم يشربون الخمور ويفسقون ويظلمون، ويفعلون أشياء توجب الحدود؛ فبقيت أتفكر أقول متى يثبت على مثل هؤلاء ما يوجب حدًا؟ فلو ثبت فمن

---

(١) أخرجه الإمام أحمد فى «مسنده» (٥/٧٨) بلفظ قريب منه.

يقيمه، وأستبعد هذا فى العادة؛ لأنهم فى مقام احترام لأجل مناصبهم، فبقيت أتفكر فى تعطيل الحد الواجب عليهم، حتى رأيناهم قد نكبوا وأخذوا مرات، ومرت عليهم العجايب، فقوبل ظلمهم بأخذ أموالهم، وأخذت منهم الحدود مضاعفة بعد الحبس الطويل، والقيد الثقيل، والذل العظيم. وفيهم من قتل بعد ملاقاة كل شدة، فعلمت أنه ما يهمل شىء، فالحذر الحذر فإن العقوبة بالمرصاد.

١٠١- فصل - اجتهاد العاقل فيما يصلحه لازم له بمقتضى العقل والشرع، فمن ذلك حفظ ماله وطلب تنميته والرغبة فى زيادته، لأنه سبب بقاء الإنسان -مثاله- فقد نهى عن التبذير فيه، فقيل له: ﴿وَلَا تُؤْتُوا السُّفَهَاءَ أَمْوَالَكُمُ﴾(١) فاعلم أنه سبب لبقائه ﴿الَّتِي جَعَلَ اللَّهُ لَكُمْ قِيَامًا﴾(٢) أى قوامًا لمعاشكم.

وقال عز وجل: ﴿وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ﴾(٣).

وقال تعالى: ﴿وَلَا تُبَذِّرْ تَبْذِيرًا﴾(٤).

وقال تعالى: ﴿لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَلِكَ قَوَامًا﴾(٥).

ومن فضيلة المال أن الله تعالى قال: ﴿مَن ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا﴾(٦).

وقال تعالى: ﴿وَأَنفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾(٧).

وقال تعالى: ﴿يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ﴾(٨).

---

(١) سورة النساء: ٥.
(٢) سورة النساء: ٥.
(٣) سورة الإسراء: ٢٩.
(٤) سورة الإسراء: ٢٦.
(٥) سورة الفرقان: ٦٧.
(٦) سورة البقرة: ٢٤٥.
(٧) سورة البقرة: ١٩٥.
(٨) سورة البقرة: ٢٦٢.

وقال تعالى: ﴿لا يَسْتَوِي مِنكُم مَّنْ أَنفَقَ مِن قَبْلِ الْفَتْحِ﴾(١).

وجعل المال نعمة، وزكاته تطهيرًا؛ فقال تعالى: ﴿خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا﴾(٢).

وقال -ﷺ-: «نعم المال الصالح للرجل الصالح»(٣).

وقال: «ما نفعني مال كمال أبي بكر»(٤). وكان أبو بكر -رضي الله عنه- يخرج إلى التجارة ويترك رسول الله -ﷺ- فلا ينهاه عن ذلك وقال عمر بن الخطاب -رضي الله عنه-: لأن أموت بين شعبتى جبل أطلب كفاف وجهى أحب إلىَّ من أن أموت غازيًا فى سبيل الله.

وكان جماعة من الصحابة -رضي الله عنهم- يتجرون، ومن سادات التابعين سعيد ابن المسيب؛ فمات وخلف مالاً وكان يحتكر الزيت، وما زال السلف على هذا ثم تعرض نوائب كالمرض يحتاج فيها إلى شيء من المال فلا يجد الإنسان بدًّا من الاحتيال فى طلبته، فيبذل عرضه أو دينه، ثم للنفس قوة بدنية عند وجود المال، وهو معدود عند الأطباء من الأدوية، حكمة وضعها الواضع، وإنما تبع أقوام طريق الراحة فادعوا أنهم متوكلة وقالوا نحن لا نمسك شيئًا ولا نتزود لسفر، ورزق الأبدان يأتى، وهذا على مضادة الشرع؛ فإن رسول الله -ﷺ- نهى عن إضاعة المال.

وموسى -عليه السلام- لما سافر فى طلب الخضر تزود، ونبينا -ﷺ- لما هاجر تزود، وأبلغ من هذا قوله تعالى: ﴿وَتَزَوَّدُوا فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَى﴾(٥) ثم يدعى هؤلاء المتصوفة بغض الدنيا فلا يفهمون ما الذى ينبغى أن يبغض، ويرون زينة الطلب للمال حرصًا وشرهًا، وفى الجملة إنما اخترعوا بآرائهم

(١) سورة الحديد: ١٠.
(٢) سورة التوبة: ١٠٣.
(٣) أخرجه الإمام أحمد فى «مسنده» (٤/ ١٩٧ و٢٠٢) من حديث عمرو بن العاص -رضي الله عنه-.
(٤) صحيح: وقد تقدم.
(٥) سورة البقرة: ١٩٧.

طريقًا فيها شيء من الرهبانية إذا صدقوا وشيء من البهرجة إذا نصبوا شباك الصيد بالتزهد؛ فسموا ما يصل إليهم من الأرزاق فتوحًا. قال ابن قتيبة فى غريب الحديث فى قوله -ﷺ-: «**واليد العليا**»(١)؛ قال: هى المعطية، قال: فالعجب عندى من قوم يقولون هى الآخذة، ولا أرى هؤلاء القوم إلا قومًا استطابوا السؤال، فهم يحتجون للدناءة، فأما الشرائع فإنها بريئة من حالهم، وفى الحديث: «**ضاق البلد بمواشى إبراهيم ولوط -عليهما السلام- فافترقا**».

وكان شعيب -عليه السلام- كثير المال. ثم قد ند طمعه فى زيادة الأجر من موسى -عليه السلام- فقال: ﴿**فَإِنْ أَتْمَمْتَ عَشْرًا فَمِنْ عِندِكَ**﴾(٢) وكان ابن عقيل رحمه الله يقول: من قال إنى لا أحب الدنيا فهو كذاب، فإن يعقوب -عليه السلام- لما طلب منه بنيامين قال: ﴿**هَلْ آمَنُكُمْ عَلَيْهِ**﴾(٣) فقالوا: ﴿**وَنَزْدَادُ كَيْلَ بَعِيرٍ**﴾(٤) فقال: خذوه. وقال بعض السلف: من ادعى بغض الدنيا فهو عندى كذاب إلى أن يثبت صدقه، فإذا ثبت صدقه فهو مجنون، وقد نفر جماعة من المتصوفة خلقًا من الخلق عن الكسب، وأوحشوا بينهم وبينه، وهو دأب الأنبياء والصالحين. وإنما طلبوا طريق الراحة وجلسوا على الفتوح؛ فإذا شبعوا رقصوا؛ فإذا انهضم الطعام أكلوا. فإن لاحت لهم حيلة على غنى أوجبوا عليه دعوة، إما بسبب شكر أو بسبب استغفار، وأطم الطامات ادعاؤهم أن هذا قربة، وقد انعقد إجماع العلماء أن من ادعى الرقص قربة إلى الله تعالى كفر، فلو أنهم قالوا مباح كان أقرب حالاً، وهذا لأن القرب لا يعرف إلا بالشرع؛ وليس فى الشرع أمر بالرقص ولا ندب إليه.

ولقد بلغنى عن جماعة منهم أنهم كانوا يوقدون الشمع فى وجوه

---

(١) صحيح: أخرجه البخارى (١٤٠٢) فى كتاب الزكاة، باب: لا صدقة إلا عن ظهر غنى، ومسلم (١٠٣٤) فى كتاب الزكاة، باب: بيان أن اليد العليا خير من اليد السفلى من حديث حكيم بن حزام -رضي الله عنه-.

(٢) سورة القصص: ٢٧.

(٣) سورة يوسف: ٦٤.

(٤) سورة يوسف: ٦٥.

المردان[١] وينظرون إليهم، فإذا سئلوا عن ذلك سخروا بالسائل؛ فقالوا: نعتبر بخلق الله، أفتراهم أقوى من النبى -ﷺ- حين أجلس الشاب الذى وفد عليه من وراء ظهره. وقال: وهل كانت فتنة داود إلا من النظر، هيهات لقد تملك الشيطان تلك الأزمّة فقادها إلى ما أراد، والعجب ممن يذم الدنيا وهو يأكل فيشبع، ولا ينظر من أين المطعم؟ وما زال صالحو السلف يفتشون على المطعم، حتى كان إبراهيم بن أدهم يسهر هو وأصحابه ويقولون: مع من نعمل غدًا؟ وكان سرى السقطى يعرف بطيب الغذاء، وله فى الورع مقامات.

فجاء قوم يتسمون بالصوفية يدعون اتباع أولئك السادة، ويأكلون من مال فلان -وهم يعرفون أصول تلك الأموال- ويقولون: رزقنا، فواعجبًا إذا كان الآكل لا يبالى به من أين؟ ولا امتناع من شهوة ولا تقلل، ولا يخلو الرباط من المطبخ، ولا ينقطع ليلة، وأصله من مال قد عرف من أين هو، والحمام دائر، والمغنى يدق بدف فيه جلاجل، ورفيقه بالشبابة، وسعدى وليلى فى الإنشاد. والمردان فى الشمع، ثم يذم الدنيا بعد هذا، فقولوا لنا: من يتلهى بالناس؟ ولكن من مرت عليهم زرجنتهم[٢] فإنه أخس منهم.

١٠٢- فصل - عرض لى فى طريق الحج خوف من العرب[٣] فسرنا على طريق خيبر، فرأيت من الجبال الهائلة والطرق العجيبة ما أذهلنى، وزادت عظمة الخالق عز وجل فى صدرى فصار يعرض لى عند ذكر تلك الطرق نوع تعظيم لا أجده عند ذكر غيرها، فصحت بالنفس ويحك اعبرى إلى البحر وانظرى إليه وإلى عجائبه بعين الفكر، تشاهدى أهوالاً هى أعظم من هذه، ثم اخرجى عن الكون والتفتى إليه فإنك ترينه بالإضافة إلى السمٰوات والأفلاك كذرة فى فلاة، ثم جولى فى الأفلاك وطوفى حول العرش وتلمحى ما فى الجنان والنيران، ثم اخرجى عن الكل والتفتى إليه، فإنك تشاهدينه فى قبضة القادر الذى لا تقف قدرته عند حد، ثم التفتى إليك

(١) المردان: جمع أمرد، وهو الغلام الذى لم تنبت لحيته بعد.
(٢) زرجنتهم: خدعتهم.
(٣) المقصود بهم: البدو، وهم الأعراب الذين يتعرضون للقوافل ويفسدون فى الأرض.

فتلمحى بدايتك ونهايتك، وتفكرى فيما قبل البداية، وليس إلا العدم، وفيما بعد البلى وليس إلا التراب، فكيف يأنس بهذا الوجود من نظر بعين فكره المبدأ والمنتهى وكيف يغفل فعل القلوب عن ذكر هذا الإله العظيم، بالله لو صحت النفوس عن سكر هواها لذابت من خوفه، أو لغابت من حبه، غير أن الحس غلب فعظمت قدرة الخالق عند رؤية جبل، وإن الفطنة لو تلمحت المعانى لدلت القدرة عليه أوفى من دليل الجبل، سبحان من شغل أكثر الخلق بما هم فيه عما خلقوا له سبحانه.

١٠٣- فصل - للبلايا نهايات معلومة الوقت عند الله عز وجل، فلابد للمبتلى من الصبر إلى أن ينقضى أوان البلاء، فإن تقلقل قبل الوقت لم ينفع التقلقل؛ كما أن المادة إذا انحدرت إلى عضو فإنها لن ترجع، فلابد من الصبر إلى حين البطالة؛ فاستعجال زوال البلاء مع تقدير مدته لا ينفع.

فالواجب الصبر وإن كان الدعاء مشروعًا ولا ينفع إلا به إلا أنه لا ينبغى للداعى أن يستعجل، بل يتعبد بالصبر والدعاء والتسليم إلى الحكيم، ويقطع المواد التى كانت سببًا للبلاء؛ فإن غالب البلاء أن يكون عقوبة، فأما المستعجل فمزاحم للمدبر، وليس هذا مقام العبودية وإنما المقام الأعلى هو الرضا والصبر هو اللازم.

والتلاحى بكثرة الدعاء نعم المعتمد، والاعتراض حرام، والاستعجال مزاحمة للتدبير، فافهم هذه الأشياء فإنها تهون البلاء.

١٠٤- فصل - ليس فى الوجود شىء أصعب من الصبر إما عن المحبوب، أو على المكروهات، وخصوصًا إذا امتد الزمان أو وقع اليأس من الفرج، وتلك المدة تحتاج إلى زاد يقطع به سفرها، والزاد يتنوع من أجناس؛ فمنه تلمح مقدار البلاء وقد يمكن أن يكون أكثر؛ ومنه أنه فى حال كون ما فوقها أعظم منها مثل أن يبتلى بفقد ولد وعنده أعز منه، ومن ذلك رجاء العوض فى الدنيا، ومنه تلمح الأجر فى الآخرة، ومنه التلذذ بتصور المدح والثناء من الخلق فيما يمدحون عليه، والأجر من الحق عز وجل.

ومن ذلك فإن الجزع لا يفيد بل يفضح صاحبه إلى غير ذلك من الأشياء التى يقدحها العقل والفكر، فليس فى طريق الصبر نفقة سواها؛ فينبغى للصابر أن يشغل بها نفسه ويقطع بها ساعات ابتلائه وقد صبح المنزل.

١٠٥- فصل - ينبغى لمن وقع فى شدة ثم دعا أن لا يختلج فى قلبه أمر من تأخير الإجابة أو عدمها، لأن الذى إليه أن يدعو، والمدعو مالك حكيم، فإن لم يجب فعل ما يشاء فى ملكه، وإن أخّر فعل بمقتضى حكمته، فالمعترض عليه فى سره خارج عن صفة عبد؛ مزاحم بمرتبته مستحق[1] ثم ليعلم أن اختيار الله عز وجل له خير من اختياره لنفسه؛ فربما سأل سيلاً سال به.

وفى الحديث: «**إن رجلاً كان يسأل الله عز وجل أن يرزقه الجهاد فهتف به هاتف إنك إن غزوت أسرت، وإن أُسِرْت تنصّرت**»[2].

فإذا سلم العبد تحكيمًا لحكمته وحكمه، وأيقن أن الكل ملكه طاب قلبه، قضيت حاجته أو لم تقض. وفى الحديث: «**ما من مسلم دعا الله تعالى إلا وأجابه، فإما أن يعجلها وإما أن يؤخرها وإما إن يدخرها له فى الآخرة**» فإذا رأى يوم القيامة أن ما أجيب فيه قد ذهب، وما لم يجب فيه قد بقى ثوابه، قال: «**ليتك لم تجب لى دعوة قط**»[3]. فافهم هذه الأشياء، وسلم قلبك من أن يختلج فيه ريب أو استعجال.

---

(١) فى نسخة: لمرتبة مستحق.

(٢) لم أقف عليه.

(٣) طرفه الأول أخرجه الإمام أحمد فى «مسنده» (٢/٤٤٨) من حديث أبى هريرة، و(٣/١٨) من حديث أبى سعيد -رضي الله عنهما-.

شرف العلم بالتقوى

١٠٦- فصل - من أراد أن يعرف رتبة العلماء على الزهاد فلينظر فى رتبة جبريل وميكائيل ومن خص من الملائكة بولاية تتعلق بالخلق، وباقى الملائكة قيام التعبد فى مراتب الرهبان فى الصوامع. وقد حظى أولئك بالتقريب على مقادير علمهم بالله تعالى. فإذا مرّ أحدهم بالوحى انزعج أهل السماء حتى يخبرهم بالخبر ﴿**إِذَا فُزِّعَ عَن قُلُوبِهِمْ قَالُوا مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ قَالُوا الْحَقَّ**﴾(١).

كما إذا انزعج الزاهد من حديث يسمعه، سأل العلماء عن صحته ومعناه. فسبحان من خص الخصوص بخصائص شرفوا بها على جنسهم، ولا خصيصة أشرف من العلم؛ بزيادته صار آدم مسجوداً له، وبنقصانه. صارت الملائكة ساجدة، فأقرب الخلق من الله العلماء، وليس العلم بمجرد صورته هو النافع بل معناه، وإنما ينال معناه من تعلمه للعمل به، فكلما دله على فضل اجتهد فى نيله، وكلما نهاه عن نقص بالغ فى مساعدته، فحينئذ يكشف العلم له سره، ويسهل عليه طريقه، فيصير كمجتذب بحث الجاذب، فإذا حركه عجل فى سيره.

والذى لا يعمل بالعلم لا يطلعه العلم على غوره، ولا يكشف له عن سره، فيكون كمجذوب لجاذب جاذبه فافهم هذا المثل، وحسن قصدك وإلا فلا تتعب.

١٠٧- فصل - اعلم أن أصلح الأمور الاعتدال فى كل شىء وإذا رأينا أرباب الدنيا قد غلبت آمالهم، وفسدت فى الخير أعمالهم، أمرناهم بذكر الموت والقبور والآخرة.

---

(١) سورة سبأ: ٢٣.

فأما إذا كان العالم لا يغيب عن ذكره الموت وأحاديث الآخرة تقرأ عليه، وتجرى على لسانه فتذكاره الموت زيادة على ذلك لا تفيد إلا انقطاعه بمرة[١]. بل ينبغى لهذا العالم الشديد الخوف من الله تعالى الكثير الذكر للآخرة أن يشاغل نفسه عن ذكر الموت ليمتد نفس أمله قليلاً؛ فيصنف ويعمل أعمال خير، ويقدر على طلب ولد. فأما إذا لهج بذكر الموت كانت مفسدته عليه أكثر من مصلحته، ألم تسمع «أن النبى -ﷺ- سابق عائشة -رضي الله عنها- فسبقته، وسابقها فسبقها»[٢]، وكان يمزح ويشاغل نفسه. فإن مطالعة الحقائق على التحقيق تفسد البدن وتزعج النفس.

وقد روى عن أحمد بن حنبل رحمة الله عليه: أنه سأل الله تعالى أن يفتح عليه باب الخوف ففتح عليه فخاف على عقله؛ فسأل الله أن يرد ذلك عنه؛ فتأمل هذا الأصل فإنه لابد من مغالطة النفس وفى ذلك صلاحها والله الموفق والسلام.

١٠٨- فصل - من أعمل فكره الصافى دله على طلب أشرف المقامات، ونهاه عن الرضا بالنقص فى كل حال وقد قال أبو الطيب المتنبى:

ولم أر فى عيوب الناس عيبًا كنقص القادرين على التمام

فينبغى للعاقل أن ينتهى إلى غاية ما يمكنه، فلو كان يتصور للآدمى صعود السموات لرأيت من أقبح النقائص رضاه بالأرض، ولو كانت النبوة تحصل بالاجتهاد رأيت المقصر فى تحصيلها فى حضيض، غير أنه إذا لم يمكن ذلك فينبغى أن يطلب الممكن، والسيرة الجميلة عند الحكماء خروج النفس إلى غاية كمالها الممكن لها فى العلم والعمل. وأنا أشرح من ذلك ما يدل مذكوره على مغفله. أما فى البدن: فليست الصورة داخلة تحت كسب الآدمى؛ بل يدخل تحت كسبه تحسينها وتزيينها، فقبيح بالعاقل إهمال نفسه،

(١) لعل الأصح: بالمرة.

(٢) صحيح: أخرجه أبو داود (٢٥٧٨) فى كتاب الجهاد، باب: فى السبق على الرجل، وابن ماجه (١٩٧٩) فى كتاب النكاح، باب: حسن معاشرة النساء من حديث عائشة -رضي الله عنها-، والحديث صححه الشيخ الألبانى.

وقد نبه الشرع على الكل بالبعض. فأمر بقص الأظافر، ونتف الإبط، وحلق العانة، ونهى عن أكل الثوم والبصل النيء لأجل الرائحة.

وينبغي له أن يقيس على ذلك ويطلب غاية النظافة ونهاية الزينة، وقد كان النبي -ﷺ- يعرف مجيئه بريح الطيب، فكان الغاية في النظافة والنزاهة، ولست آمرًا بزيادة التقشف الذي يستعمله الموسوس، أو المترفون ولكن التوسط هو المحمود. ثم ينبغي له أن يرفق ببدنه الذي هو راحلته ولا ينقص من قُوتِها فتنقص قوَّتُها. ولست آمرًا بالشبع الذي يوجب الجشأ، إنما آمر بالتوسط، فإن قوى الآدمي كعين جارية، فكم فيها من منفعة لصاحبها ولغيره.

ويعين صانعًا ولا يلتفت إلى قول الموسوسين من المتزهدين الذين جدوا في التقلل فضعفوا عن الفرائض، وليس ذلك من الشرع، ولا نقل عن الرسول -ﷺ- ولا أصحابه. إنما كان الرسول -ﷺ- وأصحابه إذا لم يجدوا جاعوا، وربما آثروا فصبروا ضرورة، وكذلك ينبغي أن ينظر لهذه الراحلة في علفها -فرب لقمة منعت لقمات- فلا يعطيها ما يؤذيها، بل ينظر لها في الأصلح ولا يتلفت إلى متزهد يقول لا أبلغها الشهوات، فإن النظر ينبغي أن يكون في حل المطعم وأخذ ما يصلح بمقدار.

ولم ينقل عن الرسول -ﷺ- ولا أصحابه -رضي الله عنهم- ما أحدثه الموسوسون في ترك المشتهيات على الإطلاق، إنما نقل عنهم تركها لسبب: إما للنظر في حلها؛ أو للخوف من مطالبة النفس بها في كل وقت، ويجوز ذلك وينبغي له أن يجتهد في التجارة والكسب؛ ليفضل على غيره ولا يفضل غيره عليه، وليبلغ من ذلك غاية لا تمنعه عن العلم، ثم ينبغي له أن يطلب الغاية في العلم.

ومن أقبح النقص التقليد، فإن قويت همته رقَّتْهُ إلى أن يختار لنفسه مذهبًا ولا يتمذهب لأحد؛ فإن المقلد أعمى يقوده مقلده. ثم ينبغي أن يطلب

الغاية في معرفة الله تعالى ومعاملته، وفي الجملة لا يترك فضيلة يمكن تحصيلها إلا حصّلها؛ فإن القنوع بما نزل المبارك حالة الأرذال.

فكن رجلاً رجله في الثرى وهامة همته في الثريا

ولو أمكنك عبور كل أحد من العلماء والزهاد فافعل، فإنهم كانوا رجالاً وأنت رجل، وما قعد من قعد إلا لدناءة الهمة وخساستها، واعلم أنك في ميدان سباق والأوقات تنتهب، ولا تخلد إلى كسل، فما فات من فات إلا بالكسل، ولا نال من نال إلا بالجدّ والعزم، وأن الهمة لتغلي في القلوب غليان ما في القدور، وقد قال بعض من السلف:

ليس لي مال سوى كَرّي فبه أمنى من العَدمِ
قَنعَت نفسي بما رُزِقَت وتمطّت في العُلا همِمي

١٠٩- فصل - ليس في الدنيا أنفع للعلماء من جمع المال للاستغناء عن الناس، فإنه إذا ضم إلى العلم حيز الكمال، وإن جمهور العلماء شغلهم العلم عن الكسب، فاحتاجوا إلى ما لابد منه، وقل الصبر فدخلوا مدخل شانتهم وإن تأولوا فيها، إلا أن غيرها كان أحسن لهم.

فالزهري مع عبد الملك، وأبو عبيدة مع طاهر بن الحسين، وابن أبي الدنيا مؤدب المعتضد، وابن قتيبة صدر كتابه بمدح الوزير.

وما زال خلف من العلماء والزهاد يعيشون في ظل جماعة من المعروفين بالظلم، وهؤلاء وإن كانوا سلكوا طريقًا من التأويل فإنهم فقدوا من قلوبهم، وكمال دينهم أكثر مما نالوا من الدنيا.

وقد رأينا جماعة من المتصوفة والعلماء يغشون الولاة لأجل نيل ما في أيديهم. فمنهم من يداهن ويرائي، ومنهم من يمدح بما لا يجوز، ومنهم من يسكت عن منكرات إلى غير ذلك من المداهنات وسببها الفقر، فعلمنا أن كمال العز وبعد الرياء إنما يكون في البعد عن العمال الظلمة، ولم نر من صح له هذا إلا في أحد رجلين:

إما من كـان له ماله كسـعيد بن المسيب كـان يتجر فى الزيت وغـيره، وسفيان الثورى كانت له بضائع، وابن المبارك.

وإما من كـان شديد الصبر قنوعـًا بما رزق وإن لم يكفه كبشـر الحافى، وأحمـد بن حنبل. ومتى لم يجد الإنسـان كصبر هذين، ولا كـمال أولئك، فالـظاهر تقلبه فى المحن والآفـات، وربما تلف دينه. فـعليك يا طالب العلم بالاجتهاد فى جمع المال للغنى عن الناس فإنه يجمع لك دينك. فما رأينا فى الأغلب منافقـًا فى التدين والتـزهد والتخشع، ولا آفـة طرأت على عالم إلا بحب الدنيا، وغالب ذلك الفقر.

فإن كان من له ما يكفيه ثم يطلب بتلك المخالطة الزيادة، فذلك معدود فى أهل الشره، خارج عن حيز العلماء، نعوذ بالله من تلك الأحوال.

١١٠- فصل - أعظم دليل على فضـيلة الشىء النظر إلى ثمرته، ومن تأمل ثمرة الفقه علم أنه أفضل العلوم، فـإن أرباب المذاهب فاقوا بالفقه على الخلائق أبدًا، وإن كان فى زمن أحـدهم من هو أعلم منه بالقرآن أو بالحديث أو باللغة.

واعتبر هذا بأهل زماننا فإنك تـرى الشاب يعرف مسائل الخلاف الظاهرة فيسـتغنى، ويعرف حكم الله تعـالى فى الحوادث ما لا يعرفـه النحرير(١) من باقى العلماء.

وكم رأينا مـبرزًا فى علم القـرآن أو فى الحديث أو فى التـفسـير أو فى اللغة لا يعرف مع الشيخوخـة معظم أحكام الشرع، وربما جهل علم ما ينويه فى صلاته، على أنه ينبغى للفـقيه ألا يكون أجنبيًّا عن باقى العلوم، فإنه لا يكون فقيهـًا، بل يأخذ من كل علم بحظ ثم يتوفر على الفقـه فإنه عز الدنيا والآخرة.

١١١- فصل - رأيت كثيرًا من الناس يتـحرزون من رشاش نجاسة ولا

---

(١) النحرير: الفطن البصير بكل شىء.

يتحاشون من غيبة، ويكثرون من الصدقة ولا يبالون بمعاملات الربا، ويتهجدون بالليل ويؤخرون الفريضة عن الوقت، فى أشياء يطول عددها من حفظ فروع وتضييع أصول.

فبحثت عن سبب ذلك، فوجدته من شيئين: أحدهما العادة، والثانى غلبة الهوى فى تحصيل المطلوب؛ فإنه قد يغلب فلا يترك سمعًا ولا بصرًا.

ومن هذا القبيل أن أخوة يوسف قالوا حين سمعوا صوت المنادى: ﴿إِنَّكُمْ لَسَارِقُونَ﴾(١). ﴿لَقَدْ عَلِمْتُم مَّا جِئْنَا لِنُفْسِدَ فِي الأَرْضِ وَمَا كُنَّا سَارِقِينَ﴾(٢)، فجاء فى التفسير أنه لما دخلوا مصر كموا أفواه إبلهم لئلا تتناول ما ليس لهم. فكأنهم قالوا: قد رأيتم ما صنعنا بإبلنا فكيف نسرق؟ ونسوا تفاوت ما بين الورع واختطاف أكلة لا يملكونها، وبين إلقاء يوسف -عليه السلام- فى الجب وبيعه بثمن بخس، وفى الناس من يطيع فى صغار الأمور دون كبارها، وفيما كلفته عليه خفيفة أو معتادة، وفيما لا ينقص شيئًا من عادته فى مطعم وملبس.

نرى أقوامًا يأخذون بالربا ويقول أحدهم كيف يرانى عدوى بعين أنى بعت دارى، أو تغير ملبوسى ومركوبى! ونرى أقوامًا يوسوسون فى الطهارة ويستعملون الكثير ولا يتحاشون من غيبة، وأقوامًا يستعملون التأويلات الفاسدة فى تحصيل أغراضهم مع علمهم أنها لا تجوز، حتى أنى رأيت رجلاً من أهل الخير والتعبد أعطاه رجل مالاً ليبنى به مسجدًا، فأخذه لنفسه وأنفق عوض الصحيح قراضة، فلما احتضر قال لذلك الرجل اجعلنى فى حل فإنى فعلت كذا وكذا.

ونرى أقوامًا يتركون الذنوب لبعدهم عنها، فقد ألفوا التَّرْكَ، وإذا قربوا منها لم يتمالكوا. وفى الناس من هذه الفنون عجائب يطول ذكرها.

وقد علمنا أن خلقًا من علماء اليهود كانوا يحملون ثقل التعبد فى

---

(١) سورة يوسف: ٧٠.

(٢) سورة يوسف: ٧٣.

دينهم، فلما جاء الإسلام وعرفوا صحتـه لم يطيقوا مقاومة أهوائهم فى محو رياستهم.

وكذلك قيصر فإنه عرف رسول الله -ﷺ- بالدليل فلم يقدر على مقاومة هواه وترك ملكه. فالله الله فى تضييع الأصول! ومن إهمال سرح الهوى، فإنه إن أهملت ماشية نفشت فى زروع التقى، وما مثل الهوى إلا كسبع فى عنقه سلسلة فإن استوثق منه ضابطه كفه، وربما لاحت له شهواته الغالبة عليه فلم تقاومها السلسلة فأفلت.

على أن من الناس من يكف هواه بسلسلة، ومنهم من يكفه بخيط، فينبغى للعاقل أن يحذر شياطين الهوى، وأن يكون بصيرًا بما يقوى عليه من أعدائه، وبمن يقوى عليه.

١١٢- فصل - من أعظم الغلط الثقة بالناس والاسترسال إلى الأصدقاء فإن أشدَّ الأعداء وأكثرهم أذى الصديق المنقلب عدوًّا، لأنه قد اطلع على خفى السر، قال الشاعر:

احذر عدوَّك مرة واحذر صديقك ألف مرة
فلربما انقلب الصديـ ـق فكان أدرى بالمضرة

واعلم أن من الأمر الموضوع فى النفوس الحسد على النعم، أو الغبطة وحب الرفعة، فإذا رآك من يعتقدك مثلاً له وقد ارتقيت عليه فلابد أن يتأثر وربما حسد؛ فإن إخوة يوسف -عليهم السلام- من هذا الجنس جرى لهم.

فإن قلت: كيف يبقى الإنسان بلا صديق؟ قلت لك: أتراك ما تعلم أن المجانس يحسد، وأن أكثر العوام يعتقدون فى العالم أ: لا يتبسم ولا يتناول من شهوات الدنيا شيئًا، فإذا رأوا بعض انبساطه فى المباح هبط من أعينهم، فإذا كانت هذه حالة العوام، وتلك حالة الخواص، فمع من تكون المعاشرة؟ لا بل والله ما تصح المعاشرة مع النفس لأنها متلونة، وليس إلا المداراة للخلق والاحتراز منهم واتخاذ المعارف من غير طمع فى صديق صادق، فإن ندر

فليكن غير مماثل، لأن الحسد إليه أسبق، وليكن مـرتفعًا عن رتبة العوام، غير طامع فى نيل مقامك.

وإن كـانت معـاشرة هذا لا تشـفى لأن المعـاشرة ينبـغى أن تكون بين العلماء للمجانس لزمهم[1] من الإشارات فى المخالطة ما تطيب به المجالسة، ولكن لا سبيل إلى الوصال.

ومـثل هذه الحال أنك إن اسـتـخدمت الأذكـيـاء عرفـوا باطنك، وإن استخدمت البله انعكست مقاصدك.

فاجـعل الأذكياء لحوائـجك الخارجة، والبله لحـوائجك فى منزلك لئلا يعلموا أسرارك، واقنع من الأصدقاء بمن وصفـته لك، ثم لا تلقه إلا متدرعًا درع الحذر، ولا تـطلعه على باطن يمكن أن يسـتر عنه، وكن كـما يقـال عن الذئب:

ينام بإحدى مقلتـيه ويتقى بأخـ ـرى الأعادى فهو يقظان هاجع

١١٣- **فصل** - رأيت جماعـة ممن أفنى أوائل عمره وريعان شـبابه فى طلب العلم يصبـر على أنواع الأذى، وهجر فنون الراحات، أنفـة من الجهل ورذيلته، وطلبًـا للعلم وفضيلتـه، فلما نال منه طرفًا رفعـه عن مراتب أرباب الدنيا، ومن لا علم له إلا بالعاجل ضاق به معـاشه، فسافر البلاد يطلب من الأراذل، ويتواضع للسفلة وأهل الدناءة والمكاس وغيرهـم.

فخاطبت بعضهم وقلت: ويحك أين تلك الأنفة من الجهل التى سهرت لأجلها، وأظمـأت نهارك بسبـبها، فلما ارتفـعت وانتفعت عـدت إلى أسفل سافلين، أفما بقى عندك ذرة من الأنفة تنبو به عن مقامات الأراذل؟ ولا معك يسير من العلم يسير بك عن مناخ الهـوى؟ ولا حصلت بالعلم قوة تجذب بها زمام النفس عن مـراعى السوء؛ غير أنـه يبين لى أن سهرك وتعبك كـأن كان لنيل الدنيا.

(١) لعل الأصح: لما لزمهم.

ثم إنى أراك تزعم أنك تريد شيئًا من الدنيا تستعين به على طلب العلم. فاعلم أن التفاتك إلى نوع كسب تستغنى به عن الأراذل أفضل من التزيد فى علمك، فلو عرفت ما ينقص به لم تر ما قد عزمت عليه زيادة مما يحتوى عليه هذا العزم السفر الذى كله مخاطرة بالنفس، وبذل الوجه الذى طال ماضير لمن لا يصلح التفات مثلك إلى مثله، وبعيد أن تقنع بعد شروعك فى هذا الأمر بقدر الكفاف، وقد علمت ما فى السؤال بعد الكفاف من الإثم، وأبعد منه أن تقدر على الورع فى المأخوذ ومن لك بالسلامة والرجوع إلى الوطن. وكم رمى فقر فى بواديه من هالك(١).

ثم ما يحصله يفنى ويبقى منه ما أعطى، وعيب المتقين إياك، واقتداء الجاهلين بك، ويكفيك أنك عدت على ما علمت من ذم الدنيا بشينه إذ فعلت ما يناقضه، خصوصًا وقد مر أكثر العمر، ومن أحسن فيما مضى يحسن فيما بقى.

١١٤- فصل - رأيت الشَّرِهَ فى تحصيل الأشياء يفوّت الشَّرَهَ مقصوده، وقد رأينا من كان شرهًا فى جمع المال فحصل له الكثير منه، وهو حريص على الازدياد، ولو فهم علم أن المراد من المال إنفاقه فى العمر. فإذا أنفق العمر فى تحصيله فات المقصودان جميعًا، وكم رأينا ممن جمع المال ولم يتمتع به، فأبقاه لغيره وأفنى نفسه كما قال الشاعر:

كدودة القز ما تبنيه يهدمها ... وغيرها بالذى تبنيه ينتفع

وكذل رأينا خلقًا كثيرًا يحرصون على جمع الكتب فينفقون أعمارهم فى كتابتها، وكدأب أهل الحديث ينفقون الأعمار فى النسخ والسماع إلى آخر العمر؛ ثم ينقسمون فمنهم من يتشاغل بالحديث وعلمه وتصحيحه ولعله لا يفهم جواب حادثة، ولعله عنده لحديث: «أسلم سالمها الله»(٢) مائة طريق.

(١) فى نسخة: قفر فى فؤاد به من مالك.

(٢) صحيح: أخرجه البخارى (٣٥١٣) فى كتاب المناقب، باب: ذكر أسلم وغفار ومزينة..، ومسلم (٢٥١٨) فى كتاب فضائل الصحابة، باب: دعاء النبى -ﷺ- لغفار وأسلم من حديث عبد الله بن مسعود -رضي الله عنه-.

وقد حكى لى عن بعض أصحاب الحديث أنه سمع جُزْء بن عرفة عن مائة شيخ، وأن عنده سبعون نسخة، ومنهم من يجمع الكتب ويسمعها ولا يدرى ما فيها؛ لا من حيث صحتها، ولا من فهم معناها. فتراه يقول: الكتاب الفلانى سماعى وعندى به نسخة، والكتاب الفلانى والفلانى فلا يعرف علم ما عنده من حيث فهم صحيحه من سقيمه، وقد صد اشتغاله بذلك عن المهم من العلم فهم كما قال الحطيئة:

زواملُ للأخبارِ لا علْمَ عندها   بمُتْقلها إلا كعلم الأباعرِ
لعمركَ ما يدرى البعيرُ إذا غدا   بأوساقه أوْ رَاحَ ما فى الغرائرِ

ثم ترى منهم من يتصدر ويفتقر الزمان إلى تصدره للرواية فيمد يده إلى ما ليس من شغله. فإن أفتى أخطأ، وإن تكلم فى الأصول خلط، ولولا أنى لا أحب ذكر الناس لذكرت من أخبار كبار علمائهم وما خلطوا ما يعتبر به، ولكنه لا يخفى على المحقق حالهم، فإن قال قائل: أليس فى الحديث: «**منهومان لا يشبعان، طالب علم وطالب دنيا**»(١).

قلت: أما العالم فلا أقول له اشبع من العلم، ولا اقتصر على بعضه، بل أقول له: قدم المهم فإن العاقل من قَدَّر عمره وعمل بمقتضاه، وإن كان لا سبيل إلى العلم بمقدار العمر، غير أنه يبنى على الأغلب، فإن وصل فقد أعد لكل مرحلة زادًا وإن مات قبل الوصول فنيته تسلك، فإذا علم العاقل أن العمر قصير، وإن العلم كثير، فقبيح بالعاقل الطالب لكمال الفضائل أن يتشاغل مثلاً بسماع الحديث ونسخه ليحصل كل طريق، وكل رواية، وكل غريب؛ وهذا لا يفرغ من مقصوده منه فى خمسين سنة خصوصًا إن تشاغل بالنسخ. ثم لا يحفظ القرآن، أو يتشاغل بعلوم القرآن ولا يعرف الحديث، أو بالخلاف فى الفقه ولا يعرف النقل الذى عليه مدار المسألة.

---

(١) أخرجه الدارمى فى «سننه» (٣٣٢). وذكره الهيثمى فى «المجمع» (١/ ١٣٥) وقال: رواه الطبرانى فى «الكبير» وفيه أبو بكر الداهرى وهو ضعيف، والحديث صححه الشيخ الألبانى فى «صحيح الجامع» (٦٦٢٤).

فإن قال قائل: فدبر لى ما تختار لنفسك فأقول: ذو الهمة لا يخفى من زمان الصبى كما قال سفيان بن عيينة، قال لى أبى -وقد بلغت خمس عشرة سنة- أنه قد انقضت عنك شرائع الصبا، فاتبع الخير تكن من أهله. فجعلت وصية أبى قِبْلَةً أميل إليها ولا أميل عنها.

ثم قبل شروعى فى الجواب أقول: ينبغى لمن له أنفة أن يأنف من التقصير الممكن دفعه عن النفس، فلو كانت النبوة مثلاً تأتى بكسب لم يجز له أن يقنع بالولاية، أو تصور أن يكون مثلاً خليفة لم يحسن به أن يقتنع بإمارة، ولو صح له أن يكون ملكًا لم يرض أن يكون بشرًا.

والمقصود أن ينتهى بالنفس إلى كمالها الممكن لها فى العلم والعمل، وقد علم قصر العمر وكثرة العلم فيبتدى بالقرآن وحفظه، وينظر فى تفسيره نظرًا متوسطًا لا يخفى عليه بذلك منه شىء، وإن صح له قراءة القراءات السبعة وأشياء من النحو وكتب اللغة وابتدأ بأصول الحديث من حيث النقل كالصحاح والمسانيد والسنن، ومن حيث علم الحديث كمعرفة الضعفاء والأسماء، فلينظر فى أصول ذلك، وقد رتبت العلماء من ذلك ما يستغنى به الطالب عن التعب، ولينظر فى التواريخ ليعرف ما لا يستغنى عنه كنسب الرسول -ﷺ- وأقاربه وأزواجه وما جرى له، ثم ليقبل على الفقه. فلينظر فى المذهب والخلاف، وليكن اعتماده على مسائل الخلاف فلينظر فى المسألة وما تحتوى عليه فيطلبه من مظانه، كتفسير آية وحديث وكلمة لغة، ويتشاغل بأصول الفقه وبالفرائض.

وليعلم أن الفقه عليه مدار العلوم، ويكفيه من النظر فى الأصول ما يستدل به على وجود الصانع، فإذا أثبته بالدليل وعرف ما يجوز عليه مما لا يجوز، وأثبت إرسال الرسل وعلم وجوب القبول منهم، فقد احتوى على المقصود من علم الأصول فإن اتسع الزمان للتزيد من العلم فليكن من الفقه فإنه الأنفع، ومهما فسح له فى المهل فأمكنه تصنيف فى علم فإنه يخلف بذلك خَلَفَهُ خلفًا صالحًا، مع اجتهاده فى التسبب إلى اتخاذ الولد.

ثم يعلم أن الدنيـا معبرة فـيلتفت إلى فـهم معاملة الله عـز وجل، فإن مجموع ما حـصله من العلم يدله عليه، فإذا تعرض لتحقيق مـعرفته، ووقف على باب معامـلته، فقلَّ أن يقف صادق إلا ويجذب إلـى مقام الولاية، ومن أريد وفق. وإن لله عـز وجل أقوامًا يتـولى تربيتـهم، ويبعث إليـهم في زمن الطفولة مؤدبًا، ويثمـر فيهم العقل، ومقومًا ويقـال له الفهم، ويتولى تأديبهم وتثقيفـهم، ويهيئ لهم أسباب القرب منه، فـإن لاح قاطع قطعهم عنه، وإن تعرضت بهم فتنة دفعهـا عنهم. فنسأل الله عز وجل أن يجعلنا منهم، ونعوذ به من خذلان لا ينفع معه اجتهاد.

دوام العافية بخشية الله

١١٥- فصل - إن للخلوة تأثيرات تبين فى الجلوة، كم من مؤمن بالله عز وجل يحترمه عند الخلوات فيترك ما يشتهى حذراً من عقابه، أو رجاء لثوابه، أو إجلالاً له، فيكون بذلك الفعل كأنه طرح عوداً هندياً على مجمر فيفوح طيبه فيستنشقه الخلائق ولا يدرون أين هو.

وعلى قدر المجاهدة فى ترك ما يقوى محبته، أو على مقدار زيادة دفع ذلك المحبوب المتروك يزيد الطيب، ويتفاوت تفاوت العود، فيرى عيون الخلق تعظم هذا الشخص وألسنتهم تمدحه ولا يعرفون لم؟ ولا يقدرون على وصفه لبعدهم عن حقيقة معرفته، وقد تمتد هذه الأرابيح بعد الموت على قدرها، فمنهم من يذكر بالخير مدة مديدة ثم ينسى، ومنهم من يذكر مائة سنة ثم يخفى ذكره وقبره، ومنهم أعلام يبقى ذكرهم أبداً، وعلى عكس هذا من هاب الخلق، ولم يحترم خلوته بالحق؛ فإنه على قدر مبارزته بالذنوب وعلى مقادير تلك الذنوب، يفوح منه ريح الكراهية فتمقته القلوب، فإن قل مقدار ما جنى قل ذكر الألسن له بالخير، وبقى مجرد تعظيمه، وإن كثر كان قصارى الأمر سكوت الناس عنه لا يمدحونه ولا يذمونه.

ورب خال بذنب كان سبب وقوعه فى هوة شقوة فى عيش الدنيا والآخرة وكأنه قيل له: ابق بما آثرت فيبقى أبداً فى التخبيط، فانظروا إخوانى إلى المعاصى أثّرت وعثّرت.

قال أبو الدرداء -رضي الله عنه-: إن العبد ليخلو بمعصية الله تعالى فيلقى الله بغضه فى قلوب المؤمنين من حيث لا يشعر، فتلمحوا ما سطرته، واعرفوا ما ذكرته، ولا تهملوا خلواتكم ولا سرائركم، فإن الأعمال بالنية، والجزاء على مقدار الإخلاص.

١١٦- فصل - من عرف جريان الأقدار ثبت لها، وأجهل الناس بعد هذا من قاواها؛ لأن مراد المقدِّر الذل له.

فإذا قاويت القدر فنلت مرادك من ذلك لم يبق لك ذل؛ -مثال هذا- أن يجوع الفقير فيصبر قدر الطاقة؛ فإذا عجز خرج إلى سؤال الخلق مستحيًا من الله كيف يسألهم، وإن كان له عذر بالحاجة التى ألجأته، غير أنه يرى أنه مغلوب الصبر فيبقى معتذرًا مستحيًا وذاك المراد منه، أو ليس بخروج النبى -ﷺ- من مكة فلا يقدر على العود إليها حتى يدخل فى خفارة المطعم بن عدى وهو كافر، فسبحانه من ناط[1] الأمور بالأسباب؛ ليحصل ذل العارف بالحاجة إلى التسبب.

١١٧- فصل - سبحان المتصرف بخلقه بالاغتراب والإذلال ليبلو صبرهم، ويظهر جواهرهم فى الابتلاء، هذا آدم -ﷺ- تسجد له الملائكة ثم بعد قليل يخرج من الجنة.

وهذا نوح -عليه السلام- يضرب حتى يغشى عليه، ثم بعد قليل ينجو فى السفينة ويهلك أعداؤه.

وهذا الخليل -عليه السلام- يلقى فى النار ثم بعد قليل يخرج إلى السلامة.

وهذا الذبيح يضجع مستسلمًا ثم يسلم ويبقى المدح.

وهذا يعقوب -عليه السلام- يذهب بصره بالفراق ثم يعود بالوصول.

وهذا الكليم -عليه السلام- يشتغل بالرعى ثم يرقى إلى التكليم.

وهذا نبينا محمد -ﷺ- يقال له بالأمس اليتيم، ويقلب فى عجائب يلاقيها من الأعداء تارة ومن مكابد الفقر أخرى، وهو أثبت من جبل حراء، ثم لما تم مراده من الفتح، وبلغ الغرض من أكبر الملوك وأهل الأرض نزل به ضيف النقلة؛ فقال: واكرباه[2].

---

(١) ناط: علق.

(٢) موضوع: ذكره الهيثمى فى «المجمع» (١٠/ ١٣٧) فى أواخر حديث طويل وقال: رواه الطبرانى وفيه عبد المنعم بن إدريس، وهو كذاب وضاع.

فمن تلمح بحر الدنيا وعلم كيف تتلقى الأمواج، وكيف يصبر على مدافعة الأيام لم يستهول نزول بلاء، ولم يفرح بعاجل رخاء.

١١٨- فصل - ينبغي للعاقل أن لا يقدم على العزائم حتى يزن نفسه هل يطيقها، ويجرب نفسه في ركوب بعضها سرًّا من الخلق فإنه لا يأمن أن يرى في حالة لا يصبر عليها، ثم يعود فيفتضح. مثاله -رجل سمع بذكر الزهاد فرمى ثيابه الجميلة ولبس الدون وانفرد في زاوية، وغلب على قلبه ذكر الموت والآخرة. فلم يلبث متقاضي الطبع أن ألح بما جرت به العادة؛ فمن القوم من عاد بمرة إلى أكثر مما كان عليه كأكل الناقه من مرض، ومنهم من توسط الحال فبقي كالمذبذب.

وإنما العاقل هو الذي يستر نفسه بين الناس بثوب وسط لا يخرجه من أهل الخير، ولا يدخله في زي أهل الفاقة؛ فإن قويت عزيمته عمل في بيته ما يطيق، وترك ثوب التجمل لستر الحال، ولم يظهر شيئًا للخلق؛ فإنه أبعد من الرياء، وأسلم من الفضيحة.

وفي الناس من غلب عليه قصر الأمل وذكر الآخرة حتى دفن كتب العلم؛ وهذا الفعل عندي من أعظم الخطأ وإن كان منقولاً عن جماعة من الكبار، ولقد ذكرت هذا لبعض مشايخنا فقال: أخطأوا كلهم، وقد تأولت لبعضهم بأنه كان فيها أحاديث عن قوم ضعفاء ولم يميزوها؛ كما روى عن سفيان في دفن كتبه، أو كان فيها شيء من الرأي فلم يحبوا أن يؤخذ عنهم فكان من جنس تحريق عثمان -رضي الله عنه- للمصاحف لئلا يؤخذ بشيء مما فيها من المجتمع على غيره.

وهذا التأويل يصح في حق علمائهم؛ فأما غسل أحمد بن أبي الحواري كتبه وابن أسباط فتفريط محض.

فالحذر الحذر من فعل يمنع منه الشرع أو من ارتكاب ما يظن عزيمة وهو

خطيئة، أو من إظهار ما لا يقوى عليه المظهر فيرجع القهقرى. «**وعليكم من العمل بما تطيقون**»(١) كما قال -ﷺ-.

١١٩- فصل - أجهل الجهال من آثر عاجلاً على آجلاً لا يأمن سوء مغبته. فكم قد سمعنا عن سلطان وأمير وصاحب مال أطلق نفسه في شهواتها، ولم ينظر في حلال وحرام فنزل به من الندم وقت الموت أضعاف ما التذّ، ولقى من مرير الحسرات ما لا يقاومه ولا ذرة من كل لذة. ولو كان هذا فحسب لكفى حزنًا، وكيف والجزاء الدائم بين يديه، فالدنيا محبوبة للطبع لا ريب في ذلك ولا أنكر على طالبها ومؤثر شهواتها، ولكن ينبغي له أن ينظر في كسبها ويعلم وجه أخذها، ليسلم له عاقبة لذته. وإلا فلا خير في لذة من بعدها النار. وهل عُدَّ في العقلاء قط من قيل له اجلس في المملكة سنة ثم نقتلك، هيهات بل الأمر بالعكس وهو أن العاقل من صابر مرارة الجهد سنة، بل سنين ليستريح في عاقبته.

وفي الجملة أف للذة أعقبت عقوبة، وقد أخبرنا عبد الرحمن بن محمد القزاز قال: أخبرنا أبو بكر الخطيب قال: أخبرنا الحسن بن أبي طالب قال: حدثنا يوسف بن عمر القواس قال: حدثنا الحسين بن إسماعيل إملاء قال: حدثنا عبد الله بن أبي سعد قال: حدثنا محمد بن مسلمة البلخي قال: حدثنا محمد ابن علي القوهستاني قال: حدثنا دلف بن أبي دلف. قال: رأيت كأن آتيًا أتى بعد موت أبي فقال: أجب الأمير. فقمت معه فأدخلني دارًا وحشة وعرة سوداء الحيطان مقلعة السقوف والأبواب، ثم أصعدني درجًا فيها، ثم أدخلني غرفة فإذا في حيطانها أثر النيران، وإذا في أرضها أثر الرماد وإذا أبي عريان واضعًا رأسه بين ركبتيه فقال لي كالمستفهم: دلف؟ قلت: نعم أصلح الله الأمير! فأنشأ يقول:

أَبْلِغَنْ أهلَنا ولا تُخْفِ عنهم ... ما لَقِينا في البرزخ الخفاقِ
قدْ سُئِلْنا عن كلِّ ما قد فَعَلْنَا ... فارحَموا وَحْشَتي وما قدْ ألاقِي

---

(١) صحيح: وقد تقدم، وهو جزء من حديث: «إن الله لا يمل حتى تملوا».

أفهمت؟ قلت: نعم! فأنشأ يقول:

فلو أنا إذا متنا تُركنا لكانَ الموتُ راحةَ كُلِّ حى
ولكنا إذا مِتْنَا بُعثنا ونُسْألُ بَعْدَهُ عَنْ كُلِّ شى

١٢٠- فصل - اللذات كلها بين حسى وعقلى، فنهاية اللذات الحسية وأعلاها النكاح، وغاية اللذات العقلية العلم. فمن حصلت له الغايتان فى الدنيا فقد نال النهاية، وأنا أرشد الطالب إلى أعلا المطلوبين، غير أن للطالب المرزوق علامة وهو أن يكون مرزوقًا علوّ الهمة، وهذه الهمة تولد مع الطفل فتراه من زمن طفولته يطلب معالى الأمور.

كما يروى فى الحديث: «أنه كان لعبد المطلب مفرش فى الحجر فكان النبى -ﷺ- يأتى وهو طفل فيجلس عليه فيقول عبد المطلب: «إن لابنى هذا شأنًا». فإن قال القائل فإذا كانت لى همة ولم أرزق ما أطلب فما الحيلة؟ - فالجواب- أنه إذا امتنع الرزق من نوع لم يمتنع من نوع آخر، ثم من البعيد أن يرزقك همة ولا يعينك فانظر فى حالك فلعله أعطاك شيئًا ما شكرته، أو ابتلاك بشىء من الهوى ما صبرت عنه.

واعلم أنه ربما زوى عنك من لذات الدنيا كثيرًا ليؤثرك على لذات العلم فإنك ضعيف ربما لا تقوى على الجمع فهو أعلم بما يصلحك.

وأما ما أردت شرحه لك فإن الشاب المبتدى فى طلب العلم ينبغى له أن يأخذ من كل علم طرفًا ويجعل علم الفقه الأهم، ولا يقصر فى معرفة النقل، ففيه تبين سير الكاملين، وإذا رزق فصاحة من حيث الوضع، ثم أضيف إليها معرفة اللغة والنحو، فقد شحذت شفرة لسانه على أجود مسن.

ومتى أدى العلم لمعرفة الحق وخدمة الله عز وجل فتحت له أبواب لا تفتح لغيره، وينبغى له بالتلطف أن يجعل جزءًا من زمانه مصروفًا إلى توفير الاكتساب والتجارة، مستنيبًا فيها غير مباشر لها مع التدبير فى العيش المتنع من الإسراف والتبذير فإن رواية العلم والعمل به إلى درجة المعرفة لله عز

وجل، فربما شغلته لذة ما وصل إليه عن كل شيء، ويا لها حالة سليمة من آفة.

وإن وجد من طبعه منازعًا إلى الشوق فى النكاح فليتخير السرارى فإن الحرائر فى الأغلب غل، وليعزل عن المملوكات إلى أن يجرب خلقهن ودينهن، فإن رضيهن طلب الولد منهن وإلا فالاستبدال بهن سهل، ولا يتزوج حرة إلا أن يعلم أنها تصبر على الترويج عليها والتسرى، وليكن قصده الاستمتاع بها لا إجهاد النفس فى الإنزال، فإن ذلك يهدم قوته فيضعف الأصل، فهذه الجامعة من لذتى الحس والعقل ذكرتها على وجه الإشارة، وفهم الذكى يملى عليه ما لم أشرحه.

١٢١- فصل- فى تعليم حفظ العلم: اعلم أن المتعلم يفتقر إلى دوام الدراسة ومن الغلط الانهماك على الإعادة ليلاً ونهاراً، فإنه لا يلبث صاحب هذه الحال إلا أيامًا ثم يفتر أو يمرض.

وقد روينا أن الطبيب دخل على أبى بكر بن الأنبارى فى مرض موته فنظر إلى مائه وقال: قد كنت تفعل شيئًا لا يفعله أحد ثم خرج، فقال: ما يجىء منه شىء. فقيل له: ما الذى كنت تفعل؟ قال كنت أعيد كل أسبوع عشرة آلاف ورقة. ومن الغلط حفظ الكثير أو الحفظ من فنون، فإن القلب جارحة من الجوارح، وكما أن من الناس من يحمل المائة رطل، ومنهم من يعجز عن عشرين رطلاً، فذلك القلوب فليأخذ الإنسان على قدر قوته ودونها، فإنه إذا استنفدها فى وقت ضاعت منه أوقات، كما أن الشره يأكل فضل لقيمات فيكون سببًا إلى منع أكلات.

والصواب أن يأخذ قدر ما يطيق، ويعيد فى وقتين من النهار والليل، ويرفه القوى فى بقية الزمان، والدوام أصل عظيم. فكم ممن ترك بعد الحفظ فضاع زمن طويل فى استرجاع محفوظ قد نسى، وللحفظ أوقات من العمر، فأفضلها الصبا وما يقاربه من أوقات الزمان، وأفضلها إعادة الأسحار وأنصاف النهار، والغدوات خير من العشيات، وأوقات الجوع خير من أوقات الشبع.

ولا يحمد الحفظ بحضرة خضرة وعلى شاطئ نهر، لأن ذلك يلهى، والأماكن العالية للحفظ خير من السوافل، والخلوة أصل وجمع الهم أصل الأصول، وترك النفس من الإعادة يومًا على الأسبوع ليثبت المحفوظ، وتأخذ النفس قوة كالبنيان يُترك أيامًا حتى يستقر ثم يبنى عليه، وتقليل المحفوظ مع الدوام أصل عظيم، وأن لا يشرع فى فن حتى يحكم ما قبله.

ومن لم يجد نشاطًا للحفظ فليتركه، فإن مكابرة النفس لا تصلح، وإصلاح المزاج من الأصول العظيمة؛ فإن للمأكولات أثرًا فى الحفظ. قال الزهرى: ما أكلت خلاًّ منذ عالجت الحفظ.

وقيل لأبى حنيفة: بم يستعان على حفظ الفقه؟ قال: بجمع الهم، وقال حماد بن سلمة: بقلة الغم، وقال مكحول: من نظف ثوبه قل همه، ومن طابت ريحه زاد عقله، ومن جمع بينهما زادت مروءته.

واختار للمبتدئ فى طلب العلم أن يدافع النكاح مهما أمكن، فإن أحمد بن حنبل لم يتزوج حتى تمت له أربعون سنة، وهذا لأجل جمع الهم فإن غلب عليه الأمر تزوج، واجتهد فى المدافعة بالفعل لتتوفر القوة على إعادة العلم، ثم لينظر ما يحفظ من العلم فإن العمر عزيز والعلم غزير، وإن أقوامًا يصرفون الزمان إلى حفظ ما غيره أولى منه، وإن كان كل العلوم حسنًا ولكن الأولى تقديم الأهم والأفضل، وأفضل ما تشوغل به حفظ القرآن ثم الفقه، وما بعد هذا بمنزلة تابع، ومن رزق يقظة دلته يقظته فلم يحتج إلى دليل، ومن قصد وجه الله تعالى بالعلم دله المقصود على الأحسن ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ وَيُعَلِّمُكُمُ اللَّهُ﴾(١).

١٢٢- فصل- من أراد دوام العافية والسلامة فليتق الله عز وجل، فإنه ما من عبد أطلق نفسه فى شيء ينافيه التقوى وإن قل إلا وجد عقوبته عاجلة أو آجلة، ومن الاغترار أن تسيء فترى إحسانًا فتظن أنك قد سومحت، وتنسى: ﴿مَن يَعْمَلْ سُوءًا يُجْزَ بِهِ﴾(٢) وربما قالت النفس: إنه يغفر فتسامحت،

---
(١) سورة البقرة: ٢٨٢.

(٢) سورة النساء: ١٢٣.

ولا شك أنه يغفر ولكن لمن يشاء. وأنا أشـرح لك حالاً فتأمله بفكرك تعرف معنى المغفرة، وذلك أن من هفا هفوة لم يقـصدها ولم يعزم عليها قبل الفعل ولا عزم على العود بعد الفـعل، ثم انتبه لما فعل فاستغـفر الله كان فعله وإن دخله عمداً فى مقام خطأ، مثل- أن يعرض له مسـتحسن فيغلبه الطبع فيطلق النظر ويتشـاغل فى حال نظره بالتـذاذ الطبع عن تلمح معنى النـهى، فيكون كالغائب أو كالسكـران فإذا انتبه لنفسه ندم على فعله، فـقام الندم بغسل تلك الأوساخ التى كـانت كأنها غلطـة لم تقصد، فـهذا معنى قـوله تعالى: ﴿إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِّنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُوا فَإِذَا هُم مُّبْصِرُونَ﴾(١).

فأمـا المداوم على تلك النظرة المردد لها، المصـر عليها، فكأنه فى مـقام متعمد للنهى مبارز بالخلاف فالعفو يبعد عنه بمقدار إصراره، ومن البعد أن لا يرى الجزاء على ذلك كما قال ابن الجـلاء: رآنى شيخى وأنا قائم أتأمل حدثًا نصرانـيًا فقال: ما هذا؟ لتـرين غِبَّها(٢) ولو بعد حين. فنسـيت القرآن بعد أربعين سنة.

واعلم أنه من أعظم المحن الاغتـرار بالسلامة بعد الذنب، فـإن العقوبة تتأخر، ومن أعظم العقوبة ألا يحس الإنسان بها. وأن تكون فى سلب الدين وطمس القلب وسوء الاختيار للنفـس، فيكون من آثارها سلامة البدن وبلوغ الأعراض، قال بعض المعتبرين: أطلقت نظرى فيما لا يحل لى ثم كنت أنتظر العقوبة فألجئت إلى سفر طويل لا نية لى فيه، فعانيت المشاق. ثم أعقب ذلك موت أعز الخلق عندى، وذهاب أشيـاء كان لها وقع عظيم عندى، ثم تلافيت أمرى بالتـوبة فصلح حالى. ثم عـاد الهوى يحملنى على إطلاق بصـرى مرة أخرى، فطمس قلبى وعدمت رقته، واستلب منى ما هو أكثر من فقد الأول، ووقع لى تعويض عن المفقود ما كان فقده أصلح، فلما تأملت ما عوضت وما سلب منى صـحت من ألم تلك السـياط. فـها أنا أنادى من على السـاحل: إخـوانى احذروا لجـة هذا البـحر، ولا تغـتـروا بسكونه، وعليكم بالسـاحل

(١) سورة الأعراف: ٢٠١.

(٢) غبها: عاقبتها.

ولازموا حصن التقوى فالعقوبة مرة، واعلموا أن فى ملازمة التقوى مرارات من فقد الأغراض والمشتهيات، غير أنها فى ضرب المثل كالحمية تعقب صحة، والتخليط ربما جلب موت الفجأة، وبالله لو تمتم على المزابل مع الكلاب فى طلب رضا المبتلى كان قليلاً فى نيل رضاه ولو بلغتم نهاية الأمانى من أغراض الدنيا مع إعراضه عنكم كانت سلامتكم هلاكًا وعافيتكم مرضًا، وصحتكم سقمًا والأمر بآخره، والعاقل من تلمح العواقب، وصابروا رحمكم الله تعالى هجير البلاء فما أسرع زواله. والله الموفق إذ لا حول إلا به، ولا قوة إلا بفضله.

١٢٣- فصل- قدم إلى بغداد جماعة من أهل البدع الأعاجم فارتقوا منابر التذكير للعوام، فكان معظم مجالسهم أنهم يقولون ليس لله فى الأرض كلام، وهل المصحف إلا ورق وعفص وزاج؟ وأن الله ليس فى السماء وأن الجارية التى قال لها النبى-ﷺ- أين الله؟ كانت خرساء فأشارت إلى السماء[1]، أى ليس هو من الأصنام التى تعبد فى الأرض، ثم يقولون: أين الحروفية الذين يزعمون أن القرآن حرف وصوت؟ هذا عبارة جبريل.

فما زالوا كذلك حتى هان تعظيم القرآن فى صدور أكثر العوام، وصار أحدهم يسمع فيقول هذا هو الصحيح! وإلا فالقرآن شىء يجىء به جبريل فى كيس.

فشكا إلىّ جماعة من أهل السنة فقلت لهم: اصبروا فلا بد للشبهات أن ترفع رأسها فى بعض الأوقات، وإن كانت مدموغة، وللباطل جولة وللحق صولة والدجالون كثير.

ولا يخلو بلد ممن يضرب البهرج على مثل سكة السلطان. قال قائل: فما جوابنا عن قولهم؟ قلت: اعلم وفقك الله تعالى أن الله عز وجل ورسوله قنعا من الخلق بالإيمان بالجمل، ولم يكلفا معرفة التفاصيل؛ إما لأن الاطلاع

---

(١) يشير للحديث الذى رواه أبو داود (٣٢٨٤) فى كتاب الأيمان والنذور، باب: فى الرقبة المؤمنة من حديث أبى هريرة -رضي الله عنه-.

على التفاصيل يخبط العقائد، وإما لأن قوى البشر تعجز عن مطالة ذلك؛ فأول ما جاء به الرسول -ﷺ- إثبات الخالق ونزل عليه القرآن بالدليل على وجود الخالق بالنظر فى صنعه فقال تعالى: ﴿أَمَّن جَعَلَ الْأَرْضَ قَرَارًا وَجَعَلَ خِلَالَهَا أَنْهَارًا﴾(١) وقال تعالى: ﴿وَفِي أَنفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾(٢). وما زال يستدل على وجوده بمخلوقاته، وعلى قدرته بمصنوعاته، ثم أثبت نبوة نبيه بمعجزاته، وكان من أعظمها القرآن الذى جاء به فعجز الخلائق عن مثله، واكتفى بهذه الأدلة جماعة من الصحابة، ومضى على ذلك القرن الأول والمشرب صاف لم يتكدر.

وعلم الله عز وجل ما سيكون من البدع فبالغ فى إثبات الأدلة وملأ بها القرآن ولما كان القرآن هو منبع العلوم، وأكبر المعجزات للرسول، أكد الأمر فيه فقال تعالى: ﴿وَنُنَزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ﴾(٣). فأخبر أنه كلامه بقوله تعالى: ﴿يُرِيدُونَ أَن يُبَدِّلُوا كَلَامَ اللَّهِ﴾(٤) وأخبر أنه مسموع بقوله تعالى: ﴿حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَامَ اللَّهِ﴾(٥) وأخبر أنه محفوظ فقال تعالى: ﴿فِي لَوْحٍ مَّحْفُوظٍ﴾(٦) وقال تعالى: ﴿بَلْ هُوَ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ فِي صُدُورِ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ﴾(٧) وأخبر أنه مكتوب ومتلو فقال تعالى: ﴿وَمَا كُنتَ تَتْلُو مِن قَبْلِهِ مِن كِتَابٍ وَلَا تَخُطُّهُ بِيَمِينِكَ﴾(٨) إلى ما يطول شرحه من تعدد الآيات فى هذه المعانى التى توجب إثبات القرآن.

ثم نزه نبيه -ﷺ- عن أن يكون أتى به من قبل نفسه. فقال تعالى:

---

(١) سورة النمل: ٦١.
(٢) سورة الذاريات: ٢١.
(٣) سورة الإسراء: ٨٢.
(٤) سورة الفتح: ١٥.
(٥) سورة التوبة: ٦.
(٦) سورة البروج: ٢٢.
(٧) سورة العنكبوت: ٤٩.
(٨) سورة العنكبوت: ٤٨.

﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ بَلْ هُوَ الْحَقُّ مِن رَّبِّكَ﴾(١) وتوعده لو فعل فقال تعالى: ﴿وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ الأَقَاوِيلِ﴾(٢) وقال فى حق الزاعم أنه كلام الخلق حين قال: ﴿إِنْ هَذَا إِلاَّ قَوْلُ الْبَشَرِ ﴿٢٥﴾ سَأُصْلِيهِ سَقَرَ﴾(١٢).

ولما عذب كل أمة بنوع عذاب تولاه بعض الملائكة، كصيحة جبريلَ -عليه السلام- بثمود، وإرسال الريح على عاد، والخسف بقارون، وقلب جبريل دار لوط -عليهما السلام-، وإرسال الطير الأبابيل على من قصد تخريب الكعبة. وتولى هو بنفسه عقاب المكذبين بالقرآن فقال تعالى: ﴿فَذَرْنِي وَمَن يُكَذِّبُ بِهَذَا الْحَدِيثِ﴾(٣). ﴿ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيداً﴾(٤) وهذا لأنه أصل هذه الشرائع والمثبت لكل شريعة تقدمت، لأن جميع الملل ليس عندهم ما يدل على صحة ما كانوا فيه إلا كتابنا لأن كتبهم غيرت وبدلت.

وقد علم كل ذى عقل أن القائل: ﴿إِنْ هَذَا إِلاَّ قَوْلُ الْبَشَرِ﴾(٥) إنما أشار إلى ما سمعه، ولا يختلف أولو الألباب وأهل الفهم للخطاب: أن قوله «وأنه» كناية عن القرآن، وقوله: ﴿تنزل به﴾ كناية أيضًا عنه، وقوله: ﴿هذا كتاب﴾ إشارة إلى حاضر .

وهذا أمر مستقر لم يختلف فيه أحد من القدماء فى زمن الرسول -صلى الله عليه وسلم- والصحابة -رضوان الله عليهم-، ثم دس الشيطان دسائس البدع فقال قوم: هذا المشار إليه مخلوق، فثبت الإمام أحمد رحمه الله ثبوتًا لم يثبته غيره على دفع هذا القول لئلا يتطرق إلى القرآن ما يمحو بعض تعظيمه فى النفوس، ويخرجه عن الإضافة إلى الله عز وجل، ورأى أن ابتداع ما لم يقل فيه لا يجوز استعماله فقال: كيف أقول ما لم يقل؟ ثم لم يختلف الناس فى

(١) سورة السجدة: ٣.
(٢) سورة الحاقة: ٤٤.
(٣) سورة المدثر: ٢٦.
(٤) سورة القلم: ٤٤.
(٥) سورة المدثر: ١١.
(٦) سورة المدثر: ٢٥.

غير ذلك، إلى أن نشأ على بن إسماعيل الأشعرى. فقال مرة بقول المعتزلة، ثم عنّ له فادعى أن الكلام صفة قائمة بالنفس، فأوجبت دعواه هذه أن ما عندنا مخلوق وزادت فخبطت العقائد، فما زال أهل البدع يجوبون فى تيارها إلى اليوم.

والكلام فى هذه المسألة مرتب بذكر الحجج والشبه فى كتب الأصول فلا أطيل به هاهنا بل أذكر لك جملة تكفى من أراد الله هداه، وهو أن الشرع قنع منا بالإيمان جملة وبتعظيم الظواهر، ونهى عن الخوض فيما يثير غبار شبهته ولا يقوى على قطع طريقه إقدام الفهم، وإذ كان قد نهى عن الخوض فى القدر فكيف يجوز الخوض فى صفات المقدِّر؟ وما ذاك إلا لأحد الأمرين اللذين ذكرتهما؛ إما لخوف إثارة شبهة تزلزل العقائد، أو لأن قوى البشر تعجز عن إدراك الحقائق، فإذا كانت ظواهر القرآن تثبت وجود القرآن فقال قائل ليس هاهنا قرآن، فقد رد الظواهر التى تعب الرسول -ﷺ- فى إثباتها وقرر وجودها فى النفوس، وبماذا يحل ويحرم، ويبت ويقطع، وليس عندنا من الله تعالى تقدم بشىء، وهل للمخالف دليل إلا أن يقول قال الله فيعود فيثبت ما نفى.

فليس الصواب لمن وفق إلا الوقوف مع ظاهر الشرع فإن اعترضه ذو شبهة، فقال: هذا صوتك وهذا خطك، فأين القرآن؟ فليقل له: قد أجمعنا أنا وأنت على وجود شىء به نحتج جميعًا، وكما أنك تنكر علىّ أن أثبت شيئًا لا يتحقق لى إثباته حسًّا، فأنا أنكر عليك كيف تنفى وجود شىء قد ثبت شرعًا، وأما قولهم هل فى المصحف إلا ورق وعفص وزاج، هذا كقول القائل: هل الآدمى إلا لحم ودم؟ هيهات إن معنى الآدمى هو الروح، فمن نظر إلى اللحم والدم ووقف مع الحس فإن قال: فكذا أقول أن المكتوب غير الكتابة. قلنا له: وهذا مما ننكره عليك لأنه لا يثبت تحقيق هذا لك ولا لخصمك، فإن أردت بالكتابة الحبر وتخطيطه فهذا ليس هو القرآن، وإن أردت المعنى القائم بذلك فهذا ليس هو الكتابة، وهذه الأشياء لا يصلح الخوض فيها فإن ما دونها لا يمكن تحقيقه على التفصيل كالروح مثلاً، فإنا نعلم وجودها

فى الجملة، فأما حقيقتها فلا. فإذا جهلنا حقائقها كنا لصفات الحق أجهل، فوجب الوقوف مع السمعيات مع نفى ما لا يليق بالحق، لأن الخوض يزيد الخائض تخبيطًا ولا يفيده تحصيلاً، بل يوجب عليه نفى ما يثبت بالسمع من غير تحقيق أمر عقلى، فلا وجه للسلامة إلا طريق السلف والسلام، وكذلك يقول أن إثبات الإله بظواهر الآيات والسنن ألزم للعوام من تحديثهم بالتنزيه، وإن كان التنزيه لازمًا.

وقد كان ابن عقيل يقول: الأصلح لاعتقاد العوام ظواهر الآى والسنن؛ لأنهم يأنسون بالإثبات فمتى محونا ذلك من قلوبهم زالت السياسات والحشمة، وتهافت العوام فى الشبهة أحب إلىّ من إغراقهم فى التنزيه، لأن التشبيه يغمسهم فى الإثبات فيطمعُون ويخافون شيئًا قد أنسوا إلى ما يخاف مثله ويرجى. فالتنزيه يرمى بهم إلى النفى ولا طمع ولا مخافة من النفى، ومن تدبر الشريعة رآها عامة للمكلفين فى التشبيه بالألفاظ التى لا يعطى ظاهراً سواه كقول الأعرابى: أو يضحك ربنا ؟ قال: نعم[١]، فلم يكفهر من هذا القول.

(١) أخرجه عبد الرزاق فى مصنفه (٤٨٩٢).

مجاهـــدة النفـــس

١٢٤- فصل - أعظم البلايا أن يعطيك همة عـالية ويمنعك من العمل بمقتضاها، فيكون من تأثير همتك الأنفة من قـبول إرفاق الخلق استثقالاً لحمل منهم، ثم يبـتليك بالفـقـر فتـأخد مـنهم، ويلطف مزاجـك، فلا تقـبل من المأكولات ما سهل إحضاره، فتـحتاج إلى فضل نفقة، ثم يقلل رزقك ويعلق همتك بالمسـتحسنات، ويقطع بالفقـر السبيل إليهن، ويريك العلـوم فى مقام معشوق، ويضـعف بدنك عن الإعادة، ويخلى يديك من المال الذى تحصل به الكتب، ويقوى توقك إلى درجات العارفـين والزهاد، ويحوجك إلى مخالطة أرباب الدنيا وهذا البلاء المبين.

وأمـا الخسـيس الهـمـة الذى لا يسـتنكف من سـؤال الخلق، ولا يرى الاستبدال بزوجته، ويكتفى بيـسير من العلم، ولا يتوق إلى أحوال العارفين، فذاك لا يؤلمه فقـد شىء، ويرى ما وجد هو الغاية، فهو يفـرح فرح الأطفال بالزخارف، فمـا أهون الأمر عليه! . إنما البلاء على العارف ذى الهمـة العالية الذى تدعوه همته إلى جمع الأضداد للتزيـد من مقام الكمال، وتقصير خطاه عن مدارك مقصوده فياله من حال ينفد فى طريقه زاد الصابرين! .

ولولا حالات غفلة تعـترى هذا المبتلى يعيش بهـا؛ لكان دوام ملاحظته للمقامات يعـمى بصره، واجتهاده فى السلوك يحفى قـدمه، لكن ملاحظات الإمداد له تارة ببلوغ بعض مراده وتارة بالغفلة عما قصد، وهذا كلام عزيز لا يفهمه إلا أربابه، ولا يعلم كنهه إلا أصحابه.

١٢٥- فصل - تراعنت على نفسى فى طلبها شيئًا من أغراضها بتأويل فاسد؛ فقلت لهـا بالله عليك تصبرى -فى المعبر شغل يحـذر الغرق من كثرة الموج- عن التنزه فى عجائب البـحر. إذا هممت بفعل؛ فقـدّرى حصوله ثم

تلمّحى عواقبه، وما تجتنين من ثمراته؛ فأقل ذلك الندم على ما فعلت، ولا يؤمن أن يثمر غضب الحق عز وجل وإعراضه عنك، فأفّ للقاطع عنه ولو كان الجنة.

ثم اعلمى أيتها النفس أنه ما يمضى شيء جزافًا، وأن ميزان العدل تبين فيه الذرة فتلمحى الأموات والأحياء، وانظرى إلى من نشر ذكره بالخير والشر، وزيادة ذلك ونقصانه، فسبحان من أظهر دليل الخلوات على أربابها، حتى أن حبات القلوب تتعلق بأهل الخير، وتنفر من أهل الشر. من غير مطالعة لشيء من أعمال الكل. قال إبليس: أو تترك مرادك لأجل الخلق؟ قلت: لا إنما هذا بعض الثمرات الحاصلة من طريق الغرض. ونحن نرى من يمشى ثلاثين فرسخًا ليقال ساع، فالمتقى قد نال شرف الذكر وإن لم يقصد نيل ذلك؛ مترجحًا له فى وزن الجزاء ﴿سَيَجْعَلُ لَهُمُ الرَّحْمَنُ وُدًّا﴾[1].

قالت النفس: لقد أمرتنى بالصبر على العذاب، لأن ترك الأغراض عذاب. قلت: لك عن الغرض عوض، ومن كل متروك بدل، وأنت فى مقام مستعبد ولا يصح للأجير أن يلبس ثياب الراحة فى زمان الاستئجار، وكل زمان المتقى نهار صوم، ومن خاف العقاب ترك المشتهى، ومن رام القرب استعمل الورع، وللصبر حلاوة تبين فى العواقب.

١٢٦- فصل - من نازعته نفسه إلى لذة محرمة فشغله نظره إليها عن تأمل عواقبها وعقابها، وسمع هتاف العقل يناديه ويحك لا تفعل!. فإنك تقف عن الصعود، وتأخذ فى الهبوط، ويقال لك ابق بما اخترت؛ فإن شغله هواه، فلم يلتفت إلى ما قيل له، لم يزل فى نزول، وكان مثله فى سوء اختياره كالمثل المضروب: أن الكلب قال للأسد: يا سيد السباع، غيّر اسمى فإنه قبيح. فقال له: أنت خائن لا يصلح لك غير هذا الاسم، قال: فجرّبنى. فأعطاه شقة لحم وقال: احفظ لى هذه إلى غد، وأنا أغير اسمك، فجاع وجعل ينظر إلى اللحم ويصبر؛ فلما غلبته نفسه قال: وأى شيء

(١) سورة مريم: ٩٦.

باسمى؟ وما كلب إلا اسـم حسن فأكل وهكذا الخسيس الهـمة؛ القنوع بأقل المنازل، المختار عاجل الهوى على آجل الفضائل.

فالله الله فى حريق الهوى إذا ثار، وانظر كيف تطفئه، فرب زلة فى بئر بوار، ورب أثر لم ينقلع، والفـائت لا يستـدرك على الحقـيقـة، فأبعـد عن أسباب الفتنة، فإن المقاربة محنة لا يكاد صاحبها يسلم والسلام.

١٢٧- **فـصل** - رأيت الخلق كلهم فـى صف محـاربة، والشـيـاطين يرمونهم بنبل الهوى، ويضربونهم بأسيـاف اللذة، فأما المخلطون فصرعى من أول وقت اللقاء، وأما المتقون ففى جهـد جهيد من المجاهدة؛ فلابد من طول الوقـوف فى المحـاربة من جـراح؛ فهم يجـرحـون ويداوون. إلا أن القـتل محفوظ، بلى! إن الجراحة فى الوجه شين باق فليحذر ذلك.

١٢٨- **فصل** - الدنيا فخ، والجاهل بأول نظرة وقع، فأما العاقل المتقى فهـو يصابر المجاعـة، ويدور حول الحب، والسلامـة بعيـدة. فكم من صابر واجتهد سنين، ثم فى آخر الأمر وقع، فالحذر الحذر، فقد رأينا من كان على سنن الصواب، ثم زل على شفير القبر.

١٢٩- **فـصل** - اعلمـوا إخـوانى ومن يقبـل نصيـحـتى: أن للذنوب تأثيرات قـبيحة، مـرارتها تزيد على حلاواتهـا أضعافًـا مضاعفـة، والمجازى بالمرصاد لا يسبقه شىء ولا يفوته، أو لـيس يروى فى التفسير، أن كل واحد من أولاد يعقوب عليهم السلام -وكـانوا اثنى عشر- ولد له اثنا عشر ولدًا إلا يوسف فإنه ولد لـه أحد عشـر، وجوزى بتلك الهمـة فنقص ولد فوا أسـفا لمضروب بالسيـاط ما يحس بالأمل، ولمثخن بالجراح وما عنده من نفـسه خبر ولمتقلب فى عـقوبات ما يدرى بهـا، ولعمرى إن أعظم العـقوبة أن لا يدرى بالعقوبة.

فوا عجبًا لـلمغالط نفسه؛ يرضى ربه بطاعة، ويسرق معـصية، ويقول حسنة وسيئة، ويك[1] من كيسك تنفق، ومن بضاعتك تهدم، ووجه جاهك

(١) فى نسخة: ويحك.

تشين، رب جراحة قتلت، ورب عثرة أهلكت، ورب فارط لا يستدرك، ويحك انتبه لنفسك ما الذى تنتظر بأوبتك، وماذا تترقب بتوبتك المشيب؟! فها هو أوهن العظم؛ وهل بعد رحيل الأهل والأولاد والأقارب إلا اللحاق. قدّر أن ما تؤمله من الدنيا قد حصل، فكان ماذا؟ أما هو عاجل فشغلك عاجلاً، ثم آخر جرعة للذة شرقة، إما أن تفارق محبوبك أو يفارقك، فيا لها جرعة مريرة تود عندها أن لو لم تره.

آه لمحجوب العقل عن التأمل، ولمصدود عن الورود، وهو يرى المنهل أما فى هذه القبور نذير، أما فى كرور الزمان زاجر! أين من ملك وبلغ المنى فيما أمل. . نادهم فى نادهم؛ هيهات صموا عن مناديهم. فلو أن مُلَبِّهم بالموت، إنما القبور هنية. العمل حصل يا معدومًا بالأمس. . يا متلاشى الأشلاء فى الغد. . بأى وجه تلقى ربك! أيساوى ما تناله من الهوى لفظ عتاب؟ بالله إن الرحمة بعد المعاتبة، ربما لم تستوف قلع البغضة من صميم القلب، فكيف أن عقب العتاب عقاب. وقد أخبرنا عبد الرحمن بن محمد القزاز قال: أخبرنا أبو بكر الخطيب قال: أخبرنا محمد بن الحسين المعدل، قال: أخبرنا أبو الفضل الزهرى، قال: أخبرنا أحمد بن محمد الزعفرانى، قال: حدثنا أبو العباس بن واصل المقرى، قال: سمعت محمد بن عبد الرحمن الصيرفى قال: رأى جار لنا يحيى بن أكثم بعد موته فى منامه فقال: ما فعل بك ربك؟ فقال: وقفت بين يديه فقال لى: سوأة لك(١) يا شيخ. فقلت يارب: إن رسولك قال إنك لتستحى من أبناء الثمانين أن تعذبهم -وأنا ابن ثمانين أسير الله فى الأرض- فقال لى: صدق رسولى قد عفوت عنك.

وفى رواية أخرى عن محمد بن سلم الخواص. قال: رأيت يحيى بن أكثم(٢) فى المنام فقلت: ما فعل الله بك؟ فقال: أوقفنى بين يديه وقال لى يا شيخ السوء لولا شيبتك لأحرقتك بالنار.

---

(١) فى نسخة: سوء لك.

(٢) هو: يحيى بن أكثم بن محمد بن قطن التميمى المروزى، أبو محمد، القاضى المشهور، فقيه صدوق، مات سنة ١٤٢هـ (١٤٣)، وله ٨٣ سنة.

والمقصود من هذا النظر بعين الاعتبار، هل يفى هذا بدخول الجنة فضلاً عن لذات الدنيا، فنسأل الله عز وجل أن ينبهنا من رقدات الغافلين، وأن يرينا الأشياء كما هى لنعرف عيوب الذنوب والله الموفق.

١٣٠- فصل - ضاق بى أمر أوجب غمًّا لازمًا دائمًا، وأخذت أبالغ فى الفكر فى الخلاص من هذه الهموم بكل حيلة وبكل وجه؛ فما رأيت طريقًا للخلاص. فعرضت لى هذه الآية: ﴿**وَمَن يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَل لَّهُ مَخْرَجًا**﴾(١). فعلمت أن التقوى سبب للمخرج من كل غم؛ فما كان إلا أن هممت بتحقيق التقوى فوجدت المخرج، فلا ينبغى لمخلوق أن يتوكل أو يتسبب أو يتفكر إلا فى طاعة الله تعالى، وامتثال أمره؛ فإن ذلك سبب لفتح كل مرتج، ثم أعجبه أن يكون من حيث لم يقدّره المتفكر المحتال المدبر، كما قال عز وجل: ﴿**وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لا يَحْتَسِبُ**﴾(٢).

ثم ينبغى للمتقى أن يعلم أن الله عز وجل كافيه فلا يعلق قلبه بالأسباب، فقد قال عز وجل: ﴿**وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ**﴾(٣).

١٣١- فصل - من العجب إلحاحك فى طلب أغراضك وكلما زاد تعويقها زاد إلحاحك؛ وتنسى أنها قد تمتنع لأحد أمرين: إما لمصلحتك فرب معجل أذى، وإما لذنوبك؛ فإن صاحب الذنوب بعيد من الإجابة، فنظف طرق الإجابة من أوساخ المعاصى، وانظر فيما تطلبه: هل هو لإصلاح دينك، أو لمجرد هواك؟ فإن كان للهوى المجرد، فاعلم أن من اللطف بك والرحمة لك تعويقه، وأنت فى إلحاحك بمثابة الطفل يطلب ما يؤذيه فيمنع رفقًا به، وإن كان لصلاح دينك فربما كانت المصلحة تأخيره، أو كان صلاح الدين بعدمه.

وفى الجملة تدبير الحق عز وجل لك خير من تدبيرك، وقد يمنعك ما تهوى ابتلاء ليبلو صبرك، فأره الصبر الجميل ترى عن قرب ما يسر، ومتى

(١) سورة الطلاق: ٢.
(٢) سورة الطلاق: ٣.
(٣) سورة الطلاق: ٣.

نظفت طرق الإجابة من أدران الذنوب، وصبرت على ما يقضيه لك، فكل ما يجرى أصلح لك، عطاء كان أو منعًا.

١٣٢- فصل - يجب على من لا يدرى متى يبغته الموت أن يكون مستعدًّا ولا يغترر بالشباب والصحة، فإن أقل من يموت الأشياخ، وأكثر من يموت الشبان، ولهذا يندر من يكبر، وقد أنشدوا:

يُعمّرُ واحد فيغر قومًا — وينسى من يموت من الشباب

ومن الاغترار طول الأمل، وما من آفة أعظم منه؛ فإنه لولا طول الأمل ما وقع إهمال أصلاً، وإنما تقدم المعاصى وتؤخر التوبة لطول الأمل، وتبادر الشهوات ولا تنسى الإنابة لطول الأمل، وإن لم تستطع قصر الأمل فاعمل عمل قصير الأمل، ولا تمس حتى تنظر فيما مضى من يومك، فإن رأيت زلة فامحها بتوبة، أو خرقًا فارقعه باستغفار، وإذا أصبحت فتأمل ما مضى فى ليلك، وإياك والتسويف فإنه أكبر جنود إبليس:

وخذلك منك على مهلة — ومقبل عيشك لم يدبر
وخف هجمة لا تقيل العثا — رو تطوى الورود على المصدر
ومثّل لنفسك أى الرعيل — يضمك فى حلبة المحشر

ثم صور لنفسك قصر العمر، وكثرة الأشغال، وقوة الندم على التفريط عند الموت، وطول الحسرة على البدار بعد الفوت، وصور ثواب الكاملين وأنت ناقص، والمجتهدين وأنت متكاسل، ولا تخل نفسك من موعظة تسمعها، وفكرة تحادثها بها، فإن النفس كالفرس المتشيطن إن أهملت لجامه لم تأمن أن يرمى بك، وقد والله دنستك أهواؤك، وضيعت عمرك.

فالبدار البدار فى الصيانة، قبل تلف الباقى بالصبابة، فكم تعرقل فى فخ الهوى جناح حازم، وكم وقع فى بئر بوار مخمور، لا حول ولا قوة إلا بالله.

١٣٣- فصل - الحذر الحذر من المعاصى؛ فإن عواقبها سيئة وكم من

معصية لا يزال صاحبها فى هبوط أبداً مع تعـثير أقدامه، وشدة فقره وحسراته على ما يفوته من الدنيا، وحسرة لمن نالها؛ فلو قارب زمان جزائه على قبيحه الذى ارتكبه كان اعتراضه على القدر فى فـوات أغراضه يعيد العذاب جديداً، فوا أسفًا لمعاقب لا يحس بعقوبته، وآه من عـقاب يتأخر حتى ينسى سببه، أو ليس ابن سيرين يقول: عَـيَّرت رجلاً بالفقر فافتـقرت بعد أربعين سنة، وابن الجلاء يقـول: نظرت إلى شاب مسـتحسن فنسـيت القرآن بعـد أربعين سنة؛ فواحسرة لمعاقب لا يدرى أن أعظم العقوبة عدم الإحساس بها.

فالله الله فى تجديد الـتوبة عساها تكف كف الجـزاء، والحذر الحذر من الذنوب خصوصًا ذنوب الخلوات؛ فإن المبارزة لله تعالى تسقط العبد من عينه، وأصلح ما بينك وبيـنه فى السر، وقد أصلح لك أحـوال العلانية ولا تغـترر بستره أيها العاصى فربما يجـذب عن عورتك، ولا بحلمه فربما بغت العقاب، وعليك بالقلق واللجأ إليه، والتضرع، فإن نفع شىء فذلك، وتقوّت بالحزن، وتمزز كأس الدمع، واحـفر بمعول الأسى قليب قلب الـهوى؛ لعلك تنبط[1] من الماء ما يغسل جِرم جُرمك[2].

١٣٤- فصل - إخوانى: اسمعوا نصيحة من قد جرب وخبر؛ إنه بقدر إجلالكم لله عز وجل يجـلكم، وبمقدار تعظيم قدره واحترامـه يعظم أقداركم وحرمتكم، ولقد رأيت والله من أنفق عـمره فى العلم إلى أن كبرت سنه، ثم تعدى بعض الحدود فـهان عند الخلق، وكانوا لا يلتفتون إليـه مع غزارة علمه وقوة مجاهدته.

ولقد رأيت من كان يراقب الله عز وجل فى صبوته مع قصوره بالإضافة إلى ذلك العالم؛ فعظم الله قدره فى القلوب حتى علقته النفوس، ووصفته بما يزيد على ما فيه من الخير، ورأيت من كان يرى الاستقامة إذا استقام فإذا زاغ مال عنه اللطف، ولولا عـموم الستر وشـمول رحمة الكريم لافـتضح هؤلاء المذكورون، غير أنه فى الأغلب تأديب أو تلطف فى العقاب كما قيل:

---

(١) النبط: نبع الماء.
(٢) الجِرم: بالكسر، الجسم، وبالضم: الذنب.

ومن كان في سخطه محسنًا فكيف يكون إذا ما رضى

غير أن العادل لا يحابى، وحاكم الجزاء لا يجور، وما يضيع عند الأمين شيء.

١٣٥- فصل - أيها المذنب إذا أحسست نفحات الجزاء فلا تكثرن الضجيج، ولا تقولنَّ قد تبت وندمت، فهل لا زال عنى من الجزاء ما أكره؛ فلعل توبتك ما تحققت. وإن للمجازاة زمانًا يمتد امتداد المرض الطويل، فلا تنجع[1] فيه الحيل حتى ينقضى أوانه، وأن بين زمان: «وعصى»[2] إلى أبان: «فتلقى»[3] مدة مديدة فاصبر أيها الخاطئ حتى يتخلل ماء عينيك خلال ثوب القلب المتنجس؛ فإذا أعصرته كف الأسى، ثم إذا تكررت دفع الغسلات حكم بالطهارة.

بقى آدم يبكى على زلله ثلاثمائة سنة، ومكث أيوب -عليه السلام- فى بلائه ثمانية عشر سنة، وأقام يعقوب يبكى على يوسف عليهما السلام ثمانين سنة، وللبلايا أوقات ثم تنصرم، ورب عقوبة امتدت إلى زمان الموت.

فاللازم لك أن تلازم محارب الإنابة، وتجلس جلسة المستجدى، وتجعل طعامك القلق، وشرابك البكاء، فربما قدم بشير القبول فارتد يعقوب الحزن بصيرًا، وإن مت فى سجن سجنك فربما ناب حزن الدنيا عن حزن الآخرة، وفى ذلك ربح عظيم.

١٣٦- فصل - الواجب على العاقل أن يحذر مغبة المعاصى فإن نارها تحت الرماد، وربما تأخرت العقوبة ثم فجأت، وربما جاءت مستعجلة، فليبادر بإطفاء ما أوقد من نيران الذنوب ولا ماء يطفى تلك النار إلا ما كان من عين العين، لعل خصم الجزاء يرضى قبل أن يبت الحاكم فى حكمه.

---

(١) فى نسخة: تنجح.

(٢) يشير إلى قوله تعالى: ﴿وَعَصَىٰ آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَىٰ﴾ [طه: ١٢١].

(٣) يشير إلى قوله تعالى: ﴿فَتَلَقَّىٰ آدَمُ مِن رَّبِّهِ كَلِمَاتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ﴾ [البقرة: ٣٧].

١٣٧- **فصل**- واعجبًا من عــارف بالله عز وجل يخالفه ولو فى تلف نفسه، هل العيش إلا معــه؟ هل الدنيا والآخرة إلا له؟ أف لمترخص فى فعل ما يكره لنيل ما يحب، تالله لقد فاته أضعــاف ما حصل، أقبل على ما أقوله يا ذا الذوق هل وقع لك تعـثـير فى عـيش، وتخـبـيط فى حال، إلا حــال مخالفته.

ولا انثنى عـزمى عن بابكم إلا تعـــــثـــــرت بأذيـالى

أما سـمعت تلك الحـكاية عن بعض السلف أنه قال: رأيت علــى سور بيروت شابًّا يذكر الله تعالــى. فقلت له: ألك حاجة؟ فـقال: إذا وقعت لى حاجة سألته إياها بقلبى فقضاها.

يا أرباب المعــاملة بالله عـليكم لا تكدروا[1] المشـرب قـفـوا على باب المراقـبة وقـوف الحـراس وادفعـوا ما لا يـصلح أن يلج فيـفـسد، واهجـروا أغراضكم لتحصـيل محبوب الحبيب، فإن أغـراضكم تحصل على أننى أقول: أف لمن ترك بقصد الجـزاء؛ أهذا شرط العبودية، كـلا! إنما ينبغى لى إذا كنت مملوكًا أن أفعل ليرضى لا لأعطى، فإن كنت محبًّا رأيت قطع الآراب[2] فى رضاه وصلاً. اقـبل نصحى يا مخدوعًــا بغرضه إن ضعـفت عن حمل بلوائه فاستغث به، وإن آلمك كرب اختياره فإنك بين يديه، ولا تيأس من روحه وإن قوى خناق البلاء، بالله إن موت الخادم فى الخدمة حسن عند العقلاء.

إخوانى لـنفسى أقول، فـمن له شرب مـعى فليرد: أيـتها النفـس لقد أعطاك ما لـم تأملى، وبلغك ما لم تطلبى، وستر عليك من قبيحك ما لو فاح ضجت المشام، فما هذا الضجـيج من فوات كمال الأغراض، أمملوكة أنت أم حـرة؟ أمـا عـلمت أنك فى دار التكلـيف، وهذا الخطاب ينبـــغى أن يكون للجهال، فـأين دعواك المعرفة؟ أتراه لو هبت نفـحة، فأخذت البـصر؛ كيف كانت تطيب لك الدنيا! واأسـفًا عليك لقد عشيت البصـيرة التى هى أشرف،

---

(١) لا تكدروا: لا تعكروا.

(٢) آراب: جمع إرب، وهى الحاجة.

وما علمت كم أقول عسى ولعل! وأنت فى الخطا إلى قدام، قربت سفينة العمر من ساحل القبر، ومالك فى المركب بضاعة تربح، تلاعبت فى بحر العمر ريح الضعف ففرقت تلفيق القوى، وكأن قد فصلت المركب. بلغت نهاية الأجل وعين هواك تتلفت إلى الصبا، بالله عليك لا تشمتى بك الأعداء.

هذا أقل الأقسام وأوفى منها أن أقول: بالله عليك لا يفوتنك قدم سابق مع قدرتك على قطع المضمار؛ الخلوة الخلوة واستحضرى قرين العقل، وجولى فى حيرة الفكر، واستدركى صَبَابة[1] الأجل قبل أن تميل بك الصُّبَابة[2] عن الصواب.

واعجبًا كلما صعد العمر نزلت، وكلما جد الموت هزلت. أتراك ممن ختم له بفتنة، وقضيت عليه عند آخر عمره المحنة، كان أول عمرك خيراً من الأخير، كنت فى زمن الشباب أصلح منك فى زمن أيام المشيب ﴿وَتِلْكَ الأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ وَمَا يَعْقِلُهَا إِلاَّ الْعَالِمُونَ﴾[3] نسأل الله عز وجل ما لا يحصل مطلوبنا إلا به، وهو توفيقه، إنه سميع مجيب.

١٣٨- فصل - قدرت فى بعض الأيام على شهوة للنفس هى عندها أحلى من الماء الزلال فى فم الصادى. وقال التأويل: ما هاهنا مانع ولا معوق إلا نوع ورع، وكان ظاهر الأمر امتناع الجواز، فترددت بين الأمرين، فمنعت النفس عن ذلك؛ فبقيت حيرتى لمنع ما هو الغاية فى غرضها من غير صاد عنه بحال إلا حذر المنع الشرعى.

فقلت لها: يا نفس والله ما من سبيل إلا ما لا يؤمن من دونه؟ فتقلقت؛ فصحت بها كم وافقتك فى مراد ذهبت لذته وبقى التأسف على فعله؛ فقدرى بلوغ الغرض من هذا المراد. أليس الندم يبقى فى مجال اللذة أضعاف زمانها؟ فقالت: كيف أصنع؟ فقلت:

(١) الصَّبابة: بالفتح، بقية الماء فى الإناء.
(٢) الصُّبَابة: بالضم، السوق ورقة الهوى.
(٣) سورة العنكبوت: ٤٣.

صبرت ولا والله ما بى جلادة فراغ على الحب لكنى صبرت على الرغم

وها أنا أنتظر من الله عز وجل حسن الجزاء على هذا الفعل، وقد تركت باقى هذه الوجهة البيضاء. أرجو أن أرى حسن الجزاء على الصبر فأسطره فيه إن شاء الله تعالى؛ فإنه قد يعجل جزاء الصبر وقد يؤخره، فإن عجل سطرته، وإن أخر فما أشك فى حسن الجزاء لمن خاف مقام ربه، فإنه من ترك شيئًا لله عوضه الله خيراً منه، والله إنى ما تركته إلا لله تعالى ويكفينى تركه ذخيرة، حتى لو قيل لى أتذكر يومًا آثرت الله على هواك، قلت: يوم كذا وكذا؛ فافتخرى أيتها النفس بتوفيقك من وفقك، فكم قد خذل سواك، واحذرى أن تخذلى فى مثلها ولا حول ولا قوة إلا بالله العلى العظيم. وكان هذا فى سنة إحدى وستين وخمسمائة، فلما دخلت سنة خمسة وستين، عوضت خيراً من ذلك بما لا يقارب مما لا يمنع منه ورع ولا غيره؛ فقلت: هذا جزاء الترك لأجل الله سبحانه فى الدنيا، ولأجر الآخرة خير والحمد لله.

١٣٩- فصل - لا أنكر على من طلب لذة الدنيا طريق المباح؛ لأنه ليس كل أحد يقوى على الترك، إنما المحنة لمن طلبها فلم يجدها أو أكثر إلا من طريق الحرام، فاجتهد فى تحصيلها، ولم يبال كيف حصلت فهذه المحنة التى بخس العقل فيها حقه، ولم ينتفع صاحبه بوجوده؛ لأنه لو وزن ما أوثر وعقابه؛ طاشت كفة اللذة التى فنيت عند أول ذرة من جزائها، وكم قد رأينا ممن آثر شهوته فسلبت دينه، فليعجب العاقل حين التصفح لأحوالهم كيف آثروا شيئًا ما أقاموا معه، وصاروا إلى عقاب لا يفارقهم.

فالله الله فى بخس العقول حقها، ولينظر السالك أين يضع القدم فرب مستعجل وقع فى بير بوار، ولتكن عين التيقظ مفتوحة؛ فإنكم فى صف حرب لا يدرى فيه من أين يتلقى النبل، فأعينوا أنفسكم ولا تعينوا عليها.

١٤٠- فصل - الحق عز وجل أقرب إلى عبده من حبل الوريد، لكنه

عامل العبد معاملة الغائب عنه البعيد منه، فأمر بقصد نيته ورفع اليدين إلى والسؤال له.

فقلوب الجهال تستشعر البعد، ولذلك تقع منهم المعاصى، إذ لو تحققت مراقبتهم للحاضر الناظر لكفوا الأكف عن الخطايا. والمتيقظون علموا قربه فحضرتهم المراقبة وكفتهم عن الانبساط، ولولا نوع تغطية على عين المراقبة الحقيقة لما انبسطت كف بأكل، ولا قدرت عين على نظر؛ ومن هذا الجنس «إنه ليغان على قلبى»[1] ومتى تحققت المراقبة حصل الأنس، وإنما يقع الأنس بتحقيق الطاعة، لأن المخالفة توجب الوحشة، والموافقة مبسطة المستأنسين؛ فياللذة عيش المستأنسين، ويا خسارة المستوحشين.

وليست الطاعة كما يظن أكثر الجهال أنها فى مجرد الصلاة والصيام؛ إنما الطاعة الموافقة بامتثال الأمر واجتناب النهى، هذا هو الأصل والقاعدة الكلية؛ فكم من متعبد بعيد، لأنه مضيع الأصل، وهادم للقواعد بمخالفة الأمر وارتكاب النهى. وإنما المحقق من أمسك ذؤابة ميزان المحاسبة للنفس فأدى ما عليه واجتنب ما نهى عنه؛ فإن رزق زيادة تنفل وإلا لم يضره والسلام.

١٤١- فصل - الدنيا فى الجملة معبر. فينبغى للإنسان أن لا ينافس بلذاتها وأن يعبر الأيام؛ فإنه لو تفكر فى كيفية الذبائح ووسخ من يباشرها، وعمل الكامخ[2] وغيرها من المأكولات ما طابت له، ولو تفكر فى جولان اللقمة مختلطة بالريق ما قدر على إساغتها؛ فلا يخلو من حالين: إما أن يريد التنعم باللذات المباحات، أو يريد دفع الوقت بالضرورات، وأيهما طلب فلا ينبغى له أن يبحث فيما يناله عن باطنه، فإنه لو نظر إلى عورة الزوجة نبا عنها، وقد قالت عائشة -رضي الله عنها-: ما رأيته من رسول الله -ﷺ- ولا رآه منى.

---

(١) صحيح: أخرجه مسلم (٢٧٠٢) فى كتاب الذكر والدعاء، باب: استحباب الاستغفار والاستكثار منه من حديث الأغر المزنى -رضي الله عنه-.
(٢) الكامخ: ما يؤتدم به.

فينبغى للعاقل أن يكون له وقت معلوم يأمـر زوجته بالتصنع له فيه، ثم يغمض عن التفتيش ليطيب له عيشه! وينبـغى لها أن تتفقد من نفسها هذا فلا تحضره إلا على أحسن حال، وبمثل هذا يدوم العـيش، فأما إذا حصلت البذلة بانت بها العيـوب فنبت النفس وطلبت الاستبدال، ثم يقع فى الثانيـة مثل ما يقع فى الأولى.

وكذلك ينبغى أن يتـصنع لها كتصنعها له ليـدوم الود بحسن الائتلاف، ومتى لـم يجر الأمر على هـذا فى حق من له أنفة من شىء تنبـو عنه النفس وقع فى أحد أمـرين: إما الإعراض عنها، وإمـا الاستبدال بها. ويـحتاج فى حالة الإعراض إلى صبـر عن إعراضه، وفى حالة الاستبـدال إلى فضل مؤنة وكلاهما يؤذى، ومتى لم يستعمل ما وصفنا لم يطب له عيش فى متعة، ولم يقدر على دفع الزمان كما ينبغى.

١٤٢- فـصل - نازعـتنى نفسى إلى أمـر مكروه فى الشرع، وجـعلت تنصب لى التأولات وتدفع الكراهة، وكانت تأويلاتهـا فاسدة، والحجة ظاهرة على الكراهة، فلجـأت إلى الله تعالى فى دفع ذلك عن قلبى، وأقـبلت على القراءة، وكان درسى قد بلغ إلـى سورة يوسف فافتتحتـها -وذلك الخاطر قد شغل قلبى حتى لا أدرى ما أقرأ- فلما بلغت إلى قوله تعالى: ﴿قَالَ مَعَاذَ اللَّهِ إِنَّهُ رَبِّي أَحْسَنَ مَثْوَايَ﴾(١) انتبهت لـها وكأنى خوطبت بها، فـأفقت من تلك السكرة، فقلـت يا نفس أفهمت؟ هذا حـر بيع ظلمًا فـراعى حق من أحسن إليه، وسماه مالكًا وإن لم يكن علـيه ملك، فقال: إنه ربى، ثم زاد فى بيان موجب كف كفه عما يؤذيه فقـال: أحسن مثواى؛ فكيف بك وأنت عبد على الحقيقـة لمولى ما زال يحسن إليك من ساعة وجـودك، وأن ستره عليك الزلل أكثر من عدد الحصا؛ أفـما تذكرين كيف رباك وعلمك ورزقك ودافع عنك، ساق الخيـر إليك، وهداك أقوم طريق، ونجاك من كل كيـد، وضم إلى حسن

---

(١) سورة يوسف: ٢٣.

الصورة الظاهرة جودة الذهن الباطن، وسهل لك مدارك العلوم حتى نلت فى قصير الزمان ما لم ينله غيرك فى طويله، وجلى فى عرصة لسانك عرائس العلوم فى حلل الفصاحة بعد أن ستر عن الخلق مقابحك، فتلقوها منك بحسن الظن، وساق رزقك بلا كلفة تكلف ولا كدر من رغد غير نزر. فوالله ما أدرى أى نعمة عليك أن أشرح لك، حسن الصورة وصحة الآلات، أم سلامة المزاج واعتدال التركيب، أم لطف الطبع الخالى عن خساسة، أم إلهام الرشاد منذ الصغر، أم الحفظ بحسن الوقاية عن الفواحش والزلل، أم تحبيب طريق النقل واتباع الأثر من غير جمود على تقليد لمعظم، ولا انخراط فى سلك مبتدع: ﴿وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَتَ اللَّهِ لا تُحْصُوهَا﴾[(١)].

كم كايد نصب لك المكايد فوقاك، كم عدو حط منك بالذم فرقاك، كم أعطش من شراب الأمانى خلقًا وسقاك، كم أمات من لم يبلغ بعض مرادك وأبقاك. فأنت تصبحين وتمسين· سليمة البدن، محروسة الدين، فى تزيد من العلم وبلوغ الأمل، فإن منعت مراداً فرزقت الصبر عنه بعد أن تبين لك وجه الحكمة فى المنع حتى يقع اليقين بأن المنع أصلح، ولو ذهبت أعد من هذه النعم -ما نسخ ذكره- امتلأت الطروس ولم تنقطع الكتابة، وأنت تعلمين أن ما لم أذكره أكثر، وأن ما أومأت إلى ذكره لم يشرح. فكيف يحسن بك التعرض بما يكرهه: ﴿مَعَاذَ اللَّهِ إِنَّهُ رَبِّي أَحْسَنَ مَثْوَايَ إِنَّهُ لا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ﴾[(٢)].

١٤٣- فصل - ما رأيت أعظم فتنة من مقاربة الفتنة، وقل أن يقاربها إلا من يقع فيها، «ومن حام حول الحمى يوشك أن يقع فيه»[(٣)].

قال بعض المعتبرين: قدرت مرة على لذة ظاهرها التحريم ويحتمل الإباحة، إذ الأمر فيها مردد، فجاهدت النفس فقالت: أنت ما تقدر فلهذا

---

(١) سورة إبراهيم: ٣٤، والنحل: ١٨.

(٢) سورة يوسف: ٢٣.

(٣) يشير إلى الحديث الذى رواه البخارى (٥٢) فى كتاب الإيمان، باب: فضل من استبرأ لدينه، ومسلم (١٥٩٩) فى كتاب المساقاة، باب: أخذ الحلال وترك الشبهات، من حديث النعمان بن بشير -رضي الله عنه-.

تترك؛ قارب المقـدور عليه فإذا تمكنت فتـركت؛ كنت تاركًا حقيقـة، ففعلت وتركت، ثم عـاودت مرة أخرى فـى تأويل أرتنى فيـه الجواز وإن كـان الأمر يحتمل؛ فلما وافقتهـا أثر ذلك ظلمة فى قلبى لخوف أن يكون الأمر محرمًا؛ فرأيت أنها تارة تقـوى على بالترخص والتأويل، وتارة أقوى عليـها بالمجاهدة والامتناع؛ فإذا رخصت لم آمن أن يكون ذلك الأمـر محظوراً ثم أرى عاجلاً تأثيـر ذلك الفعل فى القلب، فلمـا لم آمن عليـها بالتـأويل تفكرت فى قطع طمـعهـا من ذلك الأمر المؤثر فـلم أر ذلك إلا بأن قلت لها: قـدرى أن هذا الأمر مـباح قطعًـا فوالله الذى لا إله إلا هو لا عـدت إليه، فـانقطع طمعـها باليمين والمعاهدة، وهذا أبلغ دواء وجدته فى امتناعها لأن تأويلها لا يبلغ إلى أن تأمر بالحنث والتكفير.

فأجـود الأشياء قطع أسـباب الفتن وترك الرخص فـيما يجـوز إذا كان حاملاً ومؤديًا إلى ما لا يجوز. والله الموفق.

١٤٤- فصل - لولا غيبة العاصى فى وقت المعاصى كان كالمعاند، غير أن الهوى يحول بينه وبين الفهم للحال، فـلا يرى إلا قضاء شهوته، وإلا فلو لاحت له المخالفـة خرج من الدين بالخلاف، فـإنما يقصد هواه فيـقع الخلاف ضمنًا وتبعًا، وأكثر ما يقع هذا فى مقاربة الفتنة، وقل من يسلم عند المقاربة، لأنه كتقديم نـار إلى حلفا. ثم لو ميز العاقل بين قضـاء وطره لحظة وانقضاء باقى العمر بالحسرة على قضاء ذلك الوطر لما قرب منه ولو أعطى الدنيا، غير أن سكرة الهوى تحول بين الفكر وذلك.

آه كم من معصـية مضت فى ساعـتها كأنهـا لم تكن ثم بقيت آثارها، وأقلهـا مـا لا يبـرح من المرارة فى النـدم، والطريق الأعظم فى الحـذر أن لا يتعرض لسـبب فتنة، ولا يقاربه، فمن فهم هذا وبالغ فى الاحـتراز كان إلى السلامة أقرب.

١٤٥- فـصل - البلايا عـلى مقادير الرجـال؛ فكثيـر من الناس تراهم ساكتين راضين بما عندهم من دين ودنيا، وأولئك قوم لم يرادوا لمقامات الصبر الرفيعة، أو علم ضعفهم عن مقاومة البلاء فلطف بهم.

إنما المحنة العظمى أن ترزق همة عاليـة لا تقع منك إلا بتحقيق الورع، وتجويد الدين، وكمال العلم، ثم تبتلى بنفس تميل إلى المباحات، وتدعى أنها تجمع بذلك همها، وتشفى مرضها، لتقبل مزاحة العلة على تحصيل الفضائل؛ وهاتان الحالتـان كضدين، لأن الدنيا والآخرة ضـرتان، واللازم فى هذا المقام مراعـاة الواجـبات، وأن لا يفـسح للنفس فى مبـاح لا يؤمن أن يتعـدى منه إعراض عن واجب ورع. المبتلى يصيح، فـلأن يبكى الطفل خير من أن يبكى الوالد.

واعلم أن فتح باب المباحات ربما جر أذىً كثيراً فى الدين؛ فأوثق السكر قبل فـتح الماء، وألبس الدرع قبل لقـاء الحرب، وتلمح عواقب مـا تجنى قبل تحريك اليد، واستظهر في الحذر باجتناب ما يخاف منه وإن لم يتيقن.

١٤٦- فصل - ينبغى لطالب العلـم أن يكون جل همته مصـروفًا إلى الحفظ والإعادة؛ فلو صح صرف الزمـان إلى ذلك كان الأولى، غير أن البدن مطيـة، وإعداد السـير مظنة الانقـطاع. ولما كانت القـوى تكلّ فتـحتـاج إلى تجديد، وكان النسخ والمطالعة والتصنيف لابد منه، مع أن المهم الحفظ، وجب تقسـيم الزمان على الأمـرين، فيكون الحفظ فى طرفى النهـار وطرفى الليل، ويوزع الباقى بين عمل بالنسخ والمطالعة، وبين راحة للبدن وأخذ لحظه.

ولا ينبغى أن يقع الغبن بين الشـركاء، فإنه متى أخذ أحدهم فـوق حقه أثر الغبن وبان أثره، وإن النفس لتـهرب إلى النسخ والمطالعـة والتصنيف عن الإعادة والتكرار، لأن ذلك أشهى وأخف عليهـا. فليحذر الراكب من إهمال الناقة، ولا يجوز له أن يحمل عليها ما لا تطيق. ومع العدل والإنصاف يتأتى كل مراد، ومن انحرف عن الجـادة طالت طريقه، ومن طوى منازل فى منزل أوشك أن يفوته ما جَدَّ لأجله.

على أن الإنسـان إلى التحـريض أحوج لأن(١) الفتـور أولى من الجد. وبعد فاللازم فى العلم طلب المهم؛ فرب صاحب حديث حفظ مثلاً لحديث: «**من أتى الجمـعة فليغـتسل**»(٢) عشرين طريقـًا، والحديث قد ثبت من طريق

(١) كذا بالأصل.
(٢) صحيح: وقد تقدم.

واحد، فشغله ذلك عن معرفة آداب الغسل، والعمر أقصر وأنفس من أن يفرط منه فى نفس، وكفى بالعقل مرشدًا إلى الصواب من عضده التوفيق.

١٤٧- فصل - إذا صح قصد العالم استراح من كلف التكليف فإن كثيرًا من العلماء يأنفون من قول لا أدرى، فيحفظون بالفتوى جاههم عند الناس لئلا يقال: جهلوا الجواب، وإن كانوا على غير يقين مما قالوا، وهذا نهاية الخذلان.

وقد روى عن مالك بن أنس أن رجلاً سأله عن مسألة فقال: لا أدرى، فقال: سافرت البلدان إليك، فقال: ارجع إلى بلدك، وقل سألت مالكًا فقال لا أدرى.

فانظر إلى دين هذا الشخص وعقله كيف استراح من الكلفة، وسلم عند الله عز وجل. ثم إن كان المقصود الجاه عندهم فقلوبهم بيد غيرهم.

والله لقد رأيت من يكثر الصلاة والصوم والصمت، ويتخشع فى نفسه ولباسه والقلوب تنبو عنه، وقدره فى النفوس ليس بذاك، ورأيت من يلبس فاخر الثياب وليس له كبير نفل ولا تخشع والقلوب تتهافت على محبته، فتدبرت السبب فوجدته السريرة. كما روى عن أنس بن مالك أنه لم يكن له كبير عمل من صلاة وصوم، وإنما كانت له سريرة. فمن أصلح سريرته فاح عبير فضله، وعبقت القلوب بنشر طيبه، فالله الله فى السرائر، فإنه ما ينفع مع فسادها صلاح ظاهر.

١٤٨- فصل - نزلت فىّ شدة وأكثرت من الدعاء أطلب الفرج والراحة، وتأخرت الإجابة، فانزعجت النفس وقلقت، فصحت بها: ويلك، تأملى أمرك؛ أمملوكة أنت أم حرة مالكة؟ أمدبِّرة أنت أم مدبَّرة؟ أما علمت أن الدنيا دار ابتلاء واختبار، فإذا طلبت أغراضك ولم تصبرى على ما ينافى مرادك فأين الابتلاء؟ وهل الابتلاء إلا الإعراض وعكس المقاصد، فافهمي معنى التكليف وقد هان عليك ما عزّ، وسهل ما استصعب.

فلما تَدَبَّرتْ ما قُلْتُهُ سكنت بعض السكون. فقلت لها: وعندى جواب

ثان وهو: أنك تقتضين الحق بأغراضك ولا تقتضين نفسك بالواجب له؛ وهذا عين الجهل، وإنما كان ينبغي أن يكون الأمر بالعكس، لأنك مملوكة والمملوك العاقل يطالب نفسه بأداء حق المالك، ويعلم أنه لا يجب على المالك تبليغه ما يهوى، فسكنت أكثر من ذلك السكون.

فقلت لها: وعندي جواب ثالث: وهو أنك قد استبطأت الإجابة وأنت سددت طرقها بالمعاصي، فلو قد فتحت الطريق أسرعت، كأنك ما علمت أن سبب الراحة التقوى. أو ما سمعت قوله تعالى: ﴿وَمَن يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَل لَّهُ مَخْرَجًا وَيَرْزُقْهُ﴾(١) ﴿يَجْعَل لَّهُ مِنْ أَمْرِهِ يُسْرًا﴾(٢) أو ما فهمت أن العكس بالعكس؟ آه من سكر غفلة صار أقوى من كل سكر في وجه مياه المراد يمنعها من الوصول إلى من زرع الأماني.

فعرفت النفس أن هذا حق فاطمأنت. فقلت: وعندي جواب رابع؛ وهو أنك تطلبين ما لا تعلمين عاقبته وربما كان فيه ضررك؛ فمثلك كمثل طفل محموم يطلب الحلوى؛ والمدبر لك أعلم بالمصالح. كيف وقد قال: ﴿وَعَسَىٰ أَن تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾(٣) فلما بان الصواب للنفس في هذه الأجوبة، زادت طمأنينتها.

فقلت لها: وعندي جواب خامس؛ وهو أن هذا المطلوب ينقص من أجرك، ويحط من مرتبتك، فمنع الحق لك ما هذا سبيله عطاء منه لك، ولو أنك طلبت ما يصل آخرتك كان أولى لك؛ فأولى لك أن تفهمي ما قد شرحت. فقالت: لقد سرحت في رياض ما شرحت، فهمت إذ فهمت.

---

(١) سورة الطلاق: ٢، ٣.

(٢) سورة الطلاق: ٤.

(٣) سورة البقرة: ٢١٦.

السبيل إلى صلاح حال العلماء

١٤٩- فصل - حضرنا بعض أعزية أرباب الأموال، فرأيت لعلماء أذل الناس عندهم؛ فالعلماء يتواضعون لهم ويذلون لموضع طمعهم فيهم، وهم لا يحفلون بهم لما يعلمونه من احتياجهم إليهم، فرأيت هذا عيبًا في الفريقين.

أما في أهل الدنيا فوجه العتب أنهم كانوا ينبغي لهم تعظيم العلم؛ ولكن لجهلهم بقدره فاتهم، وآثروا عليه كسب الأموال؛ فلا ينبغي أن يطلب منهم تعظيم ما لا يعرفون ولا يعلمون قدره.

وإنما أعود باللوم على العلماء وأقول: ينبغي لكم أن تصونوا أنفسكم التي شرفت بالعلم عن الذل للأنذال، وإن كنتم في غنى عنهم كان الذل لهم والطلب منهم حرامًا عليكم، وإن كنتم في كفاف فلم لم تؤثروا التنزُّه عن الذل بالعفة عن الحطام الفاني الحاصل بالذلة.

إلا أنه يتخيل لي من هذا الأمر، أني علمت قلة صبر النفس على الكفاف والعزوف عن الفضول، فإن وجد ذلك منها في وقت لم يوجد على الدوام؛ فالأولى للعالم أن يجتهد في طلب الغنى، ويبالغ في الكسب، وإن ضاع بذلك عليه كثير من زمان طلب العلم؛ فإنه يصون بعَرَضه عِرْضه.

وقد كان سعيد بن المسيب يتجر في الزيت وخلف مالاً، وخلف سفيان الثوري مالاً وقال لولاك لتمندلوا بي، وقد سبق في كتابي هذا في بعض الفصول شرف المال، ومن كان من الصحابة والعلماء يقتنيه؛ والسر في فعلهم ذلك. وحثي طالبي العلم على ذلك ما بينته من أن النفس لا تثبت على التعفف، ولا تصبر على دوام التزهد؛ وكم قد رأينا من شخص قويت عزيمته على طلب الآخرة فأخرج ما في يده، ثم ضعفت فعاد يكتسب من أقبح وجه. فالأولى ادخار المال والاستغناء عن الناس، ويخرج الطمع من القلب.

ويصفو نشر العلم من شائبة ميل، ومن تأمل أخبار الأخيار من الأحبار وجدهم على هذه الطريقة.

وإنما سلك طريق الترفه عن الكسب من لم يؤثر عنده بذل الدين والوجه، فطلب الراحة ونسى أنها فى المعنى عناء؛ كما فعل جماعة من جهال المتصوفة فى إخراج ما فى أيديهم وادعاء التوكل، وما علموا أن الكسب لا ينافى التوكل، وإنما طلبوا طريق الراحة، وجعلوا التعرض للناس كسبًا؛ وهذه طريقة مركبة من شيئين: أحدهما قلة الأنفة على العرض، والثانى قلة العلم.

١٥٠- فصل - تأملت وقوع المعاصى من العصاة فوجدتهم لا يقصدون العصيان، وإنما يقصدون موافقة هواهم، فتبع العصيان تبعًا. فنظرت فى سبب ذلك الإقدام مع العلم بوقوع المخالفة فإذا به ملاحظتهم لكرم الخالق، وفضله الزاخر. ولو أنهم تأملوا عظمته وهيبته ما انبسطت كف بمخالفته؛ فإنه ينبغى والله أن يحذر من أقل فعله تعميم الخلق بالموت، حتى إلقاء الحيوان البهيم للذبح، وتعذيب الأطفال بالمرض، وفقر العالم، وغنى الجاهل؛ فليعرض المقدم على الذنوب على نفسه الحذر ممن هذه صفته. فقد قال الله تعالى: ﴿وَيُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ﴾(١) وملاحظة أسباب الخوف أدنى إلى الأمن من ملاحظة أسباب الرجاء؛ فالخائف آخذ بالحزم، والراجى متعلق بحبل طمع، وقد يخلف الظن.

١٥١- فصل - رأيت عموم أرباب الأموال يستخدمون العلماء يستذلونهم بشىء يسير يعطونهم من زكاة أموالهم؛ فإن كان لأحدهم ختمة قال فلان ما حضر، وإن مرض قال فلان ما تردد. وكل منته عليه شىء نزر يجب تسليمه إلى مثله، وقد رضى العلماء بالذل فى ذلك لموضع الضرورة؛ فرأيت أن هذا جهل من العلماء بما يجب عليهم من صيانة العلم.

ودواؤه من جهتين:

(١) سورة آل عمران: ٢٨.

أحدهما: القناعة باليسير؛ كما قيل: من رضى بالخل والبقل لم يستعبده أحد.

والثانى: صرف بعض الزمان المصروف فى خدمة العلم إلى كسب الدنيا؛ فإنه يكون سببًا لإعزاز العلم، وذلك أفضل من صرف جميع الزمان فى طلب العلم، مع احتمال هذا الذل.

ومن تأمل ما تأملته وكانت له أنفة قدر قوته، واحتفظ بما معه، أو سعى فى مكتسب يكفه، ومن لم يأنف من مثل هذه الأشياء لم يحظ من العلم إلا بصورته دون معناه.

١٥٢- فصل - مدار الأمر كله على العقل؛ فإنه إذا تم العقل لم يعمل صاحبه إلا على أقوى دليل، وثمرة العقل فهم الخطاب، وتلمح المقصود من الأمر، ومن فهم المقصود وعمل على الدليل كان كالبانى على أساس وثيق، وإنى رأيت كثيرًا من الناس لا يعملون على دليل، بل كيف اتفق، وربما كان دليلهم العادات؛ وهذا أقبح شيء يكون.

ثم رأيت خلقًا كثيرًا لا يتبعون الدليل بطريق إثباته كاليهود والنصارى، فإنهم يقلدون الآباء ولا ينظرون فيما جاء من الشرائع هل صحيح أم لا؟. وكذلك يثبتون الإله ولا يعرفون ما يجوز عليه مما لا يجوز، فينسبون إليه الولد، ويمنعون جواز تغييره ما شرع، وهؤلاء لم ينظروا حق النظر لا فى إثبات الصانع وما يجوز عليه، ولا فى الدليل على صحة النبوات، فتقع أعمالهم ضائعة كالبانى على رمل.

ومن هذا القبيل فى المعنى قوم يتعبدون ويتزهدون وينصبون أبدانهم فى العلم بأحاديث باطلة، ولا يسألون عنها من يعلم.

ومن الناس من يثبت الدليل ولا يفهم المقصود الذى دل عليه الدليل، ومن هذا الجنس قوم سمعوا ذم الدنيا فتزهّدوا، وما فهموا المقصود، فظنوا أن الدنيا تذم لذاتها وأن النفس تجب عداوتها، فحملوا على أنفسهم فوق ما يطاق، وعذبوها بكل نوع، ومنعوها حظوظها؛ جاهلين بقوله -عليه الصلاة

والسلام-: «**إن لنفسك عليك حقًا**»(١)، وفيهم من أدته الحال إلى ترك الفرائض، ونحول الجسم، وضعف القوى، وكل ذلك لضعف الفهم للمقصود والتلمح للمراد.

كما روى عن داود الطائى أنه كان يترك ماء فى دن تحت الأرض فيشرب منه وهو شديد الحر، وقال لسفيان: إذا كنت تأكل اللذيذ الطيب، وتشرب الماء البارد المبرد، فمتى تحب الموت والقدوم على الله؟ وهذا جهل بالمقصود؛ فإن شرب الماء الحار يورث أمراضًا فى البدن ولا يحصل به الرى، وما أمرنا بتعذيب أنفسنا فى الصورة، بل بخلاف ما تدعو إليه مما نهى الله عنه.

وفى الحديث الصحيح: أن أبا بكر -رضي الله عنه- لما حلب له الراعى فى طريق الهجرة صب الماء على القدح حتى برد أسفله، ثم سقى رسول الله -ﷺ-، وفرش له فى ظل صخرة.

وكان يستعذب لرسول الله -ﷺ- الماء، وقال: «**إن كان عندكم ماء بات فى شن وإلا كرعنا**»(٢)، ولو فهم داود رحمه الله أن إصلاح علف الناقة متعين لقطع النزل لم يفعل هذا!.

ألا ترى إلى سفيان الثورى فإنه كان شديد المعرفة والخوف وكان يأكل اللذيذ ويقول: إن الدابة إذا لم يحسن إليها لم تعمل، ولعل بعض من لم يسمع كلامى هذا يقول: هذا ميل على الزهاد. فأقول: كن مع العلماء وانظر إلى طريق الحسن، وسفيان، ومالك، وأبى حنيفة، وأحمد، والشافعى، وهؤلاء أصول الإسلام، ولا تقلد دينك من قل علمه وإن قوى زهده، واحمل أمره على أنه كان يطيق هذا ولا تقتد بهم فيما لا تطيقه، فليس أمرنا إلينا، والنفس وديعة عندنا. فإنا أنكرت ما شرحته فأنت ملحق بالقوم الذين أنكرت عليهم؛ هذا رمز إلى المقصود والشرح يطول.

---

(١) صحيح: وقد تقدم.

(٢) صحيح: أخرجه البخارى (٥٦١٣) فى كتاب الأشربة، باب: شرب الماء باللبن، من حديث جابر بن عبد الله -رضي الله عنه-. و(الشن): القربة القديمة، و(كرعنا): تناولنا الماء بالفم من غير إناء.

١٥٣- **فصل** - الواجب على العاقل أن يتبع الدليل ثم لا ينظر فيما لا يجنى من مكروه؛ مثاله: أنه قد ثبت بالدليل القاطع حكمة الخالق عز وجل وملكه وتدبيره، فإذا رأى الإنسان عالمًا محرومًا، وجاهلاً مرزوقًا، أوجب عليه الدليل المثبت -حكمة الخالق- التسليم إليه، ونسبة العجز عن معرفة الحكمة إلى نفسه؛ فإن أقوامًا لم يفعلوا ذلك جهلاً منهم، أفتراهم بماذا حكموا بفساد هذا التدبير! أليس بمقتضى عقولهم أو ما عقولهم من جملة مواهبه؟ فكيف يحكم على حكمته وتدبيره ببعض مخلوقاته التى هى بالإضافة إليه أنقص من كل شىء؟

ولقد بلغنى عن اللعين ابن الراوندى أنه كان جالسًا على الجسر وفى يده رغيف يأكله، فجازت خيل وأموال. فقال: لمن هذه ؟ فقيل لفلان الخادم، فلما مر الخادم رأى شخصًا محتقرًا، فرمى الرغيف إلى ناحيته وقال: وهذا لفلان ما هذه القسمة.

ولو فكر المدبر لبانت له وجوه: أقلها جهله بمن يدعى معرفته وقلة تعظيمه، وذلك يوجب عليه أشد مما كان فيه من تضييق العيش، ولكنه ميراث إبليس، حيث اعتقد سوء التدبير فى تفضيل آدم -عليه السلام-، فالعجب من تلميذ يتمعلم على أستاذه، ومن مملوك يتيه على سيده.

ومما ينبغى أن يتبع فيه الدليل ولا يلتفت إلى ما جنت الحال، أن العلم أشرف مكتسب؛ وقد رأى جماعة من الجهلة قلة حظوظ العلماء من الدنيا فأزروا على العلم وقالوا لا فائدة فيه، وذلك لجهلهم بمقدار العلم، فإن تابع الدليل لا يبالى ما جنى، وإنما يبين الاختبار بفقد الغرض.

ولو لم يكن من الدليل على صدق نبينا -صلى الله عليه وسلم- إلا إعراضه عن الدنيا وتضييق العيش عليه، ثم لم يخلف شيئًا وحرم أهله الميراث؛ فدل على صدق طلبه لمطلوب آخر. وربما رأى الجاهل قومًا من العلماء يفعلون خطيئة فيزدرى على العلم، ويدعيه ناقصًا وهذا غلط كبير، فليتق الله العاقل، وليعمل بمقتضى العقل فيما يؤمر به من طاعة الله تعالى والعمل بالعلم، وليعلم أن

الابتـلاء فى الصبـر على فـوات المطلوبات، وليلـزم اتبـاع الدليل وإن جنى مكروهًا والله الموفق.

١٥٤- فصل - قرأت سورة يوسـف -عليه السلام-؛ فتعجبت من مـدحه -عليه السلام- على صبـره وشرح قصتـه للناس ورفع قدره بترك ما ترك، فـتأملت خبيئة الأمر فإذا هى مخالفة للهوى المكروه. فقلت: واعجبًا لو وافق هواه من كان يكون؟! ولما قـد خالفه، لقد صـار أمرًا عظيمًـا يضرب الأمثال بصـبره، ويفتـخر على الخلق باجـتهاده، وكل ذلك قـد كان بصبـر ساعة فـيا له عزًّا وفخرًا، يقاوم كل لحظة من ذكره أمثال ساعة الصبر عن المحبوب.

وبالعكس منه حالة آدم فى مـوافقته هواه، لقـد عادت نقيصـة فى حقه أبدًا لولا التـدارك فتاب عليـه؛ فتلمـحوا رحمكـم الله عاقبـة الصبـر ونهاية الهوى.

فالعاقل من ميز بين الأمرين: الحلوين والمرين، فإن من عدل ميزانه ولم تمل به كـفة الهـوى رأى كل الأرباح فى الصبـر، وكل الخسـران فى موافـقة النفس، وكفى بهذا موعظة فى مخالفة الهوى لأهل النهى، والله الموفق.

١٥٥- فصل - رأيت الاشتغـال بالفقه وسمـاع الحديث لا يكاد يكفى فى صلاح الـقلب، إلا أن يمزج بالرقائق والنظر فى سـير السلف الـصالحين. فأما مـجرد العلم بالحلال والحـرام فليس له كبير عـمل فى رقة القلب، وإنما ترق القلوب بذكر رقايق الأحاديث، وأخـبار السلف الصالحين، لأنهم تناولوا مقصود النقل، وخرجوا عن صور الأفعـال المأمور بها إلى ذوق معانيها والمراد بها، وما أخبرتك بهذا إلا بعد مـعالجة وذوق؛ لأنى وجدت جمهور المحدثين وطلاب الحديث همة أحدهم فى الحديث العالى وتكثير الأجزاء.

وجمهـور الفقهـاء فى علوم الجدل وما يغالب به الخـصم، وكيف يرق القلب مع هذه الأشياء. وقد كان جماعـة من السلف يقصدون العبد الصالح للنظر إلى سـمتـه وهديه؛ لا لاقـتبـاس علمـه، وذلك أن ثمرة علمـه هديه وسمته.

فافهم هذا وامزج طلب الفقه والحديث بمطالعة سير السلف والزهاد في الدنيا ليكون سببًا لرقة قلبك، وقد جمعت لكل واحد من مشاهير الأخيار كتابًا فيه أخباره وآدابه؛ فجمعت كتابًا في أخبار الحسن، وكتابًا في أخبار سفيان الثوري، وإبراهيم بن أدهم، وبشر الحافي، وأحمد بن حنبل، ومعروف، وغيرهم من العلماء والزهاد، والله الموفق للمقصود.

ولا يصلح العمل مع قلة العلم؛ فهما في ضرب المثل كسائق وقائد، والنفس بينهما حرون[1]، ومع جد السائق والقائد ينقطع المنزل، ونعوذ بالله من الفتور.

١٥٦- فصل - ترخصت في شيء يجوز في بعض المذاهب فوجدت في قلبي قسوة عظيمة، وتخايل لي نوع طرد عن الباب، وبُعْد وظلمة تكاثفت. فقالت نفسي: ما هذا؟ أليس ما خرجت عن إجماع الفقهاء!. فقلت لها: يا نفس السوء جوابك من وجهين:

أحدهما: أنك تأولت ما لا تعتقدين؛ فلو استُفْتِيتي لم تُفْتِ بما فعلت. قالت: لو لم أعتقد جواز ذلك ما فعلته. قلت: إلا أن اعتقادكِ ما ترضينه لغيرك في الفتوى.

والثاني: أنه ينبغي لك الفرح بما وجدت من الظلمة عقيب ذلك، لأنه لولا نور في قلبك ما أثر مثل هذا عندك.

قالت: فلقد استوحشت بهذه الظلمة المتجددة في القلب. قلت: فاعزمي على الترك وقدري ما تركت جائزًا بالإجماع، وعدي هجره ورعًا، وقد سلمت.

١٥٧- فصل - مما أفادتني تجارب الزمان أنه لا ينبغي لأحد أن يظاهر بالعداوة أحدًا مهما استطاع، فإنه ربما يحتاج إليه. وإن الإنسان قد لا يظن الحاجة إليه يومًا ما كما قد يحتاج إلى عويد منبوذ لا يلتفت إليه.

---

(١) حرون: أي، غير منقادة.

وكم من محتقر احتيج إليه، وإن لم تقع الحاجة إلى ذلك الشخص فى جلب نفع وقعت الحاجة فى دفع ضر، ولقد احتجت فى عمرى إلى ملاطفة أقوام ما خطر لى قط وقوع الحاجة إلى التلطف بهم.

واعلم أن المظاهرة بالعداوة قد تجلب أذى من حيث لا يعلم؛ لأن المظاهر بالعداوة كشاهر السيف ينتظر مضربًا، وقد يلوح مضرب خفى، وإن اجتهد المتدرع فى ستر نفسه فيغتنمه ذلك العدو؛ فينبغى لمن عاش فى الدنيا أن يجتهد فى أن لا يظاهر بالعداوة أحدًا لما بينت من وقوع احتياج الخلق بعضهم إلى بعض، وإقدار بعضهم على ضرر بعض، وهذا فصل مفيد تبين فايدته للإنسان مع تقلب الزمان.

١٥٨- فصل - رأيت النفس تنظر إلى لذات أرباب الدنيا العاجلة وتنسى كيف حصلت وما يتضمنها من الآفات.

وبيان هذا أنك إن رأيت صاحب إمارة وسلطنة فتأملت نعمته وجدتها مشوبة بالظلم؛ فإن لم يقصد هو حصل من عماله، ثم هو خائف منزعج فى كل أموره؛ حذر من عدو أن يسمه؛ قلق ممن هو فوقه أن يعزله، ومن نظيره أن يكيده، ثم أكثر زمانه يمضى فى خدمة من يخافه من السلاطين، وفى حساب أموالهم، وتنفيذ أوامرهم التى لا تخلو من أشياء منكرة، وإن عزل أربى ذلك على جميع ما نال من لذة، ثم تلك اللذة تكون معمورة بالحذر فيها ومنها وعليها.

وإن رأيت صاحب تجارة رأيته قد تقطع فى البلاد، فلم ينل ما نال إلا بعد علو السن وذهاب زمان اللذة، كما حكى أن رجلاً من أولاد الرؤساء كان حال شبيبته فقيرًا، فلما كبر استغنى، وملك أموالاً، واشترى عبيدًا من الترك وغيرهم، وجوارٍ من الروم، فقال هذه الأبيات فى شرح حاله:

ما كنت أرجوه إذ كنت ابن عشرينا ... ملكته بعد أن جاوزت سبعينا
تطوف بى من الأتراك أغزلة ... مثل الغصون على كثبان يبرينا
وخرد[1] من بنات الروم رائعة ... يحكين بالحسن حور الجنة العينا

(١) الخرد: الخريدة: والخريد والخرود من النساء البكر التى لم تمس.

يغمزننى بأساريع منعمة تكاد تعقد من أطرافها لينا
يردْن إحياء ميت لا حراك به وكيف يحيين ميتًا صار مدفونا
قالوا أنينك طول الليل يُسْهرُنا فما الذى تشتكى؟ قلت الثمانينا

وهذه الحالة هى الغالبة، فإن الإنسان لا يكاد يجتمع له كل ما يحبه إلا عند قرب رحيله، فإن بدر ما يحب فى بداية شبابه فالصبوة مانعة من فهم التدابير فى الالتذاذ، والإنسان فى حالة الصبوة لا يدرى أين هو إلا أن يبلغ، فإذا بلغ كانت همته فى المنكوح كيف اتفق، وإن تزوج جاء الأولاد فمنعوه اللذة، وانكسر فى نفسه، وافتقر إلى الكسب عليهم، فبينما هو قد دعك فى تلك المديدة القريبة الثلاثين وخطه الشيب؛ فانفرق[1] من نفسه لعلمه أن النساء ينفرقن منه كما قال ابن المعتز بالله:

لقد أتعبت نفسى فى مشيبى فكيف تحبنى الخرد الكعاب

فإذا فهم المتمتع بالمستحسنات، وخرج عن طلب صورة النكاح، لم يجد ما لا يبلغ به المراد، فإن كسب ضاع زمن تمتعه، وإذا تم المطلوب فالشيب أقبح قذى وأعظم مبغض.

ثم إن صاحب المال هو خائف على ماله، محاسب لمعامليه، مذموم إن أسرف وإن قتر، ولده يرصد موته، وجاريته قد لا ترضى بشخصه، وهو مشغول بحفظ حواشيه، فقد مضى زمانه فى محن، واللذات فيها خلس معتادة لا لذة فيها، ثم فى القيامة يحشر الأمير والتاجر إلا من عصم الله - فإياك إياك أن تنظر إلى صورة نعيمهم فإنك تستطيبه لبعده عنك، ولو قد نلته برد عندك، ثم فى ضمنه من محن الدنيا والآخرة ما لا يوصف فعليك بالقناعة مهما أمكن، ففيها سلامة الدنيا والدين.

وقد قِيل لبعض الزهاد -وعنده خبز يابس- كيف تشتهى هذا؟ فقال: أتركه حتى أشتهيه.

(١) انفرق: انفصل، وتبددا فتلاقا.

١٥٩- فـصـل - وقع بينـى وبين أرباب الولايات نوع مـعـاداة لأجل المذهب؛ فإنى كنت فى مـجلس التذكير أنظر أن القـرآن كلام الله وأنه قديم، وأقـدم أبا بكر، واتفق فى أرباب الولايات من يميل إلى مـذهب الأشعـرى، وفيـهم من يميل إلى مذهب الروافض، وتمالؤوا علىّ فى الباطن، فـقلت يومًا فى مناجاتى للحق سبحانه وتعالى: سـيدى نواصى الكل بيدك، وما فيهم من يقدر لى عـلى ضرٍّ إلا أن تجريه علـى يده، وأنت قلت سبـحانك: ﴿وَمَا هُم بِضَارِّينَ بِهِ مِنْ أَحَدٍ إِلاَّ بِإِذْنِ اللَّهِ﴾[١] وطيبت قلبى المبتلى بقولك: ﴿قُل لَّن يُصِيبَنَا إِلاَّ مَا كَتَبَ اللَّهُ لَنَا﴾[٢] فإن أجريت على أيدى بعضهم ما يوجب خذلانى كان خوفى على مـا نصرته أكثر من خـوفى على نفسى، لئلا يقـال: لو كان على حق ما خذل.

وإن نظرت إلى تقصيرى وذنوبى فإنى مستحق للخذلان، غير أنى أعيش بما نصرته من السنة، فأدخلنى فى خفارتك[٣]، وقد استودعنى إياك خلق من صالحى عـبادك، فإن لم تحفظنى بى فـاحفظنى بهم، سيدى انصـرنى على ما عادانى، فإنهم لا يعرفونك كمـا ينبغى، وهم معرضون عنك على كل حال، وأنا على تقصيرى إليك أنسب.

١٦٠- فصل - روى عن الحلاج الصوفى أنه كان يقعد فى الشمس فى الحر الشديد وعـرقه يسيل، فجـاز بعض العقلاء فقال: يـا أحمق هذا تقاوى على الله تعـالى. وما أحـسن مـا قال هذا! فـإنه مـا وضع التكليف إلا على خلاف الأغـراض، وقد يخرج صاحـبه إلى أن يعجـز عن الصبر. فـالجاهل الأحمـق من تقاوى ويسـأل البلاء، كـما قـال ذلك الأبله: فكيف ما شـئت فاختبرنى!.

١٦١- فصل - والسعيـد من ذل وسأل العافية، فإنه لا يوهب العـافية

---

(١) سورة البقرة: ١٠٢.

(٢) سورة التوبة: ٥١.

(٣) خفارتك: حمايتك.

على الإطلاق فلابد من بلاء، فلا يزال العاقل يسأل العافية لتغلب على جمهور أحواله فيقرب الصبر على يسير البلاء. وفي الجملة ينبغي للإنسان أن يعلم أنه لا سبيل إلى محبوباته، ففي كل جرعة غصص، وفي كل لقمة شجا[١].

وكم من يعشق الدنيا قديمًا ولكن لا سبيل إلى الوصال

وعلى الحقيقة ما الصبر إلا على الأقدار، وقل أن تجرى الأقدار إلا على خلاف مراد النفس! فالعاقل من دارى نفسه في الصبر بوعد الأجر، وتسهيل الأمر، ليذهب زمان البلاء سالمًا من شكوى، ثم يستغيث بالله تعالى سائلاً العافية، فأما المتجلد فما عرف الله قط. نعوذ بالله من الجهل به، ونسأله عرفانه، إنه كريم مجيب.

١٦٢- فصل- الجادة السليمة والطريق القويمة، الاقتداء بصاحب الشرع، والبدار[٢] إلى الاستنان به، فهو الكامل الذي لا نقص فيه.

فإن خلقًا كثيرًا انحرفوا إلى جادة الزهد، وحملوا أنفسهم فوق الجهد، فأفاقوا في أواخر العمر، والبدن قد نهك، وفاتت أمور مهمة من العلم وغيره.

وإن أقوامًا انحرفوا إلى صورة العلم فبالغوا في طلبه، فأفاقوا في أواخر قدم، وقد فاتهم العمل به.

فطريق المصطفى -ﷺ- العلم والعمل، والتلطف بالبدن، كما أوصى عبد الله بن عمرو بن العاص وقال له: «**إن لنفسك عليك حقًا، ولزوجك عليك حقًا**»[٣] فهذه هي الطريق الوسطى الفصل.

فأما اليبس المجرد، فكم فَوَّت من علم -لو حصل- نيل به أكثر مما نيل بالعمل، فإن مثل العالم كرجل يعرف الطريق، والعابد جاهل بها فيمشي

---

(١) شجا: حزن.
(٢) البدار: الإسراع.
(٣) صحيح: وقد تقدم.

العابد من الفجر إلى العصر، ويقوم العالم قبيل العصر فيلتقيان، وقد سبق العالم فضل شوطه، فإن قال قائل: بين لى هذا، قلت: صورة التعبد خدمة لله تعالى، وذل له، وربما لم يطلع العابد على معنى تلك الصورة، لأنه ربما ظن أنه أهل لوجود الكرامة على يده، وأنه مستحق تقبيل يده، أو أنه خير من كثير من الناس، وذلك كله لقلة العلم، وأعنى بالعلم فهم أصول العلم، لا كثرة الرواية ومطالعة مسائل الخلاف، فإذا طالع العالم الأصولى، سبق هذا العابد بحسن خلق، ومداراة للناس، وتواضعه فى نفسه، وإرشاده الخلق إلى الله تعالى، فيعثر على هذا العابد، وهو فى ليل جهله بالحال راقد.

ربما تزوج العابد ثم حمل نفسه على التجفف فحبس زوجته عن مطلوبها ولم يطلقها، وصار كالتى حبست الهرة فلا هى أطعمتها ولا هى أرسلتها تأكل من خشاش الأرض.

ومن تأمل حالة الرسول -ﷺ-، رأى كاملاً من الخلق يعطى كل ذى حق حقه فتارة يمزح، وتارة يضحك، ويداعب الأطفال، ويسمع الشعر، ويتكلم بالمعاريض، ويحسن معاشرة النساء، ويأكل ما قدر عليه وفتح له، وإن كان لذيذاً كالعسل، ويستعذب له الماء، ويفرش له فى الظل، ولم ينكر ذلك ولم يُسمع عنه بمثل ما حدث بعده من جهال المتصوفة والمتزهدين، من منع النفس شهواتها على الإطلاق، فقد كان يأكل البطيخ بالرطب، ويقبل، ويمص اللسان، ويطلب المستحسنات.

فأما أكل خبز الشعير ووزن المأكول، وتجفيف البدن، وهجر كل مشتهى فإنه تعذيب للنفس، وهدم للبدن، لا يقتضيه عقل، ولا يمدحه شرع، وإنما اقتنع أقوام بالقليل لأسباب، مثل إن حدثت شبهة فتقللوا، أو اختلط طعام بطعام فتورعوا، ثم كان النبى -ﷺ- يوفى العبادة حقها بقيام الليل والاجتهاد فى الذكر.

فعليك بطريقته التى هى أكمل الطرق وبشرعته التى لا شوب فيها، ودع حديث فلان وفلان من الزهاد، واحمل أمرهم على أحسن محمل، وأقم لهم الأعذار مهما قدرت، فإن لم تجد عذراً فهم محجوجون بفعله، إذ هو قدوة الخلق، وسيد العقلاء.

وهل فسد الناس إلا بالانحراف عن الشريعة! ولقد حدثت آفات من المتصوفة والمتزهدين، خرقوا بها شبكة الشريعة وعبروا، فمنهم من يدعى المحبة والشوق، ولا يعرف المحبوب، فتراه يصيح ويستغيث ويمزق ثيابه ويخرج عن حد الشرع بدعواه مضمونها، ومنهم من حمل على نفسه بالجوع والصوم الدائم وقد صح عن النبى -ﷺ- أنه قال لعبد الله بن عمرو: صم يومًا وأفطر يومًا، فقال: أريد أفضل من ذلك فقال: لا أفضل[1]، وفيهم من خرج إلى السياحة فأفات نفسه الجماعة، وفيهم من دفن كتب العلم وقعد يصلى ويصوم، ولم يعلم أن دفنها خطأ قبيح لأن النفس تغفل وتحتاج إلى التذكير فى كل وقت، ونعم المذكر كتب العلم، وإنما دخل إبليس على كل قوم منهم من حيث قدر، وكان مقصوده بدفن الكتب إطفاء المصباح، ليسير العابد فى الظلمة.

وما أحسن ما قال بعض العلماء لرجل سأله فقال: أريد أن أمضى إلى جبل الآكام، فقال هذه (هو كلة)، وهذه كلمة عامية معناها حب البطالة.

وعلى الحقيقة الزهاد فى مقام الخفافيش، وقد دفنوا أنفسهم بالعزلة عن نفع الناس، وهى حالة حسنة إذا لم تمنع من خير من جماعة، واتباع جنازة، وعيادة مريض، إلا أنها حالة الجبناء، فأما الشجعان فهم يتعلمون ويعلمون، وهى مقامات الأنبياء -عليهم السلام-. أترى كم بين العابد إذ نزلت به حادثة وبين الفقيه؟ بالله لو مال الخلق إلى التعبد لضاعت الشريعة.

على أنه لو فهم التعبد لم يقتصر به على الصلاة والصوم؛ فرب ماش فى حاجة مسلم فضل تعبده ذلك على صوم سنة، والعمل بالبدن سعى الآلات الظاهرة، والعلم سعى الآلات الباطنة من العقل والفكر والفهم، فلذلك كان أشرف. فإن قلت: كيف تذم المعتزلين للشر إلى التعبد؟ قلت: ما أذمهم، بل حدثت منهم حوادث اقتضاها الجهل من الدعاوى والآفات التى

---

(١) صحيح: أخرجه البخارى (١٩٧٦) فى كتاب الصوم، باب: صوم يوم وإفطار يوم، ومسلم (١١٥٩) فى كتاب الصيام، باب: النهى عن صوم الدهر لمن تضرر به.

سببها قلة العلم، وحملوا على أنفسهم التى ليست لهم وعن غير إذن الآمر ما لم يجز، حتى أن أحدهم يرى أن فعل ما يؤذى النفس على الإطلاق فضيلة، حتى قال بعض الحمقى: دخلت الحمام فوجدت غفلة، فآليت أن لا أخرج حتى أسبح كذا وكذا تسبيحة، فطال الأمر فمرضت، وهذا رجل خاطر بنفسه فى فعل ما ليس له.

ومن المتصوفة والزهاد من قنع بصورة اللباس، وركب من الجهل فى الباطن ما لا يسعه كتاب. طهر الله الأرض منهم وأعان العلماء عليهم، فإن أكثر الحمقى معهم، فلو أنكر عالم على أحدهم مال العوام على العالم بقوة الجهل، ولقد رأيت كثيراً من المتعبدين، وهو فى مقام العجائز يسبح تسبيحات لا يجوز النطق بها. ويفعل فى صلاته ما لم ترد به السنة، ولقد دخلت يومًا على بعض من كان يتعبد، وقد أقام إمامًا، وهو خلفه فى جماعة يصلى بهم صلاة الضحى ويجهر، فقلت لهم: إن النبى -ﷺ- قال: «صلاة النهار عجماء»[1]، فغضب ذلك الزاهد وقال: كم ينكر هذا علينا! وقد دخل فلان وأنكر وفلان وأنكر، نحن نرفع أصواتنا حتى لا ننام، فقلت: واعجبًا ومن قال لكم لا تناموا، أليس فى الصحيحين من حديث ابن عمرو أن النبى -ﷺ- قال له: «قم ونم»[2] وقد كان رسول الله -ﷺ- ينام، ولعله ما مضت عليه ليلة إلا ونام فيها.

ولقد شاهدت رجلاً كان يقال له حسين القزوينى بجامع المنصور وهو يمشى فى الجامع مشيًا كثيراً دائمًا، فسألت ما السبب فى هذا المشى؟ فقيل لى: حتى لا ينام.

وهذه كلها حماقات أوجبها قلة العلم، لأنه إذا لم تأخذ النفس حظها من النوم اختلط العقل، وفات المراد من التعبد لبعد الفهم.

ولقد حدثنى بعض الصالحين المجاورين بجامع المنصور أن رجلاً اسمه

(١) قلت: ليس بحديث، بل هو قول للفقهاء، وانظر «كشف الخفاء» للعجلونى (٢/ ٢٨).
(٢) صحيح: وقد تقدم قريبًا.

(كثير) دخل عليهم الجامع فقال: إنى عاهدت الله على أمر ونقضته، وقد جعلت عقوبتى لنفسى أن لا آكل شيئًا أربعين يومًا. قال. فمكث منها عشرة أيام قريب الحال يصلى فى جماعة، ثم فى العشر الثانى بان ضعفه، وكان يدارى الأمر، ثم صار فى العشر الثالث يصلى قاعداً، ثم استطرح فى العشر الرابع، فلما تمت الأربعون جىء بنقوع فشربه فسمعنا صوته فى حلقه مثل ما يقع الماء على المقلا، ثم مات بعد أيام. فقلت: ياالله العجب، انظروا ما فعل الجهل بأهله، ظاهر هذا أنه فى النار، إلا أن يُعفى عنه.

ولو فهم العلم وسأل العلماء، لعرّفُوه أنه يجب عليه أن يأكل، وأن ما فعله بنفسه حرام، ولكن من أعظم الجهل استبداد الإنسان بعلمه.

وكل هذه الحوادث نشأت قليلاً قليلاً حتى تمكنت. فأما الشرب الأول فلم يكن فيه من هذا شىء، وما كانت الصحابة تفعل شيئًا من هذه الأشياء، وقد كانوا يؤثرون ويأكلون دون الشبع، ويصبرون إذا لم يجدوا.

فمن أراد الاقتداء فعليه برسول الله -ﷺ- وأصحابه، ففى ذلك الشفاء والمطلوب، ولا ينبغى أن يخلد العاقل إلى تقليد معظم شاع اسمه، فيقول: قال أبو يزيد، وقال الثورى، فإن المقلد أعمى، وكم قد رأينا أعمى يأنف من حمل عصا. فمن فهم هذا المشار إليه طلب الأفضل والأعلى، والله الموفق.

١٦٣- **فصل**- تأملت الدخل الذى دخل فى ديننا فى العلم والعمل فرأيته من طريقين: قد تقدما هذا الدين وأنس بهما.

فأما أصل الدخل فى العلم والاعتقاد فمن الفلسفة، وهو أن خلقًا من العلماء فى ديننا لم يقنعوا بما قنع به رسول الله -ﷺ- من الانعكاف على الكتاب والسنة، فأوغلوا فى النظر فى مذاهب أهل الفلسفة وخاضوا فى الكلام الذى حملهم على مذاهب ردية أفسدوا بها العقائد.

وأما أصل الدخل فى باب العمل فمن الرهبانية، فإن خلقًا من المتزهدين أخذوا عن الرهبان طريق التقشف ولم ينظروا فى سير نبينا -ﷺ- وأصحابه،

وسمعوا ذم الدنيا وما فهموا المقصود، فاجتمع لهم الإعراض عن علم شرعنا مع سوء الفهم للمقصود، فحدثت منهم بدع قبيحة.

فأول ما ابتدأ به إبليس أنه أمرهم بالإعراض عن العلم، فدفنوا كتبهم وغسلوها، وألزمهم زاوية التبعد فيما زعم، وأظهر لهم من الخزعبلات ما أوجب إقبال العوام عليهم فجعل إلههم هواهم، ولو علموا أنهم منذ دفنوا كتبهم وفارقوا العلم انطفأ مصباحهم ما فعلوا، لكن إبليس دقيق المنقب وفى دفين تحت الأرض، وبالعلم يُعلم فساد الطريقين ويُهتدى إلى الأصوب: نسأل الله عز وجل أن لا يحرمنا إياه فإنه النور فى الظلم، والأنيس فى الوحدة، والوزير عند الحادثة.

١٦٤- فصل- أعوذ بالله من صحبة البطالين. لقد رأيت خلقًا كثيرًا يجرون معى فيما قد اعتاده الناس من كثرة الزيارة، ويسمون ذلك التردد خدمة، ويطلبون الجلوس ويجرون فيه أحاديث الناس وما لا يعنى، ويتخلله غيبة، وهذا شىء يفعله فى زماننا كثير من الناس، وربما طلبه المزور وتشوق إليه واستوحش من الوحدة، وخصوصًا فى أيام التهانى والأعياد، فتراهم يمشى بعضهم إلى بعض، ولا يقتصرون على الهناء والسلام بل يمزجون ذلك بما ذكرته من تضييع الزمان.

فلما رأيت أن الزمان أشرف شىء، والواجب انتهاؤه بفعل الخير كرهت ذلك وبقيت معهم بين أمرين: إن أنكرت عليهم وقعت وحشة لموضع قطع المألوف، وإن تقبلته منهم ضاع الزمان، فصرت أدافع باللقاء جهدى، فإذا غلبت قصرت فى الكلام لأتعجل الفراق، ثم أعددت أعمالاً تمنع من المحادثة لأوقات لقائهم لئلا يمضى الزمان فارغًا، فجعلت من المستعد للقائهم قطع الكاغد[1] وبرى الأقلام، وحزم الدفاتر، فإن هذه الأشياء لابد منها، ولا تحتاج إلى فكر وحضور قلب، فأرصدتها لأوقات زيارتهم، لئلا يضيع شىء من وقتى.

(١) الكاغد: القرطاس.

نسأل الله عز وجل أن يعرفنا شرف أوقات العمر، وأن يوفقنا لاغتنامه.

ولقد شاهدت خلقًا كثيرًا لا يعرفون معنى الحياة، فمنهم من أغناه الله عن الكسب بكثرة ماله، فهو يقعد في السوق أكثر النهار ينظر إلى الناس، وكم تمر به من آفة ومنكر. ومنهم من يخلو بلعب الشطرنج، ومنهم من يقطع الزمان بكثرة الحوادث من السلاطين والغلاء والرخص إلى غير ذلك، فعلمت أن الله تعالى لم يطلع على شرف العمر ومعرفة قدر أوقات العافية إلا من وفقه وألهمه اغتنام ذلك: ﴿وَمَا يُلَقَّاهَا إِلاَّ ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ﴾[1].

١٦٥- فصل - رأيت من الرأى القويم أن نفع التصانيف أكثر من نفع التعليم بالمشافهة، لأنى أشافه فى عمرى عددًا من المتعلمين وأشافه بتصنيفى خلقًا لا تُحصى ما خلقوا بعد، ودليل هذا أن انتفاع الناس بتصانيف المتقدمين أكثر من انتفاعهم بما يستفيدونه من مشائخهم.

فينبغى للعالم أن يتوفر على التصانيف إن وفق للتصنيف المفيد، فإنه ليس كل من صنف صنف، وليس المقصود جمع شيء كيف كان، وإنما هى أسرار يطلع الله عز وجل عليها من عباده ويوفقه لكشفها، فيجمع ما فرق أو يرتب ما شتت، أو يشرح ما أهمل، هذا هو التصنيف المفيد.

وينبغى اغتنام التصنيف فى وسط العمر. لأن أوائل العمر زمن الطلب، وآخره كلال الحواس، وربما خان الفهم والعقل من قدر عمره، وإنما يكون التقدير على العادات الغالبة، لا أنه يعلم الغيب فيكون زمان الطلب والحفظ والتشاغل إلى الأربعين، ثم يبتدئ بعد الأربعين بالتصانيف والتعليم. هذا إذا كان قد بلغ ما يريد من الجمع والحفظ، وأعين على تحصيل المطالب.

فأما إذا قَلَّت الآلات عنده من الكتب، أو كان فى أول عمره ضعيف الطلب فلم ينل ما يريده فى هذا الأوان، أخَّر التصانيف إلى تمام خمسين سنة، ثم ابتدأ بعد الخمسين فى التصنيف والتعليم إلى رأس الستين، ثم يزيد

---

(١) سورة فصلت: ٣٥.

فيما بعد الستين فى التـعليم ويسمع الحديث والعلم، ويعلل التصانيف إلى أن يقطع منهم إلى رأس السـبعين، فإذا جـاوز السبعـين جعل الغالب عليـه ذكر الآخرة والتهـيؤ للرحيل، فيـوفر نفسه على نفـسه إلا من تعليم يحتـسبه، أو تصنيف يفتقر إليه، فذلك أشرف العدد للآخرة.

ولتكن همتـه فى تنظيف نفسه وتهـذيب خلاله، والمبالغة فى اسـتدراك زلاته، فإن اختطف فى خـلال ما ذكرنا فنية المؤمن خـير من عمله، وإن بلغ إلى هذه المنازل فقد بينا ما يصلح لكل منزل .

وقد قال سفيان الثورى: من بلغ سن رسول الله -ﷺ- فليتخذ لنفسه كفنًا. وقد بلغ جماعة من العلماء سبعًا وسبعين سنة، منهم أحمد بن حنبل. فإن بلغها فليعلم أنه على شفيـر القبر، وأن كل يوم يأتى بعدها مستطرف فإن تمت له الثمانون فليجعل همته كلها مصروفة إلى تنظيف خلاله، وتهيئة زاده، وليجعل الاستغفار حليفه، والذكـر أليفه، وليدقق فى محاسبة النفس فى بذل العلم، أو مخالطة الخلق، فإن قرب الاستعراض للجيش يوجب عليهم الحذر من العارض، وليبالغ فى إبقاء أثره قبل رحيله، مثل بث علمه، وإنفاق كتبه، وشىء من ماله. وبعد فمن تولاه الله عز وجل علّمه، ومن أراد ألهمه. نسأل الله عز وجل أن ينعم علينا بأن يتولانا ولا يتولى عنا إنه قريب مجيب.

١٦٦- فصل- رأيت عادات الناس قـد غلبت على عملـهم بالشرع، فهم يستوحشون من فـعل الشىء لعدم جريان العادة لا لنهى الشرع! فكم من رجل يوصف بالخير يبيع ويـشترى، فإذا حصلت له القراضة باعـها بالصحيح من غير تقليد لإمام، أو عمل برخصة عادة من القـوم واستثقالاً للاستفتاء ، ونرى خلقًا يحافظون على صلاة الرغائب ويتوانون عن الفرائض.

وكثيرًا من المتصوفين لا يستوحشون من ظلم الناس، ثم يتصدقون على الفقراء، وربما توانوا عن إخراج الزكاة، وتكاسلوا باستـعمال التأويلات فيها، ثم إذا حضر أحـدهم مجلس وعظ بكى كأنه يصـانع بتلك الحال، ومنهم من يخرج بعض الزكاة مـصانعة عما لم يخرجـه، ومنهم من يعلم أن أصل ماله

حرام، ويصعب عليه فراقه للعادة، وفيهم من يحلف بالطلاق ويحنث ويرى الفراق صعبًا، فربما تأول وربما تكاسل عن التأويل اتكالاً على عفو الله تعالى، ووعداً من النفس بالتوبة، ومنهم من يرى أن استعمال الشرع ربما كان سببًا فى تضييق معاشه، وقد ألف التفسح فلا يسهل عليه فراق ما قد ألف، والعادات فى الجملة هى المهلكة.

ولقد حضر عندى رجل شيخ ابن ثمانين سنة، فاشتريت منه دكانًا وعقدت معه العقد، فلما افترقنا غدر بعد أيام، فطلبت منه الحضورعند الحاكم فأبى، فأحضرته فحلف باليمين الغموس أنه ما بعته، فقلت ما تدور عليه السنة، وأخذ يبرطل لمن يحول بينى وبينه من الظلمة، فرأيت من العوام من قد غلبت عليه العادات فلا يلتفت معها إلى قول فقيه، ويقول هذا ما قبض الثمن فكيف يصح البيع؟ وآخر يقول: كيف يجوز لك أن تأخذ دكانه بغير رضاه؟ وآخر يقول : يجب عليك أن تقيله البيع، فلما لم أقله أخذ هو وأقاربه يأخذون عرضى، ورأى: أنه يحامى عن ملكه، ثم سعى بى إلى السلطان سعاية يحرض فيها من الكذب ما أدهشنى، ويبرطل مالاً لخلق من الظلمة، فبالغوا وسعوا، إلا أن الله تعالى نجانى من شرهم. ثم إنى أقمت عليه البينة عند الحاكم، فقال بعض أرباب الدنيا للحاكم: لا تحكم له، فوقف عن الحكم بعد ثبوت البينة عنده، فرأيت من هذا الحاكم ومن حاكم آخر أعلى منه من ترك إنفاذ الحق حفظًا لرياستهم ما هَوَّن عندى ما فعله ذلك الشيخ حفظًا لماله؛ لجهله وعلم هؤلاء.

فينحل لى من الأمر أن العادات غلبت على الناس، وأن الشرع أعرض عنه، وإن وقعت موافقة للشرع فكما اتفق أو لأجل العادة، فإن الإنسان لو ضرب بالسياط ما أفطر فى رمضان عادة قد استمرت، ويأخذ أعراض الناس وأموالهم عادة، فكم قد رأيت هذا الشيخ يصلى ويحافظ على الصلاة، ثم لما خاف فوت غرضه ترك الشرع جانبًا، وكم قد رأيت أولئك الحكام يتعبدون ويطلبون العلم؛ غير أنهم لما خافوا على رياستهم أن تزول تركوا جانب الدين.

ثم إن الله تعالى نصرنى عليه وتقدم إلى الحاكم بإنفاذ ما ثبت عنده، ودارت السنة فمات الشيخ على قل. فنسأله عز وجل التوفيق للانقياد لشرعه ومخالفة أهوائنا.

١٦٧- **فصل**- ما أعرف للعالم قط لذة ولا عزًّا ولا شرفًا ولا راحة ولا سلامة أفضل من العزلة، فإنه ينال بها سلامة بدنه ودينه وجاهه عند الله عز وجل وعند الخلق، لأن الخلق يهون عليهم من يخالطهم، ولا يعظم عندهم قول المخالط لهم، ولهذا عظم قدر الخلفاء لاحتجابهم، وإذا رأى العوام أحد العلماء مترخصًا فى أمر مباح هان عندهم، فالواجب عليه صيانة علمه وإقامة قدر العلم عندهم، فقد قال بعض السلف: كنا نمزح ونضحك، فإذا صرنا يقتدى بنا فما أراه يسعنا ذلك.

وقال سفيان الثورى: تعلموا هذا العلم واكظموا عليه، ولا تخلطوه بهزل فتمجه القلوب، فمراعاة الناس لا ينبغى أن تنكر.

وقد قال -ﷺ- لعائشة: «**لولا حِدْثانُ قومِك بالكُفْرِ لنقضتُ الكعبة وجعلتُ لها بابين**»(١).

وقال أحمد بن حنبل فى الركعتين قبل المغرب: رأيت الناس يكرهونها فتركتها، ولا تسمع من جاهل يرى مثل هذه الأشياء رياء، إنما هذه صيانة للعلم.

وبيان هذا أنه لو خرج العالم إلى الناس مكشوف الرأس أو فى يده كسرة يأكلها قل عندهم وإن كان مباحًا، فيصير بمثابة تخليط الطبيب الآمر بالحمية، فلا ينبغى للعالم أن ينبسط عند العوام حفظًا لهم، ومتى أراد مباحًا فليستتر به عنهم، وهذا القدر الذى لاحظه أبو عبيدة حين رأى عمر بن الخطاب -رضي الله عنه- قد قدم الشام راكبًا على حمار ورجلاه من جانب، فقال: يا أمير المؤمنين يتلقاك عظماء الناس، فما أحسن ما لاحظ! إلا أن عمر -رضي الله عنه-

(١) صحيح: أخرجه البخارى (١٥٨٦) فى كتاب الحج، باب: فضل مكة وبنيانها، ومسلم (١٣٣٣) فى كتاب الحج، باب: نقض الكعبة وبنائها.

أراد تأديب أبى عبيدة بحفظ الأصل فقال: إن الله أعزكم بالإسلام فمهما طلبتم العز فى غيره أذلكم.

والمعنى ينبغى أن يكون طلبكم العز بالدين لابصور الأفعال، وإن كانت الصور تلاحظ، فإن الإنسان يخلو فى بيته عريانًا، فإذا خرج إلى الناس لبس ثوبين وعمامة ورداء، ومثل هذا لا يكون تصنعًا ولا ينسب إلى كبر. وقد كان مالك بن أنس يغتسل ويتطيب ويقعد للحديث.

ولا تلتفت يا هذا إلى ما ترى من ذل العلماء على أبواب السلاطين، فإن العزلة أصون للعالم والعلم، وما يخسره العلماء فى ذلك أضعاف ما يربحونه، وقد كان سيد الفقهاء سعيد بن المسيب لايغشى الولاة، وعن قول هذا سكتوا، وهذا فعل الحازم، فإن أردت اللذة والراحة فعليك أيها العالم بقعر بيتك، وكن معتزلاً عن أهلك يطب لك عيشك، واجعل للقاء الأهل وقتًا، فإذا عرفوه تصنعوا للقائك. فكانت المعاشرة بذلك أجود.

وليكن لك بيت فى بيتك تخلو فيه وتحادث سطور كتبك وتجرى فى حلبات فكرك، واحترس من لقاء الخلق وخصوصًا العوام، واجتهد فى كسب يعفك عن الطمع، فهذه نهاية لذة العالم فى الدنيا، وقد قيل لابن المبارك[(١)]: ما لك لا تجالسنا؟ فقال: أنا أذهب فأجالس الصحابة والتابعين، وأشار بذلك إلى أنه ينظر فى كتبه.

ومتى رزق العالم الغنى عن الناس والخلوة، فإن كان له فهم يجلب التصانيف فقد تكاملت لذته، وإن رزق فهمًا يرتقى إلى معاملة الحق ومناجاته فقد تعجل دخول الجنة قبل الممات. نسأل الله عز وجل همة عالية تسمو إلى الكمال، وتوفيقًا لصالح الأعمال، فالسالكون طريق الحق أفراد.

١٦٨- فصل- تأملت أحوال الناس فى حالة علو شأنهم فرأيت أكثر الخلق تبين خسارهم حينئذ فمنهم من بالغ فى المعاصى من الشباب، ومنهم

---

(١) هو: الإمام القدوة، عبد الله بن المبارك المروزى، مولى بنى حنظلة، ثقة ثبت فقيه عالم جواد مجاهد، جمعت فيه خصال الخير، مات سنة ١٨١هـ، وله ٦٣ سنة.

من فرط فى اكتساب العلم، ومنهم من أكثر من الاستمتاع باللذات، حينئذ فكلهم نادم فى حالة الكبر حين فوات الاستدراك لذنوب سلفت، أو قوى ضعفت، أو فضيلة فاتت، فيمضى زمان الكبر فى حسرات، فإن كانت للشيخ إفاقة من ذنوب قد سلفت قال واأسفا على ما جنيت، وإن لم يكن له إفاقة صار متأسفًا على فوات ما كان يلتذ به فأما من أنفق عصر الشباب فى العلم فإنه فى زمن الشيخوخة يحمد جنى ما غرس، ويلتذ بتصنيف ما جمع، ولا يرى ما يفقد من لذات البدن شيئًا بالإضافة إلى ما يناله من لذات العلم، هذا مع وجود لذاته فى الطلب الذى كان تأمل به إدراك المطلوب، وربما كانت تلك الأعمال أطيب مما نيل منها كما قال الشاعر:

أهتز عند تمنى وصلها طربًا ورب أمنية أحلى من الظفر

ولقد تأملت نفسى بالإضافة إلى عشيرتى الذين أنفقوا أعمارهم فى اكتساب الدنيا، وأنفقت زمن الصبوة والشباب فى طلب العلم، فرأيتنى لم يفتنى مما نالوه إلا ما لو حصل لى ندمت عليه، ثم تأملت حالى فإذا عيشى فى الدنيا أجود من عيشهم، وجاهى بين الناس أعلى من جاههم، وما نلته من معرفة العلم لا يقاوم. فقال إبليس: ونسيت تعبك وسهرك. فقلت له: أيها الجاهل، تقطيع الأيدى لا وقوع له عند رؤية يوسف، وما طالت طريق أدت إلى صديق.

جزى الله المسير إليه خيراً وإن ترك المطايا كالمزاد

ولقد كنت فى حلاوة طلبى العلم ألقى من الشدائد ما هو عندى أحلى من العسل لأجل ما أطلب وأرجو. كنت فى زمان الصبا آخذ معى أرغفة يابسة فأخرج فى طلب الحديث، وأقعد على نهر عيسى فلا أقدر على أكلها إلا عند الماء، فكلما أكلت لقمة شربت عليها، وعين همتى لا ترى إلا لذة تحصيل العلم، فأثمر ذلك عندى أنى عرفت بكثرة سماعى للحديث، وآداب سير الرسول -ﷺ- وأحواله وآدابه، وأحوال أصحابه وتابعيهم فصرت فى معرفة طريقه كابن أجود، وأثمر ذلك عندى من المعاملة ما لا يدرك بالعلم، حتى أننى أذكر فى زمان الصبوة ووقت الغلمة والعزبة قدرتى على أشياء

كانت النفس تتوق إليها توقان العطشان إلى الماء الزلال، ولم يمنعنى عنها إلا ما أثمر عندى من العلم من خوف الله عز وجل.

ولولا خطايا لا يخلو منها البشر، لقد كنت أخاف على نفسى من العجب، غير أنه عز وجل صاننى وعلمنى وأطلعنى من أسرار العلم على معرفته، وإيثار الخلوة به، حتى أنه لو حضر معى معروف وبشر لرأيتهما زحمة، ثم عاد فغمسنى فى التقصير والتفريط حتى رأيت أقل الناس خيراً منى، وتارة يوقظنى لقيام الليل ولذة مناجاته، وتارة يحرمنى ذلك مع سلامةبدنى، ولولا بشارة العلم بأن هذا نوع تهذيب وتأديب لخرجت إما إلى العجب عند العمل، وإما إلى اليأس عند البطالة لكن رجائى فى فضله قد عادل خوفى منه، وقد يغلب الرجاء بقوة أسبابه، لأنى رأيته قد ربانى منذ كنت طفلاً، فإن أبى مات وأنا لا أعقل به، والأم لم تلتفت إلى، فركز فى طبعى حب العلم، وما زال يوقعنى على المهم فالمهم، ويحملنى إلى من يحملنى على الأصوب، حتى قوم أمرى وكم قد قصدنى عدو فصده عنى، وإذ رأيته قد نصرنى وبصرنى ودافع عنى ووهب لى قوى رجائى فى المستقبل بما قد رأيت فى الماضى، ولقد تاب على يدى فى مجالس الذكر أكثر من مائتى ألف، وأسلم على يدى أكثر من مائتى نفس، وكم سالت عين متجبر بوعظى لم تكن تسيل، ويحق لمن تلمح هذا الإنعام أن يرجو التمام، وربما لاحت أسباب الخوف بنظرى إلى تقصيرى وزللى.

ولقد جلست يومًا فرأيت حولى أكثر من عشرة آلاف ما فيهم إلا من قد رق قلبه، أو دمعت عينه، فقلت لنفسى: كيف بك إن نجوا وهلكت! فصحت بلسان وجدى: إلهى وسيدى إن قضيت على بالعذاب غداً فلا تعلمهم بعذابى صيانة لكرمك لا لأجلى. لئلا يقولوا عذب من دل عليه. إلهى قد قيل لنبيك -ﷺ-، اقتل ابن أبى المنافق فقال: **«لا يتحدث الناس أن محمداً يقتل أصحابه»**[1].

---

(١) صحيح: أخرجه البخارى (٣٥١٨) فى كتاب المناقب، باب: ما ينهى من دعوى الجاهلية، ومسلم (٢٥٨٤) فى كتاب البر والصلة، باب: نصر الأخ ظالمًا أو مظلومًا من حديث جابر ابن عبد الله -رضي الله عنهما-.

إلهى فاحفظ حسن عقائدهم فى بكرمك أن تعلمهم بعذاب الدليل عليك. حاشاك والله يا رب من تكدير الصافى.

لا تبر عوداً أنت ريشته ... حاشا لبانى الجود أن ينقضا
لا تعطش الزرع الذى نبتَّه ... بصوب إنعامك قد روّضا

١٦٩- فصل- من الأمور التى تخفى على العاقل أن يرى أنه متى لم يكن عنده امرأة أو جارية يهواها هوى شديداً أنه لا يلتذ فى الدنيا، فإذا صور محبوبًا مملوكًا تخايل لذة عظيمة، وإذا كان عنده من لا يميل إليه اعتقد نفسه محرومًا، وهذا الأمر شديد الخفاء، فينبغى أن يوضح، وهو أن المملوك مملوك. ومتى قدر الإنسان على ما يشتهيه مَلَّه ومالَ إلى غيره، تارة لبيان عيوبه التى تكشفها المخالطة، فإنه قد قال الحكماء: العشق العمى عن عيوب المحبوب، وتارة لمكان القدرة عليه، والنفس لا تزال تتطلع إلى ما لا تقدر عليه، ثم لو قدرنا دوام المحبة مع القدرة فإنها قد تكون ولكن ناقصة بمقدار القدرة، وإنما يقويها تجنى المحبوب، فيكون تجنيه كالامتناع، أو امتناع من الموافقة، فإذا صفا فلا بد من أكدار، منها الحذر عليه، ومنها قلة ميله إلى هذا العاشق، وربما تكلف القرب منه بعلم الإنسان بقلة ميل محبوبه إليه بنغص بل يبغض، فإن خاف منه خيانة احتاج إلى حراسته فقويت النُّغَص، وأصلح المقدمات التوسط، وهو اختيار ما تميل النفس إليه ولا يرتقى إلى مقام العشق، فإن العاشق فى عذاب، وإنما يتخايل الفارغ من العشق التذاذ العاشق وليس كذلك، فإنه كما قيل:

وما فى الأرض أشقى من محب ... وإن وجدَ الهوى عذبَ المذاقِ
تراهُ باكيًا فى كل وقت ... مخافة فُرقة أو لاشتياقَ
فيبكى إن نأوا شوقًا إليهمً ... ويَبكى إن دَنوا خَوفَ الفراقَ
فتسخنُ عينُهُ عِندَ التَّدانى ... وتسْخنُ عينُهُ عندَ الفراقِ

١٧٠- فصل- ما ابتلى الإنسان قط بأعظم من علوَ همته، فإن من

علت همته يختـار المعالى، وقد لا يساعد الزمان، وقد تضـعف الآلة، فيبقى فى عذاب.

وإنى أعطيت من علوِّ الهمة طرفًا فـأنا به فى عذاب، ولا أقول ليته لم يكن فإنـه إنما يحلو العيش بقـدر عدم العقـل، والعاقل لا يختـار زيادة اللذة بنقصان العقل.

ولقد رأيت أقوامًا يصفون علو هممهم، فتأملتها فإذا بها فى فن واحد، ولا يبالون بالنقص فيما هو أهم، قال الرضى:

ولكلِّ جـسم فى النحـولِ بليـةٌ وبلاءُ جِسْمِى مِنْ تفاوتِ همَّتى

فنظرتُ فـإذا غايةُ أمله الإمـارة، وكـان أبو مسلم الخـراسانى فى حـال شبـيبتـه لايكاد ينام، فقيل فى ذلك فـقال: ذهن صاف، وهم بعـيد، ونفس تتوق إلى معالى الأمور، مع عيش كعيش الهمج الرعاع، قيل: فما الذى يبرد غليلك(١)؟ قال: الظفر بالملك. قيل: فـاطلبه، قال: لا يطلب إلا بالأهوال، قيل: فاركب الأهوال، قال: العقل مانع، قيل: فما تصنع؟ قال: سأجعل من عقلى جهلاً، وأحاول به خطرًا لا يُنال إلا بالجهل، وأدبِّرُ بالعقل ما لا يحفظ إلا به، فإن الخمول أخو العدم.

فنظرت إلى حال هذا المسكين فإذا به قد ضـيع أهم المهمات وهو جانب الآخرة، وانتصب فى طلب الولايات، فكم فـتك وقتل حتى نال بعض مراده من لذات الدنيا، ثم لم يتنعم فى ذلك من ثمان سنين، ثم اغتيل ونسى تدبير العقل فقتل، ومضى إلى الآخرة على أقبح حال. وكان المتنبى يقول:

وفى الناس من يرضى بميسور عيشة ومـركـوبُهُ رجـلاهُ والثـوبُ جِلْدُهُ
ولكـنَّ قلبًـا بـين جنبى مـالهُ مَـدَى ينتـهى بى فى مـراد أُحَـدِّدُهُ
وجسم له يُـكسى شنوفَ(٢) تربه فـيـخـتـارُ أن يُكسى دُروعًا تُهِـدُّهُ

(١) الغليل: شدة العطش.
(٢) الشنوف: جمع شنف، وهو من حلى الأذن.

فتأملت هذا الآخر فإذا نهمته فيما يتعلق بالدنيا فحسب.

ونظرت إلى علو همتي فرأيتها عجبًا، وذلك أنني أروم من العلم ما أتيقن أني لا أصل إليه، لأنني أحب نيل كل العلوم على اختلاف فنونها، وأريد استقصاء كل فرد، وهذا أمر يعجز العمر عن بعضه، فإن عرض لي همة في فن قد بلغ منتهاه رأيته ناقصًا في غيره، فلا أعد همته تامة، مثل المُحدِّث فاته الفقه، والفقيه فاته علمُ الحديث، فلا أرى الرضا بنقصان من العلوم إلا حادثًا عن نقص الهمة، ثم إني أروم نهاية العمل بالعلم، فأتوق إلى ورع بشر، وزهادة معروف، وهذا مع مطالعة التصانيف وإفادة الخلق ومعاشرتهم بعيد.

ثم إني أروم الغنى عن الخلق، وأستشرف الإفضال عليهم، والاشتغال بالعلم مانع مع الكسب، وقبول المنن مما تأباه الهمة العالية. ثم إني أتوق إلى طلب الأولاد، كما أتوق إلى تحقيق التصانيف، لبقاء الخلفان نائبين عني بعد التلف، وفي طلب ذلك مافيه من شغل القلب المحب للتفرد، ثم إني أروم الاستمتاع بالمستحسنات، وفي ذلك امتناع من جهة قلة المال ثم لو حصل فرَّق جمع الهمة.

وكذلك أطلب لبدني ما يصلحه من المطاعم والمشارب، فإنه متعود للترفه واللطف، وفي قلة المال مانع، وكل ذلك جمع بين أضداد؛ فأين أنا وما وصفته مِنْ حال مَنْ كانت غاية همته الدنيا، وأنا لا أحب أن يخدش حصول شيء من الدنيا وجه ديني بسبب، ولا أن يؤثر في علمي ولا في عملي؛ فواقلقي من طلب قيام الليل، وتحقيق الورع من إعادة العلم، وشغل القلب بالتصانيف، وتحصيل ما يلايم البدن من المطاعم، ووا أسفي على ما يفوتني من المناجاة في الخلوة مع ملاقاة الناس وتعليمهم، ويا كدر الورع مع طلب ما لا بد منه للعائلة. غير أني قد استسلمت لتعذيبي، ولعل تهذيبي في تعذيبي، لأن عليان الهمة تطلب المعالي المقربة إلى الحق عزوجل، وربما كانت الخيرة في الطلب دليلاً إلى المقصود. وها أنا أحفظ أنفاسي من أن يضيع منها نفس في غير فايدة، وأن أبلغ همي مراده، وإلا فنية المؤمن أبلغ من عمله.

١٧١- فصل- لما سطرت هذا الفصل المتقدم، رأيت ادكار النفس بما لابد لها فى الطريق منه، وهو أنه لابد لها من التلطف، فإن قاطع مرحلتين فى مرحلة خليق بأن يقف، فينبغى أن يقطع الطريق بألطف ممكن، وإذا تعبت الرواحل نهض الحادى يغنيها، وأخذ الراحة للجدِّ جدٌّ، وغوص السابح فى طلب الدر صعود، ودوام السير يجسر الإبل، والمَفازة(١) صعبة.

ومن أراد أن يرى التلطف بالنفس فلينظر فى سير الرسول -ﷺ- فإنه كان يتلطف بنفسه، ويمازح ويخالط النساء، ويقبل ويمص اللسان، ويختار المستحسنات ويُستعذب له الماء ويختار الماء البارد، والأوفق من المطاعم كلحم الظهر والذراع والحلوى، وهذا كله رفق بالناقة فى طريق السير.

أما من جرد عليها السوط فإنه يوشك إن لا يقطع الطريق، وقد قال -ﷺ-: **«إن هذا الدين متين فأوغلوا فيه برفق، فإنَّ المُنْبَتّ لا أرْضًا قَطَعَ، ولا ظَهراً أبقَى»**(٢).

واعلم أنه ينبغى للعاقل أن يغالط نفسه فيما يكشف العقل عن عواره، فإن فكر المتيقظ يسبق قبل مباشرة المرأة إلى أنها عناق بجسد يحتوى على قذارة، وقبل بَلع اللقمة أنها متقلبة فى الريق لو أخرجها الإنسان(٣). وفى قرب الموت وما يجرى عليه بعده، لَبغضَ عاجلَ لذته، فلابد من مغالطة تجرى لينتفع الإنسان بعيشه كما قال لبيد:

فأكذبِ النفسَ إذا حدَّثتها ... إن صِدْقَ النفس يُزرى بالأمل

وقال البستى:

أفدْ طبعَكَ المكدودَ بالهمّ راحةً ... تُجمُّ وعَلِّلْهُ بشىء منَ المزحِ
ولكن إذا أعطيتَهُ ذاكَ فليكن ... بمقدارِ ما يُعطى الطعامُ منَ الملحِ

(١) المفازة: الصحراء، سميت بذلك تفاؤلاً باجتيازها.
(٢) ضعيف: أخرجه البزار عن جابر، كما فى «ضعيف الجامع» (٢٠٢٢).
(٣) بياض بالأصل.

وقال أبو على بن الشبل:

وإذا هممتَ فناجِ نفسَكَ بالمُنى ... وَعْداً فخيراتُ الجنان عداتُ
واجعلْ رجاءَكَ دون يأسكَ جنةً ... حتى تزولَ بهمِّكَ الأوقاتُ
واسترْ عن الجلساء بثَّك إنما ... جلساؤك الحُسَّادُ والشمّاتُ
ودع التوقعَ للحوادث إنهُ ... للحيِّ منْ قبلِ المماتِ مماتُ
فالهمُّ ليسَ له ثباتٌ مثلَ ما ... فى أهلهَ ما للسرور ثبَات
لولا مغالطةُ النفوسِ عقولَها ... لم يَصْفُ للمتيقظينَ حياةُ

وقال أيضًا:

بحفظ الجسم تبقى النفس فيه ... بقاءَ النار تحفظُ بالوعاء
فباليأسِ الممضِّ فلا تُمتْها ... ولا تَمْددْ لها طولَ الرجاءَ
وعدْها فى شدائدها رَخاءً ... وذكِّرها الشدائدَ فى الرخاءَ
يُعَدُّ صلاحُها هَذا وهَذا ... وبالتركيب منفعةُ الدواءَ

وقد كان عموم السلف يخضبون الشيب لأن لا يرى الإنسان منهم ما يكره وإن كان الخضاب لا يعدم النفس علمها بذلك، ولكنه نوع مخادعة للنفس، وما زالت ترى الظاهر، وإنما الفكر والعقل مع الغائب، ولابد من مغالطة تجرى ليتم العيش، ولو عمل العامل بمقتضى قصر الأمل ما كتب العلم ولا صنف، فافهم هذا الفصل مع الذى تقدمه، فإن الأول فى مقام العزيمة، وهذا فى مكان الرخصة، ولا بد للتعب من راحة وإعانة، والله عز وجل[1] على قدر صدق الطلب، وقوة اللجا، وخلع الحول والقوة، وهو الموفق.

١٧٢- فصل- فى تعليم التدبير، قوام الآدمى بشيئين الحرارة والرطوبة، ومن شأن الحرارة أن تحلل الرطوبة وتفنيها.

فالآدمى محتاج إلى تحصيل خَلَف المتحلل، فأبدان النشء تغتذى بأكثر

(١) لعل هناك سقط، وهو: لعل الله عز وجل يعين على.

مما يتحلل منها، والأبدان المتناهية تغتذى بمقدار ما يتحلل منها، والأبدان التى قد أخذت فى الهـرم يتحلل منها أكثـر مما تغتذى به، فينبغى لـلنشو البالغ أن يتحفظ فى النكاح، لأنه يربى قاعدة قـوة يجد آثرها فى الكبر، وأما المتوسط والواقف السن فينبغى أن يحـذر فضول الجماع، فإن حصل لـه مثل ما يخرج منه أسرف، فاللازم أخذ من الحاصل، ويوشـك أن يسرع النفاد، وأما الشيخ فترك النكاح كاللازم له، وخـصوصًا إذا زاد علو السن، لأنه ينفق من الجوهر الذى لايحصل مثله أبدًا.

ثم ينبغى أن ينظر العاقل فى ماله فيـكتسب أكثر مما ينفق ليكون الفاضل مدخرًا لوقت العجز، وليحذر السرف، فإن العدل هو الأصلح.

ثم ينظر فى الزوجـة، والمطلوب منهـا شيـئـان: وجود الولد، وتدبيـر المنزل، فإذا كانت مبذرة فعيب لا يحتـمل، فإن انضمت صفة العقر فلا وجه للإمساك، إلا أن تكون مستحسنة الصـورة، فإن ضم إليها عقل وعفاف حسن الإمساك، وإن كانت مما يحتاج أن تحفظ فتركها لازم.

فأمـا الخدم فليجتـهد فى تحصيل خـادم لا تستعبـده الشهوة، فإن عـبد الشهـوة له مولى غيـر سيده. ولينظر المالك فى طبع المـملوك، فمنهم من لا يأتى إلا على الإكرام فيـكرمه فإنه يربح محبـته، ومنهم من لا يأتى إلا على الإهانة فليداره وليـعرض عن الذنوب، فإن لم يمكن عاتب بلطـف، وليحذر العقـوبة ما أمكن وليـجعل للممـاليك زمن راحة، والعجب ممن يـعنى بدابته وينسى مـداراة جاريته وأجـود المماليك الصـغار، وكذلك الـزوجات، لأنهم متعودون خلق المشترى.

وليحفظ نفسه بالهيبة من الانحراف مع الزوجة، ولا يطلعها على ماله، فإنها سفيهة تطلب كثرة الإنفاق.

وأما تدبير الأولاد فحفظهم من مخالطة تفسد، ومتى كان الصبى ذا أنفة -حييًّا- رجى خيره، وليـحمل على صحبة الأشراف والعلمـاء، وليحذر من مصاحبته للجهال والسـفهاء، فإن الطبع لص وليحذر الصبى من الكذب غاية

التحذير، ومن المخالطة للصبيان، وليوصى بزيادة البر للوالدين، وليحفظ من مخالطة النساء، فإذا بلغ فليزوج بصبية لم تعرف غيره فينتفعان. هذه الإشارة إلى تدبير أمور الدنيا فـأمر تدبير العلم فينبغى أن يحمل الـصبى من حيز يبلغ خمـس سنين على التشـاغل بالقرآن والفـقه وسـماع الحـديث وليحـصل له المحفوظات أكثر من المسموعات، لأن زمان الحفظ إلى خمس عشرة سنة، فإذا بلغ تشـتـتت همتـه، فليـضـرب تارة، ويرشى أخـرى، ليبلـغ وقد حـصّل محفوظات سنية.

وأول ما ينبغى أن يكلف حفظ القرآن مـتقنًا، فإنه يثبت ويختلط باللحم والدم ثم مقدمـة من النحو يعرف بها اللحن، ثم الـفقه مذهبًا وخـلافًا، وما أمكن بعـد هذا من العلوم فـحفظه حـسن، وليـحذر من عـادات أصحـاب الحديث، فـإنهم يفنون الزمان فى سمـاع الأجزاء التى تتكرر فيهـا الأحاديث فيذهب العمـر وما حصلوا فهم شىء، فإذا بلغوا سنًا طلبـوا جواز فتوى، أو قراءة جزء من القرآن، فـعادوا القهقرى، يحفظون بعد كـبر السن فلا يحصل مقصودهم.

فالحـفظ فى الصبـا للمهم من العلم أصل عظيم، وقـد رأينا كثـيراً ممن تشاغل بالمسـموعات وكـتابة الأجـزاء ورأى الحفظ صعـبًا فمـال إلى الأسهل فمـضى عمـره فى ذلك، فلما احـتاج إلى نفســه قعـد يحفظ على كـبر فلم يحصل مقـصوده؛ فاليقظة لفـهم ما ذكرت، وانظر فى الإخلاص، فـما ينفع شىء دونه.

١٧٣- فصل- اشتد الغلاء ببغداد فى أول سنة خمس وسبعين، وكلما جاء الشعـير زاد، فتواقع الناس على اشتـراء الطعام، فاغتبط من يسـتعد كل سنة بزرع ما يقـوته، وفرح من بادر فى أول النيسـان إلى اشتراء الطعـام فإنه يضاعف ثمنه، وأخرج الفقراء ما فى بيوتهم فرموه فى سوق الهوان، وبان ذل نفوس كانت عـزيزة، فقلت يا نفس خذى من هذه الحال إشـارة، ليغبطن من له عمل صالح وقت الحاجة إليه، وليـفرحنّ من له جواب عند إقبال المسألة،

وكل الويل على المفرط الذى لا ينظر فى عاقبته فتنبهى، فقد نبهت ناس الدنيا على أمر الآخرة، وبادرى موسم الزرع ما دامت الروح فى البدن، فالزمان كله تشرين قبل أن يدخل نيسان الحصاد، ومالك زرع، وحاجة المفتقرين إلى أموالهم تمنعهم من الإيثار.

١٧٤- فصل- تأملت حالة أزعجتنى. وهو أن الرجل قد يفعل مع امرأته كل جميل وهى لا تحبه، وكذا يفعل مع صديقه والصديق يبغضه، وقد يتقرب إلى السلطان بكل ما يقدر عليه والسلطان لا يؤثره، فيبقى متحيراً يقول: ما حيلتى، فخفت أن تكون هذه حالتى مع الخالق سبحانه، أتقرب إليه وهو لا يريدنى، وربما يكون قد كتبنى شقيًا فى الأزل، ومن هذا خاف الحسن. فقال: أخاف أن يكون اطلع على بعض ذنوبى فقال: لا غفرت لك، فليس إلا القلق والخوف لعل سفينة الرجا تسلم يوم دخولها الشاطىء من جرف.

١٧٥- فصل- جرى بينى وبين أصحاب الحديث كلام فى قول الإمام أحمد: صح الحديث عن رسول الله -ﷺ- سبعمائة ألف حديث، فقلت له: إنما يعنى به الطرق، فقال: لا المتون، فقلت: هذا بعيد التصور، ثم رأيت لأبى عبد الله الحاكم كلامًا ينصر ما قال ذلك الشخص. وهو أنه قال فى كتاب المدخل إلى كتاب الإكليل: «كيف يجوز أن يقال إن حديث رسول الله -ﷺ- لا يبلغ عشرة آلاف حديث، وقد روى عنه من أصحابه أربعة آلاف رجل وامرأة صحبوه نيفًا وعشرين سنة بمكة ثم بالمدينة حفظوا أقواله وأفعاله، ونومه ويقظته وحركاته وغير ذلك سوى ما حفظوا من أحكام الشريعة. واحتج بقول أحمد: صح الحديث عن رسول الله -ﷺ- سبعمائة ألف حديث وكسر، وإن إسحاق بن راهويه كان يملى سبعين ألف حديث حفظًا، وإن أبا العباس بن عقدة قال: أحفظ لأهل البيت ثلاثمائة ألف حديث قال ابن عقدة: وظهر لابن كريب بالكوفة ثلاثمائة ألف حديث قلت: ولا يحسن أن يشار بهذا إلى المتون، وقد عجبت كيف خفى هذا على الحاكم وهو يعلم أن أجمع المسانيد الظاهرة مسند أحمد بن حنبل وقد طاف الدنيا مرتين حتى حصله، وهو أربعون ألف حديث، منها عشرة آلاف مكررة.

قال حنبل بن إسحاق: جَمَعنا أحمد بن حنبل أنا وصالح وعبد الله وقرأ علينا المسند وقال لنا: هذا كتاب جمعته من أكثر من سبعمائة ألف وخمسين ألفًا، فما اختلف المسلمون فيه من حديث رسول الله -ﷺ- فارجعوا إليه، فإن وجدتموه وإلا فليس بحجة.

أفترى يخفى على متيقظ أنه أراد بكونه جمعه من سبعمائة ألف أنه أراد الطرق، لأن السبعمائة الألف إن كانت من كلام رسول الله -ﷺ- فكيف أهملها فإن قيل فقد أخرج فى مسنده أشياء ضعيفة. ثم أعوذ بالله أن يكون سبعمائة ألف ما تحقق منها سوى ثلاثين ألفًا وكيف ضاعت هذه الجملة، ولم أهملت، وقد وصلت كلها إلى زمن أحمد فانتقى منها ورمى الباقى.

وأصحاب الحديث قد كتبوا كل شىء من الموضوع والكذب، وكذلك قال أبو دواد:(١) جمعت كتاب السنن من ستماية ألف حديث ولا يحسن أن يقال إن الصحابة الذين رووها ماتوا ولم يحدثوا بها التابعين، فإن الأمر قد وصل إلى أحمد فأحصى سبعمائة ألف حديث، وما كان الأمر ليذهب هكذا عاجلاً، ومعلوم أنه لو جمع الصحيح والمحال الموضوع وكل منقول عن رسول الله -ﷺ- ما بلغ خمسين ألفًا، فأين الباقى؟ ولا يجوز أن يقال تلك الأحاديث كلام التابعين، فإن الفقهاء نقلوا مذاهب القوم ودونوها وأخذوا بها. ولا وجه لتركها، ففهم كل ذى لب أن الإشارة إلى الطرق، وأن ما توهَّمه الحاكم فاسد، ولو عرض هذا الاعتراض عليه، وقيل له: فأين الباقى لم يكن له جواب، لكن الفهم عزيز. والله المنعم بالتوفيق.

ومثل هذا تغفيل قوم قالوا: إن البخارى لم يخرج كل ما صح عنده، وإن ما أخرج كالأنموذج، وإلا فكان يطول، وقد ذهب إلى نحو هذا أبو بكر الإسماعيلى.

---

(١) هو: سليمان بن الأشعث السجستانى، أبو داود، صاحب السنن المعروفة باسمه وغيرها، من كبار العلماء، مات سنة ٢٧٥هـ.

وحكى عن البخارى[١] أنه قال: ما تركت من الصحيح أكثر، وإنما يعنى الطرق، يدل على ما قلته أن الدارقطنى[٢] -وهو سيد الحفاظ- جمع ما يلزم البخارى ومسلم[٣] إخراجه ما لم يذكراه أحاديث يسيرة، ولو كان كما قالوا، لأخرج مجلدات، ثم قوله: ما يلزم البخارى دليل صريح على ماقلته، لأنه من أخرج الأنموذج لا يلزمه شىء.

وكذلك أخرج أبو عبد الله الحاكم[٤] كتابًا جمع فيه ما يلزم البخارى إخراجه فذكر حديث الطائر فلم يلتفت الحفاظ إلى ما قال، فما أقل فهم هؤلاء الذين شغلهم الحديث من التدقيق الذى لا يلزم فى صحة الحديث، وإنما وقع لقلة الفقه والفهم.

إن البخارى ومسلم تركا أحاديث أقوام ثقات لأنهم خولفوا فى الحديث، فنقص الأكثرون من الحديث وزادوهم ولو كان ثم فقه لعلموا أن الزيادة من الثقة مقبولة، وتركوا أحاديث أقوام لأنهم انفردوا بالرواية عن شخص، ومعلوم أن انفراد الثقة لاعيب فيه، وتركوا من ذلك الغرائب، وكل ذلك سوء فهم. ولهذا لم يلتزم الفقهاء هذا، وقالوا: الزيادة من الثقة مقبولة ولا يقبل القدح حتى يبين سببه، وكل من لم يخالط الفقهاء وجهد مع المحدثين تأذى وساء فهمه، فالحمد لله الذى أنعم علينا بالحالتين.

١٧٦- فصل- اعلم أن الله عز وجل وضع فى النفوس أشياء لا تحتاج إلى دليل، فالنفوس تعلمها ضرورة، وأكثر الخلق لا يحسنون التعبير عنها،

---

(١) هو: جبل الحفظ، محمد بن إسماعيل الجعفى، أبو عبد الله البخارى، صاحب أصح كتاب بعد كتاب الله، مات سنة ٢٥٦هـ، وله ٦٢ سنة.

(٢) هو: علم الجهابذة، أبو الحسن، على بن عمر البغدادى المقرئ المحدث، من محلة دار القطن ببغداد، صاحب كتاب السنن المعروفة باسمه وغير ذلك، مات سنة ٣٨٥هـ.

(٣) هو: مسلم بن الحجاج بن مسلم القشيرى، النيسابورى، صاحب الصحيح المعروف باسمه، إمام مصنف عالم بالفقه، مات سنة ٢٦١هـ، وله ٥٧ سنة.

(٤) هو: شيخ المحدثين، محمد بن عبد الله بن محمد بن حمدويه، أبو عبد الله الضبى الطهمانى النيسابورى، صاحب المستدرك، وغير ذلك، من شيوخه الدارقطنى، مات سنة ٤٠٥هـ.

فـإنه وضع فى النفس أن المصنوع لابـد له من صانـع، وأن المبنى لابد له من بان، وأن الاثنين أكثر من الواحـد، وأن الجسم الواحد لايكون فى مكانين فى حالة واحـدة، ومثل هذه الأشـياء لا تحـتاج إلى دليل، وألهم العـرب النطق بالصـواب من غيـر لحن، فهم يفـرقون بين المرفـوع والمنصوب بأمـارات فى جبلتهم، وإن عجزوا عن النطق بالعلة.

قال عثـمان بن جنى:(١) سألت يومًا أبا عـبد الله محمـد بن العساف العقيـلى فقلت له: كيف تقول ضـربت أخوك؟ فقال: أقـول ضربت أخاك، فـأدرته على الرفع فـأبى. وقال: لا أقـول أخوك أبـدًا، قال: فكيف تقـول ضربنى أخوك، فرفع، فقلت: أليس زعـمت أنك لا تقول أخوك أبدًا؟ فقال: ايش هذا، اختـلفت جهتـها فى الكلام، وهذا أدل شىء على تأملـهم مواقع الكلام، وإعطائهم إياه فى كل موضع حقه، وأنه ليس استرسالاً ولا ترخيمًا.

قال عـثمـان: واللغة هى أصوات يعـبر بهـا كل قوم عن أغـراضهم، والنحو انتـحاء سمـعت كلام العرب فى تصـرفه من إعراب وغـيره كالتـثنية والجمع والتصغير والتكسير وغير ذلك ليحلق من ليس من أهل اللغة أهلها.

(١) هو: إمام العربية، أبو الفتح، عثمان بن جنى الموصلى، لزم أبا على الفارسى دهرًا وسافر معه حتى برع وصنف، وسكن بغداد، مات سنة ٣٩٢هـ.

الاجتهاد فى تحصيل ثواب الآخرة

١٧٧- فصل مفيد - تدبرت أحوال الأخيار والأشرار فرأيت سبب صلاح الأخيار النظر، وسبب فساد الأشرار إهمال النظر.

وذاك أن العاقل ينظر فيعلم أنه لابد له من صانع، وأن طاعته لازمة، ويتأمل معجزات رسول الله -ﷺ- فيسلم قياده إلى الشرع، ثم ينظر فيما يقربه إليه، ويزلفه لديه، فإذا شق عليه إعادة العلم تأمل ثمرته فسهل ذلك، وإذا صعب عليه قيام الليل فكذلك، وإذا رأى مشتهى أمل عاقبته فعلم أن اللذة تفنى والعار والإثم يبقى، فيسهل عليه الترك. وإذا اشتهى الانتقام ممن يؤذيه ذكر ثواب الصبر وندم الغضبان على أفعاله فى حال الغضب، ثم لا يزال يتأمل سرعة مر العمر فيغتنمه بتحصيل أفضل الفضائل فينال مناه.

وأما الغافل فإنه لا يرى إلا الشيء الحاضر، فمنهم من لم يتأمل فى معنى المصنوع وإثبات الصانع فجحدوا وتركوا النظر وجحدوا الرسل وما جاءوا به، ونظروا إلى العاجل، ولم يتفكروا فى مبدأه ومنتهاه فليس عندهم من عرفان المطعم إلا الأكل؛ ولو تأملوا كيف أنشئ ولماذا جعل حافظًا للأبدان لعرفوا حقائق الأمور، وكذلك كل شهوة تعرض لهم لا ينظرون فى عاقبتها بل فى عاجل لذتها، وكم قدجنت عليهم من وقوع حد وقطع يد وفضيحة.

فتعجيل اللذة يفوّت الفضائل، ويحصّل الرذايل، وسببه عدم النظر فى العواقب، وهذا شغل العقل، وذاك المذموم شغل الهوى. نسأل الله عز وجل يقظة ترينا العواقب، وتكشف لنا الفضائل والمعائب، إنه قادر على ذلك.

١٧٨- فصل- خلقت لى همة عالية تطلب الغايات، بلغت السن وما بلغت ما أملت، فأخذت أسأل تطويل العمر، وتقوية البدن، وبلوغ الآمال،

فأنكرت علىّ العـادات وقالت: ما جرت عـادة بما تطلب، فقلت: إنما أطلب من قادر يخـرق العادات، وقـد قيل لرجل: لنا حـويجة فـقال: اطلبـوا لها رجيـلاً. وقيل لآخـر جئناك فى حـاجة لا ترزؤك، فـقـال: هـلا طلبتـم لها سفاسف الناس.

فإذا كان أهل الأنفة من أرباب الدنيا يقولون هذا فلم لا نطمع فى فضل كريم قادر، وقد سألته هذا السؤال فى ربيع الآخر من سنة خمس وسبعين فإن مدَّ لى أجل وبلغت ما أملته نقلت هذا الفصل إلى مـا بعد وبيضته، وأخبرت ببلوغ آمالى، وإن لم يتفق ذلك فسيدى أعلم بالمصالح فإنه لا يمنع بخلاً، ولا حول ولا قوة إلا به.

١٧٩- فصل- مـا أقل من يعمل لله تعـالى خالصًـا لأن أكثـر الناس يحبـون ظهور عبـاداتهم، وسفيـان الثورى كـان يقول: لا أعتـد بما ظهر من عملى. وكانوا يسترون أنفسهم، واليوم ثياب القوم تشهرهم.

وقد كان أيوب السختيانى يطوّل قمـيصه حتى يقع على قدميه، ويقول: كانت الشهرة فى التطويل، واليوم الشهرة فى التقصير.

فـاعلم أن ترك النظر إلى الخلق ومـحـو الجـاه من قلوبهم بالتـعـمل، وإخلاص القصد وستر الحال هو الذى رفع من رفع.

فقد كـان أحمد بن حنبل يمشى حافيًا فـى وقت ونعليه فى يديه ويخرج للّقاط، وبشر يمشى حافيًا على الـدوام وحده، ومعروف يلتقط النوى، واليوم صارت الرياسات أكثر من كل حاجـة، وما تتمكن الرياسات حتى يتمكن من القلب الغفلة، ورؤية الخلق، ونسيان الحق، فـحينئذ تطلب الرياسة على أهل الدنيا.

ولقد رأيت من الناس عـجبًا من يتزيا بالعلم، فـإن رآنى أمشى وحدى أنكر علىَّ، وإن رآنى أزور فقـيرًا عظّم ذلك، وإن رآنى انبسط بتبـسم نقصت من عينه، فقلت: فواعـجبًا هـذه كانـت طريـق الرسـول -ﷺ- والصحابـة -رضي الله عنهم-، فصارت أحـوال الخلق نواميس لإقامة الجاه لا غيـر، فوالله سقطتم

من عين الحق، فأسقطكم من عين الخلق. فكم ممن يتعب فى تربية ناموس ولا يلتفت إليه ولا يحظى بمراده، ويفوته المراد الأكبر.

فالتفتوا إخوانى إلى إصلاح النيات، وترك التزين للخلق، ولتكن عمدتكم الاستقامة مع المالك. فبذلك صعد السلف وسعدوا، وإياكم وما الناس عليه اليوم، فإنه بالإضافة إلى يقظة السلف نوم.

١٨٠- **فصل**- والله ما ينفع تأديب الوالد إذا لم يسبق اختيار الخالق لذلك الولد، فإنه سبحانه إذا أراد شخصًا رباه من طفولته وهداه إلى الصواب، ودله على الرشاد، وحبب إليه ما يصلح، وصحّبه من يصلح، وبغّض إليه ضد ذلك، وقبَّح عنده سفساف الأمور، وعصمه من القبائح، وأخذ بيده كلما عثر.

وإذا أبغض شخصًا تركه دائم التعثير متخبطًا فى كل حال، ولم يخلق له همة لطلب المعالى، وشغله بالرذايل عن الفضائل، وإن قال لم خصّصت بهذا، قال الخطاب الذى لا يُجاب ﴿فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ﴾(١).

١٨١- **فصل**- من أكبر الدليل على وجود الخالق سبحانه أن هذه النفس الناطقة المميزة المحركة للبدن على مقتضى إرادتها، والتى دبرت مصالحها، وترقت إلى معرفة الأفلاك، واكتسبت ما أمكن تحصيله من العلوم، وشاهدت الصانع فى المصنع، فلم يحجبها ستر، وإن تكاثف، ولا يعرف مع هذا ماهيتها ولا كيفيتها ولا جوهرها ولا محلها بأشغالها، ولا يفهم من أين جاءت، ولا يدرى أين تذهب، ولا كيف تعلقت بهذا الجسد.

وهذا كله يوجب عليها أن تؤمن أن لها مدبرًا وخالقًا، وكفى بذلك دليلاً عليه؛ إذ لو كانت وجدت بها لما خفيت أوائلها؛ فسبحانه سبحانه.

١٨٢- **فصل**- سبحان من منّ على الخلق بالعلماء الفقهاء الذين فهموا مقصود الأمر ومراد الشارع. فهم حفظة الشريعة فأحسن الله جزاءهم، وإن الشيطان ليتجافاهم خوفًا منهم، فإنهم يقدرون على أذاه، وهو لايقدر على

---

(١) سورة الشورى: ٣٠.

أذاهم، ولقد تلاعب بأهل الجهل والقليلى الفهم، وكان من أعجب تلاعبه أن حسّن للأقوام ترك العلم، ثم لـم يقنعوا بهذا حتى قدحـوا فى المتشاغلين به، وهذا لو فهـموه قـدح فى الشريعة، فـإن رسول الله -ﷺ- يقول: «**بَلِّغُوا عَنِّى**»(١).

وقد قال له ربه عز وجل ﴿بَلِّغْ﴾(٢) فإذا لم يتشاغل بالعلم فكيف يبلغ الشريعة إلى الخلق، ولقد نقل مثل هذا عن كبـار الزهاد، كبشر الحافى، فإنه قال لعباس بن عـبد العظيم: لا تجالس أصحاب الحـديث. وقال لإسحاق بن الضيف: إنك صاحب حـديث فأحبّ أن لا تعود إلىَّ، ثم اعتـذر فقال: إنما الحديث فتنة لا لـمن أراد الله به، وإذا لم يعمل به فتركه أفـضل، وهذا عجب منه! من أين لـه أن طلابه لا يريدون الله به، وإنهم لا يعـمـلون به، أو ليس العمل على ضربين: عمل بما يجب، وذلك لا يسع أحدًا تركه، والثانى نافلة ولا يلزم، والتشـاغل بالحديث أفضل من التنفل بالصوم والصـلاة، وما أظنه أراد إلا طريقه فى دوام الجـوع والتهجد، وذلك شىء لا يلام تاركـه فإن كان يريد أن لا يوغل فى علوم الحـديث فهذا خطأ لأن جـميع أقسـامه محـمود، أفترى لو ترك الناس طلب الحديث أكان بشر يفتى! فالله فى الالتفات إلى قول من ليس بفقيه، ولا يهولنك تعظيم اسمه، فالله يعفو عنه.

---

(١) صحـيح: أخرجه البخـارى (٣٤٦١) فى كتاب أحـاديث الأنبياء، باب: مـا ذكر عن بنى إسرائيل، من حديث عبد الله بن عمرو -رضي الله عنهما-.

(٢) سورة المائدة: ٦٧.

حفظ جانب الله تعالى وإن سخط الناس

١٨٣-فصل- العاقل من يحفظ جانب الله عز وجل وإن غضب الخلق، وكل من يحفظ جانب المخلوقين ويضيع حق الخالق يقلب الله قلب الذى قصد أن يرضيه فيسخطه عليه.

قال المأمون لبعض أصحابه: لا تعص الله بطاعتى فيسلطنى عليك. ولما بالغ طاهر بن الحسين فيما فعل بالأمين فتك به، وصلب رأسه وإن كان ذلك عن إرادة المأمون، ولكن بقى أثر ذلك فى قلبه، فكان لا يقدر أن يراه.

ولقد دخل عليه يومًا فبكى المأمون، فقال له طاهر: لم تبك لا أبكى الله عينك، فلقد دانت لك البلاد، فقال: أبكى لأمر ذِكْرُهُ ذلٌّ، وسِرُّهُ حَزَنٌ، ولن يخلو أحد من شجن، فلما خرج طاهر نفذ إلى حسين الخادم مايتى ألف درهم وسأله أن يسأل المأمون: لمَ بكى؟ فلما تغدى المأمون قال: يا حسين اسقنى قال: لا والله لا أسقيك حتى تقول لى: لم بكيت حين دخل عليك طاهر؟ قال: يا حسين وكيف عنيت بهذا حتى سألت عنه؟ قال: لغمى بذلك، قال: يا حسين أَمْرٌ إن خرج من رأسك قتلتك. قال: يا سيدى ومتى أخرجت لك سرًّا؟ قال: إنى ذكرت أخى محمدًا وما ناله من الذلة؛ فخنقتنى العبرة فاسترحت إلى إفاضتها، ولن يفوت طاهرًا منى ما يكره؛ فأخبر حسين طاهرًا بذلك، فركب طاهر إلى أحمد بن أبى خالد فقال له: إن المعروف عندى ليس بضايع فغيبنى عن عينه. قال: سأفعل. فدخل على المأمون فقال: ما بت البارحة؟ قال: ولم؟ قال: لأنك وليت غسان بن عباد خراسان، وهو ومن معه أكلة رأس، فأخاف أن يخرج خارج من الترك فيصطلمه قال: فمن ترى؟ قال: طاهر بن الحسين؛ فعقد له فمضى، فبقى مدة ثم قطع الدعاء للمأمون على المنبر يوم الجمعة، فقال له صاحب البريد: ما دعوت لأمير المؤمنين. قال: سهو فلا تكتب. ففعل ذلك فى الجمعة الثانية والثالثة.

فقال لـه: لابد أن أكتب لئلا يكتب التجـار ويسبقونى. قـال: اكتب فكتب. فدعا المأمون أحمد بن أبى خـالد، وقال: إنه لم يذهب علىّ احتيالك فى أمر طاهر، وأنا أعطى الله عهدًا إن لم تشخص حتى توافـينى به كما أخرجته من قبـضتى لتـذمن عقـابك، فشـخص وجعل يتلوم فى الطريق ويعـتل المرض، فوصل إلى الرى وقد بلغته وفاة طاهر.

قلت: ولما خرج الراشد من بغـداد وأرادوا تولية المقتفى، شهد جـماعة من الشهـود بأن الراشد لا يصلح للخلافـة فنزعوه وولى المقتـفى، فبلغنى أنه ذكر للمقتفى بعض الشهود فذمه، وقال: كان فيمن أعان على أبى جعفر.

وعلى ضـد هذا كل من يراعى جـانب الحق والصـواب يرضى عنه من سخط عليه، ولقد حـدثنى الوزير ابن هبيرة أن المستنجد بالله كـتب إليه كتابًا وهو يومئذ ولىُّ عهد، وأراد أن يستره عن أبيه. قال: فقلت للواصل به: والله ما يمكننى، أقرؤه ولا أجيب عنه، فلما ولى الخلافة دخلت عليه فقلت: أكبر دليل على صدقى وإخـلاصى أنى ما حابيتك فى أبيك. فـقال: صدقت أنت الوزير.

وحدثنـى بعض الأصدقـاء أن قومًا ألحـقوا إلى المخـزن بعض دين لهم ليستخلص، فقال المسترشد لصاحب المخزن: خلصه لهم وخذ ما ضمنوا لنا، فأحضر ابن الرطبى وعرض الأمر عليه، فـقال: هذا أمر بظلم وما أحكم فيه فقال: إن السلطان قد تقدم، قال ما أفعل، فـأحضر قاضيًا آخر فبت الحكم، فأخبر الخليفة بالحال. فقـال: أما ابن الرطبى فيشكر على ما قال، وأما الآخر فيعزل، وذلك لأنه بان له أن الحق ما قاله ابن الرطبى.

وكذلك مـا طلبه السلطان من أن يلقب ملك الملوك، فاسـتفتى الفقـهاء فأجازوا ذلك، وامتنع من إجـازته الماوردى، فعظم قدره عند السلطان، ومثل هذا إذا تتبع كثير. فينبغى أن يحسن القصد لطاعة الخالق وإن سخط المخلوق، فإنه يعـود صاغرًا ولا يسخط الخـالق، فإنه يسخط المخلوق، فيـفوت الحظّان جميعًا.

١٨٤- فصل- مفيد. ينبغى للعاقل أن ينظر إلى الأصول فيمن يخالطه ويعاشره ويشاركه ويصادقه ويزوجه أو يتزوج إليه، ثم ينظر بعد ذلك فى الصور، فإن صلاحها دليل على صلاح الباطن.

أما الأصول فإن الشيء يرجع إلى أصله، وبعيد ممن لا أصل له أن يكون فيه معنى مستحسن، وإن المرأة الحسناء إذا كانت من بيت ردى فقلَّ أن تكون صيّنة، وكذلك أيضًا المخالط والصديق والمباضع والمعاشر.

فإياك أن تخالط إلا من له أصل يخاف عليه الدنس، فالغالب السلامة، وإن وقع ذلك كان نادراً.

وقد قال عمر بن عبد العزيز -رحمه الله- لرجل: أشِرْ عليّ فيمن أستعمل.

فقال: أما أرباب الدين فلا يريدونك، وأما أرباب الدنيا فلا تردهم، ولكن عليك بالأشراف، فإنهم يصونون شرفهم عما لا يصلح.

وقد روى أبو بكر الصولى قال: حدثنى الحسين بن يحيى عن إسحاق قال: دعانى المعتصم يومًا فأدخلنى معه الحمام، ثم خرج فخلا بى، وقال: يا أبا إسحاق فى نفسى شيء أريد أن أسألك عنه، إن أخى المأمون اصطنع قومًا فأنجبوا، واصطفيت أنا مثلهم فلم ينجبوا، قلت: ومن هم؟ قال: اصطنع طاهرًا وابنه وإسحاق وآل سهل فقد رأيت كيف هم، واصطنعت أنا الأفشين فقد رأيت إلى ما آل أمره، وأساش فلم أجده شيئًا، وكذلك إيتاخ ووصيف.

قلت: يا أمير المؤمنين، هاهنا جواب على أمان من الغضب. قال: لك ذاك، قلت: نظر أخوك إلى الأصول فاستعملها فأنجبت فروعها، واستعملت فروعًا لا أصول لها فلم تنجب، فقال: يا أبا إسحاق مقاساة ما مرّ بى طول هذه المدة أهون عليّ من هذا الجواب.

أما الصورة، فإنه متى صحت البنية ولم يكن فيها عيب فالغالب صحة الباطن وحسن الخلق، ومتى كان فيها عيب فالعيب فى الباطن أيضًا، فاحذر من به عاهة كالأقرع والأعمى وغير ذلك، فإن بواطنهم فى الغالب ردية، ثم

مع معرفة أصول المخالط وكمال صورته لابد من التجربة قبل المخالطة، واستعمال الحذر لازم، وإن كان كما ينبغي.

١٨٥- **فصل** - ينبغي أن يكون شغل العاقل فى العواقب والتحرز مما يمكن أن يكون، ومن الغلط النظر فى الحالة الحاضرة كالموافق لمعاشه ولصحبة بدنه، وربما يجرى له مصحوبه فينبغى أن يعمل على انقطاع ذلك، فيكون مستعداً لتغير الأحوال، وكذلك النظر فى لذة تغنى وتبقى تبعتها وعارها، إيثار الكسل والدعة لما يجيء من بقاء الجهل، وكذلك تحصيل المرادات التى لا تحصل إلا بالتلطف فى الاحتيال، وخصوصًا إذا أريد من ذكى فإنه يفطن بأقل تلويح، فمن أراد غلبة الذكى دقق النظر وتلطف فى الاحتيال، وقد ذكر فى كتب الحيل ما يشحذ الخواطر، وأتينا بجملة منه فى كتاب الأذكياء، مثل ما روى أن رجلاً من الأشراف كان لا يقوم لأحد ولا يخشى أحدًا، فجاز عليه بعض الوزراء فلم يرد ولم يقم، فقال ذاك الوزير لرجل: أخبر فلانًا أنى قد كلمت أمير المؤمنين فى حقه، وقد أمر له بمائة ألف، فليحضر ليقبضها، فأخبره ذلك الرجل، فقال الشريف: إن كان أمر لى بشيء فلينفذه لى، وإنما مقصوده أن يضع منى بالتردد عليه.

فمتى وقع الإنسان مع ذكى فينبغى أن يتحرز منه ويسرق أغراضه بصنوف الاحتيال وينظر فيما يجوز وقوعه فليحترز منه كما ينظر صاحب الرقعة النقلات.

وكثير من الأذكياء لم يقدروا على أغراضهم من ذكى فأعطوه وبالغوا فى إكرامه ليصيدوه، فإن كان قليل الفطنة وقع فى الشرك، وإن كان أقوى منهم ذكاء علم أن تحت هذه الخبية جنية فزاده ذلك احترازًا، وأقوى ما ينبغى أن يكون الاحتراز من موتور، فإنك إذا آذيت شخصًا فقد غرست فى قلبه عداوة، فلا تأمن تفريع تلك الشجرة، ولا تلتفت إلى ما يظهر من ود –وإن حلف– فإن قاربته فكن منه على حذر.

١٨٦- **فصل**- فى حفظ السر. رأيت أكثر الناس لا يتمالكون من إفشاء سرهم، فإذا ظهر عاتبوا من أخبروا به، فواعجبًا كيف ضاقوا بحبسه

ذرعًا ثم لاموا من أفشاه، وفى الحديث: «**اسْتَعِينُوا على قَضاء أُمُورِكُمْ بالكِتْمان**»(١) ولعمرى إن النفس يصعب عليها كَتم الشىء، وترَى بإفشائه راحةَ، خَصوصًا إذا كان مرضًا أو همًّا أو عشقًا، وهذه الأشياء فى إفشائها قرينة. إنما اللازم كتمانه احتيال المحتال فيما يريد أن يحصل به غرضًا، فإن سوء التدبير إفشاء ذلك قبل تمامه، فإنه إذا ظهر بطل ما يراد أن يفعل، ولا عذر لمن أفشى هذا النوع. وقد كان النبى -ﷺ- «**إذا أراد سفرًا ورى بغيره**»(٢).

فإن قال قائل: إنما أحدث، قيل له: وكل حديث جاوز الاثنين شائع، وربما لم يكتم صديقك. وكم قد سمعنا من يحدث عن الملوك بالقبض على صاحب، فنمى الحديث إلى الصاحب وهرب، ففات السلطان مراده، وإنما الرجل الحازم الذى لا يتعداه سره ولا يفشيه إلى أحد.

ومن العجز إفشاء السر إلى الولد والزوجة، والمال من جملة السر، فإطلاعهم عليه إن كان كثيرًا فربما تمنوا إهلاك المورث. وإن كان قليلاً تبرموا بوجوده، وربما طلبوا منه الكثير على مقدار كثرته فأتلفته النفقات.

وستر المصائب من جملة كتمان السر، لأن إظهارها يسر الشامت ويؤلم المحب، وكذلك ينبغى أن يكتم مقدار السن، لأنه إن كان كبيرًا استهرموه وإن كان صغيرًا احتقروه، ومما قد انهال فيه كثير من المفرطين أنهم يذكرون بين أصدقائهم أميرًا أو سلطانًا فيقولون فيه يبلغ ذلك إليه فيكون سبب الهلاك، وربما رأى الرجل من صديقه إخلاصًا وفيا فأشاع سره. وقد قيل:

---

(١) صحيح: أخرجه العقيلى فى الضعفاء، وابن عدى فى الكامل والطبرانى فى الكبير وأبو نعيم فى الحلية والبيهقى فى شعب الإيمان عن معاذ بن جبل، والخرائطى فى اعتلال القلوب عن عمر، والخطيب فى التاريخ عن ابن عباس، والخلعى فى فوائده عن على، كما فى «صحيح الجامع» (٩٤٣).

(٢) قلت: الثابت فى الصحيح أنه -ﷺ- إذا أراد غزوة ورى بغيرها كما فى حديث كعب ابن مالك وقد تقدم تخريجه، وهذا من باب: الحرب خدعة، ولم نقف على لفظة المصنف إلا إذا أراد بالسفر الغزو.

احــــذرْ عــــدوَّك مـــــرةً واحـذرْ صديقَكَ ألف مـرة
فلـربما انـقلبَ الـصـــديقُ فـكان أدْرى بـالمـضـــــرَّة

ورب مفش سره إلى زوجة أو صديق فيصير بذلك رهينًا عنده ولا يتجاسر أن يطلق الزوجة، ولا أن يهجر الصديق، مخافة أن يظهر سره القبيح.

فالحازم من عامل الناس بالظاهر، فلا يضيق سره فى صدره، فإن فارقته امرأة أو صديق أو خادم لم يقدر أحد منهم أن يقول فيه ما يكره. ومن أعظم الأسرار الخلوات، فلينظر الحازم فيها من الانبساط بمرأى من مخلوق، ومن خلق له عقل ثاقب دله على الصواب قبل الوصايا.

١٨٧- فصل - ما رأيت أصعب على النفس من الحفظ للعلم والتكرار، وخصوصًا تكرار ما ليس لها حظ فى تكراره، وحفظ مثل مسائل الفقه، بخلاف الشعر والسجع، فإن لها لذة فى إعادته وإن كان يصعب، لأنها تلتذ به مرة ومرتين، فإذا زاد التكرار صعب عليها، ولكن دون صعوبة الفقه وغيره من المستحسنات عند الطبع، فتراها تخلد إلى الحديث والشعر والتصانيف والنسخ، لأنه يمر بها كل لحظة ما لم تره، فهو فى المعنى كالماء الجارى، لأنه جزء بعد جزء وكذا من ينسخ ما يحب أن يسمعه أو يصنف، فإنه يلتذ بالجدة ويستريح من تعب الإعادة، إلا أنه ينبغى للعاقل أن يكون جل زمانه للإعادة، خصوصًا الصبى والشاب، فإنه يستقر المحفوظ عندهما استقرارًا لا يزول، ويجعل أوقات التعب من الإعادة للنسخ، ويحذر من تفلتها إلى النسخ عن الإعادة فيقهرها، فإنه يحمد ذلك حمد السرى[١] وقت الصباح، وسيندم من لم يحفظ ندم الكسعى وقت الحاجة إلى النظر والفتوى، وفى الحفظ نكتة ينبغى أن تلحظ، وهو أن الفقيه يحفظ الدرس ويعيده، ثم يتركه فينساه فيحتاج إلى زمان آخر لحفظه، فينبغى أن يحكم الحفظ ويكثر التكرار ليثبت قاعدة الحفظ.

(١) السرى: السفر أول النهار.

١٨٨- فصل- ما أعرف نفعًا كالعزلة عن الخلق خصوصًا للعالم والزاهد فإنك لا تكاد ترى إلا شامتًا بنكبة أو حسودًا على نعمة، ومن يأخذ عليك غلطاتك، فيا للعزلة ما ألذها، سلمت من كدر غيبة، وآفات تصنع، وأحوال المداجاة، وتضييع الوقت. ثم خلا فيها القلب بالفكر، لأنه مستلذ عنه بالمخالطة، فدبر أمر دنياه وآخرته. فمثله كمثل الحمية يخلو فيها المعى بالأخلاط فيذيبها.

وما رأيت مثل ما يصنع المخالط، لأنه يرى حالته الحاضرة من لقاء الناس وكلامهم فيشتغل بها عما بين يديه. فمثله كمثل رجل يريد سفرًا قد أزف(١) فجالس أقوامًا فشغلوه بالحديث حتى ضرب البوق وما تزود، فلو لم يكن فى العزلة إلا التفكير فى زاد الرحيل والسلامة من شر المخالطة كفى.

ثم لا عزلة على الحقيقة إلا للعالم والزاهد، فإنهما يعلمان مقصود العزلة، وإن كانا لا عزلة. وأما العالم فعلمه مؤنسه، وكتبه محدثه، والنظر فى سير السلف نديمه، والتفكر فى حوادث الزمان السابق فرجته. فإن ترقى بعلمه إلى ربا المعرفة الكاملة للخالق سبحانه، وتشبث بأذيال محبته تضاعفت لذاته، واشتغل بها عن الأكوان وما فيها، فخلا بحبيبه وعمل معه بمقتضى علمه.

وكذلك الزاهد تعبده أنيسه، ومعبوده جليسه، فإن كشف لبصره عن المعمول معه غاب عن الخلق، وغابوا عنه.

إنما اعتزلا ما يؤذى، فهما فى الوحدة بين جماعة، فهذان رجلان قد سلما من شر الخلق، وسلم الخلق من شرورهما، بل هما قدوة للمتعبدين وعلم للسالكين، ينتفع بكلامهما السامع، وتجرى موعظتهما المدامع. وتنتشر هيبتهما فى المجامع.

فمن أراد أن يتشبه بأحدهما فليصابر الخلوة وإن كرهها ليثمر له الصبر العسل. وأعوذ بالله من عالم مخالط للعالَم، خصوصًا لأرباب المال

---

(١) أى: دنا.

والسلاطين يجتلب ويختلب ويختلب فما يحصل له شيء من الدنيا إلا وقد ذهب من دينه أمثاله، ثم أين الأنفة من الذل للفساق، فالذى لا يبالى بذلك هو الذى لا يذوق طعم العلم ولا يدرى ما المراد به، وكأنه به وقد وقع فى بادية جرز(١) وقفر(٢) أمل مهلك فى تلك البرارى. وكذلك المتزهد إذا خالط وخلط، فإنه يخرج إلى الرياء والتصنع والنفاق، فيفوته الحظان، لا الدنيا ونعيمها تحصل له ولا الآخرة.

فنسأل الله عزوجل خلوة حلوة، وعزلة عن الشر لذة يستصلحنا فيها لمناجاته، ويلهم كلا منا طلب نجاته.. إنه قريب مجيب.

(١) الجرز: الأرض التى لا تنبت، أو التى أكل نباتها أو لم يصبها المطر.
(٢) القفر: الخلاء من الأرض.

الـمـوت ومـا بعـده

١٨٩- فصل - ما أبله من لا يعلم متى يأتيه الموت، وهو لا يستعد للقائه! وأشد الناس بلهًا وتغفيلاً من قد عبر الستين وقارب السبعين، فإن ما بينهما هو معترك المنايا. ومن نازل المعترك استعد وهو غافل عن الاستعداد:

قال الشباب لعلنا فى شيبنا ندع الذنوب فما يقول الأشيب

والله إن الضحك من الشيخ ماله معنى، وإن المزاح منه بارد المعنى، وإن تعرضه للدنيا وقد دفعته عنها يضعف القوى ويضعف الرأى، وهل بقى لابن ستين منزل. فإن طمع فى السبعين فإنما يرتقى إليها بعناء شديد، إن قام دفع الأرض وإن مشى لهث، وإن قعد تنفس، ويرى شهوات الدنيا ولا يقدر على تناولها. فإن أكل كد المعدة، وصعب الهضم، وإن وطئ آذى المرأة، ووقع دنفًا لا يقدر على رد ما ذهب من القوة إلى مدة طويلة، فهو يعيش عيش الأسير، فإن طمع فى الثمانين فهو يزحف إليها زحف الصغير:

وعشر الثمانين من خاضها فإن الملمات فيها فنون

فالعاقل من فهم مقادير الزمان. فإنه فيما قيل: قبل البلوغ صبى ليس على عمره عيار، إلا أن يرزق فطنة ففى بعض الصبيان فطنة تحثهم من الصغر على اكتساب المكارم والعلوم. فإذا بلغ فليعلم أنه زمان المجاهدة للهوى وتعلم العلم. فإذا رزق الأولاد فهو زمان الكسب للمعاملة، فإذا بلغ الأربعين انتهى تمامه، وقضى مناسك الأجل، ولم يبق إلا الانحدار إلى الوطن:

كأن الفتى يرقى من العمر معلمًا إلى أن يجوز الأربعين وينحط

فينبغى له عند تمام الأربعين أن يجعل جل همته التزود للآخرة، ويكون كل تلمحه لما بين يديه، ويأخذ فى الاستعداد للرحيل. وإن كان الخطاب بهذا

لابن عشرين، إلا أن رجاء التدارك فى حق الصغير لا فى حق الكبير. فإذا بلغ الستين فقد أعذر الله إليه فى الأجل وجاز من الزمن، فليقبل بكليته إلى جمع زاده، وتهيئ آلات السفر، وليعتقد أن كل يوم يحيى فيه لغنيمة ما هى فى الحساب، خصوصًا إذا قوى عليه الضعف وزاد، فإنه لا محرك كهو[١]، وكلما علت سنه فينبغى أن يزيد اجتهاده، فإذا دخل فى عشر الثمانين فليس إلا الوداع. وما بقى بمكة العمر تجارة إلا نفس آسف على تفريط، أو تعبد على ضعف. نسأل الله عز وجل يقظة تامة تصرف عنا رقاد الغفلات، وعملاً صالحًا نأمن معه من الندم يوم الانتقال. والله الموفق.

١٩٠- فصل - ما نهى السلف عن الخوض فى الكلام إلا لأمر عظيم، وهو أن الإنسان يريد أن ينظر ما لا يقوى عليه بصره فربما تحير فخرج إلى الحجب، لأنا إذا نظرنا فى ذات الخالق حار العقل وبهت الحس، لأنه لا يعرف شيئًا لا بداية له، لا يعلم إلا الجسم والجوهر والعرض، فإثبات ما يخرج عن ذاك لا يفهمه، وإن نظرنا فى أفعاله رأيناه يحكم البنا ثم ينقضه ولا نطلع على تلك الحكمة، فالأولى للعاقل أن يكف كف التطلع إلى ما لا يطيق النظر إليه، ومتى قام العقل فنظر فى دليل وجود الخالق بمصنوعاته، وأجاز بعثة نبى واستدل بمعجزاته، كفاه ذلك أن يتعرض لما قد أغنى عنه، وإذا قال القرآن كلام الله تعالى، بدليل قوله: ﴿حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَامَ اللَّهِ﴾[٢] كفاه.

وأما من تحذلق فقال: التلاوة هى المتلو أو غير المتلو، والقراءة هى المقروء أو غير المقروء، فيضيع الزمان فى غير تحصيل، والمقصود العمل بما فهم. وقد حكى أن ملكًا كتب إلى عماله فى البلدان إنى قادم عليكم فاعملوا كذا وكذا، ففعلوا إلا واحدًا منهم، فإنه قعد يتفكر فى الكتاب فيقول: أترى كتبه بمداد أو بحبر، أترى كتبه قائمًا أو قاعدًا، فما زال يتفكر حتى قدم الملك ولم يعمل مما أمره به شيئًا، فأحسن جوائز الكل وقتل هذا.

١٩١- فصل - لقد غفل طلاب الدنيا عن اللذة فيها، واللذة فيها

(١) كذا بالأصل.

(٢) سورة التوبة: ٦.

شرف العلم وزهرة العفـة وأنفة الحمية، وعز القناعـة، وحلاوة الإفضال على الخلق، فأمـا الالتذاذ بالمطعم والمنـكح فشغل جـاهل باللذة، لأن ذاك لا يراد لنفـسه بل لإقـامة العـوض فى البدن والولد؟ وأى لذة فى النكاح وهى قـبل المباشرة لا تحـصل، وفى حال المباشرة قلق لا يثبت عند انقضـائها، وكأن لم يكن، ثم يثمر الضعف فى البدن، وأى لذة فى جمع المال فضلاً عن الحاجة. فإنه مستعبد للخازن، يبيت حذراً عليه، ويدعوه قليله إلى كثيره، وأى لذة فى المطعم وعند الجوع يستوى خشنه وحسنه، فإن ازداد الأكل خاطر بنفسه.

قال على بن أبى طالب -رضي الله عنه-: بنيت الفـتنة على ثلاث، النساء وهن فخ إبليس المنصوب، والشـراب وهو سيفـه المرهف، والدينار والدرهم وهما سهـماه المسـمومـان. فمن مـال إلى النساء لم يصف له عـيش، ومن أحب الشراب لم يمتع بعقله، ومن أحب الدينار والدرهم كان عبداً لهما ما عاش.

١٩٢- **فصل** - أصل كل مـحنة فى العقـائد قيـاس أمر الخـالق على أحوال الخلق، فـإن الفلاسفة لما رأوا إيجـاد شىء لا من شىء كالمستـحيل فى العادات قـالوا بقدم العـالم، ولما عظم عندهم فى العادة الإحـاطة بكل شىء قـالوا: إنه يعلم الجمل لا التـفاصـيل، ولما رأوا تلف الأبدان بالبـلاء أنكروا إعادتها. وقالوا الإعادة رجوع الأرواح إلى معادنها.

وكل ما قاس صفة الخالق على صـفات المخلوقين خرج إلى الكفر، فإن المجسمة دخلوا فى ذلك لأنهم حملوا أوصافه على ما يعقلون، وكذلك تدبيره عـز وجل. فإن من حـمله على مـا يعقل فى العـادات رأى ذبح الحيـوان لا يستحسن، والأمـراض تستقبح، وقسمة الغنى للأبله، والـفقر للجلد العاقل، أمرًا ينافى الحكمـة، وهذا فى الأوضاع بين الخلق. فأمـا الخالق سبحـانه فإن العـقل لا ينتهـى إلى حكمتـه، بلى قـد ثبت عنده وجوده ومـلكه وحكمتـه فتعـرضه بالتفـاصيل على ما تجرى به عـادات الخلق جهل، ألا ترى إلى أول المعترضين وهو إبلـيس كيف ناظر فقال: أنا خير منه، وقول خـليفته وهو أبو العلاء المعرى:

رأى منك ما لا يشتهى فتزندقا

ونسأل الله عز وجل توفيقًا للتسليم، وتسليمًا للحكيم ﴿رَبَّنَا لا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا﴾(١) أترى نقدر على تعليل أفعاله فضلا عن مطالعة ذاته، وكيف نقيس أمره على أحوالنا؟ فإذا رأينا نبينا -ﷺ- يسأل فى أمه وعمه فلا يقبل منه، ويتقلب جائعًا والدنيا ملك يده، ويُقتل أصحابه والنصر بيد خالقه، أو ليس هذا مما يحير؟! فمالنا والاعتراض على مالك قد ثبتت حكمته واستقر ملكه.

١٩٣- فصل- تأملت عجبًا، وهو أن كل شىء نفيس خطير يطول طريقه ويكثر التعب فى تحصيله، فإن العلم لما كان أشرف الأشياء لم يحصل إلا بالتعب والسهر والتكرار وهجر اللذات والراحة، حتى قال بعض الفقهاء: بقيت سنين أشتهى الهريسة لا أقدر، لأن وقت بيعها وقت سماع الدرس. ونحو هذا تحصيل المال، فإنه يحتاج إلى المخاطرات والأسفار والتعب الكثير، وكذلك نيل الشرف بالكرم والجود، فإنه يفتقر إلى جهاد النفس فى بذل المحبوب، وربما آل إلى الفقر، وكذلك الشجاعة، فإنها لا تحصل إلا بالمخاطرة بالنفس. قال الشاعر:

لولا المشقة ساد الناسُ كلهمُ الجود يُفقر والإقدامُ قَتَّالُ

ومن هذا الفن تحصيل الثواب فى الآخرة، فإنه يزيد على قوة الاجتهاد والتعبد، أو على قدر وقع المبذول من المال فى النفس، أو على قدر الصبر على فقد المحبوب ومنع النفس من الجزع، وكذلك الزهد يحتاج إلى صبر عن الهوى، والعفاف لا يكون إلا بكف كف الشره. ولولا ما عانى يوسف عليه السلام ما قيل له أيها الصديق، ولله أقوام ما رضوا من الفضائل إلا بتحصيل جميعها فهم يبالغون فى كل علم، ويجتهدون فى كل عمل، ويثابرون على كل فضيلة، فإذا ضعفت أبدانهم عن بعض ذلك قامت النيات نائبة وهم لها

(١) سورة آل عمران: ٨.

سابقون، وأكمل أحوالهم إعراضهم عن أعمالهم، فهم يحتقرونها مع التمام، ويعتذرون من التقصير.

ومنهم من يزيد على هذا فيتشاغل بالشكر على التوفيق لذلك، وهم من لا يرى ما عمل أصلاً لأنه يرى نفسه وعمله لسيده.

وبالعكس من المذكور عن أرباب الاجتهاد حال أهل الكسل والشره والشهوات، فلئن التذّوا بعاجل الراحة لقد أوجبت ما يزيد على كل تعب من الأسف والحسرة، ومن تلمح صبر يوسف -عليه السلام- وعجلة ماعزٍ بان له الفرق، وفهم الربح من الخسران.

ولقد تأملت نيل الدر من البحر فرأيته بعد معاناة الشدائد، ومن تفكر فيما ذكرته مثلاً بانت له أمثال، فالموفق من تلمح قصر الموسم المعمول فيه، وامتداد زمان الجزاء الذى لا آخر له انتهب حتى اللحظة، وزاحم كل فضيلة، فإنها إذا فاتت فلا وجه لاستدراكها: أو ليس فى الحديث يقال للرجل: «اقْرأ وارْقَ فَمنزلُكَ عنْدَ آخر آية تقْرَؤُها»[1]. فلو أن الفكر عمل فى هذا حق العمل حفظ القرآن عاجلاً.

١٩٤- فصل - ليس المؤمن بالذى يؤدى فرائض العبادات صورة، ويتجنب المحظورات فحسب. إنما المؤمن الكامل الإيمان لا يختلج فى قلبه اعتراض، ولا يساكن فيما يجرى وسوسة، وكلما اشتد البلاء عليه زاد إيمانه، وقوى تسليمه، وقد يدعو فلا يرى للإجابة أثرًا، وسره لا يتغير لأنه يعلم أنه مملوك وله مالك يتصرف بمقتضى إرادته، فإن اختلج فى قلبه اعتراض خرج من مقام العبودية إلى مقام المناظرة، كما جرى لإبليس.

والإيمان القوى يبين أثره عند قوة البلاء؛ فأما إذا رأينا مثل يحيى بن زكريا تسلط عليه فاجر؛ فيأمر بذبحه فيذبح، وربما اختلج فى الطبع أن يقول

---

(١) صحيح: أخرجه أبو داود (١٤٦٤) فى كتاب الصلاة، باب: استحباب الترتيل فى القراءة، والترمذى (٢٩١٤) فى كتاب فضائل القرآن، باب: رقم (١٨)، نفس حديث عبد الله بن عمرو -رضي الله عنهما- والحديث صححه الشيخ الألبانى.

فهل رد عنه من جعله نبيًّا، وكذلك كل تسلط من الكفار على الأنبياء والمؤمنين وما وقع رد عنهم، فإن هجس بالفكر أن القدرة تعجز عن الرد عنهم كان كفرًا، وإن علم أن القدرة متمكنة من الرد وما ردت، ويجوّع المؤمنين ويشبع الكفار، ويعافي العصاة، ويمرض المتقين، لم يبق إلا التسليم للمالك وإن أمضّ وأرمض. وقد ذهب يوسف بن يعقوب -عليهما السلام- فبكى يعقوب ثمانين سنة ثم لم ييأس، فقال: ﴿عَسَى اللَّهُ أَن يَأْتِيَنِي بِهِمْ جَمِيعًا﴾[1]، وقد دعا موسى -عليه السلام- على فرعون، فأجيب بعد أربعين سنة، وكانَ يذبحُ الأنبياء ولا ترده القدرة القديمة العظيمة، وصلب السحرة، وقطّع أيديهم.

وكم من بلية نزلت بمعظّم القدر، فما زاده ذلك إلا تسليمًا ورضى؛ فهناك يبين معنى قوله: ﴿وَرَضُوا عَنْهُ﴾[2] وهاهنا يظهر قدر قوة الإيمان لا في ركعات، قال الحسن البصري: استوى الناس في العافية فإذا نزل البلاء تباينوا.

١٩٥- فصل - أضر ما على العوام المتكلمون، فإنهم يخبطون عقائدهم بما يسمعونه منهم. ومن أقبح الأشياء أن يحضر العامي الذي لا يعرف أركان الصلاة ولا الربا في البيع مجلس الوعظ فلا ينهاه عن التواني في الصلاة، ولا يعلمه الخلاص من الربا، بل يقول له القرآن قائم بالذات، والذي عندنا مخلوق، فيهون القرآن عند ذلك العامي، فيحلف به على الكذب؛ ويح المتكلم لو كان له فهم لعلم أن الله سبحانه وتعالى نصب أعلامًا تأنس بها النفوس وتطمئن إليها كالكعبة وسماها بيته، والعرش وذكر استواءه عليه، وذكر من صفاته اليد والسمع والبصر والعين، وينزل إلى السماء الدنيا، ويضحك؛ وكل هذا لتأنس النفوس بالعادات. وقد جل عما تضمنته هذه الصفات من الجوارح، وكذلك عظّم أمر القرآن، ونهى المحدث أن يمس المصحف فآل الأمر بقوم من المتكلمين إلى أن أجازوا الاستنجاء به؛ فهؤلاء

---

(١) سورة يوسف: ٨٣.

(٢) سورة البينة: ٨.

(٣) يقصد: الرعيل الأول.

على معاندة الشريعة، لأنهم يهـينون ما عظم الشرع. وهل الإيغال فى الكلام مما يقرب إلى معرفة الحقائق التى لا يمكن خلافها؟!

هيهات لو كان كـذلك ما وقع بين المتكلمين خلاف، أو ليس الشرب[٣] الأول ما تكلمـوا فى شىء من هذا! وإن كانوا تعرضوا ببـعض الأصول، ثم جاء فـقهاء الأمـصار فنهوا عن الخـوض فى الكلام، لعلمهم مـا يجلب وما يجـتنب ومن لم يقنع بعقـيدة مـثل الصـحابة ولا بطريق مـثل طريق أحمـد والشافعى فى ترك الخوض فلا كان من كان.

ثم بالله تأملوا أليس قد وجب علينا هجر الربا بقوله تعالى: ﴿لَا تَأْكُلُوا الرِّبَا﴾[١]، وهجر الزنى بقوله: ﴿وَلَا تَقْرَبُوا الزِّنَى﴾[٢] فأى فائدة لنا فى ذكر قراءة ومـقروء وتلاوة ومتلو وقـديم ومحدث. فإن قـيل: فلابد من اعتـقاد، قلنا: طريق السلف أوضح محجة، لأنا لا نقوله تقليداً، بل بالدليل ولكنا لم نستفده عن جوهر وعرض وجزء لا يتـجزأ، بل بأدلة النقل مع مساعدة العقل من غير بحث عما لا يحتاج إليه وليس هذا مكان الشرح.

١٩٦- فصل - ما زلت على عـادة الخلق فى الحزن على من يموت من الأهل والأولاد، ولا أتخايل إلا بلى الأبدان فى القبور فأحزن لذلك. فمرت بى أحاديث قد كانت تمر بى ولا أتفكر فـيها، منها قول النبى -ﷺ-: **«إنّما نَفْسُ المؤمن طائرٌ تعلق فى شـجر الجنة حتى يردّهُ الله عزّ وجلّ إلى جسده يومَ يَبْعَـثُهُ»**[٣]: فرأيت أن الرحيل إلى الراحـة، وأن هذا البدن ليس بشىء، لأنه مركب تفكك وفـسد، وسـيبنى جديداً يوم البـعث، فلا ينبغـى أن يتفكر فى بلاه، ولتسكن النفس إلى أن الأرواح انتقلت إلى راحة فلا يـبقى كبير حزن، وإن اللقا للأحبـاب عن قرب، وإنما يبقى الأسف لتعلق الخـلق بالصور، فلا يرى الإنسان إلا جسداً مستحسنًا قد نقض فيحزن لنقضه.

---

(١) سورة آل عمران: ١٣٠.

(٢) سورة الإسراء: ٣٢.

(٣) صحـيح: أخرجه النسـائى (٤/١٠٨) فى كتاب الجنائز، باب: أرواح المؤمنين وغـيرهم، وابن ماجـه (٤٢٧١) فى كتاب الـزهد، باب: ذكر القبـر والبلى، وأحمـد فى «مسنده» (٣/ ٤٥٥) من حديث كعب بن مالك -رضي الله عنه-. والحديث صححه الشيخ الألبانى.

والجسد ليس هو الآدمى، إنما هو مركبه، فالأرواح لا ينالها البلى، والأبدان ليست بشىء، واعتبر هذا بما إذا قلعت ضرسك فرميته فى حفرة، فهل عندك خبر مما يلقى فى مدة حياتك، فحكم الأبدان حكم ذلك الضرس، لا تدرى النفس ما يلقى، ولا ينبغى أن تغتم بتمزيق جسد المحبوب وبلاه، واذكر تنعّم الأرواح، وقرب التجديد، وعجل اللقاء والفكر فى تحقيق هذا يهوّن الحزن ويسهّل الأمر.

١٩٧- فصل - ينبغى للعاقل أن لا يتكلم فى الخلوة عن أحد بشىء حتى يمثل ذلك الشىء ظاهراً معلنًا به ثم ينظر فيما يجنى؛ فرب رجل وثق بصديق فتكلم عن سلطان بأمر فبلغه فأهلكه، أو عن صديق فبلغه فوقعت الواقعة، وكذلك ينبغى كتم المذاهب، فإنه ما يربح مظهرها إلا بالمعاداة، ولما صرح الشريف أبو جعفر فى زمان المقتدى بمخالفة الأشاعرة أخذ وحبس حتى مات، وكان المقصود قطع الفتن وإصلاح الرعية، فإنه أهم إلى السلطان من التعصب لمذهب.

١٩٨- فصل - رأيت كثيراً من المغفلين يظهر عليهم السخط بالأقدار، وفيهم من قل إيمانه، فأخذ يعترض، وفيهم من خرج إلى الكفر، ورأى أن ما يجرى كالعبث، وقال ما فائدة الإعدام بعد الإيجاد، والابتلاء ممن هو غنىٌّ عن أذانا. فقلت لبعض من كان يرمز إلى هذا إن حضر عقلك وقلبك حدثتك، وإن كنت تتكلم بمجرد واقعك من غير نظر وإنصاف فالحديث معك ضائع. ويحك، أحضر عقلك، واسمع ما أقول: أليس قد ثبت أن الحق سبحانه مالك، وللمالك أن يتصرف كيف يشاء! أليس قد ثبت أنه حكيم، والحكيم لا يعبث! وأنا أعلم أن فى نفسك من هذه الكلمة شيئًا فإنه قد سمعنا عن جالينوس أنه قال: ما أدرى أحكيم هو أم لا؟ والسبب فى قوله هذا، أنه رأى نقضًا بعد إحكام، فقاس الحال على أحوال الخلق وهو أن من بنى ثم نقض لا لمعنى؛ فليس بحكيم.

وجوابه لو كان حاضراً أن يقال: بماذا بان لك أن النقض ليس بحكمة، أليس بعقلك الذى وهبه الصانع لك؟ وكيف يهب لك الذهن الكامل ويفوته

هو الكمال: وهذه المحنة التى جرت لإبليس؛ فإنه أخذ يعيب الحكمة بعقله، فلو تفكر علم أن واهب العقل أعلا من العقل، وأن حكمته أوفى من كل حكيم، لأنه بحكمته التامة أنشأ العقول؛ فهذا إذا تأمله المنصف زال عنه الشك. وقد أشار سبحانه إلى نحو هذا فى قوله تعالى: ﴿أَمْ لَهُ الْبَنَاتُ وَلَكُمُ الْبَنُونَ﴾(١) أى جعل لنفسه الناقصات وأعطاكم الكاملين! فلم يبق إلا أن نضيف العجز عن فهم ما يجرى إلى أنفسنا، ونقول: هذا فعل عالم حكيم، ولكن ما يبين لنا معناه.

وليس هذا بعجب، فإن موسى -عليه السلام- خفى عليه وجه الحكمة فى نقض السفينة الصحيحة، وقتل الغلام الجميل؛ فلما بين له الخضر وجه الحكمة أذعن. فلنكن مع الخالق كموسى مع الخضر؛ أولسنا نرى المائدة المستحسنة بما عليها من فنون الطعام النفيف(٢) الظريف يُقطع ويمضغ، ولسنا نملك تلك الأفعال ولا ننكر الإفساد له، لعلمنا بالمصلحة الباطنة فيه، فما المانع أن يكون فعل الحق سبحانه له باطن لا نعلمه.

ومن أجهل الجهال العبد المملوك إذا طلب أن يطلع على سر مولاه، فإن فرضه التسليم لا الاعتراض.

ولو لم يكن فى الابتلاء بما ينكره الطباع إلا أن يُقصد إذعان العقل وتسليمه لكفى، ولقد تأملت حالة عجيبة، يجوز أن يكون المقصود بالموت هى، وذلك أن الخالق سبحانه غيبٌ فى غيب، لا يدركه الإحساس، فلو أنه لم ينقض هذه البنية لتخايل للإنسان أنه صُنع لا بصانع. فإذا وقع الموت عرفت النفس نفسها التى كانت لا تعرفها لكونها فى الجسد، وتدرك عجائب الأمور بعد رحيلها، فإذا رُدت إلى البدن عرفت ضرورة أنها مخلوقة لمن أعادها، وتذكرت حالها فى الدنيا، فإن الأذكار تعاد كما تعاد الأبدان، فيقول قائلهم: ﴿قَالُوا إِنَّا كُنَّا قَبْلُ فِي أَهْلِنَا مُشْفِقِينَ﴾(٣) ومتى رأت ما قد وعدت به من أمور الآخرة؛ أيقنت يقينًا لا شك معه، ولا يحصل هذا بإعادة ميت سواها،

(١) سورة الطور: ٣٩.
(٢) فى نسخة: النظيف.
(٣) سورة الطور: ٢٦.

وإنما يحصل برؤية هذا الأمر فيها؛ فيبنى بنية تقبل البقاء وتسكن جنة لا ينقضى دوامها، فيصلح بذلك اليقين إن تجاور الحق، لأنها آمنت بما وعد، وصبرت بما ابتلى، وسلمت لأقداره، فلم تعترض، ورأت فى غيرها العبر، ثم فى نفسها؛ فهذه هى التى يقال لها: ﴿ارْجِعِي إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً ﴿٢٨﴾ فَادْخُلِي فِي عِبَادِي ﴿٢٩﴾ وَادْخُلِي جَنَّتِي﴾(١).

فأما الشاك والكافر فيحق لهما الدخول إلى النار واللبث فيها؛ لأنهما رأيا الأدلة ولم يستفيدا، ونازعا الحكيم واعترضا عليه، فعاد شؤم كفرهما يطمس قلوبهما، فبقيت على ما كانت عليه، فلما لم تنتفع بالدليل فى الدنيا لم تنتفع بالموت والإعادة. ودليل بقاء الخبث فى القلوب قوله تعالى: ﴿وَلَوْ رُدُّوا لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ﴾(٢).

فنسأل الله عز وجل عقلاً مسلمًا يقف على حده، ولا يعترض على خالقه وموجده. ثم الويل للمعترض، أيرد اعتراضه الأقدار؛ فما يستفيد إلا الخزى. نعوذ بالله ممن خذل.

١٩٩- فصل - لا ينبغى للمؤمن أن ينزعج من مرض أو نزول موت، وإن كان الطبع لا يملك. إلا أنه ينبغى له التصبر مهما أمكن، إما لطلب الأجر بما يعانى، أو لبيان أثر الرضى بالقضاء، وما هى إلا لحظات ثم تنقضى.

وليتفكر المعانى من المرض فى الساعات التى كان يقلق فيها أين هى فى زمان العافية! ذهب البلاء وحصل الثواب، كما تذهب حلاوة اللذات المحرمة ويبقى الوزر، ويمضى زمان التسخط بالأقدار، ويبقى العتاب.

وهل الموت إلا آلام تزيد فتعجز النفس عن حملها فتذهب؛ فليتصور المريض وجود الراحة بعد رحيل النفس، وقد هان ما يلقى، كما يتصور العافية بعد شرب الشربة المرة. ولا ينبغى أن يقع جزع بذكر البلى، فإن ذلك شأن المركب؛ أما الراكب ففى الجنة أو فى النار. وإنما ينبغى أن يقع الاهتمام الكلى بما يزيد فى درجات الفضائل قبل نزول المعوّق عنها.

---

(١) سورة الفجر: ٢٨-٣٠.

(٢) سورة الأنعام: ٢٨.

فالسعيـد من وُفق لاغتنام العافية، ثم يختار تحصيل الأفضل فالأفضل فى زمن الاغـتنام، ولـيـعلم أن زيادة المنازل فى الجنة عـلى قـدر التـزيد من الفضائل هاهنا.

والعمـر قصيـر، والفضـائل كثيـرة فليبالغ فـى البدار. فيـا طول راحة التعب، ويا فرحـة المغموم، ويا سرور المحزون، ومـتى تخايل دوام اللذة فى الجنة من غير منغّص ولا قاطع، هان عليه كل بلاء وشدة.

٢٠٠- فصل - حضرنا يومًـا جنازة شاب مات أحسن مـا كانت الدنيا له، فرأيت من ذم الناس للدنيا، وعيب من سكن إليها، والتقبيح للغافلين عن الاستعداد لهذا المصرع أمرًا كـبيرًا من الحاضرين، فقلت: نعم ما قلتم، ولكن اسمعوا منى ما لم تسمعوه:

أعجب الأشـياء أن العـاقل إذا علم قرب هذا المصرع منـه أوجب عليه عقله الـبدار بالعمل والـقلق من الخوف، وقد اشـتد ذلك بأقـوام فهـاموا فى البرارى، وطووا الأيام بالمجـاعة، وداموا علـى سهر الليل، ولازمـوا المقابر، فهلكوا سريعًا، ولعمرى إن ما خافوه يستحق أكثر من هذا الفعل، ولكن نرى العقل الذى أوجب هذا القلق قد أمـر بما يوجب السكون، قال: إنما خلق هذا البـدن ليحـمل النفس كمـا تحمل الناقـة الراكب، ولابد من التلطف بالناقـة ليحصل المقـصود من السير، ولا يحسن فى العـقل دوام السهر وطول القلق، لأنه يؤثر فى البدن فيـفوت أكثر المقصود. كـيف وقد خلق بدن الآدمى خلقًا لطيفًا! فإذا هجر الدسم نشف الدماغ، فـإذا دام على السهر قوى اليبس، فإذا لازم الحزن مرض القلب.

فـلابد من التلطف بالبـدن بتناول ما يصلحـه وبالقلب بما يدفع الحـزن المؤذى له؛ وإلا فـمتى دام المؤذى عـجل التلف. ثم يأتى الشـرع بما قد قـاله العقل؛ فيقول: «**إن لنفسك عليك حقًّا، وإن لزوجك عليك حقًّا**»(١)؛ **فصم وأفطر، وقم ونم**»(٢).

(١) صحيح: وقد تقدم.
(٢) صحيح: وقد تقدم.

ويقـول: «**كـفي بالمرء إثـمًـا أن يـضـيع من يقـوت**[١]، **ويحث عن النكاح**»[٢]. ودوام القلق واليبس يترك الزوجة كالأرملة، والولد كاليتيم، ولا وجه للتشـاغل بالعلم مع هذا القلق، ومن أراد مصداق ما قلته فيـتأمل حالة الرسول -ﷺ- فـإنه كـان يعدل مـا عنده من الخـوف فـيمـازح؛ ويسـابق عائشة[٣]، ويكثر من التزوج، وكان يتلطف ببدنه، فيختار الماء البارد، ويحب الحلوى واللحم، ولولا مساكنة نوع غفلة لما صنف العلماء، ولا حفظ العلم، ولا كُتب الحديـث؛ لأن من يقول: ربما مت اليوم كيف يكتب وكـيف يسمع ويصنف.

فلا يهولنكم ما ترون من غفلة الناس عن الموت حـق ذكره، فإنها نعمة من الله سبحـانه بها تقوم الدنيا، ويصلح الدين، وإنما تذم قوة الغـفلة الموجبة للتفـريط والإهمال لمحاسـبة للنفس، وتضيـيع الزمان في غيـر التزود، وربما قويت فـحملت على المعاصي. فأمـا إذا كانت بقدر كانت كـالملح في الطعام لابد منه، فإن كثر صار الطعام زعافًـا. فالغفلة تمدح إذا كانت بقدر كما بينا، ومتى زادت وقع الذم؛ فـافهم مـا قلته. ولا تقل فـلان شديد اليقظـة ما ينام الليل، وفلان غافل ينام أكثر الليل، فـإن غفلة توجب مصلحة البدن والقلب لا تذم والسلام.

٢٠١- **فصل** - ما يكاد يحب الاجتماع بالناس إلا فارغ؛ لأن المشغول القلب بالحق يفـر من الخلق، ومتى تمكن فـراغ القلب من معـرفة الحق امـتلأ بالخلق، فصار يعمل لهم ومن أجلهم ويهلك بالرياء ولا يعلم.

وإني لأتألم على بعض من يتـزيا بالفقـر والتصوف وهو يلـبس ثيابًا لا

---

(١) صحيح: وقد تقدم.

(٢) يشير إلى الحديث الذي رواه البخاري (١٩٠٥) فـي كتاب الصوم، باب: الصوم لمن خاف على نفسـه العزوبة، ومـسلم (١٤٠٠) في كتاب النكاح، باب: اسـتحـباب النكاح لمن تاقت نفسه إليه ووجد مؤنة من حديث عبد الله -رضي الله عنه-، بلفظ: «يا معشر الشباب، من استطاع منكم الباءة فليتزوج. . . .».

(٣) صحيح: وتقدم تخريجه.

تساوى ديناراً، وعنده المال الكثير، وقد أمـرح نفسه فى المطاعم الشهية، وهو عامل بمقتـضى الكبر والتصدر، فـيتقرب إلى أرباب الدنيـا، ويستزرى أرباب العلم، ويزور أولئك دونهم، وإنما يَرُدّ مـا يعطى ليشـيع له اسم زاهد، فـتراه يربى الناموس وهو فى احتياله كثـعلب، وفى نهوضه على أغراضه فى الباطن كلب شرى.

فأقول: سبحان الله، مـا يزهد إلا الثياب، أترى ما سمع هذا قول النبى -ﷺ-: «**إن الله يحب أن يرى أثر نعمته على عبده**»[1]، وأعوذ بالله من رؤية النفس، ورؤية الخلق، فإن من رأى نفسه تكبـر، والمتكبر أحمق، لأنه ما من شىء يتكبر به إلا ولغيره أكثر منه، ومن رأى الخلق عبدهم وهو لا يعلم.

فأما العامل لله سبحانه وتعالى فهو بعيد من الخلق، فإن تقربوا إليه ستر حاله بما يوجب بعدهم عنه، وقد رأينـا من يرائى ولا يدرى فيمتنع من المشى فى السوق، ومن زيارة الإخوان، ومن أن يشترى شيـئًا بنفسه، وتوهمه نفسه أنى أكره مـخالطة السوقـة، وإنما هذا يرى جاهًا بين العلمـاء، إذ لو خالطهم لامتُـحِىَ جاهه، وبطل تقبيل يده. وقـد كان بشر الحـافى يجلس فى مجلس عند العطار.

وأبلغ من هذا كله أن نبينا -ﷺ- كان يشتـرى شيئًا ويحـمله، وخرج على بن أبى طالب -رضي الله عنه- وهو أمير المؤمنين فاشـترى ثوبًا، وقد كان طلحة ابن مطرف قارئ أهل الكوفة، فلمـا كثر الناس عليه مشى إلى الأعـمش فقرأ عليه، فمال الناس إلى الأعمش وتركـوا طلحة. هذا والله الكبريت الأحمر، والإكسـير، لا مـا يظن إكسيـراً فى الكيمـياء، والمعاملة مع الله تـعالى هكذا تكون. فأما ضـد هذه الحال فحالة عابد للخلق ملبس، وقد عم هـذا جمهور الخلق حاشا السلف.

أفـدى ظبـاء فـلاة مـا عـرفن بهـا   مضغ الكلام ولا صـبغ الحواجيب

(١) أخرجه الترمذى (٢٨١٩) فى كتاب الأدب، باب: ما جاء إن الله تعالى يحب أن يرى أثر نعمته على عبده، من حديث عبد الله بن عمرو -رضي الله عنهما-.

٢٠٢- فصل - كل المعاصى قبيحة، وبعضها أقبح من بعض، فإن الزنى من أقبح الذنوب، فإنه يفسد الفراش ويغير الأنساب، وهو بالجارة أقبح.

فقد روى فى الصحيحين من حديث ابن مسعود قال: «قلت يا رسول الله أى ذنب أعظم؟ قال: **«أن تجعل لله نداً وهو خلقك»**. قلت: ثم أى؟ قال: **«أن تقتل ولدك من أجل أن يَطعمَ معك»**. قلت: ثم أى؟ قال: **«أن تزانى حليلة جارك»**[١].

وقد روى البخارى فى تاريخه من حديث المقداد بن الأسود عن النبى -ﷺ- أنه قال: **«لأن يزنى الرجل بعشر نسوة أيسر من أن يزنى بامرأة جاره ولأن يسرق من عشرة أبيات أيسر له من أن يسرق من بيت جاره»**[٢].

وإنما كان هذا، لأنه يضم إلى معصية الله عز وجل انتهاك حق الجار.

ومن أقبح الذنوب أن يزنى الشيخ، ففى الحديث: **«إن الله يبغض الشيخ الزانى»**[٣] لأن شهوة الطبع قد ماتت، وليس فيها قوة تغلب، فهو يحركها ويبالغ، فكانت معصيته عناداً.

ومن المعاصى التى تشبه المعاندة لبس الرجل الحرير والذهب، خصوصًا خاتم الذهب الذى يتحلى به الشيخ، وأنه من أبرد الأفعال وأقبح الخطايا.

ومن هذا الفن الرياء والتخاشع وإظهار التزهد للخلق، فإنه كالعبادة لهم مع إهمال جانب الحق عز وجل.

---

(١) صحيح: أخرجه البخارى (٤٤٧٧) فى كتاب التفسير، باب: قوله تعالى: ﴿فلا تجعلوا لله أندادًا وأنتم تعلمون﴾، ومسلم (٨٦) فى كتاب الإيمان، باب: كون الشرك أقبح الذنوب من حديث عبد الله -رضي الله عنه-.

(٢) صحيح: أخرجه أحمد فى «مسنده»، والبخارى فى الأدب المفرد، والطبرانى فى الكبير من حديث المقداد بن الأسود كما فى «صحيح الجامع» (٥٠٤٣).

(٣) أخرجه الترمذى (٢٥٦٨) فى كتاب صفة الجنة، باب: رقم (٢٥)، والنسائى (٥/ ٨٤) فى كتاب الزكاة، باب: التحريض على الصدقة، وأحمد فى «مسنده» (٥/ ١٥٣)، وابن حبان فى «صحيحه» (٣٣٤٩ و ٣٣٥٠) من حديث أبى ذر -رضي الله عنه-.

وكذلك المعاملة بالربا الصريح، خصوصًا من الغنى الكثير المال.

ومن أقبح الأشياء أن يطول المرض بالشيخ الكبير ولا يتوب من ذنب، ولا يعتذر من زلة، ولا يقضى دينًا، ولا يوصى بإخراج حق عليه.

ومن قبائح الذنوب أن يتوب السارق والظالم ولا يرد المظالم، والمفرّط فى الزكاة أو فى الصلاة ولا يقضى.

ومن أقبحها أن يحنث فى يمين طلاقه ثم يقيم مع المرأة، وقس على ما ذكرته، فالمعاصى كثيرة، وأقبحها لا يخفى.

وهذه المستقبحات فضلاً عن القبائح تشبه العناد للآمر، فيستحق صاحبها اللعن ودوام العقوبة. وإنى لأرى شرب الخمر من ذلك الجنس، لأنها ليست مشتهاة لذاتها ولا لريحها ولا لطعمها فيما يذكر، وإنما لذتها فيما يقال بعد تجرع مرارتها، فالإقدام على ما لا يدعو إليه الطبع إلى أن يصل التناول إلى اللذة معاندة. نسأل الله عز وجل إيمانًا يحجز بيننا وبين مخالفته، وتوفيقًا لما يرضيه؛ فإنما نحن به وله.

٢٠٣- فصل - اعتبرت على أكثر العلماء والزهاد أنهم يبطنون الكبر فهذا ينظر فى موضعه وارتفاع غيره عليه، وهذا لا يعود مريضًا فقيرًا يرى نفسه خيرًا منه، حتى أنى رأيت جماعة يُومأ إليهم، منهم من يقول لا أدفن إلا فى دكة أحمد بن حنبل، ويعلم أن فى ذلك كسر عظام الموتى، ثم يرى نفسه أهلاً لذلك التصدر. ومنهم من يقول: ادفنونى إلى جانب مسجدى ظنًّا منه أنه يصير بعد موته مزورًا كمعروف الكرخى، وهذه خلة مهلكة ولا يعلمون قول النبى -ﷺ-: «**من ظن أنه خير من غيره فقد تكبر**»، وقلَّ من رأيت إلا وهو يرى نفسه.

والعجب كل العجب ممن يرى نفسه، أتراه بماذا رآها: إن كان بالعلم فقد سبقه العلماء، وإن كان بالتعبد فقد سبقه العبَّاد، أو بالمال فإن المال لا يوجب بنفسه فضيلة دينية. فإن قال: قد عرفت ما لم يعرف غيرى من العلم فى زمنى، فما علىَّ ممن تقدم، قيل له: ما نأمرك يا حافظ القرآن أن ترى

نفسك فى الحفظ كمن يحفظ النصف، ولا يا فقيه أن ترى نفسك فى العلم كالعامى، إنما نحذر عليك أن ترى نفسك خيراً من ذلك الشخص المؤمن وإن قل عمله، فإن الخيرية بالمعانى لا بصور العلم والعبادة.

ومن تلمح خصال نفسه وذنوبها علم أنه على يقين من الذنوب والتقصير، وهو من حال غيره على شك. فالذى يُحذر منه الإعجاب بالنفس، ورؤية التقدم فى أحوال الآخرة. والمؤمن لا يزال يحتقر نفسه.

وقد قيل لعمر بن عبد العزيز -رضي الله عنه-: إن مت ندفنك فى حجرة رسول الله -ﷺ-، فقال: لأن ألقى الله بكل ذنب غير الشرك أحب إلىَّ من أن أرى نفسى أهلاً لذلك.

وقد روينا: أن رجلاً من الرهبان رأى فى المنام قائلاً يقول له: فلان الإسكافى خير منك، فنزل من صومعته فجاء إليه فسأله عن عمله فلم يذكر كبير عمل، فقيل له فى المنام: عد إليه وقل له: ممّ صفرة وجهك، فعاد فسأله فقال: ما رأيت مسلمًا إلا وظننته خيراً منى؛ فقيل له: فبذاك ارتفع.

٢٠٤- فصل - متى رأيت صاحبك قد غضب وأخذ يتكلم بما لا يصلح، فلا ينبغى أن تعقد على ما يقوله خنصراً، ولا أن تؤاخذه به، فإن حاله حال السكران، لا يدرى ما يجرى، بل اصبر لفورته، ولا تعوّل عليها، فإن الشيطان قد غلبه، والطبع قد هاج، والعقل قد استتر.

ومتى أخذت فى نفسك عليه، أو أجبته بمقتضى فعله كنت كعاقل واجه مجنونًا، أو كمفيق عاتب مغمى عليه، فالذنب لك؛ بل انظر بعين الرحمة، وتلمح تصريف القدر له، وتفرج فى لعب الطبع به، واعلم أنه إذا انتبه ندم على ما جرى، وعرف لك فضل الصبر.

وأقل الأقسام أن تسلمه فيما يفعل في غضبه إلى ما يستريح به، وهذه الحالة ينبغى أن يتلمحها الولد عند غضب الوالد، والزوجة عند غضب الزوج، فتتركه يشتفى بما يقول، ولا تعول على ذلك، فسيعود نادمًا معتذرًا،

ومتى قوبل على حــالته ومقالتــه صارت العداوة متمكنة، وجــازى فى الإفاقة على ما فُعل فى حقه وقت السكر.

وأكثــر الناس على غير هذه الطريق، مــتى رأوا غضبان قــابلوه بما يقول ويعمل على مــقتضى الحكــمة. هذا، بل الحكمة مــا ذكرته، وما يعــقلها إلا العالمون.

٢٠٥- **فصل** - ليس فى الدنيا أبله ممن يسىء إلى شخص ويعلم أنه قد بلغ إلى قلبــه بالأذى ثم يصطلحــان فى الظاهر، فــيعلم أن ذلك الأثر مُــحِيَ بالصلح، وخصوصًا الملوك، فإن لذتهم الكبرى أن لا يرتفع عليهم أحد، ولا ينكسر لهم غرض؛ فإذا جرى شىء من ذلك لم ينجبر.

واعتــبر هذا بأبى مــسلم الخراســانى، فإنه غض مــن قدر المنصــور قبل ولايته فحــصل ذلك فى نفسه فقــتله، ومن نظر فى التواريخ رأى جمــاعة قد جرى لهم مثل هذا. ولا ينبغى لمن أساء إلى ذى سلطان أن يقع فى يده، فإنه إذا رام(١) التخلص لم يقدر، فــيبقى ندمه على ترك احتــرازه، وحسرته على مساكنة الضمان للسلامة أشد عليه من كل ما يلقى به من الهوان والأذى.

ومن هذا الجنس الأصدقاء المتماثلون؛ فإنك متى آذيت شخصًا وبلغ إلى قلبه أذاك فلا تثق بمودته، فإن آذاك نصب عينه، فإن لم يحتل عليك لم يصف لك. ولا تخــالط إلا من أنعمت عليــه بحــسب، فهــو لم ير منك إلا خيــراً فيكون فى نفسه، وكذلك الولد والــزوجة والمعاملون. ويلحق بهذا أن أقول: لا ينبغى أن تعادى أحدًا ولا تتكلم فى حقــه، فربما صارت له دولة فاشتفى، وربما احتيج إليه فلم يُقدر عليه. فالعــاقل يصور فى نفسه كل ممكن ويستر ما فى قلبه من البغض والود، ويدارى مع الغيظ والحــقد. هذه مشاور العقل إن قبلت.

٢٠٦- **فصل** - كل من لا يتلمح العــواقب ويستعــد لما يجوز وقــوعه فليس بكامل العــقل، واعتبر هذا فى جــميع الأحوال، مــثل أن يغتر بشــبابه

---

(١) رام: طلب.

ويدوم على المعاصى ويسوف بالتوبة، فربما أُخذ بغتة ولم يبلغ بعض ما أمل، وكذلك إذا سوّف بالعمل أو بحفظ العلم، فإن الزمان ينقضى بالتسويف ويفوت المقصود، وربما عزم على فعل خير أو وقف شيء من ماله فسوّف فبُغت.

فالعاقل من أخذ بالحزم فى تصوير ما يجوز وقوعه وعمل بمقتضى ذلك، فإن امتد الأجل لم يضره، وإن وقع المخوف كان محترزاً. ومما يتعلق بالدنيا أن يميل مع السلطان ويسيء إلى بعض حواشيه ثقة بقربه منه، ربما تغير ذلك السلطان فارتفع عدوه فانتقم منه.

وقد يعادى بعض الأصدقاء ولا يبالى به لأنه دونه فى الحالة الحاضرة، فربما صعدت مرتبة ذلك فاستوفى ما أسلفه إليه من القبيح وزاد.

فالعاقل من نظر فيما يجوز وقوعه ولم يعاد أحداً، فإن كان بينهما ما يوجب المعاداة كتم ذلك، فإن صح له أن يثب على عدوه فينتقم منه انتقاماً يبيحه الشرع جاز، على أن العفو أصلح فى باب العيش، ولهذا ينبغى أن يُخدم البطال، فإنه ربما عمل فعرف ذلك لمن خدم، وقس على أنموذج ما ذكرته من جميع الأحوال.

٢٠٧- فصل - بقدر صعود الإنسان فى الدنيا تنزل مرتبته فى الآخرة، وقد صرح بهذا ابن عمر -رضي الله عنهما- فقال: والله لا ينال أحد من الدنيا شيئًا إلا نقص من درجاته عند الله، وإن كان عنده كريمًا. فالسعيد من اقتنع بالبلغة، فإن الزمان أشرف من أن يضيع فى طلب الدنيا. اللهم إلا أن يكون متورعًا فى كسبه معينًا لنفسه عن الطمع قاصداً إعانة أهل الخير والصدقة على المحتاجين، فكسب هذا أصلح من بطالته.

فأما الصعود الذى سببه مخالطة السلاطين فبعيد أن يسلم معه الدين، فإن وقع سلامته ظاهراً فالعاقبة خطرة.

قال أبو محمد التميمى: ما غبطت أحداً إلا الشريف أبا جعفر يوم مات القائم بأمر الله فإنه غسله وخرج ينفض أكمامه فقعد فى مسجده لا يبالى

بأحـد، ونحن منزعجـون لا ندري ما يجـرى علينا، وذاك أن التمـيمـى كان متعلقًا على السلطان يمضى له فى الرسائل فخاف مغبة القرب.

وقد رأينا جمـاعة من العلماء خالطوا السلطان فكـانت مغبتهم سـيئة، ولعمرى إنهم طلبوا الراحة فأخطؤوا طريقها، لأن غموم القلب لا يوازيها لذة مال، ولا لذة مطعم، هذا فى الدنيا قبل الآخرة.

ومن أشرف وأطيب عيشًا من منفرد فى زاوية لا يخالط السلاطين، ولا يبالى أطاب مطعـمه أم لم يطب، فـإنه لا يخلو من كسرة وقـعب ماء، وهو سليم من أن يقال له كلمة تؤذيه أو يعيبه الشرع حين دخوله عليهم أو الخلق.

ومن تأمل حال أحمد بن حنبل فـى انقطاعه وحال ابن أبى داود ويحيى ابن أكثم عرف الفرق فى طيب العيش فى الدنيا والسلامة فى الآخرة.

وما أحسن مـا قال ابن أدهم: لو علم الملوك وأبناء الملوك ما نحـن فيه من لذيذ العيش لجالدونا عليه بالسيوف، ولقد صدق ابن أدهم، فإن السلطان إن أكل شيـئًا خاف أن يكون قد طرح لـه فيه سم، وإن نام خاف أن يُغـتال، وهو وراء المغاليق لا يمكنه أن يخرج لفرجة، فإن خرج كان منزعجًا من أقرب الخلق إليه، واللذة التى ينالها تبـرد عنده، ولا يبقى له لذة مطعم ولا منكح، وكلما استظرف المطاعم أكثر منها ففسدت معدته، وكلما استجد الجوارى أكثر منهن فذهبت قوته، ولا يكاد يبعد ما بين الوطء فلا يجد فى الوطء كبير لذة، لأن لذة الوطء بقدر بعـد ما بين الزمانين، وكـذلك لذة الأكل، فإن من أكل على شبع وطئ من غيـر صدق شهوة وقلق لم يجد اللذة التـامة التى يجدها الفقير إذا جاع، والعزب إذا وجد امـرأة. ثم إن الفقير يرى نفسه على الطريق فى الليل فينام. ولذة الأمن قـد حرمهـا الأمراء؛ فلذتهم ناقصة، وحـسابهم زائد.

والله ما أعرف من عاش رفيع القدر بالغًا من اللذات ما لم يبلغ غيره إلا العلماء المخلصين كالحسن وسفيان وأحمد، والعبّاد المحققين كمعروف فإن لذة العلم تزيد على كل لذة.

ومـا ضرّهم إذا جـاعوا أو ابتلوا بأذى، فـإن ذلك يزيد فى رفـعتـهم، وكذلك لذة الخلوة والتعبد؛ فهذا مـعروف، كان منفرداً بربه طيب العيش معه لذيذ الخلوة به، ثم قد مات منذ نحو أربعمائة سنة فما يخلو أن يهدى إليه كل يوم ما تقدير مجـموعه أجزاء من القرآن، وأقله من يقف على قبـره فيقرأ قل هو الله أحد ويهديها له. والسلاطين تقف بين يدى قبره ذليلة هذا بعد الموت، ويوم الحـشـر تنشـر الكرامـات التى لا توصف، وكـذلك قبـور العلـمـاء المحققين.

ولما بُليت أقـوام بمخالطة الأمـراء أثر ذلك التكدير فى أحوالهم كـلها. فقال سفـيان بن عيينة: منذ أخذت من مال فلان الأمـير منعت ما كان وُهب لى من فهم القرآن، وهذا أبو يوسف القاضى لا يزور قبره اثنان. فالصبر عن مخالطة الأمراء -وإن أوجب ضيق العيش من وجه- يحصل طيب العيش من جهات، ومع التخليط لا يحصل مقصود؛ فمن عزم جزم.

كان أبو الحسن القزوينى لا يخرج من بيـته إلا وقت الصلاة، فربما جاء السلطان فيقعد لانتظاره ليسلم عليه، ومدُّ النفس فى هذا ربما أضجر السامع. ومن ذاق عرف.

٢٠٨- فصل - من عرف الشرع كما ينبغى وعلم حالة الرسول -ﷺ- وأحوال الصـحابة وأكابر العلماء عـلم أن أكثر الناس على غيـر الجادة، وإنما يمشون مع العادة، يتـزاورون فيغتاب بعضهم بعـضًا، ويطلب كل واحد منهم عورة أخيه، ويحـسده إن كانت نعمة، ويشمت به إن كانت مصـيبة، ويتكبر عليه إن نصح له، ويخادعه لتحصيل شىء من الدنيا، ويأخذ عليه العثرات إن أمكن؛ هذا كله يجرى بين المنتمين إلى الزهد لا الرعاع.

فالأولى بمن عـرف الله سبحانه وعـرف الشرع وسيـر السلف الصالحين الانقطاع عن الكل، فإن اضطر إلى لقـاء منتسب إلى العلم والخيـر تلقاه وقد لبس درع الحذر، ولم يطـل معه الكلام، ثم عـجل الهرب منه إلى مـخالطة الكتب التى تحوى تفسيراً لنطاق الكمال.

٢٠٩- فصل - الكمال عـزيز، والكامل قليل الوجود. فأول أسـباب الكمال يناسب أعـضاء البـدن، وحسن صورة البـاطن، فصورة البـدن تسمى خلقًا، وصورة الباطن تسمى خلُقًا. ودليل كمال صورة البدن حسن الصمت، واستعمال الأدب. ودليل صورة الباطن حسن الطبائع، والأخلاق. فالطبائع: العفـة، والنزاهة، والأنفة من الجـهل، ومبـاعدة الشـره. والأخلاق: الكرم، والإيثار، وسـتر العيـوب، وابتداء المعروف، والحلم عن الجـاهل. فمن رزق هذه الأشيـاء رقته إلى الكمـال، وظهر عنه أشرف الخـلال، وإن نقصت خلة أوجبت النقص.

٢١٠- فصل - ليس فى الدنيا أبله ممن يريد معـاملة الحق سبحانه على بلوغ الأغراض، فأين تكون البلوى إذن؟ لا والله، لابد من انعكاس المرادات، ومن توقف أجوبة السـؤالات، ومن تشفّى الأعداء فى أوقات. فـأما من يريد أن تدوم له السلامة والنصر على من يعاديه، والعافية من غير بلاء، فما عرف التكليف، ولا فهم التسليم.

أليس الرسول -ﷺ- يُنصـر يوم بدر، ثم يجرى عليـه ما جـرى يوم أحد. أليس يُصد عن البيت ثم قهَر بعد ذلك؛ فلابد من جيد وردى، والجيد يوجب الشكر، والردى يحرك إلى السـؤال والدعاء، فإن امـتنع الجواب أريد نفوذ البلاء والتسليم للقضـاء. وهاهنا يبين الإيمان، ويظهر فى التسليم جواهر الرجال، فإن تحـقق التسليم باطنًا وظاهراً فذلك شـأن الكامل، وإن وجد فى الباطن انعصـار من القضاء لا من المقضى فـإن الطبع لابد أن ينفر من المؤذى دل على ضعف المعرفة، فإن خرج الأمـر إلى الاعتراض باللسان، فتلك حال الجهال، نعوذ بالله منها.

٢١١- فصل - من الابتلاء العظيم إقامة الرجل فى غير مقامه. مثل أن يحوج الرجل الصـالح إلى مداراة الظالم والتـردد إليه، وإلى مـخالطة من لا يصلح، وإلى أعمـال لا تليق به، أو إلى أمور تقطع عليـه مراده الذى يؤثره، مثل أن يقال للعـالم: تردد إلى الأمير وإلا خفنا عليك سطوته، فيـتردد فيرى

ما لا يصلح ولا يمكنه أن ينكر، أو يحتاج إلى شيء من الدنيا وقد منع حقه فيحتاج أن يعرض بذكر ذلك، أو يصرح لينال بعض حقه، ويحتاج إلى مداراة من تصعب مداراته، بل يتشتت همه لتلك الضرورات.

وكذلك يفتقر إلى الدخول فى أمور لا تليق به، مثل أن يحتاج إلى الكسب فيتردد إلى السوق أو يخدم من يعطيه أجرته، وهذا لا يحتمله قلب المراقب لله سبحانه لأجل ما يخالطه من الأكدار، أو يكون له عائلة وهو فقير فيتفكر فى إغنائهم، فيدخل فى مداخل كلها عنده عظيمة. وقد يبتلى بفقد من يحب، أو ببلاء فى بدنه، وبعكس أغراضه وتسليط معاديه عليه، فيرى الفاسق يقهره، والظالم يذله؛ وكل هذه الأشياء لا يجدى فيها إلا التسليم واللجا إلى المقدّر فى الفرج؛ فيُرى الرجل المؤمن الحازم يثبت لهذه العظائم ولا يتغير قلبه، ولا ينطق بالشكوى لسانه.

أوليس الرسول -ﷺ- يحتاج أن يقول من يوارينى من ينصرنى، ويفتقر إلى أن يدخل مكة فى جوار كافر، ويُشق السلى على ظهره وتُقتل أصحابه، ويدارى المؤلفة، ويشتد جوعه وهو ساكن لا يتغير، وما ذاك إلا لأنه علم أن الدنيا دار ابتلاء، لينظر كيف تعملون، ومما يهون هذه الأشياء علم العبد بالأجر، وأن ذلك مراد الحق: فما لجرح إذا أرضاكم ألم.

٢١٢- فصل - لا ينكر أن الطباع تحب المال، لأنه سبب بقاء الأبدان، لكنه يزيد حبه فى بعض القلوب حتى يصير محبوبًا لذاته لا للتوصل به إلى المقاصد، فترى البخيل يحمل على نفسه العجائب، ويمنعها اللذات، وتصير لذاته فى جمع المال، وهذه جبلة فى خلق كثير، وليس العجب أن تكون فى الجهال، وينبغى أن يؤثر فيها عند العلماء المجاهدة للطبع ومخالفته، خصوصًا فى الأفعال اللازمة فى المال.

فأما أن يكون العالم جامعًا للمال من وجوه قبيحة من شبهات قوية وبحرص شديد وبذُلّ فى الطلب، ثم يأخذ من الزكوات ولا تحل له مع الغنى، ثم يدخره ولا ينفع به، فهذه بهيمية تخرج عن صفات الآدمية، بل

البهيمية أعذر، لأنها بالرياضة تتغير طباعها، وهؤلاء ما غيرتهم رياضة، ولا أفادهم العلم.

ولقد كان أبو الحسن البسطامى مقيمًا فى رباط البسطامى الذى على نهر عيسى، وكان لا يلبس إلا الصوف شتاء وصيفًا، وكان يُحترم ويُقصد، فخلّف ما لا يزيد على أربعة آلاف دينار.

ورأينا بعض أشياخنا وقد بلغ الثمانين وليس له أهل ولا ولد، وقد مرض فألقى نفسه عند بعض أصدقائه؛ يتكلف له ذلك الرجل ما يشتهيه وما يشفيه، فمات فخلّف أموالاً عظيمة. ورأينا صدقة بن الحسين الناسخ، وكان على الدوام يذم الزمان وأهله، ويبالغ فى الطلب من الناس، ويتخفف وهو فى المسجد وحده ليس له من يقوم بأمره، فمات فخلف فيما قيل ثلاثمائة دينار.

وكان يصحبنا أبو طالب بن المؤيد الصوفى، وكان يجمع المال، فسرق منه نحو مائة دينار، فتلهف عليها وكان ذلك سبب هلاكه.

ومن أحوال الناس أنك ترى أقوامًا جلسوا على صفة القوم يطلبون الفتوح، فيأتيهم منها الكثير الذى يصيرون به من الأغنياء، وهم لا يمتنعون من أخذ زكاة ولا من طلب.

وكذلك القُصَّاص، يخرجون إلى البلاد ويطلبون، فيحصل لهم المال الكثير، فلا يتركون الطلب عادة. فيا سبحان الله، أى شىء أفاد العلم؛ بل الجهل كان لهؤلاء أعذر.

ومن أقبح أحوالهم لزومهم الأسباب التى تجلب لهم الدنيا من التخاشع والتنسك فى الظاهر، وملازمة حث العزلة عن المخالطة، وكل هؤلاء بمعزل عن الشرع.

ولقد تأملت على بعضهم من القدح فى نظيره إلى أن يبلغ به إلى التعرض به للهلاك. فالويل لهم، ما أقلَّ ما يتمتعون بظواهر الدنيا، وإن كان

مقلب القلوب قد صرف القلوب عن محبتهم، لأن الحق عز وجل لا يميل بالقلوب إلا إلى المخلصين؛ فقد فاتتهم الدنيا على الحقيقة، وهي مسك القلوب والآخرة بالاتفاق، وما حصلوا إلا صورة الحطام. نسأل الله عز وجل عقلاً يدبر دنيانا، ويحصل لنا آخرتنا، والرزاق قادر.

٢١٣- فصل - ينبغي لمن عرف شرف الوجود أن يحصل أفضل الموجود؛ هذا العمر موسم، والتجارات تختلف، والعامة تقول: عليكم بما خفّ حمله وكثر ثمنه. فينبغي للمستيقظ أن لا يطلب إلا الأنْفَس، وأنفس الأشياء في الدنيا معرفة الحق عز وجل.

فمن العارفين السالكين من وافى في طريقه بغيته في السفر، ومنهم من همته متعلقة بطلب ربحه، ومنهم من ينظر إلى ما يُرضي الحبيب فيجلبه إلى بلد المعاملة، ويرضى بالقبول ثمنًا، ويرى أن كل البضائع لا تفي بحق الخفارة، ومنهم من يرى لزوم الشكر في اختياره السلوك دون غيره فيقر بالعجز.

وقد ارتفع قوم عن هذه الأحوال، فرأوا مجرد التوفيق يشغلهم عن النظر إلى العمل. أولئك الأقلون عددًا والأعظمون قدرًا أقل نسلاً من عنقاء مغرب.

٢١٤- فصل - من علم قرب الرحيل عن مكة استكثر من الطواف، خصوصًا إن كان لا يؤمل العود لكبر سنه وضعف قوته. فكذلك ينبغي لمن قاربه ساحل الأجل بعلو سنه أن يبادر اللحظات، وينتظر الهاجم بما يصلح له فقد كان في قوس الأجل منزع زمان الشباب، واسترخى الوتر المشيب عن سيّة القوس؛ فانحدر إلى القلب وضعفت القوى أن يوتر، وما بقي إلا الاستسلام لمحارب التلف، فالبدار البدار إلى التنظيف ليكون القدوم على طهارة، وأي عيش في الدنيا يطيب لمن أيامه السليمة تغريه إلى الهلاك، وصعود عمره نزول عن الحياة، وطول بقائه نقص مدى المدة، فليتفكر فيما بين يديه، وهو أهم مما ذكرناه.

أليس في الصحيح: **«ما منكم أحد إلا ويعرض عليه مقعده بالغداة والعشي من الجنة والنار غدوة وعشيًا، فيقال: هذا مقعدك حتى يبعثك الله»**(١) فواأسفًا لمهدَّد، كم يقتل قبل القتل. ويا طيب عيش الموعود بأزيد المنى. وليعلم من شارف السبعين، أن النفس أنين. أعان الله من قد قطع عقبة العمر على رمل زرود(٢) الموت.

٢١٥- فصل- من أراد أن يعلم حقيقة الرضا عن الله عز وجل في أفعاله، وأن يدرى من أين نشأ الرضا، فليفكر في أحوال رسول الله -ﷺ-؛ فإنه لما تكاملت معرفته بالخالق سبحانه رأى أن الخالق مالك، وللمالك التصرف في مملوكه، ورآه حكيمًا لا يصنع شيئًا عبثًا، فسلم تسليم مملوك لحكيم، فكانت العجائب تجري عليه ولا يوجد منه تغير، ولا من الطبع تأفف، ولا يقول بلسان الحال لو كان كذا، بل يثبت للأقدار ثبوت الجبل لعواصف الرياح.

هذا سيد الرسل -ﷺ- بعث إلى الخلق وحده والكفر قد ملأ الآفاق، فجعل يفر من مكان إلى مكان، واستتر في دار الخيزران، وهم يضربونه إذا خرج ويدمون عقبه، وشُق السَّلى على ظهره وهو ساكت ساكن، ويخرج كل موسم فيقول من يؤويني من ينصرني! ثم خرج من مكة فلم يقدر على العود إلا في جوار كافر، ولم يوجد من الطبع تأنف، ولا من الباطن اعتراض؛ إذ لو كان غيره لقال: يا رب أنت مالك الخلق، وقادر على النصر، فلمَ أذل؟ كما قال عمر -رضي الله عنه- يوم صلح الحديبية: ألسنا على الحق، فلمَ نعط الدنية في ديننا! ولما قال هذا، قال له الرسول -ﷺ-: **«إني عبد الله ولن يضيعني»**(٣) فجمعت الكلمتان الأصلين اللذين ذكرناهما.

---

(١) صحيح: أخرجه البخاري (١٣٧٩) في كتاب الجنائز، باب: الميت يعرض عليه بالغداة والعشي، ومسلم (٢٨٦٦) في كتاب الجنة وصفة نعيمها، باب: عرض مقعد الميت من الجنة أو النار عليه من حديث ابن عمر -رضي الله عنهما- بلفظ قريب من لفظ المصنف.

(٢) زرود: اسم موضع.

(٣) صحيح: أخرجه البخاري (٣١٨٢) في كتاب الجزية والموادعة، باب: رقم (١٨)، ومسلم (١٧٨٥) في كتاب الجهاد والسير، باب: صلح الحديبية في الحديبية من حديث سهل بن حنيف -رضي الله عنه-. ولكنه في الصحيحين بلفظ: «رسول» بدل «عبد».

فقـوله: إني عبد الله، إقـرار بالملك وكأنه قال: أنا مملوك يفـعل بي ما يشاء، وقوله: لن يضـيعني بيان حكمته، وأنه لا يفـعل شيئًا عبـثًا. ثم يبتلى بالجوع فيشد الحجر، ولله خزائن السموات والأرض، وتقتل أصحابه، ويشج وجهه، وتكسر رباعيتـه، ويمثل بعمه وهو ساكت، ثم يرزق ابنًا ويسلب منه، فيتعلل بالحسن والحسين فيخبر بما سيجرى عليهما، ويسكن بالطبع إلى عائشة -رضي الله عنها- فينغص عيشه بقذفها، ويبالـغ في إظهار المعجزات فيقـام في وجهه مسيلمة والعنسى وابن صياد.

ويقيم ناموس الأمانة والصدق، فيـقال: كذاب ساحر، ثم يعلقه المرض كمـا يوعك رجلان وهو ساكن سـاكت. فإن خبـر بحاله فليعلّم الصـبر، ثم يشدد عليه الموت، فيسلب روحه الشـريفة وهو مضطجع في كساء ملبد وإزار غليظ، وليس عندهم زيت يوقد به المصباح ليلة إذ.

هذا الشيء ما قدر على الصبر عليـه كما ينبغى نبى قبله، ولو ابتليت به الملائكة ما صبرت. هذا آدم -عليه السلام- يباح له الجنة سوى شجرة فلا يقع ذباب حرصه إلا على العـقر، ونبينا -صلى الله عليه وسلم- يقول في المباح: «**ما لي وللدنيا**»(١). وهذا نوح -عليه السلام- يضج مما لاقى فـيصـيح من كـمد وجـده: ﴿**لا تَذَرْ عَلَى الأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّارًا**﴾(٢)، ونبينا -صلى الله عليه وسلم- يقول: «**اللهم اهد قـومى فإنهم لا يعلمون**»(٣) هذا الكليم موسى -صلى الله عليه وسلم-، يستغيث عند عـبادة قومه العجل على القدر: ﴿**إِنْ هِيَ إِلاَّ فِتْنَتُكَ**﴾(٤) ويوجـه إليه ملك الموت فـيقلع عـينه، وعيسى -صلى الله عليه وسلم- يقـول: إن صرفـت المـوت عن أحـد فاصـرفه عـنى، ونبـينا -صلى الله عليه وسلم- يخير بين البقاء والموت فيختار الرحيل إلى الرفيق الأعلى.

هذا سليمان -صلى الله عليه وسلم- يقول: هب لى ملكًا، ونبينا -صلى الله عليه وسلم- يقول: «**اللهم**

---

(١) أخرجـه أحمد في «مسنده» (١/ ٣٠١ و٤٤١)، والحـاكم في «مسـتدركه» (٤/ ٣١٠) من حديث ابن عباس -رضي الله عنهما-.

(٢) سورة نوح: ٢٦.

(٣) لم نقف على هذه الرواية.

(٤) سورة الأعراف: ١٥٥.

اجعل رزق آل محمد قوتًا»(١). هذا والله فعل رجل عرف الوجود والموجود، فماتت أغراضه، وسكنت اعتراضاته فصار هواه فيما يجرى.

٢١٦- فصل - أكثر شهوات الحس النساء. وقد يرى الإنسان امرأة فى ثيابها فيتخايل له أنها أحسن من زوجته، أو يتصور بفكره المستحسنات وفكره لا ينظر إلا إلى الحسن من المرأة، فيسعى فى التزوج والتسرى، فإذا حصل له مراده لم يزل ينظر فى عيوب الحاصل التى ما كان يتفكر فيه فيمل ويطلب شيئًا آخر، ولا يدرى أن حصول أغراضه فى الظاهر ربما اشتمل على محن، منها أن تكون الثانية لا دين لها أو لا عقل أو لا محبة لها أو لا تدبير فيفوت أكثر مما حصل، وهذا المعنى هو الذى أوقع الزناة فى الفواحش؛ لأنهم يجالسون المرأة حال استتار عيوبها عنهم وظهور محاسنها، فتلذ لهم تلك الساعة، ثم ينتقلون إلى أخرى.

فليعلم العاقل أن لا سبيل إلى حصول مراد تام كما يريد: ﴿وَلَسْتُم بِآخِذِيهِ إِلاَّ أَن تُغْمِضُوا فِيهِ﴾(٢) وما عيب نساء الدنيا بأحسن من قوله عز وجل: ﴿وَلَهُمْ فِيهَا أَزْوَاجٌ مُّطَهَّرَةٌ﴾(٣) وذو الأنفة يأنف من الوسخ صورة، وعيب الخلق معنى؛ فليقنع بما باطنه الدين، وظاهره الستر والقناعة، فإنه يعيش مرفه السر، طيب القلب؛ ومتى ما استكثر، فإنما يستكثر من شغل قلبه ورقة دينه.

---

(١) صحيح: أخرجه البخارى (٦٤٦٠) فى كتاب الرقاق، باب: كيف كان عيش النبى -ﷺ-، ومسلم (١٠٥٥) فى كتاب: الزكاة، باب: فى الكفاف والقناعة من حديث أبى هريرة -رضي الله عنه- واللفظ لمسلم.

(٢) سورة البقرة: ٢٦٧.

(٣) سورة البقرة: ٢٥.

علم الحديث.. ومراتب الخلق

٢١٧- **فصل** - سبحان من شغل كل شخص بفن لتنام العيون فى الدنيا فأما فى العلوم فحبب إلى هذا القرآن، وإلى هذا الحديث، وإلى هذا النحو؛ إذ لولا ذلك ما حُفظت العلوم، وألهم هذا المتعيش أن يكون خبازاً، وهذا أن يكون هرّاسًا، وهذا أن ينقل الشوك من الصحراء، وهذا أن ينقى البثار ليلتئم الخلق.

ولو ألهم أكثر الناس أن يكونوا خبازين مثلاً، بات الخبز وهلك، أو هراسين جفت الهرايس، بل يلهم هذا بقدر لينتظم أمر الدنيا وأمر الآخرة، ويندر من الخلق من يلهمه الكمال وطلب الأفضل، والجمع بين العلوم والأعمال، ومعاملات القلوب؛ وتتفاوت أرباب هذه الحال. فسبحان من يخلق ما يشاء ويختار. نسأله العفو إن لم يقع الرضا، والسلامة إن لم يصلح للمعاملة.

٢١٨- **فصل** - علم الحديث هو الشريعة، لأنه مبين للقرآن وموضح للحلال والحرام، وكاشف عن سير الرسول -ﷺ- وسير أصحابه، وقد مزجوه بالكذب، وأدخلوا فى المنقولات كل قبيح، فإذا وفق الزاهد والواعظ لم يذكرا إلا ما شهدا بصحته، وإن حرما التوفيق، عمل الزاهد بكل حديث يسمعه لحسن ظنه بالرواة. وقال الواعظ كل شيء يراه لجهله بالتصحيح، ففسدت أحوال الزاهد، وانحرف عن جادة الهدى، وهو لا يعلم. وكيف لا وعموم الأحاديث الدالة على الزهد لا تثبت، مثل حديث ابن عمر -رضي الله عنهما-: **«أيما امرئ مسلم اشتهى شهوة فرد شهوته وآثر على نفسه غفر له»**(١) وهذا حديث موضوع، يمنع الإنسان ما أبيح له مما يتقوى به على الطاعة، ومثل قوله: من وضع ثيابًا حسانًا.

---

(١) موضوع: انظر الموضوعات للمصنف (٣/ ١٣٨).

وكذلك ما رووا أن رسول الله -ﷺ- قدم له أدمان فقال: «**أدمان في قدح، لا حاجة لي فيه، أكره أن يسألني الله عن فضول الدنيا**»(١) وفي الصحيح أن رسول الله -ﷺ- «أكل البطيخ بالرطب»(٢) ومثل هذا إذا تتبع كثير، فقد بنوا على فساده، ففسدت أحوال الواعظ والموعوظ، لأنه يبني كلامه على أشياء فاسدة ومحالات.

ولقد كان جماعة من المتزهدين يعملون على أحاديث ومنقولات لا تصح، فيضيع زمانهم في غير المشروع، ثم ينكرون على العلماء استعمالهم للمباحات، ويرون أن التجفف هو الدين.

وكذلك الوعاظ يحدثون الناس بما لا يصح عن الرسول -ﷺ- ولا أصحابه؛ فقد صار المحال عندهم شريعة. فسبحان من حفظ هذه الشريعة بأخبار أخيار ينفون عنها تحريف الغالين، وانتحال المبطلين.

٢١٩- فصل - كان قد سألني بعض أصحاب الحديث. هل في مسند أحمد ما ليس بصحيح؟ فقلت: نعم؛ فعظم ذلك على جماعة ينسبون إلى المذهب فحملت أمرهم على أنهم عوام، وأهملت فكر ذلك. وإذا بهم قد كتبوا فتاوى؛ فكتب فيها جماعة من أهل خراسان، منهم أبو العلاء الهمداني يعظمون هذا القول، ويردونه ويقبحون قول من قاله؛ فبقيت دهشًا متعجبًا، وقلت في نفسي: واعجبًا صار المنتسبون إلى العلم عامة أيضًا، وما ذاك إلا أنهم سمعوا الحديث ولم يبحثوا عن صحيحه وسقيمه، وظنوا أن من قال ما قلته قد تعرض للطعن فيما أخرجه أحمد، وليس كذلك. فإن الإمام أحمد روى المشهور والجيد والرديء، ثم هو قد رد كثيرًا مما روى، ولم يقبل به ولم يجعله مذهبًا له؛ أليس هو القائل في حديث الوضوء بالنبيذ مجهول! ومن نظر في كتاب العلل الذي صنفه أبو بكر الخلال رأى أحاديث كثيرة كلها في المسند، وقد طعن فيها أحمد.

---

(١) انظر الموضوعات للمصنف (١٩/٣).

(٢) حسن: أخرجه أبو داود (٣٨٣٦) في كتاب الأطعمة، باب: في الجمع بين لونين في الأكل، والترمذي (١٨٤٣) في كتاب الأطعمة، باب: ما جاء في أكل البطيخ بالرطب من حديث عائشة -رضي الله عنها- والحديث حسنه الشيخ الألباني.

ونقلت من خط القاضى أبى يعلى محمد بن الحسين الفراء فى مسألة النبيذ قال: إنما روى أحمد فى مسنده ما اشتهر، ولم يقصد الصحيح ولا السقيم.

ويدل على ذلك أن عبد الله قال: قلت لأبى: ما تقول فى حديث ربعى ابن خراش عن حذيفة! قال: الذى يرويه عبد العزيز بن أبى رواد؟ قلت: نعم. قال: الأحاديث بخلافه. قلت: فقد ذكرته فى المسند. قال: قصدت فى المسند المشهور، فلو أردت أن أقصد ما صح عندى لم أرد من هذا المسند، إلا الشىء بعد الشىء اليسير، ولكنك يا بنى تعرف طريقتى فى الحديث، لست أخالف ما ضعف من الحديث إذا لم يكن فى الباب شىء يدفعه. قال القاضى: وقد أخبر عن نفسه كيف طريقه فى المسند؛ فمن جعله أصلاً للصحة فقد خالفه وترك مقصده.

قلت: قد غمنى فى هذا الزمان أن العلماء لتقصيرهم فى العلم صاروا كالعامة، وإذا مر بهم حديث موضوع قالوا قد روى، والبكاء ينبغى أن يكون على خساسة الهمم. ولا حول ولا قوة إلا بالله العلى العظيم.

٢٢٠- فصل - بلغنى عن بعض فساق القدماء أنه كان يقول:

ما أرى العيشَ غيرَ أن تتبعَ النفـ ـس هواها فمخطئًا أو مصيبا

فتدبرت حال هذا وإذا به ميت النفس، ليس له أنفة على عرضه ولا خوف عار، ومثل هذا ليس فى مسلاخ[1] الآدميين، فإن الإنسان قد يقدم على القتل لئلا يقال جبان، ويحمل الأثقال ليقال ما قصر، ويخاف العار فيصبر على كل آفة من الفقر، وهو يستر ذلك حتى لا يرى بعين ناقصة.

حتى أن الجاهل إذا قيل له يا جاهل غضب، واللصوص المتهيئون للحرام إذا قال أحدهم للآخر لا تتكلم، فإن أختك تفعل وتصنع، أخذته الحمية فقتل الأخت، ومن له نفس لا يقف فى مقام تهمة لئلا يظن به.

(١) المسلاخ: الجلد.

فأما مـن لا يبالى أن يرى سكران، ولا يهمه إن شـهّر بين الناس، ولا يؤلمه ذكر الناس له بالسـوء، فذاك فى عداد البهـائم، وهذا الذى يريد أن يتبع النفس هواها لا يلتـذ به إلا أن لا يخاف عنتًا ولا لومًـا، ولا يكون له عِرض يحذر عليه، فهـو بهيمة فى مسلاخ إنسان، وإلا فأى عـيش لمن شرب الخمر وأخذ عـقيـب ذلك وضرب وشـاع فى الناس ما قـد فعل به، أمـا يفى ذلك باللذة؟ لا، بل يربو عليـها أضـعافًـا. وأى عيش لمن سـاكن الكسل إذا رأى أقرانه قد برزوا فى العلم وهو جـاهل!. أو استغنوا بالتجارة وهو فقـير! فهل يبقى للالتذاذ بالكسل والراحة معنى؟!.

ولو تفكر الزانى فـى الأحدوثة عنه، أو تـصور أخـذ الحـدّ منه، لكف الكفَّ، غير أنه يرى لذة حاضرة كأنها لمع برق، ويا شؤم ما أعقبت من طول الأسى، هذا كله فى العاجل، فأما الآجل فـمنغصة العذاب دائمة، ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا مُشْفِقُونَ مِنْهَا﴾[1] نسأل الله أنفة من الرذائل، وهمـة فى طلب الفضائل إنه قريب مجيب.

٢٢١- فصل - قد تبغت العقـوبات، وقد يؤخرها الحلم، والعاقل من إذا فعل خطيئة بادرها بالتوبة، فكم مغـرور بإمهال العصاة، لم يمهل. وأسرع المعاصى عـقوبة ما خلا عن لذة تنسى النـهى، فتكون تلك الخطيئة كـالمعاندة والمبارزة، فـإن كانت توجب اعتراضًـا على الخالق أو منازعة له فى عظمـته، فـتلك التى لا تُتـلافى.. خصـوصًـا إن وقعت من عـارف بالله، فـإنه يندر إهماله، قـال عبد المجـيد بن عـبد العزيز: كـان عندنا بخراسـان رجل كتب مصحـفًا فى ثلاثة أيام فلقيه رجل فقـال: فى كم كتبت هذا؟ فأومـأ بالسبابة والوسطى والإبهام وقال: فى ثلاث ﴿وَمَا مَسَّنَا مِن لُّغُوبٍ﴾[2] فجفت أصابعه الثلاث، فلم ينتفع بها فيما بعد.

وخطر لبعض الفصحاء أنه يقدر أن يقول مـثل القرآن، فصعد إلى غرفة

---

(١) سورة الشورى: ١٨.

(٢) سورة ق: ٣٨.

فانفرد فيها، وقال: أمهلوني ثلاثًا، فصعدوا إليه بعد الثلاث فوجدوه ويده قد يبست على القلم وهو ميت.

قال عبد الحميد: ورأيت رجلاً كان يأتي امرأته حائضًا، فحاض، فلما كثر الأمر به تاب فانقطع عنه، ويلحق هذا أن يعيِّرَ الإنسان شخصًا بفعل، وأعظمه أن يعيره بما ليس إليه، فيقول يا أعمى، ويا قبيح الخلقة. وقد قال ابن سيرين: عيّرْت رجلاً بالفقر فحبست على دين، وقد تتأخر العقوبة وتأتى فى آخر العمر؛ فيا طول التعشير مع كبر السن لذنوب كانت فى الشباب.. فالحذر الحذر من عواقب الخطايا والبدار البدار إلى محوها بالإنابة، فلها تأثيرات قبيحة إن أسرعت وإلا اجتمعت وجاءت.

٢٢٢- فصل - اعلم أن الآدمى قد خلق لأمر عظيم، وهو مطالب بمعرفة خالقه بالدليل، ولا يكفيه التقليد، وذلك يفتقر إلى جمع الهم فى طلبه. وهو مطالب بإقامة المفروضات، واجتناب المحارم.

فإن سمت همته إلى طلب العلم احتاج إلى زيادة جمع الهم؛ فأسعد الناس من له قوت دارّ بقدر الكفاية، لا من منن الناس وصدقاتهم، وقد قنع به، فإنه حينئذ يجتمع همه لمطلوباته من الدين والدنيا والعلم، وأما إذا لم يكن له قوت يكفى فالهمُّ الذى يريد اجتماعه فى تلك الأمور يتشتت ويصير طالبًا للتحيل فى القوت؛ فيذهب العمر فى تحصيل قوت البدن الذى يريد من بقائه غير بقائه، ويفوت المقصود ببقائه، وربما احتاج إلى الانذلال. قال الشاعر:

حسبى منَ الدهرِ ما كَفَانى ... يصونُ عِرْضى عَنْ الهوانِ
مخافَةَ أنْ يقولَ قومٌ ... فضلُ فَلانٍ على فلانِ

فينبغى للعاقل إذا رزق قوتًا أو كان له مواد أن يحفظها ليتجمع همه، ولا ينبغى أن يبذر فى ذلك فإنه يحتاج فيتشتت همه، والنفس إذا أحرزت قوتها اطمأنت؛ فإن لم يكن له مال اكتسب بقدر كفايته، وقلل الغلو ليجمع همه، وليقنع بالقليل، فإنه متى سمت همته إلى فضول المال وقع المحذور من

التشـتت، لأن التشتت فى الأول للعـدم، وهذا التشتت يـكون للحرص على الفضول، فيذهب العمر على البارد:

ومن ينفق الأيامَ فى حـفظ ماله مخـافةَ فقـرٍ فالذى فعلَ الفـقرُ

فافهم هذا يا صاحب الهمة فى طلب الفضائل، فإنك ما لم تعزل قوت الصبيان شتتوا قلبك، وطبعُك طفل. فـفرغ همك من استعانته، واعرف قدر شرف المال الذى أوجـب جمع همك، وصان عـرضك عن الخلق، وإياك أن يحملك الكرم علـى فرط الإخراج فتـصير كـالفقيـر المتعرض لك بالتـعرض لغيرك؛ وفى الحـديث أن رجلاً أتى رسول الله -ﷺ- فرأى عليه آثار الفقر، فعرَّض به فأعطى شيئًا. فجاء فقير آخر فآثـره الأول ببعض ما أعطى، فرماه النبى -ﷺ- فيه، ونـهاه عن مثل ذلك. والقناعة بما يكفى، وترك الـتشوف إلى الفضول أصل الأصول.

ولما آيس الإمام أحمد بن حنبل نفسه من قـبول الهدايا والصلات اجتمع همه، وحسن ذكره، ولما أطـمعها ابن المدينى وغيره سقط ذكـرهم. ثم فيمن يطمع! إنما هو سلطان جائر، أو مُزَكٍّ منان، أو صديق مذل بما يعطى. والعزل ألذُّ من كل لذة، والخروج عن ربقة المنن ولو بسف التراب.

٢٢٣- فصل - قد ركب فى الطبـاع حب التفضيل على الجنـس؛ فما أحد إلا وهو يحب أن يكون أعلى درجة من غيـره، فإذا وقعت نكبة أوجبت نزوله عن مرتبة سواه، فينبغى له أن يتـجلد بستر تلك النكبة، لئلا يرى بعين نقص، وليتجمل المـتعفف حتى لا يرى بعين الرحمة، وليتـحامل المريض لئلا يشمت به ذو العافية.

وقد قال -ﷺ- لأصحابه حين قدومه مكة وقـد أخذتهم الحمى فخاف أن يشمت بهم الأعـداء حين يروا ضعفهم عن السـعى، فقال: «**رحم الله من أظهر من نفسه الجلد فرملوا**»[1] والرمل شدة السعى، وزال ذلك السبب وبقى الحكم، ليتذكر السبب فيفهم معناه.

(١) لم أقف عليه بهذا اللفظ، وهو فى الصحيحين بغير هذا.

واستأذنوا على معاوية وهو فى الموت، فقال لأهله: أجلسونى، فقعد متمكنًا يظهر العافية، فلما خرج العواد أنشد:

وتجلُّدى للشامتينَ أُريهمُ ... أنّى لريب الدهرِ لا أتَضعْضَعُ
وإذا المنيةُ أنشبتْ أظفارَها ... ألفيتَ كُلَّ تميمةٍ لا تنفع

وما زال العقلاء يظهرون التجلد عند المصائب والفقر والبلاء، لئلا يتحملوا مع النوائب شماتة الأعداء، وإنها لأشد من كل نائبة، وكان فقيرهم يظهر الغنى، ومريضهم يظهر العافية.

بلى، ثمَّ نكتة ينبغى التفطن لها، ربما أظهر الإنسان كثرة المال وسبوغ[1] النعم؛ فأصابه عدوه بالعين فلا يفى ما تبجح به بما يلاقى من انعكاس النعمة، والعين لا تصيب إلا ما يستحسن للشىء، ولا يكفى الاستحسان فى إصابة العين حتى يكون من حاسد، ولا يكفى ذلك حتى يكون من شرير الطبع؛ فإذا اجتمعت هذه الصفات خيف من إصابة العين.

فليكن الإنسان مُظهراً للتجمل مقدار ما يأمن إصابة العين ويعلم أنه فى خير.

وليحذر الإفراط فى إظهار النعم، فإن العين هناك محذورة، وقد قال يعقوب لبنيه -عليهم السلام- ﴿لا تَدْخُلُوا مِنْ بَابٍ وَاحِدٍ وَادْخُلُوا مِنْ أَبْوَابٍ مُتَفَرِّقَةٍ﴾[2] وإنما خاف عليهم العين فليفهم هذا الفصل فإنه ينفع من له تدبر.

٢٢٤- فصل - إنما خلقنا لنحيا مع الخالق فى معرفته ومحادثته ورؤيته فى البقاء الدائم، وإنما ابتدئ كوننا فى الدنيا لأنها فى مثال مكتب نتعلم فيه الخط والأدب ليصلح الصبى عند بلوغه للرتب، فمن الصبيان بعيد الذهن يطول مكثه فى المكتب ويخرج وما فهم شيئًا، وهذا مثال من لا يعلم وجوده، ولا نال المراد من كونه.

---

(١) سبوغ: كثرة.
(٢) سورة يوسف: ٦٧.

ومن الصبيان من يجمع مع بعد ذهنه وقلة فهمه وعدم تعلمه أذى الصبيان، فهو يؤذيهم، ويسرق مطاعمهم، ويستغيثون من يده، فلا هو صلح ولا فهم ولا كف الشر؛ وهذا مثل أهل الشر والمؤذين.

ومن الصبيان من علق بشيء من الخط لكنه ضعيف الاستخراج، رديء الكتابة، فخرج ولم يعلق إلا بقدر ما يعلق به حساب معاملته، وهذا مثل من فهم بعض الشيء وفاتته الفضائل التامة.

ومنهم من جوّد الخط ولم يتعلم الحساب، وأتقن الآداب حفظًا، غير أنه قاصر في أدب النفس، فهذا يصلح أن يكون كاتبًا للسلطان على مخاطرة لسوء ما في باطنه من الشره وقلة التأدب.

ومنهم من سمت همته إلى المعالي الكاملة، فهو مقدم الصبيان في المكتب ونائب عن معلمهم، ثم يرتفع عنهم بعزة نفسه، وأدب باطنه، وكمال صناعة الآداب الظاهرة، ولا يزال حاث من باطنه يحثه على تعجيل التعلم، وتحصيل كل فضيلة لعلمه أن المكتب لا يراد لنفسه بل لأخذ الأدب منه، والرحلة إلى حالة الرجولية والتصرف، فهو يبادر الزمان في نيل كل فضيلة؛ فهذا مثل المؤمن الكامل يسبق الأقران يوم التجارير، ويعرض لوح عمله جيد الخط، فيقول بلسان حاله: ﴿هَاؤُمُ اقْرَءُوا كِتَابِيَهْ﴾(١). وكذلك الدنيا وأهلها؛ ومن الناس هالك بعيد عن الحق وهم الكفار.

ومنهم خاطئ مع قليل من الإيمان فهو معاقب والمصير إلى خير. ومنهم سليم لكنه قاصر. ومنهم تام لكنه بالإضافة إلى من دونه، وهو ناقص بالإضافة إلى من فوقه.

فالبدار البدار يا أرباب الفهوم فإن الدنيا معبر إلى دار إقامة، وسفر إلى القرب من السلطان ومجاورته فتهيؤوا للمجالسة، واستعدوا للمخاطبة، وبالغوا في استعمال الأدب لتصلحوا للقرب من الحضرة، ولا يشغلنكم عن تضمير الخيل تكاسل، وليحملكم على الجد في ذلك تذكركم يوم السباق،

---

(١) سورة الحاقة: ١٩.

فـإن قرب المؤمنين من الخـالق على قدر حـذرهم فى الدنيـا، ومنازلهم على قدرهم.

فمـا منزل النفاط كـمنزل الحاجب، ولا منزل الحاجب كـمكان الوزير، جنتان من ذهب آنيتهـما وما فيهما. . وجنتـان من فضة آنيتهما وما فـيهما. . والفردوس الأعـلى لآخرين. . والذين فى أرض الجنة ينظرون أهل الـدرجات كـما يرون الكوكب الدرى، فليـتذكـر السـاعى حلاوة التـسليم إلى الأمين، وليتـذكر فى لذاذة المدح يوم السبـاق، وليحذر المـسابق من تقصـير لا يمكن استـدراكه، وليخـفف من عيب يبقى قـبح ذكره. . هؤلاء الجهنمـيون عتـقاء الرحمن، وليصـبر الهوى عن المشتهى، فالأيام قـلائل. يدخل فقراء المؤمنين قبل الأغنياء إلى الجنة بخمسمائة عام.

فالجد الجد، يا أقدام المبادرة، فـقد لاح العلم خصوصًا لمن بانت له بانة الوادى، إما بالعلم الـدال على الطريق، وإما بالشيب الذى هـو علم الرحيل وهو يأمله أهل الجد، وكان الجنيد يقرأ وقت خـروج روحه. فيقال له فى هذا الوقت! فـيقول أبادر طـى صحيـفتى، وبعـد هذا: فالمراد مـوفق، والمطلوب معان، وإذا أرادك لأمر هيأك له.

٢٢٥- فصل - تأملت حـالة عجيـبة وهو أن أهل الجنة السـاكنين فى أرضها فى نقص عظيم بالإضافة إلى من فوقهم، وهم يعلمون فضل أولئك. فلو تفكروا فيما فاتهم من ذلك وقـعت الحسرات غير أن ذلك لا يكون، لأن ذلك لا يقـع لهم لطـيب منازلهـم، ولا يقع فى الجـنة غم، ويرضـى كل بما أعطى من وجهين:

أحدهما: إنه لا يظن أن يكون نعيم فوق مـا هو فيه، وإن علت منزلة غيره.

والثانى: أنه يحبب إليه كما يحبب إليـه ولده المستوحش الخلقة، فيؤثره على الأجنبى المستحسن.

إلا أن تحت هذا معنى لـطيف، وهو أن القوم خلقت لهم هِمم قـاصرة

فى الدنيا عن طلب الفضائل، ويتفاوت قصورها؛ فمنهم من حفظ بعض القرآن ولا يتوق إلى التمام، ومنهم من يسمع يسيراً من الحديث، ومنهم من يعرف قليلاً من الفقه، ومنهم من قد رضى من كل شىء بيسيره، ومنهم مقتصر على الفرائض، ومنهم قنوع بصلاة ركعتين فى الليل، ولو علت بهم الهمم لجدت فى تحصيل كل الفضائل، ونبت عن النقص فاستخدمت البدن كما قال الشاعر:

ولكلِّ جسمٍ فى النحولِ بليةٌ وبلاءُ جِسْمِى مِنْ تَفاوتِ هِمَّتِى

ويدل على تفاوت الهمم أن فى الناس من يسهر فى سماع سمر، ولا يسهل عليه السهر فى سماع القرآن. والإنسان يحشر ومعه تلك الهمة، فتعطى على مقدار ما حصلت فى الدنيا، فكما لم تتق إلى الكمال وقنعت بالدون، قنعت فى الآخرة بمثل ذلك.

ثم إن القوم يتفكرون بعقولهم، فيعلمون أن الجزاء على قدر العمل، ولا يطمع من صلى ركعتين فى ثواب من صلى ألفًا.

فإن قال قائل فكيف يتصور لها أن تروم ما ناله من هو أفضل منها؟ قلت: إن لم يتصور نيله يتصور الحزن على فوته، وهل رأيت عاميًّا يحزن على فوات الفقه حزنًا يقلقه! هيهات.. لو كان ذلك الحزن عنده لحركه إلى التشاغل؛ فليس عندهم همة توجب الأسف مع أنهم قد رضوا بما هم فيه. فافهم ما قلته وبادر، فهذا ميدان السباق.

٢٢٦- فصل - تفكرت فى إبقاء اليهود والنصارى بيننا وأخذ الجزية منهم، فرأيت فى ذلك حكمًا عجيبة: منها ما قد ذكر من أن الإسلام كان ضعيفا فتقوى بما يؤخذ من جزيتهم، ومنها ظهور عزته بذلهم إلى غير ذلك ما قد قيل.

ووقع لى فيه معنى عجيب: وهو أن وجودهم وتعبدهم وحفظهم شرع نبيهم -ﷺ- دليل على أنه قد كان أنبياء وشرائع، وأن نبينا -ﷺ- ليس ببدع من الرسل، فقد اجتمعت الجن وهم على إثبات صانع، وإقرار برسل،

فبان أننا ما ابتدعنا ما لم يكن، وهم يصبرون على باطلهم، ويؤدون الجزية، فكيف لا نصبر على حق، والدولة لنا.. وفى بقائهم احترام لما كان صحيحًا من الدين، وليرجع متبصر وليستعمل مفكر.

٢٢٧- فصل - قد ثبت بالدليل شرف العلم وفضله، إلا أن طلاب العلم افترقوا، كل تدعوه نفسه إلى شىء فمنهم من أذهب عمره فى القراءات، وذاك تفريط فى العمر، لأنه إنما ينبغى أن يعتمد على المشهور منها لا على الشاذ، وما أقبح بالقارئ أن يسأل عن مسألة فى الفقه ولا يدرى، وليس ما شغله عن ذلك إلا كثرة الطرق فى روايات القراءات، ومنهم من يتشاغل بالنحو وعلله فحسب، ومنهم من يتشاغل باللغة فحسب، ومنهم من يكتب الحديث ويكثر ولا ينظر فى فهم ما كتب. وقد رأينا فى مشائخنا المحدثين من كان يسأل عن مسألة فى الصلاة فلا يدرى ما يقول، وكذلك القراء، وكذلك أهل اللغة والنحو.

وحدثنى عبد الرحمن بن عيسى الفقيه قال: حدثنى ابن المنصورى قال: حضرنا مع أبى محمد بن الخشاب، وكان إمام الناس فى النحو واللغة، فتذاكروا الفقه، فقال: سلونى عما شئتم، فقال له رجل: إن قيل لنا رفع اليدين فى الصلاة ما هو فماذا نقول؟ فقال: هو ركن! فدهشت الجماعة من قلة فقهه.

وإنما ينبغى أن يأخذ من كل علم طرفًا ثم يهتم بالفقه، ثم ينظر فى مقصود العلوم، وهو المعاملة لله سبحانه والمعرفة به والحب له، وما أبله من يقطع عمره فى معرفة علم النجوم، وإنما ينبغى أن يعرف من ذلك التسيير والمنازل لعلم الأوقات.

فأما النظر فيما يدعى أنه القضاء والحكم فجهل محض، لأنه لا سبيل إلى علم ذلك حقيقة، وقد جرب فبان جهل مدعيه، وقد تقع الإصابة فى وقت، وعلى تقدير الإصابة لا فائدة فيه إلا تعجيل الغم. فإن قال قائل: يمكنه دفع ذلك فقد سلم أنه لا حقيقة له.

وأبله من هؤلاء من يتشاغل بعلم الكيميا(١) فإنه هذيان فارغ؛ وإذا كان لا يتصور قلب الذهب نحاسًا لم يتصور قلب النحاس ذهبًا، فإنما فاعل هذا مستحل للتدليس على الناس فى النقود، هذا إذا صح له مراده.

وينبغى لطالب العلم أن يصحح قصده، إذ فقد الإخلاص يمنع قبول الأعمال. وليجتهد فى مجالسة العلماء، والنظر فى الأقوال المختلفة، وتحصيل الكتب، فلا يخلو كتاب من فائدة، وليجعل همته للحفظ، ولا ينظر ولا يكتب إلا وقت التعب من الحفظ، وليحذر صحبة السلطان، ولينظر فى منهاج الرسول -ﷺ- والصحابة والتابعين، وليجتهد فى رياضة نفسه والعمل بعلمه، ومن تولاه الحق وفقه.

٢٢٨- فصل - طال تعجبى من أقوام لهم أنفة وعندهم كبر زائد فى الحد، خصوصًا العرب الذين من كلمة ينفرون ويحاربون ويرضون بالقل(٢)، حتى أن قومًا منهم أدركوا الإسلام، فقالوا: كيف نركع ونسجد فتعلونا أستاهنا(٣)، فقال رسول الله -ﷺ- : «**لا خير فى دين ليس فيه ركوع ولا سجود**»(٤)، ومع هذا الأنفة يذلون لمن هم خير منهم، هذا يعبد حجراً، وهذا يعبد خشبة، وقد كان قوم يعبدون الخيل والبقر، وإن هؤلاء لأخس من إبليس، فإن إبليس أنف لادعائه الكمال أن يسجد لناقص فقال: ﴿أَنَا خَيْرٌ﴾(٥)، وفرعون أنف أن يعبد شيئًا أصلاً.

فالعجب من ذل هؤلاء المفتخرين المتعاظمين المتكبرين لحجر أو خشبة، وإنما ينبغى أن يذل الناقص للكاملين، وقد أشير إلى هذا فى ذم الأصنام فى

---

(١) المقصود بعلم الكيمياء، ما كانت معروفة آنذاك أيام المؤلف، التى كانت أقرب منها إلى السحر والشعوذة دون القواعد العلمية، التى أسست فى القرون المتأخرة.

(٢) القل: القليل.

(٣) أستاهنا: جمع أست، وهى مؤخرة الإنسان.

(٤) ضعيف: أخرجه أبو داود (٣٠٢٦) فى كتاب الخراج والإمارة والفيء، باب: ما جاء فى خبر الطائف من حديث عثمان بن أبى العاص -رضي الله عنه-. والحديث ضعفه الشيخ الألبانى.

(٥) سورة الأعراف: ١٢.

قوله تعالى: ﴿أَلَهُمْ أَرْجُلٌ يَمْشُونَ بِهَا أَمْ لَهُمْ أَيْدٍ يَبْطِشُونَ بِهَا أَمْ لَهُمْ أَعْيُنٌ يُبْصِرُونَ بِهَا﴾(١) والمعنى أنتم لكم هذه الآلات المدركة وهم ليس لهم، فكيف يعبد الكامل الناقص، غير أن هوى القوم فى متابعة الأسلاف، واستجلاء ما اخترعوه بآرائهم غطى على العقول، فلم تتأمل حقائق الأمور.

ثم غطى الحسد على أقوام فتركوا الحق وقد عرفوه، فأمية بن الصلت يقر برسول الله -ﷺ- ويقصده ليؤمن به، ثم يعود فيقول: لا أؤمن برسول ليس من ثقيف، وأبو جهل يقول: والله ما كذب محمد قط، ولكن إذا كانت السدانة(٢) والحجابة فى بنى هاشم ثم النبوة فما بقى لنا، وأبو طالب يرى المعجزات، ويقول: إنى لأعلم أنك على الحق، ولولا أن تعيرنى نساء قريش لأقررت بها عينك، فنعوذ بالله من ظلمة حسد، وغيابة كبر، وحماقة هوى يغطى على نور العقل، ونسأله إلهام الرشد، والعمل بمقتضى الحق.

٢٢٩- فصل - قد سمعنا بجماعة من الصالحين عاملوا الله عزوجل على طريق السلامة والمحبة واللطف فعاملهم كذلك، لأنهم لا يحتمل طبعهم غير ذلك.

ففى الأوائل برخ العابد خرج يستسقى فقال: ما هذا الذى لا نعرفه منك؟! اسقنا الساعة فسقوا.

وفى الصحابة أنس بن النضير يقول: والله لا تكسر سن الربيع، فجرى الأمر كما قال، فقال النبى -ﷺ-: «**إن من عباد الله من لو أقسم على الله لأبره**»(٣). وهؤلاء قوم غلب عليهم ملاحظة اللطف والرفق فلطف بهم، وأجروا على ما اعتقدوا.

وهناك أعلا من هؤلاء يسألون فلا يجابون، وهم بالمنع راضون، ليس

(١) سورة الأعراف: ١٩٥.

(٢) السدانة: خدمة الكعبة.

(٣) صحيح: أخرجه البخارى (٢٧٠٣) فى كتاب الصلح، باب: الصلح فى الدية من حديث أنس -رضي الله عنه-.

لأحدهم انبساط، بل قد قيدهم الخوف، ونكس رءوسهم الحذر، ولم يروا ألسنتهم أهلا للانبساط ، فغاية آمالهم العفو، فإن انبسط أحدهم بسؤال فلم ير الإجابة عاد على نفسه بالتوبيخ، فقال: مثلك لا يجاب، ربما قال لعل المصلحة فى منعى، وهؤلاء الرجال حقًّا.

والأبله الذى يرى له من الحق أن يجاب، فإن لم يجب تذمر فى باطنه كأنه يطلب أجرة عمله، وكأنه قد نفع الخالق بعبادته، وإنما العبد حقًّا من يرضى ما يفعله الخالق، فإن سأل فأجيب رأى ذلك فضلاً، وإن منع رأى تصرف مالك فى مملوك، فلم يجل فى قلبه اعتراض بحال.

٢٣٠- فصل - رأيت جماعة من العلماء يتقسمون ويظنون أن العلم يدفع عنهم، وما يدرون أن العلم خصمهم وأنه يغفر للجاهل سبعون ذنبًا قبل أن يغفر للعالم ذنب، وذاك لأن الجاهل لم يتعرض بالحق، والعالم لم يتأدب معه، ورأيت بعض القوم يقول: أنا قد ألقيت منجلى بين الحصادين ونمت . ثم كان ينفسح فى أشياء لا تجوز، فتفكرت فإذا العلم الذى هو معرفة الحقائق، والنظر فى سير القدماء، والتأدب بآداب القوم، ومعرفة الحق وما يجب له، ليس عند القوم، إنما عندهم صور ألفاظ يعرفون بها ما يحل وما يحرم، وليس كذلك العلم النافع.

إنما فهم الأصول ومعرفة المعبود وعظمته وما يستحقه، والنظر فى سير الرسول -ﷺ- وصحابته، والتأدب بآدابهم، وفهم ما نقل عنهم، هو العلم النافع الذى يدع أعظم العلماء أحقر عند نفسه من أجهل الجهال.

ورأيت بعض من تعبد مدة ثم فتر، فبلغنى أنه قال: قد عبدته عبادة ما عبده بها أحد، والآن قد ضعفت، فقلت: ما أخوفنى أن تكون كلمته هذه سببًا لرد الكل، لأنه قد رأى أنه عمل مع الحق شيئًا، وإنما وقف يسأل النجاة بطلب الدرجات، ففى حق نفسه فعل، وما مثله إلا كمثل من وقف يكدى، فلا ينبغى أن يمن على المعطى، وإنما سبب هذا الانبساط الجهل بالحقائق، وأين هو من كبار علماء المعاملة الذين كان فيهم مثل صلة بن أشيم إذا رآه السبع هرب منه، وهو يقول إذا انقضى الليل عند صلاته: يارب أجرنى من

النار، أو مثلى يسأل الجنة! وأبلغ من ذا قول عمر: وددت أن أنجو كفافًا لا لى ولا علىَّ، وقول سفيان عند موته لحماد بن سلمة: أترجو لمثلى أن ينجو من النار، وقول أحمد: لا. بعد. فأنا أحمد الله عز وجل إن تخلصت من جهل المتسمين بالعلم من هؤلاء الذين ذممتهم، وبالزهد من هؤلاء الذين عبتهم، فإنى قد اطلعت من عظمة الخالق وسير المحققين على ما يخرس لسان الانبساط، ويمحو النظر إلى كل فعل، وكيف أنظر إلى فعلى المستحسن؟ وهو الذى وهبه لى وأطلعنى على ما خفى عن غيرى، فهل حصل ذلك بى إلا بلطفه.

وكيف أشكر توفيقى للشكر! ثم أى عالم إذا سير أمور العلماء من القدماء لا يحتقر نفسه، هذا فى صورة العلم، فدع معناه . وأى عابد يسمع بالعباد ولا يجرى فى صورة التعبد. فدع المعنى. . نسأل الله عزوجل معرفة تعرفنا أقدارنا، حتى لا يبقى للعجب بمحتقر ما عندنا أثر فى قلوبنا ، ونرغب إليه فى معرفة لعظمته تخرس الألسن أن تنطق بالإدلال، ونرجو من فضله توفيقًا نلاحظ به آفات الأعمال التى بها نزهو حتى تشمر الملاحظة لعيوبها الخجل من وجودها. إنه قريب مجيب.

٢٣١- فصل - سبب تنغيص العيش فوات الحظوظ العاجلة، وليس فى الدنيا طيب عيش على الدوام إلا للعارف الذى شغله رضا حبيبه والتزود للرحيل إليه، فإنه إن وجد راحة فى الدنيا استعان بها فى طلب الآخرة، وإن وجد شدة اغتنم الصبر عليها لثواب الآخرة، فهو راض بكل ما يجرى عليه. . يرى ذلك من قضاء الخالق، ويعلم أنه مراده، كما قال قائلهم:

إنْ كانَ رضاكُمُ فى سهرى ... فسلامُ اللهِ على وسَنى

فأما من طلب حظه فإنه يقلق لفوت مراده، ويتنغص لبعد ما يشتهى فلو افتقر تغير قلبه، ولو ذل تغير، وهذا لأنه قائم مع غرضه وهواه، وما أحسن قول الحصرى: ايش علىّ منى، وايش لى فى، وهذا كلام عارف، لأنه إن كان ينظر إلى حقيقة الملكة فعبد يتصرف فيه مولاه، فاعتراضه لا وجه

له، وإرادته أن يقع غير ما يحب فضول في البين. وإن نظر أن النفس كالملك له فقد خرجت عن يده من يوم: ﴿إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى﴾[(١)] أفيحسن لمن باع شاة أن يغضب على المشترى إذا ذبحها أو يتغير قلبه.. والله لو قال المالك سبحانه: إنما خلقتكم ليستدل على وجودى، ثم أنا أفنيكم ولا إعادة، لكان يجب على النفوس العارفة به أن تقول سمعًا لما قلت وطاعة، وأى شىء لنا فينا حتى نتكلم، فكيف وقد وعد بالأجر الجزيل، والخلود فى النعيم، الذى لا ينفد.

لكن طريق الوصول تحتاج إلى صبر على المشقة وما يبقى لتعب رمل زرود[(٢)] أثر إذا لاح الحرم.. فالصبر الصبر يا أقدام المبتدئين لاح المنزل.. والسرور السرور يا متوسطين ضربت الخيم.. والفرح الكامل يا عارفين، قد تلقيتم بالبشائر.. زالت والله أثقال المعاملات عنكم، فكانت معرفتكم بالمبتلى حلاوة تعقبت شربة المجاهدة، فلم يبق فى الفم للمر أثر.. تخايلوا قرب المناجاة ولذة الحضور.. ودوار كئوس الرضا عنكم فقد أخذت شمس الدنيا فى الأفول:

ما بيننا له إلا تصرّ ... مُ هذه السبع البواقى
حتى يطول حديثُنا ... بصنوفِ ما كُنَّا نُلاقى

من التغفل أن تعاقب شخصًا أو تسىء إليه إساءة عظيمة وتعلم أن مثل ذلك يجدد الحقد، فتراه ذليلاً لك طائعًا تائبًا مقلعًا عما فعل، فتعود فتستطيبه وتنسى ما فعلت وتظن أنه قد انحى من قلبه؛ فربما عمل لك المحن ونصب لك المكايد، كما جرى لقصير مع الزباء[(٣)]، وأخباره معروفة.. فإياك أن تساكن من آذيته، بل إن كان ولابد فمن خارج فما تؤمن الأحقاد.. ومتى رأيت عدوك فيه غفلة لا يثنيه مثل هذا فأحسن إليه، فإنه ينسى عداوتك ولا

(١) سورة التوبة: ١١١.
(٢) زرود: اسم موضع بطريق الحاج من الكوفة.
(٣) الزباء: ملكة تَدْمُر المشهورة، ببلاد الشام، وقصير: رجل مخادع جدع أنفه وأوهم الزباء أنه غاضب من قومه لما فعلوه به، تحايلاً عليها، حتى يتمكن من قتلها.

يظن أنك قد أضمرت له جزاء على قبح فعله؛ فحينئذ تقدر على بلوغ كل غرض منه. ومن الخور إظهار العداوة للعدو، ومن أحسن التدبير التلطف بالأعداء إلى أن يمكن، ولو لم يمكن كان اللطف سببًا فى كف أكفهم عن الأذى، وفيهم من يستحى لحسن فعلك فيتغير قلبه لك، وقد كان جماعة من السلف إذا بلغهم أن رجلا قد شتمهم أهدوا إليه وأعطوه، فهم بالعاجل يكفون شره، ويحتالون فى تقليب قلبه، ويقع بذلك لهم مهلة لتدبير الحيل عليه إن أرادوا، وكفى بالذهن الناظر إلى العواقب والتأمل لكل ممكن مؤدبًا.

٢٣٢- فصل - تفكرت فى قول شيبان الراعى لسفيان: ياسفيان عد منع الله إياك عطاء منه لك، فإنه لم يمنعك بخلا، إنما منعك لطفًا. فرأيته كلام من قد عرف الحقائق.

فإن الإنسان قد يريد المستحسنات الفائقات فلا يقدر، وعجزه أصلح له، لأنه لو قدر عليهن تشتت قلبه إما بحفظهن أو بالكسب عليهن، فإن قوى عشقه لهن ضاع عمره وانقلب هم الآخرة إلى الاهتمام بهن، فإن لم يردنه فذاك الهلاك الأكبر، وإن طلبن نفقة لم يطقها كان سبب ذهاب مروءته وهلاك عرضه، وإن أردن الوطء وهو عاجز فربما أهلكنه أو فجرن، وإن مات معشوقه هلك هو أسفًا، فالذى يطلب الفائق يطلب سكينًا لذبحه وما يعلم، وكذلك إنفاذ قدر القوت فإنه نعمة، وفى الصحيحين أن رسول الله -ﷺ- قال: «**اللهم اجعل رزق آل محمد قوتًا**»[(١)] ومتى كثر تشتت الهمم. فالعاقل من علم أن الدنيا لم تخلق للتنعم، فقنع بدفع الوقت فى كل حال.

٢٣٣- فصل - رأيت جماعة من الخلق يتعللون بالأقدار، فيقول قائلهم: إن وفقت فعلت، وهذا تعلل بارد، ودفع للأمر بالراح، وهو يشير إلى رد أقوال الأنبياء والشرائع جميعها، فإنه لو قال كافر للرسول إن وفقنى أسلمت، لم يجبه إلا بضرب العنق.

وهذا من جنس قول الناس لعلى -رضي الله عنه-: ندعوك إلى كتاب الله فقال:

(١) صحيح: وقد تقدم.

كلمة حق أريد بها باطل، وكذلك قول المتعللين عن الصدقة: ﴿أَنُطْعِمُ مَن لَّوْ يَشَاءُ اللَّهُ أَطْعَمَهُ﴾(١) ولعمرى أن التوفيق أصل الفعل، ولكن التوفيق أمر خفى، والخطاب بالفعل أمر جلى، فلا ينبغى أن يتشاغل عن الجلى بذكر الخفى.

ومما يقطع هذا الاحتجاج أن يقال لهذا القائل: إن الله سبحانه لم يكلفك شيئًا، وعندك أدوات ذلك الفعل ولك قدرة عليه، فإن كانت القدرة عليه معدومة والأدوات غير محصلة فلا أمر ولا تكليف، وإن كنت تسعى بتلك الأدوات فى تحصيل غرضك وهواك، فاسع بها فى إقامة مفروضك.. مثال ذلك أنك تسافر فى طلب الربح، وتسأل الحج فلا تفعل، ويثقل عليك الانتباه بالليل، فلو أردت الخروج إلى العيد انتبهت سحراً. وتقف فى بعض أغراضك مع صديق تحادثه ساعات فإذا وقفت فى الصلاة استعجلت، وثقل عليك. فإياك إياك أن تتعلق بأمر لا حجة لك فيه.

ثم من نصيبك ينقص، ومن حظك يضيع، فإنما تحرك لك، وإنما تحرض لنفعك، فبادر فإنك مبادر بك، ومما يزيل كسلك إن تأملته أن تتخايل ثواب المجتهدين وقد فاتك، ويكفى ذلك فى توبيخ المقصر إن كانت له نفس. فأما الميت الهمة: فما لجرح بميت إيلام.. كيف بك إذا قمت من قبرك وقد قربت نجائب النجاة لأقوام وتعثرت، وأسرعت أقدام الصالحين على الصراط وتخبطت، هيهات. ذهبت حلاوة البطالة، وبقيت مرارة الأسف، ونضب ماء كأس الكسل، وبقى رسول الندامة.

وما قدر البقاء فى الدنيا بالإضافة إلى دوام الآخرة! ثم ما قدر عمرك فى الدنيا ونصفه نوم، وباقيه غفلة. فيا خاطبًا حور الجنة وهو لا يملك فلسًا من عزيمة، افتح عين الفكر فى ضوء العبر لعلك تبصر مواقع خطابك، فإن رأيت تثبطًا من الباطن فاستغث بعون اللطف، وتنبه فى الأسحار، لعلك تتلمح ركب الأرياح، وتعلق على قطار المستغفرين ولو خطوات، وأنزل فى رباعة المجتهدين ولو منزلاً.

---

(١) سورة يس: ٤٧.

٢٣٤- فصل - نظرت فى قول أبى الدرداء -ﷺ-: ما أعرف شيئًا مما كنا عليه اليوم إلا القبلة، فقلت: واعجبًا كيف لو رآنا اليوم وما علينا من الشريعة إلا الرسم، والشريعة هى الطريق، وإنما تعرف شريعة رسول الله -ﷺ- إما بأفعاله أو أقواله.

وسبب الانحراف عن طريقه -ﷺ- إما الجهل بها فيجرى الإنسان مع الطبع والعادات، وربما اتخذ ما يضاد الشريعة طريقًا، وقد كانت الصحابة شاهدته وسمعت منه فقل أن ينحرف أحد منهم عن جادته، إلا أن أبا الدرداء رضى الله عنه رأى بعض الانحراف لميل الطباع فضج، فإنه قد يعرف الإنسان الصواب، غير أن طبعه يميل عنه، وما زالت الأحاديث المنقولة عن الرسول -ﷺ- وأصحابه -ﷺ- يقل الإسعاد بها والنظر فيها إلى أن أعرض عنها بالكلية فى زماننا هذا وجهلت إلا النادر، واتخذت طرائق تضاد الشريعة، وصارت عادات، وكانت أسهل عند الخلق من اتباع الشريعة.

وإذا كان عامة من ينسب إلى العلم قد أعرض عن علوم الشريعة فكيف العوام؟!. ولما أعرض كثير من العلماء عن المنقولات ابتدعوا فى الأصول والفروع، فالأصوليون تشاغلوا بالكلام وأخذوه من الفلاسفة وعلماء المنطق، ودخلت أيدى الفروعيين فى ذلك فتشاغلوا بالجدل، وتركوا الحديث الذى عليه يدور الحكم.

ثم رأى القصاص أن النفاق بالنفاق، فأقبل قوم منهم على التلبيس بالزهد، ومقصودهم الدنيا، ورأى جمهورهم أن القلوب تميل إلى الأغانى، فأحضروا المطربين من القراء وأنشدوا أشعار الغزل، وتركوا الاشتغال بالحديث، ولم يتلفتوا إلى نهى العوام عن الربا والزنى، وأمرهم بأداء الواجبات، وصار متكلمهم يقطع المجلس بذكر ليلى والمجنون والطور وموسى وأبى يزيد والحلاج والهذيان الذى لا محصول له، وانفرد أقوام بالتزهد والانقطاع، فامتنعوا عن عيادة المرضى، والمشى بين الناس، وأظهروا التخاشع، ووضعوا كتبًا للرياضات، والتقلل من الطعام، وصارت الشريعة

عندهم كلام أبى يزيد والشبلى والمتصوفة، ومعلوم أن من سبر الشريعة لم ير فيها من ذاك شيئًا.

وأما الأمراء فجروا مع العادات ، وسموا ما يفعلونه من القتل والقطع سياسات لم يعملوا فيها بمقتضى الشريعة، وتبع الأخير فى ذلك المتقدم. . فأين الشريعة المحمدية؟! ومن أين تعرف مع الإعراض عن المنقولات؟ نسأل الله عزوجل التوفيق للقيام بالشريعة، والإعانة على رد البدع إنه قادر.

٢٣٥- فصل - كنت أسمع على بن الحسين الواعظ يقول على المنبر: والله لقد بكيت البارحة من يد نفسى، فبقيت أنا أفكر وأقول: أى شىء قد فعلت نفس هذا حتى يبكى. . هذا رجل متنعم له الجوارى التركيات، وقد بلغنى أنه تزوج فى السر جملة من النساء، ولا يطعم إلا الغاية من الدجاج والحلوى، وله الدخل الكثير والمال الوافر والجاه العريض والإفضال على الناس، وقد حصل طرفًا من العلم، واستعبد كثيرًا من العلماء بمعروفه، وراحته دائمة، فما الذى يبكيه؟ فتفكرت فعلمت أن النفس لا تقف على حد، بل تروم من اللذات ما لامنتهى له، وكلما حصل لها غرض برد عندها وطلبت سواه، فيفنى العمر ويضعف البدن ويقع النقص، ويرق الجاه، ولا يحصل المراد.

وليس فى الدنيا أبله ممن يطلب النهاية فى لذات الدنيا، وليس فى الدنيا على الحقيقة لذة، إنما هى راحة من مؤلم. فالسعيد من إذا حصلت له امرأة أو جارية فمال إليها ومالت إليه، وعلم سترها ودينها، أن يعقد الخنصر على صحبتها، وأكثر أسباب دوام محبتها أن لا يطلق بصره، فمتى أطلق بصره أو أطمع نفسه فى غيرها فإن الطمع فى الجديد ينغص الخلق وينقص المخالطة، ويستر عيوب الخارج، فتميل النفس إلى المشاهد الغريب، ويتكدر العيش مع الحاضر القريب كما قال الشاعر:

والمرءُ ما دامَ عين يُقَلِّبها ... فى أعين الغيد موقوفٌ على الخطرِ
يسرُّ مقلتَهُ ما ضرَّ مُهجتَهُ ... لا مرحبًا بسرورٍ عادَ بالضررِ

ثم تصير الثانية كالأولى، وتطلب النفس ثالثة وليس لهذا آخر، بل الغض عن المشتهيات، ويأس النفوس من طلب المستحسنات، يطيب العيش مع المعاشر.

ومن لم يقبل هذا النصح تعثر فى طرق الهوى وهلك على البارد، وربما سعى لنفسه فى الهلاك العاجل، وفى العار الحاضر، فإن كثيراً من المستحسنات لسن بصينات ولا يفى التمتع بهن بالعار الحاصل، ومنهن المبذرات فى المال، ومنهن المبغضة للزوج وهو يحبها كعابد صنم، وأبله البله الشيخ الذى يطلب صبية.. ولعمرى إن كمال المتعة إنما يكون بالصبا كما قال القائل: فعلت بنفسى النساء الصغار. ومتى لم تكن الصبية بالغة لم يكمل الاستمتاع، فإذا بلغت أرادت كثرة الجماع والشيخ لا يقدر، فإن حمل على نفسه لم يبلغ مرادها، وهلك سريعًا.

ولا ينبغى أن يغتر بشهوته الجماع، فإن شهوته كالفجر الكاذب، وقد رأينا شيخنا اشترى جارية فبات معها فانقلب عنها ميتًا، وكان فى المارستان شاب قد بقى شهرين بالقيام، فدخلت عليه زوجته فوطئها فانقلب عنها ميتًا، فبان أن النفس باقية بما عندها من الدم، والمنى، فإذا فرغا ولم تجد ماء تعتمد عليه ذهبت، وإن قنع الشيخ بالاستمتاع من غير وطء فهى لا تقنع فتصير كالعدو له، فربما غلبها الهوى ففجرت أو احتالت على قتله، خصوصًا الجوارى اللواتى أغلبهن قد جئن من بلاد الشرك ففيهن قسوة القلب، وقبيح بمن عبر الستين أن يتعرض بكثرة النساء، فإن اتفق معه صاحبة دين قبل ذلك فليرع لها معاشرتها، وليتمم نقصه عندها تارة بالإنفاق وتارة بحسن الخلق، وليزد فى تعريفها أحوال الصالحات والزاهدات، وليكثر من ذكر القيامة وذم الدنيا، وليعرض بذكر محبة العرب فإنهم كانوا يعشقون ولا يرون وطء المعشوق كما قال قائلهم:

إنما الحبُّ قبلةٌ وغمز كف وعضد
إنما العِشْقُ كذا إن نكحَ الحب فسد

فإن قدر أن يشغلها بحمل أو ولد عرقلها به، فاستبقى قوته فى مدة اشتغالها بذلك فإن وطىء فليصبر عن الإنزال حفظًا لقوته وقضاء لحقها، وقد قيل لبشر: لم لم تتزوج فقال: على ماذا أغر مسلمة، وقد قال الله عزوجل: ﴿وَلَهُنَّ مِثْلُ الَّذِي عَلَيْهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ﴾[1] والمسكين من دخل فى أمر لم يتلمح عواقبه قبل الدخول ورأى حبة الفخ فبادر طالبًا لها ناسيًا تعرقل الجناح والذبح.

ومجموع ما قد بسطته حفظ البصر عن الإطلاق، ويأس النفس عن التحصيل، قنوعًا بالحاصل خصوصًا من قد علت سنه، وعلم أن الصبية عدو له متمنية هلاكه، وهو يربيها لغيره، وفى بعض ما ذكرته ما يردع العاقل عن التعرض لهذه الآفات. نسأل الله عزوجل توفيقًا من فضله وعملاً بمقتضى العقل والشرع. إنه قريب مجيب.

٢٣٦- فصل - أعجب الأشياء اغترار الإنسان بالسلامة، وتأميله الإصلاح فيما بعد وليس لهذا الأمل منتهى، ولا للاغترار، فكلما أصبح وأمسى معافى زاد الاغترار وطال الأمل.

وأى موعظة أبلغ من أن ترى ديار الأقران وأحوال الإخوان وقبور المحبوبين، فتعلم أنك بعد أيام مثلهم، ثم لا يقع انتباه حتى ينتبه الغير بك، هذا والله شأن الحمقى، حاشى من له عقل أن يسلك هذا المسلك.

بل والله إن العاقل ليبادر السلامة فيدخر من زمنها للزمن، ويتزود عند القدرة على الزاد لوقت العسرة، خصوصًا لمن قد علم أن مراتب الآخرة إنما تعلو بمقدار علو العمل لها، وإن التدارك بعد الفوت لا يمكن. وقدر أن العاصى عفى عنه، أينال مراتب العمال؟ ومن أجال على خاطره ذكر الجنة التى لا موت فيها ولا مرض ولا نوم ولا غم، بل لذاتها متصلة من غير انقطاع، وزيادتها على قدر زيادة الجهد هاهنا انتهب هذا الزمان فلم ينم إلا ضرورة، ولم يغفل عن عمره لحظة.

---

(١) سورة البقرة: ٢٢٨.

ومن رأى أن ذنبًا قد مضت لذته وبقيت آفاته دائمة؛ كفاه ذلك زاجراً عن مثله، خصوصًا الذنوب التى تتصل آثارها مثل أن يزنى بذات زوج فتحمل منه فتلحق بالزوج فيمنع الميراث أهله ويأخذه من ليس من أهله، وتتغير الأنساب والفرش، ويتصل ذلك أبدًا، وكله شؤم لحظة. فنسأل الله عزوجل توفيقًا يلهم الرشاد، ويمنع الفساد، إنه قريب مجيب.

٢٣٧- فصل - تأملت سبب تخليط العقايد، فإذا به الميل إلى الحس وقياس الغائبات على الحاضر. فإن أقوامًا غلب عليهم الحس، فلما لم يشاهدوا الصانع جحدوا وجوده، ونسوا أنه قد ظهر بأفعاله، وأن هذه الأفعال لابد لها من فاعل، فإن العاقل إذا مر على صحراء خالية ثم عاد وفيها غرس وبناء؛ علم أنه لابد من غارس، إذ الغرس لا يكون بنفسه ولا البناء. ثم جاء قوم فأثبتوا وجود الصانع، ثم قاسوه على أحوالهم فشبهوا، حتى إن قائلهم يقول: فى قوله (ينزل إلى السماء) ينتقل، ويستدل بأن العرب لا تعرف النزول إلا الانتقال. وضل خلق كثير فى صفاته كما ضل خلق فى ذاته؛ فظن أقوام أنه يتأثر حين سمعوا أنه يغضب ويرضى، ونسوا أن صفته تعالى قديمة لا يحدث منها شىء، وضل خلق فى أفعاله فأخذوا يعللون فلم يقعوا بشىء، فخرج منهم قوم إلى أن نسبوا فعله إلى ضد، تعالى عن ذلك.

ومن رزق التوفيق فليحضر قلبه لما أقول: اعلم أن ذاته سبحانه لا تشبه الذوات، وصفاته ليست كالصفات، وأفعاله لا تقاس بأفعال الخلق. أما ذاته سبحانه فإنا لا نعرف ذاتًا إلا أن تكون جسمًا وذاك يستدعى سابقة تأليف، وهو منزه عن ذلك، لأنه المؤلف، أو أن يكون جوهراً فالجوهر متحيز، وله أمثال، وقد جل عن ذلك، أو عرضًا، فالعرض لا يقوم بنفسه بل بغيره، وقد تعالى عن ذلك. فإذا أثبتنا ذاتًا قديمة خارجة عما يعرف، فليعلم أن الصفات تابعة لتلك الذات، فلا يجوز لنا أن نقيس شيئًا منها على ما نفعله ونفهمه، بل نؤمن به ونسلمه، وكذلك أفعاله، فإن أحدنا لو فعل فعلاً لا يجتلب به نفعًا ولا يدفع به عنه ضراً عد عابثًا. وهو سبحانه أوجد الخلق لا لنفع يعود إليه، ولا لرفع ضر إذ المنافع لا تصل إليه والمضار لا تتطرق عليه. فإن قال

قائل: إنما خلق الخلق لينفعهم. قلنا: يبطله؛ أنه خلق منهم للكفر وعذبه. ونراه يؤلم الحيوان والأطفال، ويخلق المضار، وهو قادر أن لا يفعل ذلك.

فإن قال قائل: إنه يثيب على ذلك. قلنا: وهو قادر أن يثيب بلا هذه الأشياء، فإن السلطان لو أراد أن يغنى فقيراً فجرحه ثم أغناه ليم على ذلك، لأنه قادر أن يغنيه بلا جراح.

ثم من يرى ما جرى لرسول الله -ﷺ- وعلى أصحابه من الجوع والقتل مع قدرة الناصر، ثم يسأل فى أمه فلا يجاب، ولو كان المسئول بعضنا قلنا: لم تمنع ما لا يضرك؟! غير أن الحق سبحانه لا تقاس أفعاله على أفعالنا ولا تعلل، والذى يوجب علينا التسليم أن حكمته فوق العقل، فهى تقضى على العقول، والعقول لا تقضى عليها ومن قاس فعله على أفعالنا غلط الغلط الفاحش. وإنما هلكت المعتزلة من هذا الفن؛ فإنهم قالوا كيف يأمر بشىء ويقضى بامتناعه.

ولو أن إنسانًا دعانا إلى داره ثم أقام من يصد الداخل لعيب، ولقد صدقوا فيما يتعلق بالشاهد. فأما من أفعاله لا تعلل ولا يقاس بشاهد، فإنا لا نصل إلى معرفة حكمته.

فإن قال قائل: فكيف يمكننى أن أقود عقلى إلى ما ينافيه. قلنا لا منافاة، لأن العقل قد قطع بالدليل الجلى أنه حكيم، وأنه مالك، والحكيم لا يفعل شيئًا إلا لحكمة، غير أن تلك الحكمة لا يبلغها العقل، ألا ترى أن الخضر خرق سفينة وقتل شخصًا، فأنكر عليه موسى -عليهما السلام- بحكم العلم، ولم يطلع على حكمة فعله، فلما أظهر له الحكمة أذعن ولله المثل الأعلى.

فإياك إياك أن تقيس شيئًا من أفعاله على أفعال الخلق، أو شيئًا من صفاته، أو ذاته سبحانه وتعالى فإنك إن حفظت هذا سلمت من التشبيه الذى وقع فيه من رأى الاستواء اعتماداً، والنزول نقلة، ونجوت من الاعتراض الذى أخرج قومًا إلى الكفر حتى طعنوا فى الحكمة.

وأول القوم إبليس، فإنه رأى تقديم الطين على النار ليس بحكمة، فنسى أنه إنما علم ذلك بزعمه بالفهم الذى وهب له، والعقل الذى منحه، فنسى أن الواهب أعلم ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً﴾(١).

ولقد رأيت لابن الرومى اعتراضًا على من يقول بتخليد الكفار فى النار قال : إن ذلك التأبيد مزيد من الانتقام ينكره العقل ولا(٢) ينبغى أن يقبل كل ما يقوله العقل، ولا يرد بعضه إذ ليس رد بعضه بأولى من رد الكل، وتخليد الكفار لا غرض فيه للمعذب ولا للمعذب فلا يجوز أن يكون.

فقلت: العجب من هذا الذى يدعى وجود العقل ولا عقل عنده، وأول ما أقول له: أصح عندك الخبر عن الخالق سبحانه أنه أخبر بخلود أهل النار أم لم يصح، فإن كان لم يصح عنه فالكلام إذن فى إثبات النبوة وصحة القرآن، فما وجه ذكر الفرع مع جحد الأصل، وإن قال قد ثبت عندى فواجب عليه أن يتحمل لإقامة العذر، لا أن يقف فى وجه المعارضة.

وإنما ينكر هذا من يأخذ الأمر من الشاهد، وقد بينا أن ذات الحق لا كالذوات، وأن صفاته لا كالصفات، وأن أفعاله لا تعلل، ولو تلمح شيئًا من التعليل لخلود الكفار لبان، إذ من الجائز أن يكون دوام تعذيبهم لإظهار صدق الوعيد. فإنه قال: من كفر بى خلدته فى العذاب، ولا جناية كالكفر ولا عقوبة كدوام الإحراق، فهو يدوم ليظهر صدق الوعد.

ومن الجائز أن يكون ذلك لتتمة تنعم المؤمنين فإنهم أعداء الكفار، وقد قال سبحانه: ﴿وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُّؤْمِنِينَ﴾(٣) وكم من قلق فى صدر، وحنق على أبى جهل فيما فعل، وكم غم فى قلب عمار وأمه سمية وغيرهم من أفعال الكفار بهم، فدوام عذابهم شفاء لقلوب أهل الإيمان.

ومن الجائز أن يدوم العذاب لدوام الاعتراض وذكر المعذب بما لا

---

(١) سورة فصلت: ١٥.
(٢) سقطت هذه العبارة من بعض النسخ.
(٣) سورة التوبة: ١٤.

يحسن، فكلما زاد عذابهم زاد كفرهم واعتراضهم فهم يعذبون لذلك، ودليل دوام كفرهم: ﴿فَيَحْلِفُونَ لَهُ كَمَا يَحْلِفُونَ لَكُمْ﴾(١) فإذن كفرهم مازال، ومعرفتهم به ما حصلت، والشر كامن فى البواطن، وعلى ذلك يقع التعذيب ﴿وَلَوْ رُدُّوا لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ﴾(٢).

٢٣٨- فصل - ينبغى للمؤمن بالله سبحانه إذا نظر فى الفصل الذى قد تقدم هذا ألا يعترض على الله سبحانه فى شىء لا فى باطنه ولا فى ظاهره، ولا يطلب تعليلات أفعاله، فإن المتكلمين أعرضوا عن السنن وتكلموا بآرائهم فما صفى لهم شرب، بدليل اختلافهم.

وكذلك إضمار القياس لما عملوا جاءت أحاديث تعكر عليهم، والصواب التعليل لما يمكن، والتسليم لما يخفى.

وكذلك سؤال الحق سبحانه، إذا دعاه المؤمن ولم ير إجابة سلم وفوض وتأول للمنع، فيقول: ربما المنع أصلح، وربما يكون لأجل ذنوبى، وربما يكون التأخير أولى، وربما لم يكن هذا مصلحة. وإذا لم يجد تأويلاً لم يختلج فى باطنه نوع اعتراض ، بل يرى أنه قد تعبد بالدعاء، فإن أنعم عليه فبفضل، وإن لم يجب فمالك يفعل ما يشاء. على أن أكثر السؤال إنما يقع فى طلب أغراض الدنيا التى إذا ردت كان أصلح، فليكن هم العاقل فى إقامة حق الحق والرضا بتدبيره وإن أساء، فمتى أقبلت عليه أقبل على إصلاح شأنك، وإذا عرفت أنه كريم فلذ له ولا تسأل، ومتى أقبلت على طاعته فمحال أن يجود صانع وينصح فى العمل ثم لا يعطى الأجرة.

٢٣٩- فصل - والله إنى لأتخايل دخول الجنة ودوام الإقامة فيها من غير مرض ولا بصاق ولا نوم ولا آفة تطرأ، بل صحة دائمة وأغراض متصلة لا يعتورها منغص، فى نعيم متجدد فى كل لحظة إلى زيادة لاتتناهى، فأطيش، ويكاد الطبع يضيق عن تصديق ذلك لولا أن الشرع قد ضمنه.

---

(١) سورة المجادلة: ١٨.

(٢) سورة الأنعام: ٢٨.

ومعـلوم أن تلك المنازل إنما تكون على قدر الاجـتهـاد هاهنا. فـواعجبًـا من مضيع لحظة يقع فيها، فتسبيحة يغرس لها فى الجنة نخلة أكلها دايم وظلها.

فيـا أيها الخائف من فـوت ذلك شجع قلبك بالرجـاء، ويا أيها المنزعج لذكر الموت تلمح مـا بعد مرارة الشـربة من العافيـة، فإنه من ساعـة خروج الروح لا بل قبل خروجهـا تنكشف المنازل لأصحابها، فيهـون سير المجذوب للذة المنتقل إليه. ثم الأرواح فى حواصل طير تعلق فى أشجار الجنة(١).

فكل الآفات والمخافـات فى نهار الأجل، وقد اصفرت شـمس العمر، فـالبدار البـدار قبل الغـروب ولا معين يرافق عـلى تلك الطريق إلا الفكر إذا جلس مع العقل فتـذاكرا العواقب، فإذا فرغ المجلس فالنظر فى سـير المجدين فإنه يعود مستجلبًا للفكر منـها للفضائل والتوفيق من وراء ذلك، ومتى أرادك لشيء هيأك له. فأما مخالطة الذين ليس عندهم خير إلا العاجلة فهو من أكبر أسباب مـرض الفهم وعلل العقل، والعزلة عن الشـر حمية، والحمـية سبب العافية.

٢٤٠- فصل - رأيت سبب الهموم والغموم الإعراض عن الله عزوجل والإقبال على الدنيا، وكلما فات منها شيء وقع الغم لفواته.

فأما من رزق معـرفة بالله تعالى -لأنه يستغنى بالرضا بالقضـاء- فمهما قدر له رضى وإن دعـا فلم ير أثر الإجابة لم يختلج فى قلبـه اعتراض، لأنه مملوك مدبر فـتكون همته فـى خدمة الخـالق. ومن هذه صفتـه لا يؤثر جمع مال، ولا مخـالطة الخلق، ولا الالتذاذ بالشهوات، لأنه إما أن يكون مـقصراً فى المعرفة فهو مقبل على التعبد المحض يزهد فى الفانى لينال الباقى، وإما أن يكون له ذوق فى المعرفة فـإنه مشغول عن الكل بصاحب الكل، فتـراه متأدبًا فى الخلوة به، مستأنسًا بمناجاته، مستوحشًا من مخالطة خلقه، راضيًا بما يقدر له، فعيشه معه كعيش محب قد خلا بحبيبه لا يريد سواه، ولا يهتم بغيره.

فأما من لم يرزق هذه الأشياء، فإنه لا يزال فى تنغيص متكدر العيش،

---

(١) يشير إلى حديث صحيح وقد تقدم.

لأن الذى يطلبه من الدنيا لا يقدر عليه، فيبقى أبدًا فى الحسرات مع ما يفوته من الآخرة بطيب المعاملة. نسأل الله عزوجل أن يستصلحنا له، فإنه لا حول ولا قوة إلا به.

٢٤١- فصل - تفكرت فى نفسى فرأيتنى مفلسًا من كل شىء ، إن اعتمدت على الزوجة لم يكن ما أريد، إن حسنت صورتها لم تكمل أخلاقها، وإن تمت أخلاقها كانت مريدة لغرضها لا لى، ولعلها تنتظر رحيلى. وإن اعتمدت على الولد فكذلك، والخادم والمريد لى كذلك، فإن لم يكن لهما منى فائدة لم يريدانى، وأما صديق فليس، وأخ فى الله كعنقاء مغرب[1]، ومعارف يتفقد أهل الخير ويعتقدون فيهم قد عدموا وبقيت وحدى، وعدت إلى نفسى، وهى لا تصفو إلى أيضًا ولا تقيم على حالة سليمة، فلم يبق إلا الخالق سبحانه. فرأيت أنى إن اعتمدت على إنعامه فما آمن من ذلك البلاء، وإن رجوت عفوه فما آمن من عقوبته، فواأسفا لا طمأنينة ولا قرار، واقلقى من قلقى، واحرقى من حرقى، بالله ما العيش إلا فى الجنة، حيث يقع اليقين بالرضا والمعاشرة لمن لا يخون ولا يؤذى. فأما الدنيا فما هى إلا دار ذاك.

٢٤٢- فصل - ينبغى لمن صحب سلطانًا أو محتشمًا أن يكون ظاهره معه وباطنه سواء، فإنه قد يدس إليه من يخبره، فربما افتضح فى الابتلاء. وقد كان جماعة من الملوك يقصدون تقريب المنادم، ولا يجعلون له حجرة فى دورهم، فإذا أرادوا أن يختصّوه اختبروه باطنًا وذاك لا يدرى، فيظهر منه ما لا يصلح فيطرد.

ولقد امتحن أَبَرْويز[2] رجلاً من خاصته، فدس إليه جارية معها ألطاف، وأمرها أن لا تقعد عنده فحملتها. ثم أنفذها مرة أخرى وأمرها أن تقعد بعد التسليم هنيهة ففعلت، فلاحظها الرجل. ثم بعثها ثالثة وأمرها أن

---

(١) مثل يضرب به على عدم وجود الشىء واستحالته.

(٢) أبرويز: ملك فارس.

تطيل القعـود عنده وتحدثه، فأطالت الحديث مـعه، فأبدى لها شيـئًا من الميل إليـها، فـقالت: أخـاف أن يطلع علينا، ولكن دعنى أدبر فى هذا. فـذهبت فأخبرت الملك بذلك، فوجه غيرها من خواص جواريه بمثل ذلك، فلما جاءته قال: ما فعلت فلانة؟ قالت: مريضة فاربدّ لونه، ثم فعلت الجارية الثانية مثل ما فـعلت الأولى، فقالـت له: إن الملك يمضى إلى بستانـه فيقـيم هناك، فإن أرادك على أن تمضى معـه فأظهر أنك عـليل، فإن خيّـرك بين الانصراف إلى دور نسـائك أو المقام هاهنا فـاختـر المقام هاهنا، وأخـبره أنك لا تقـدر على الحركة، فإن أجابك إلى ذلك جـئت إليك كل ليلة ما دام الملك غائبًا، فسكن إلى قولها، ثم مضت وأخبرت الملك بذلك.

فلما كان بعـد ثلاث، استدعاه الملك فقال: إنى مـريض، فعاد الرسول فأخبره فتبـسم، وقال: هذا أول الشر. فوجه إليه محفة حمل فـيها إليه فلما بصر به أبرويز قـال: والمحفة الشر الثـانى، فرأى العصابة علـى رأسه، قال: والعصابة الشر الثالث، فـقال له الملك: أيما أحب إليك الانصراف إلى نسائك ليمـرِضنّك أو المقام هاهنا إلى وقت رجوعى قـال: المقام هاهنا أرفق لى لقلة الحركة، فتبسم وقال: حركتك هاهنا إن تركت أكثر من حركتك إلى منزلك، ثم أمر له بعصا الزناة التى كان يوسم بها من زنى، فأيقن الرجل بالأمر، وأمر أن يكتب ما كان من أمره حرفًا حرفًا فيقرأ على الناس حرفًا إذا حضروا، وأن ينفى إلى أقصى المملكة، وتجـعل العصا على رأس رمح يكن معـه حيث كان ليحذر منه من لا يعرفه.

فلما نفى أخـذ من بعض الموكلين مدية[1] فجب بهـا ذكره وقال: من أطاع عضوًا صغيرًا فسد عليه جميع أعضائه، ومات من ساعته.

قلت: وقـد كان جـمـاعة من الأمـراء يتنكرون ويسـألون العـوام عن سيرتهم، فيتكلم العامى بما لا يصلح فيضبطون عليه وربما بعثوا دسيسًا، ورب كلمات قالها مسترسل فبلّغها فضولى.

---

(١) المدية: شىء كالسكين يقطع به.

ورأى عمر بن عبد العزيز رجلاً من العمال كثير الصلاة، فدس عليه من قال له: إن أخذت لك الولاية الفلانية فما تعطيني؟ قال: أعطيتك كذا وكذا، قال عمر: غررتنا بصلاتك.

وقد بُلّغت أن رجلاً كلم امرأة فأجابته فاستدعته إلى دارها، فلما دخل أقامت على قتله. فقد ينحل من هذه الحكاية أنه لا ينبغي أن يسكن إلى قول امرأة أو بعل يجوز أنه يكون جاسوسًا ومختبراً.

وكذلك لا يظهر ما ينبغي إخفاؤه من مال أو مذهب أو سب رجل؛ فربما كان له في الحاضرين من قريب.

ولا يوثق بمودة لا أصل لها، فربما كانت تحتها آفة تقصده، وليحذر من كل أمر يحتمل؛ ورب كلمة نقلها صديق إلى صديق فتحدث بها من لا يقصد أذى للقائل فبُلغت فتأذى، ورب مظهر للمحبة مبالغ حتى يتمكن من مراده. فالحذَر الحذَر من الطمأنينة إلى أحد خصوصًا من عدو آذيته أو قتلت له قريبًا، فربما أظهر الجميل شبكة لاصطيادك كحديث الزباء[1].

---

(١) تقدم الكلام عليه قريبًا.

الأمل والغرور.. وسبيل السلامة

٢٤٣- فصل - رأيت النفس بعد علو السن يقوى أملها ويزداد حرصها كما قال النبي -ﷺ-: **«يشيب ابن آدم وتشب منه خصلتان الحرص والأمل»**(١).

ورأيت أكثر أسباب ذلك فراغ اليد من الدنيا وكثرة العائلة وقوة الحاجة، فيحتاج الإنسان إلى التعرض بما يشين العِرْض ليحصل الغرَض. فقلت: إلهى أبعدَ رؤية جبال عرفة أضل، أبعد مشارفة الحرم تأخذنى أعراب البادية، واأسفا أيطلع فجر النحر وما وصلت إلى عرفات ويا ضياع سفر العمر وما حصل المقصود:

قد كنتُ أرجوكَ لنيلِ المُنى واليومَ لا أطلبُ إلا الرِّضا

ثم قلت: يا نفس مالك ملجأ إلا اللجا واستغاثة الغريق؛ فإن رُحمت وإلا فكم من حسرة تحت التراب.

٢٤٤- فصل - شكا لى بعض الأشياخ فقال: قد علت سنى وضعفت قوتى، ونفسى تطلب منى شراء الجوارى الصغار، ومعلوم أنهن يردن النكاح وليس فىّ، ولا تقنع منى النفس بربة البيت إذ قد كبرتْ.

فقلت له: عندى جوابان؛ أحدهما: الجواب العامى، وهو أن أقول: ينبغى أن تشتغل بذكر الموت وما قد توجهت إليه، وتحذر من اشتراء جارية لا تقدر على إيفاء حقها فإنها تبغضك، فإن أجهدت استعجلت التلف. وإن

(١) صحيح: أخرجه البخارى (٦٤٢١) فى كتاب الرقاق، باب: من بلغ ستين سنة، فقد أعذر الله إليه فى العمر، ومسلم (١٠٤٧) فى كتاب الزكاة، باب: كراهة الحرص على الدنيا من حديث أنس بن مالك -رضي الله عنه-، إلا أنه فى صحيح البخارى بلفظ: «يكبر ابن آدم ويكبر معه اثنان: حب المال وطول العمر، وفى مسلم بلفظ: الحرص على المال، والحرص على العمر».

استبقيت قوتك غضبت هى، على أنهـا لا تريد شيخًا كيف كان. وقد أنشدنا علي بن عبيد الله قال: أنشدنا محمد التميمى:

أفقْ يا فؤادى من غرامى واستمعْ　　مقالةَ محزون عليكَ شفيقِ
علقتَ فتاةً قلبُها متعلقٌ　　بغيركَ فاستوثقْتَ غيرَ وثيقِ
وأصبحت موثوقًا وراحت طليقةً　　فكمْ بينَ موثوقٍ وبينَ طليقِ

فاعلم أنها تعد عليك الأيام، وتطلب منك فضل المال لتستعد لغيرك، وربما قصدت حتفك، فاحذر والسلامة فى الترك، والاقتناع بما يدفع الزمان.

والجواب الثانى فإنى أقول: لا يخلو أن تكون قادرًا على الوطء فى وقت أو لا تكون، فإن كنت لا تقدر فالأولى مصابرة الترك للكل، وإن كان يمكن الحازم أن يدارى المرأة بالنفقة وطيب الخلق إلا أنه يخاطر.

وإن كنت تقدر فى أوقات على ذلك، ورأيت من نفسك توقًا شديدًا، فعليك بالمراهقات فإنهن ما عرفن النكاح، وما طلبن بالوطء، واغمرهن بالإنفاق وحسن الخلق مع الاحتياط عليهن، والمنع من مخالطة النسوة. وإذا اتفق وطء فتصبر عن الإنزال ريثما تقضى المرأة حاجتها.

واعتمد وعظها وتذكيرها بالآخرة، واذكر لها حكايات العشاق من غير نكاح، وقبِّح صورة الفعل، والفت قلبها إلى ذكر الصالحين، ولا تخل نفسك من الطيب والتزين والكياسة والمداراة والإنفاق الواسع. فهذا ربما حرك الناقة للمسير مع خطر السلامة.

٢٤٥- فصل - أبله الناس من عمل على الحال الحاضرة ولم يتصور تغيرها ولا وقوع ما يجوز وقوعه. مثاله أن يغتر بدولة فيعمل بمقتضى ملكه فإذا تغيرت هلك، وربما عادى خلقًا اغترارًا بأنه متسلط أو أنه صاحب سلطان، فإذا تغيرت حاله أكل كفيه ندمًا عند فوات التدارك. وكذلك من له مال يبذره سكونًا إلى وجود المال، وينسى حاله عند العدم.

وكذا من يتناول الشهوات، ويكثر من المآكل والمشارب والنكاح ثقة

بعافيـته وينسى ما يعقب ذلك من الأمـراض، والآفات. ومن أظرف الأحوال أن يحب جاريته فيعتقها ويهب لها، أو امرأة فيسكن إليها ويهب لها فتتمكن، ولا تمضى الأيام حتى يسلوها أو يطـلب غيرها، ولا يجد طريقًـا للخلاص؛ فإن تخلص منها أخذت ما غنمت منه فلقى من الغيظ أضعاف ما يلتذ به، فلا ينبـغى أن يوثق بامرأة ولا بمحـبة إنـسان، فـإنه قد يحب امـرأة ويظن أنه لا يسلوها أبدًا فيسترسل إليهـا والسلو يحدث، وربما أحب غيرها فينسى الأولى فيـصعب عليه الخـلاص من الأولى؛ فالعاقل لا يدخل فى شىء حـتى يهيئ الخروج منه، فـإن الأشياء لا تثـبت، والمحبة لا تدوم، والتـغير مـقرون بكل حال. وكذلك يعطى ماله ولده ثم يبقى كلاً عليه فيتمنى الولد هلاكه، وربما عل به فى النفقـة، وكذلك قد يـثق بالصديق فيـبث أسراره إليه، فـربما أظهر ذلك فكان منهـا ما يوجب هلاكه. وكـذلك يغتـر الإنسان بالسـلامة وينسى طروق الموت فيـأتيه بغتـة فيبـهته، وقـد فات الاستـدراك ولم يبق إلا الندم. فالعـاقل من كانت عينه مراقـبة للعواقب، محـترزة مما يجوز وقوعــه، عاملة بالاحتياط فى كل حال، حافظة للمال، والسر، غير واثقة بزوجة ولا ولد ولا صديق، متأهبة للرحيل متهيئة للنقلة. هذه صفة أهل الحزم، والتفريط الواسع البذر(١).

٢٤٦- فصل - من أعجب الأمور طلب الاطلاع على تحـقيق العرفان لذات الله عز وجل وصفاته وأفعاله، وهيهات.. ليس إلا المعرفة بالجملة.

ولقد أوغل المتكلمون فـما وقعوا بشىء فرجع عـقلاؤهم إلى التسليم، وكذلك أصحاب الرأى مالوا إلى القياس فإذا أشياء كثيرة بعكس مرادهم، فلم يجدوا ملجأ إلا التسليم، فسمعوا ما خالـفهم استحسانًا. فالفقيه من علل بما يمكن، فإذا عجز استطرح للتسليم، هذا شأن العبيد.

فأما من يقول لم فعل كذا وما معنى كذا؟ فإنه يطلب الاطلاع على سر الملك، وما يجد إلى ذلك سبيلاً لوجهين:

---

(١) لعل الأصح: وقت البذر.

أحدهما: أن الله تعالى ستر كثيرًا من حكمه عن الخلق.

والثانى: أنه ليس فى قوى البشر إدراك حكم الله تعالى كلها، فلا يبقى مع المعترض سوى الاعتراض المخرج إلى الكفر ﴿فَلْيَمْدُدْ بِسَبَبٍ إِلَى السَّمَاءِ ثُمَّ لْيَقْطَعْ فَلْيَنظُرْ هَلْ يُذْهِبَنَّ كَيْدُهُ مَا يَغِيظُ﴾(١) والمعنى: من رضى بأفعالى وإلا فليخنق نفسه فما أفعل إلا ما أريد.

٢٤٧- فصل - من رزقه الله تعالى العلم، والنظر فى سير السلف، رأى أن هذا العالم ظلمة، وجمهور العالم على غير الجادة، والمخالطة لهم تضر ولا تنفع، فالعجب لمن يترخّص فى المخالطة، وهو يعلم أن الطبع بصير يسرق من المخالطة. وإنما ينبغى أن تقع المخالطة للأرفع والأعلى فى العلم والعمل ليستفاد منه؛ فأما مخالطة الدون فإنها تؤذى، إلا أن يكون عاميًا يقبل من معلمه، فينبغى أن يخالط بالاحتراز.

وفى هذا الزمان إن وقعت المخالطة للعوام فهم ظلمة مستحكمة فإذا ابتلى العالم بمخالطتهم فليشمر ثياب الحذر، ولتكن مجالسته إياهم للتذكرة والتأديب فحسب.

وإن وقعت المخالطة للعلماء فأكثرهم على غير الجادة.. مقصودهم صورة العلم لا العمل به؛ فلا تكاد ترى من تذاكره أمر الآخرة، إنما شغلهم الغيبة وقصد الغلبة واجتلاب الدنيا، ثم فيهم من الحسد للنظراء ما لا يوصف.

وإن وقعت المخالطة للأمراء، فذاك تعرض لفساد الدين، لأنه إن تولى لهم ولاية دنيوية فالظلم من ضروراتها، لغلبة العادة عليهم والإعراض عن الشرع. وإن كانت ولاية دينية كالقضاء، فإنهم يأمرونه بأشياء لا يكاد يمكنه المراجعة فيها، ولو راجع لم يقبلوا، وأكثر القوم يخاف على منصبه، فيفعل ما أمر به وإن لم يجبر، وربما رأيت فى هذا الزمان أقوامًا يبذلون المال ليكونوا قضاة، أو شهودًا، ومقصودهم الرفعة.

---

(١) سورة الحج: ١٥.

ثم أكثر الشهود يشهد على من لا يعرفه، ويقول: إنه معرف ويدرى أنه كذاب، وإنما عـرّف لأجل حبـة يعطاها، وكم قـد وقعت شـهادة على غـير المشهود عليه، وعلى مكره.

وإن وقعت المخالطة للمتزهدين فأكثرهم على غير الجادة، وعلى خلاف العلم، قد جعلوا لأنفـسهم نواميس، فلا يتنسمون ولا يخـرجون إلى سوق، ويظهرون التـخشع الزائد وكله نفاق، وفـيهم من يلبس الصـوف تحت ثيابه، وربما لوّح بكمه ليُرى.

وقـد حكى عن طاهر بن الحـسين أنه قـال لبعض المتـزهدين: مـذ كم قدمت العراق؟ قـال: دخلتها منذ عشـرين سنة، وأنا منذ ثلاثين سنة صائم. قال: سألناك عن مسألة فأجبت عن اثنتين.

وبيوت الصوفية أربطة فهى خـوارج على المساجد، وهى دكاكين كريهة يقـعد فـيهـا الكسالـى من الكسب مع القدرة علـيه، ويتـعرضـون بالقعـود للصدقات، ولأحوال الظلمة، وقد أراحـوا أنفسهم من إعادة العلم، وأكثرهم لا يصلى نافلة، ولا يقوم الليل، بل يهمهم المأكول والمشروب والرقص، وقد اتخذوا سننًا تخـالف الشريعة فهم يلبـسون المرقع لا من فقر.. وهذا قـبيح؛ لأنه ليس عندهم من أمارات الزهد سوى الملبس الدون، فـثيابهم تصيح نحن زهاد، وباقى أفعـالهم المستورة تفضـحهم إذا اطلع عليهـا.. فالمطبخ دائر.. والحمام والحلوى كثيرة.. والطيب والدعة، والكبير حاصل بذلك الكبر.

وقد قـال النبى -ﷺ- لمالك بن فـضلة[(١)] وقـد رآه أشعث الهـيئـة: **«أمالك مـال؟ قال بلى من كل المال آتانى الله عز وجل! قال: فـإن الله عز وجل إذا أنعم على عبد نعمة أحب أن ترى عليه»**[(٢)].

ومن أخـلاقهم تنفـير الناس عـن العلم، ويزعمـون أن لا حاجـة إلى

(١) هو: مالك بن فضلة، ويقال: ابن عوف بن فـضلة الجُشَمى، والدأبى الأحوص، صحابىّ قليل الحديث.

(٢) أخرجه الإمام أحمد فى «مسنده» (٣/ ٤٧٣).

الوسائط، وإنما هو قلب ورب، ولهم من الأقوال والأفعال المنكرات ما قد ذكرته في تلبيس إبليس.. آه لو كان للزمان عُمَر لاحتاج كل يوم إلى مائة درة.. لا بل كان يستعمل السيف في هؤلاء الخوارج، وهم داخل البلد لا قدرة للعلماء عليهم.. إذ قولهم فيهم لا يقبل.

فمن رزقه الله سبحانه النظر في سير السلف، ووفقه للاقتداء بهم أن يعتزل عن أكثر الخلق، ولا يخالطهم فإنه من خالطهم أوذى، ومن دارى لم يسلم من المداهنة، فالنصح اليوم مردود.

٢٤٨- فصل - من البله أن تبادر عدوًّا أو حسوداً بالمخاصمة، وإنما ينبغي إن عرفت حالة أن تظهر له ما يوجب السلامة بينكما، وإن اعتذر قبلت، وإن أخذ في الخصومة صفحت، وأرينه أن الأمر قريب، ثم تبطن في الحذر منه؛ فلا تثق به في حال، وتتجافاه باطنًا مع إظهار المخالطة في الظاهر؛ فإذا أردت أن تؤذيه فأول ما تؤذيه به إصلاحك واجتهادك فيما يعرفك، ومن أعظم العقوبة له العفو عن ذلك، وإن بالغ في السب فبالغ في الصفح تنب عنك العوام في شتمه، ويحمدك العلماء على حلمك، وما تؤذيه به من ذلك وغيره في الباطن أضعاف، وما تؤذيه به من كلمة إذا قلتها له سمعت أضعافها.

ثم بالخصومة تعلمه أنك عدوه فيأخذ الحذر ويبسط اللسان، وبالصفح يجهل مما في باطنك، فيمكنك حينئذ أن تشتفي منه بما يؤذى دينك فيكون هو الذي قد اشتفى منك، ما ظفر قط من ظفر به الإثم بل الصفح الجميل، وإنما يقع هذا ممن يرى أن تسليطه عليه إما عقوبة لذنب أو لرفع درجة أو للابتلاء فهو لا يرى الخصم وإنما يرى القدرة.

٢٤٩- فصل - إذا وقعت في محنة يصعب الخلاص منها فليس لك إلا الدعاء واللجا بعد أن تقدم التوبة من الذنوب، فإن الزلل يوجب العقوبة، فإذا زال الزلل بالتوبة من الذنوب ارتفع السبب، فإذا ثبت ودعوت ولم تر للإجابة أثرًا فتفقّد أمرك، فربما كانت التوبة ما صحت، فصححها ثم ادع ولا تملّ من

الدعاء، فربما كانت المصلحة فى تأخير الإجابة، وربما لم تكن المصلحة فى الإجابة، فأنت تثاب وتجاب إلى منافعك، ومن منافعك أن لا تعطى ما طلبت بل تعوض غيره.

فإذا جاء إبليس فقال: كم تدعوه ولا ترى إجابة فقل: أنا أتعبد بالدعاء، وأنا موقن أن الجواب حاصل؛ غير أنه ربما كان تأخيره لبعض المصالح علىَّ مناسب، ولو لم يحصل حصل التعبد والذل. فإياك أن تسأل شيئًا إلا وتقرنه بسؤال الخيرة، فرب مطلوب من الدنيا كان حصوله سببًا للهلاك، وإذا كنت قد أمرت بالمشاورة فى أمور الدنيا لجليسك ليبين لك فى بعض الآراء ما يعجز رأيك، وترى أن ما وقع لك لا يصلح فكيف لا تسأل الخير ربك وهو أعلم بالمصالح، والاستخارة من حسن المشاورة.

٢٥٠- فصل - نظرت إلى الناس فرأيتهم ينقسمون بين عالم وجاهل، فأما الجهال فانقسموا، فمنهم سلطان قد ربى فى الجهل، ولبس الحرير، وشرب الخمور، وظلم الناس، وله عمال على مثل حاله، فهؤلاء بمعزل عن الخير بالجملة، ومنهم تجار همتهم الاكتساب وجمع الأموال، وأكثرهم لا يؤدى الزكاة ولا يتحاشى من الربا فهؤلاء فى صور الناس، ومنهم أرباب معاش يطففون المكيال ويخسرون الميزان ويبخسون الناس ويتعاملون بالربا وهم فى الأسواق طول النهار لا همة لهم إلا ما هم فيه، فإذا جاء الليل وقعوا نيامًا كالسكارى، فهمة أحدهم ما يأكل ويلتذ به، وليس عندهم من الصلاة خبر، فإن صلى أحدهم نقرها أو جمع بينهما، فهؤلاء فى عداد البهائم.

ومن الناس ذوو رذالة فى أحوالهم؛ فهذا كناس وهذا زبال وهذا نخال وهذا يكسح الحش فهؤلاء أرذل القوم.

ومنهم من يطلب اللذات ولا يساعده المعاش فيخرج إلى قطع الطريق، وهؤلاء أحمق الجماعة، إذ لا عيش لهم؛ فإن التذوا لحظة بأكل أو شرب فحركت الريح قصبة هربوا خوفًا من السلطان، وما أقل بقاءهم، ثم القتل والصلب مع إثم الآخرة.

ومنهم أرباب قرى قد عمهم الجهل، أكثرهم لا يتحاشى من نجاسة، فهم فى زمرة البقر.

ورأيت النساء ينقسمن أيضًا، فمنهن المستحسنة التى تبغى، ومنهن الخائنة لزوجها فى ماله، ومنهن من لا تصلى ولا تعرف شيئًا من الدين؛ فهؤلاء حشو النار، فإذا سمعت موعظة فإنها كما مرت على حجر، وإذا قرئ عندهن القرآن فكأنهن يسمعن السمر.

وأما العلماء فالمبتدئون منهم ينقسمون إلى ذى نية خبيثة يقصد بالعلم المباهاة لا العمل، ويميل إلى الفسق ظنًّا أن العلم يدفع عنه، وإنما هو حجة عليه.

وأما المتوسطون والمشهورون، فأكثرهم يغشى السلاطين ويسكت عن إنكار المنكر، وقليل من العلماء من تسلم له نيته ويحسن قصده.

فمن أراد الله به خيراً رزقه حسن القصد فى طلب العلم، فهو يحصله لينتفع به وينفع، ولا يبالى بعمل مما لا يدله عليه العلم، فتراه يتجافى عن أرباب الدنيا، ويحذر مخالطة العوام، ويقنع بالقليل خوفًا من المخاطرة فى الدنيا فى تحصيل الكثير، ويؤثر العزلة فليس مذكراً للآخرة مثلها.

وليس على العالم أضر من الدخول على السلاطين فإنه يحسن للعالم الدنيا ويهون عليه المنكر، وربما أراد أن ينكر فلا يصح له، فإن عُدِم القناعة وغلبته نفسه فى طلب فضول الدنيا سلم عليه لأنه يتعرض بأربابها، وإن الإنسان ليمشى فى السوق ساعة فينسى بما يرى ما يعلم، فكيف إذا انضم إلى ذلك التردد إلى الأغنياء والطمع فى أموالهم.

فأما الوحدة فإنها سبب رجوع القلب، وجمع الهم، والنظر فى العواقب، والتهيؤ للرحيل وتحصيل الزاد؛ فإذا انضمت إليها القناعة جلبت المستحسنة، ولا تحسن اليوم المجالسة إلا لكتاب يحدثك عن أسرار السلف؛ فأما مجالسة العلماء فمخاطرة، إذ لا يجتمعون على ذكر الآخرة فى الأغلب.

ومجالسة العوام فتنة للدين، إلا أن يحترز مجالسهم ويمنعهم من القول فيقول هو ويكلفهم السماع، ثم يستوفز للبعد عنهم ولا يمكن الانقطاع الكلى إلا بقطع الطمع، ولا ينقطع الطمع إلا بالقناعة باليسير أو يتميز بتجارة، أو أن يكون له عقار يستغله، فإنه متى احتاج تشتت الهم، ومتى انقطع العالم عن الخلق وقطع طمعه فيهم، وتوفر على ذكر الآخرة؛ فذاك الذى ينفع وينتفع به. والله الموفق.

٢٥١- فصل - من تأمل بعين الفكر دوام البقاء فى الجنة فى صفاء بلا كدر، ولذات بلا انقطاع، وبلوغ كل مطلوب للنفس، والزيادة بلا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر من غير تغيير ولا زوال، ولا يقال ألف ألف سنة ولا ماية ألف ألف ألف، ولو أن الإنسان عدّ الألوف ألوف سنين لا ينقضى عدده ولا كان له نهاية، وبقاء الآخرة لا نفاد له؛ إلا أنه لا يحصل ذلك إلا بنقد هذا العمر. . وما مقدار عمر غايته مائة سنة منها خمسة عشر صبوة وجهل، وثلاثون بعد السبعين -إن حصلت- ضعف وعجز.

والتوسط نصفه نوم وبعضه زمان أكل وشرب وكسب، والمنتحل منه للعبادات يسير. . أفلا يشترى ذلك الدائم بهذا القليل؟ إن الإعراض عن الشروع فى هذا البيع والشراء لغبن فاحش فى العقل، وخلل داخل فى الإيمان بالوعد؛ فإن من يدرى كيف يعقد البيع بالعلم، هو الذى يدل على الطريق ويعرّف ما يصلح لها ويحذر من فظاعتها.

ولقد دخل إبليس على طائفة من المتزهدين بآفات أعظمها أنه صرفهم عن العلم؛ فكأنه شرع فى إطفاء المصباح ليسرق فى الظلمة؛ حتى أنه أخذ قومًا من كبار العلماء فسلك بهم من ذلك ما ينهى عنه العلم؛ فرأيت أبا حامد الطوسى يحكى عن نفسه فى بعض مصنفاته قال: شاورت متبوعًا مقدمًا من الصوفية فى المواظبة على تلاوة القرآن فمنعنى منه.

وقال: السبيل أن تقطع علايقك من الدنيا بالكلية بحيث لا يلتفت قلبك إلى أهل وولد ومال وعلم، بل تصير إلى حالة يستوى عندك وجود ذلك

وعدمه، ثم تخلو بنفسك فى زاوية، فتقتصر من العبادة على الفرائض والرواتب، وتجلس فارغ القلب، ولا تزال تقول: الله الله.. إلى أن تنتهى إلى حالة لو ترك تحريك اللسان رأيت كأن الكلمة جارية على لسانك، ثم تنظر ما يفتح عليك مما فتح مثله على الأنبياء والأولياء.

قلت: وهذا أمر لا أتعجب أنا فيه من الموصِى به، وإنما أتعجب من الذى قَبِلَهُ مع معرفته وفهمه، وهل يقطع الطريق بالإعراض عن تلاوة القرآن؟ وهل فتح للأنبياء ما فتح بمجاهدتهم ورياضتهم؟ وهل يوثق بما يظهر؟. ثم ما الذى يفتح؟. أثم اطلاع على علم الغيب أم وحى.. فهذا كله من تلاعب إبليس بالقوم.

وربما كان ما يخايل من أثر الماليخوليا ومن إبليس فعليك بالعلم، انظر فى سير السلف؛ هل فعل أحد منهم من هذا شيئًا أو أمر به، وإنما تشاغلوا بالقرآن والعلم فدلهم على إصلاح البواطن وتصفيتها. نسأل الله عز وجل علمًا نافعًا، للعدو مانعًا. إنه قادر.

٢٥٢- فصل - من أراد اصطفاء محبوب فالمحبوب نوعان امرأة يقصد منها حسن الصورة، وصديق يقصد منه حسن المعنى.

فإذا أعجبتك صورة امرأة فتأمل خلالها الباطنة مديدة قبل أن يتعلق القلب بها تعلقًا محكمًا، فإن رأيتها كما تحب وأصل ذلك كله الدين كما قال: «**عليك بذات الدين**»[(١)]. فمل إليها واستولدها وكن فى ميلك معتدل الميل، فإنه من الغلط أن تظهر لمحبوبك المحبة، فإنه يشتط عليك، وتلقى منه الأذى والتجنى والهجران والإذلال وطلب الإنفاق الكثير، وإن كانت تحبك، لأن هذا إنما يجتلبه حب الإدلال المقهور؛ وثم نكتة عجيبة؛ وهو أنك ربما عملت بمقتضى الحال الحاضرة، وهى تحكم بكمال الحب، ثم إن ذلك لا يثبت

(١) صحيح: أخرجه مسلم (٧١٥) فى كتاب الرضاع، باب: استحباب نكاح ذات الدين من حديث جابر بن عبد الله -ﷺ-، وهو عند البخارى (٥٠٩٠) فى كتاب النكاح، باب: الأكْفَاء فى الدين، ومسلم (١٤٦٦) فى كتاب الرضاع، باب: استحباب نكاح ذات الدين من حديث أبى هريرة، -ﷺ-، بلفظ: «فاظفر بذات الدين».

إليك فتقع وتبقى مقهوراً ويصعب عليك الخلاص، وربما تمكنت بمعرفة سرك أو بأخذ كثير من مالك.

ومن أحسن ما بلغني في هذا أن جارية لبعض الخلفاء كانت تحبه حبًّا شديداً ولا تظهر له ذلك، فسئلت عن هذا؛ فقالت: لو أظهرت ما عندي فجفاني هلكت. قال الشاعر:

لا تظهرنَّ مودةً لحبيبِ ... فترى بعينكَ منْهُ كلَّ عجيبِ
أظهرتُ يومًا للحبيبِ مودَّتي ... فأخذتُ من هُجْرانِه بنصيبِ

وكذا ينبغي أن تكتم بعض حبك للولد، لأنه يتسلط عليك، ويضيع مالك، ويبالغ في الإدلال، ويمتنع عن التعلم والتأدب، وكذلك إذا اصطفيت صديقًا وخبرته فلا تخبره بكل ما عندك، بل تعاهده بالإحسان كما تتعاهد الشجرة، فإنها إذا كانت جيدة الأصل حسنت ثمرتها بالتعاهد. ثم كن منه على حذر فقد تتغير الأحوال. وقد قيل:

احذرْ عدوَّك مرةً ... واحذرْ صديقَك ألفَ مرة
فلربما انقلبَ الصديـ ... ـقُ فكانَ أدْرَى بالمضَرَّة

٢٥٣- فصل - وأما إذا أبغضت شخصًا فلا تظهرن ذلك، فإنك تنبهه على أخذ الحذر منك، وتدعوه إلى المبارزة، فيبالغ في حربك والاحتيال عليك، بل ينبغي أن تظهر له الجميل إن قدرت، وتبره ما استطعت؛ فتنكسر معاداته جبلة بالحياء من بغضك. فإن لم تطق فهجر جميل، لا تبين فيه ما يؤذي. ومتى سمعت عنه كلمة قذَعَةً فاجعل جوابها كلمة جميلة، فهي أقوى في كف لسانه، وكذلك جميع ما يخاف إظهاره، فلا تتكلمن به، فربما وقعت كلمة أسقطت بها عز السلطان فنقلت إليه فكانت سبب هلاكك. أو عن صديق فكانت سبب عداوته، أو صرت رهينًا لمن سمعها خائفًا أن يظهرها، فالحزم كتمان الحب والبغض.

وكذا ينبغي أن تكتم سنك فإن كنت كبيراً استهرموك، وإن كنت صغيراً استحقروك.

وكذلك مقدار مالك، فإنه إن كان كثيراً نسبوك فى نفقتك إلى البخل، وإن كان قليلاً طلبوا الراحة منك.

وكذلك المذهب. فإنك إن أظهرته لم تأمن أن يسمعه مخالف فيقطع بكفرك. وقد أنشدنا محمد بن عبد الباقى البزار:

احفظ لسانَكَ لا تبحْ بثلاثة ... سنًا ومالاً ما استطعتَ ومذهب
فعلى الثلاثة تُبْتَلى بثلاثةٍ ... بمموهٍ ومخرفٍ ومكذب

٢٥٤- فصل - طال تعجبى من مؤمن بالله عز وجل مؤمن بجزائه يؤثر خدمة السلطان مع ما يرى من الجور الظاهر فواعجبًا ما الذى يعجبه؟ إن كان الذى يعجبه دنيويًا فليس ثم إلا أن يصاح بين يديه بسم الله، وأن يتصدر فى المجالس ويلوى عنقه كبراً على النظراء، ويأخذ الأسحات وهو يعلم من أين حصل، وربما انبسط فى البرطيل، ثم يقابل هذا أن يصادر ويعزل؛ فيستخرج تلك المرارة من كل حلاوة كانت فى الولاية وربما كان قريب الحال فافتقر بالمصادرة جداً، ثم تنطلق الألسن المادحة بالذم.

ثم لو سلم من هذا فإنه لا يسلم من الرقيب له والحذر منه، فهو كراكب البحر إن سلم بدنه من الغرق لم يسلم قلبه من الخوف، وإن كان دينًا فإنه يعلم أنهم لا يمكتونه فى الغالب من العمل بمقتضى الدين؛ فإنهم يأمرونه بترك ما يجب وفعل ما لا يجوز فيذهب دينه على البارد ولعقاب الآخرة أشق.

٢٥٥- فصل - العجب من الذى أنف من الذل كيف لا يصبر على جلف الخبز ولا يتعرض لمنن الأنذال، أتراه ما يعلم أنه ما بقى صاحب مروءة! وأنه إن سأل سائل بخيلاً لا يعطى، فإن أعطى نزراً فإنه يستعبد المعطى فى العمر بذلك، ثم ذاك القدر النزر يذهب عاجلاً، وتبقى المنن والخجل ورؤية النفس بعين الاحتقار، إذ صارت سائلة، ورؤية المعطى بعين التعظيم أبدًا، ثم يوجب ذلك السكوت عن معائب المعطى، والبدار إلى قضاء حقوقه وخدمته فيما يفى.

وأعجب من هذا من يقدر أن يستعبد الأحرار بقليل العطا الفانى ولا يفعل، فإن الحر لا يشترى إلا بالإحسان قال الشاعر:

تفضَّلْ على مَنْ شئتَ واعْنَ بأمْرِه ... فأنتَ - ولَوْ كانَ الأميرَ - أميرُهُ
وكُنْ ذا غنيٍ عنْ مَنْ تشاءُ من الورَى ... ولَوْ كانَ سلطانًا فأنتَ نظيرُهُ
ومَنْ كنتَ مُحْتاجًا إليهِ وواقفًا ... على طمعٍ منهُ فأنتَ أسيرُهُ

٢٥٦- فصل - يتضمن وصية الشباب؛ ينبغى للصبى إذا بلغ أن يحذر كثرة الجماع ليبقى جوهره فيفيده ذلك فى الكبر؛ لأنه من الجائز كبره والاستعداد للجائز حزم، فكيف للغالب.

كما ينبغى أن يستعد للشتاء قبل هجومه، ومتى أنفق الحاصل وقت القدرة تأذى بالفقر إليه وقت الفاقة.

وليعلم ذو الدين والفهم أن المتعة إنما تكون بالقرب من الحبيب، والقرب يحصل بالتقبيل والضم؛ وذلك يقوى المحبة، والمحبة يلذ وجودها والوطء ينقص المحبة ويعدم تلك اللذة.

وقد كان العرب يعشقون ولا يرون وطء المعشوق. قال قائلهم: إن نكح الحب فسد؛ فأما الالتذاذ بنفس الوطء فشأن البهائم.

ولقد تأملت المراد من الوطء فوجدت فيه معنى عجيبًا يخفى على كثير من الناس، وهو أن النفس إذا عشقت شخصًا أحبت القرب منه، فهى تؤثر الضم والمعانقة لأنها غاية فى القرب، ثم تريد قربًا يزيد على هذا فيقبل الخد، ثم تطلب القرب من الروح فيقبل الفم، لأنه منفذ إلى الروح، ثم تطلب الزيادة فيمص لسان المحبوب، وقد كان رسول الله -ﷺ- يتوشح عائشة ويقبلها ويمص لسانها؛ فإذا طلبت النفس زيادة فى القرب إلى النفس استعملت الوطء؛ فهذا سره المعنوى، ويحصل منه الالتذاذ الحسى.

٢٥٧- فصل - ليس على العوام أضر من سماعهم علم الكلام، وإنما ينبغى أن يحذر العوام من سماعه والخوض فيه، كما يحذر الصبى من شاطئ

النهر خوف الغرق. وربما ظن العامى أن له قوة يدرك بها هذا وهو فاسد، فإنه قد زل فى هذا خلق من العلماء فكيف العوام.

وما رأيت أحمق من جمهور قُصاص زماننا، فإنه يحضر عندهم العوام الغشم فلا ينهونهم عن خمر وزنا وغيبة، ولا يعلمونهم أركان الصلاة ووظائف التعبد، بل يملؤون الزمان بذكر الاستواء وتأويل الصفات، وأن الكلام قائم بالذات فيتأذى بذلك من كان قلبه سليمًا.

وإنما على العامى أن يؤمن بالأصول الخمسة بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر، ويقنع بما قال السلف: القرآن كلام الله غير مخلوق، والاستواء حق والكيف مجهول، وليعلم أن رسول الله -ﷺ- لم يكلف الأعراب سوى مجرد الإيمان، ولم تتكلم الصحابة فى الجواهر والأعراض؛ فمن مات على طريقهم مات مؤمنًا سليمًا من بدعة، ومن تعرض لساحل البحر وهو لا يحسن السباحة فالظاهر غرقه.

٢٥٨- فصل - أشد الناس جهلاً منهوم باللذات، واللذات على ضربين مباحة ومحظورة:

فالمباحة لا يكاد يحصل منها شيء إلا بضياع ما هُوَ مهم من الدين؛ فإذا حصلت منها حبة قارنها قنطار من الهم، ثم لا تكاد تصفو فى نفسها بل مكدراتها ألوف، فإذا صور عدمها الألوف صار التصوير مغلصمًا للهوى مجرئًا للنفس؛ فإذا أنفت[(١)] أنفت من الأسف على الدوام ما لا يحويه صفة؛ فهى تغر الغمر[(٢)] وتهدم العمر وتديم الأسى.

ومع هذا فالمنهوم كلما عدَّ من لذة طلب أختها، وقد عرف جناية الأولى وخيانتها، وهذا مرض العقل، وداء الطبع؛ فلا يزال هذا كذلك إلى أن يُختطف بالموت فيلقى على بساط ندم لا يُستدرك.

فالعجب ممن همته هكذا مع قصر العمر، ثم لا يهتم بآخرته التى لذتها

(١) أنفت: أبت.
(٢) الغمر: الخامل المغمور.

سليمة من شامت، منزهة عن معائب دائمة إلى الأمد باقية ببقاء الأبد.. وإنما يحصل تقريب هذه بإبعاد تلك، وعمران هذه بتخريب تلك.. فواعجبًا لعاقل حصيف حسن التدبير، فاته النظر فى هذه الأحوال، وغفل عن تميز بين هذين الأمرين.

وإن كانت اللذة معصية انضم إلى ما ذكرناه عار الدنيا، والفضيحة بين الخلق، وعقوبة الحدود، وعقاب الآخرة وغضب الحق سبحانه.

بالله. إن المباحات تشغل عن تحصيل الفضائل، فذم ذلك لبيان الحزم، فكيف بالمحرمات التى هى غاية الرذائل، نسأل الله عز وجل يقظة تحركنا إلى منافعنا، وتزعجنا عن خوادعنا إنه قريب.

٢٥٩- فصل - تأملت على الخلق وإذا هم فى حال عجيبة يكاد يقطع معها بفساد العقل. وذلك أن الإنسان يسمع المواعظ وتذكر له الآخرة فيعلم صدق القائل، فيبكى وينزعج على تفريطه، ويعزم على الاستدراك، ثم يتراخى عمله بمقتضى ما عزم عليه؛ فإذا قيل له: أتشك فيما وُعدت به؟. لا والله. فيقال له: فاعمل. فينوى ذلك ثم يتوقف عن العمل، وربما مال إلى لذة محرمة، وهو يعلم النهى عنها.

ومن هذا الجنس تأخر الثلاثة الذين خلفوا ولم يكن لهم عذر، وهم يعلمون قبح التأخر، وكذلك كل عاص ومفرط.

فتأملت السبب مع أن الاعتقاد صحيح والفعل بطىء، فإذا له ثلاثة أسباب:

أحدها: رؤية الهوى العاجل، فإن رؤيته تشغل عن الفكر فيما يجنيه.

والثانى: التسويف بالتوبة؛ فلو حضر العقل لحذر من آفات التأخير، فربما هجم الموت ولم تحصل التوبة. والعجب ممن يجوز سلب روحه قبل

مضى ساعة ولا يعمل على الحزم، غير أن الهوى يطيل الأمد، وقد قال صاحب الشرع -ﷺ-: «صلاة مودع»(١). وهذا نهاية الدواء لهذا الداء، فإنه من ظن أنه لا يبقى إلى صلاة أخرى جدّ واجتهد.

والثالث: رجاء الرحمة، فيُرى العاصي يقول: ربى رحيم، وينسى أنه شديد العقاب. ولو علم أن رحمته ليست رقة إذ لو كانت كذلك لما ذبح عصفورًا، ولا آلم طفلاً، وعقابه غير مأمون، فإنه شرع قطع اليد الشريفة بسرقة خمسة قراريط، فنسأل الله عز وجل أن يهب لنا حزمًا يبيت المصالح جزمًا.

٢٦٠- فصل - نظرت فى قول رسول الله -ﷺ- لما لبس الخاتم ثم رمى به وقال: **«شغلنى نظرة إليكم ونظرة إليه»**(٢).

وقوله: **«هذا رجل يتبختر فى حلته مرجِّلاً جُمَّته خسف به الأرض، فهو يتجلجل فيها إلى يوم القيامة»**(٣).

فرأيت أنه لا ينبغى لأحد أن يلبس ثوبًا معجبًا ولا شيئًا من زينة، لأن ذلك يوجب النظر إلى النفس بعين الإعجاب، والنفس ينبغى أن تكون ذليلة للخالق، وقد كان قدماء الأحبار فى بنى إسرائيل يمشون على العصا لئلا يقع منهم بطر فى المشى.

ولبست أم المؤمنين عائشة -رضي الله عنها- درعًا لها فأعجبت به، فقال لها رسول الله -ﷺ-: **«إن الله لا ينظر إليك فى حالتك هذه»**.

---

(١) حسن: أخرجه ابن ماجه (٤١٧١) فى كتاب الزهد، باب: الحكمة من حديث أبى أيوب -رضي الله عنه-. والحديث حسنه الشيخ الألبانى.

(٢) إسناده ضعيف: أخرجه النسائى (٨/ ١٩٤) فى كتاب الزينة، باب: طرح الخاتم وترك لبسه، وأحمد فى «مسنده» (١/ ٣٢٢) من حديث ابن عباس -رضي الله عنهما-، والحديث ضعفه الشيخ الألبانى.

(٣) صحيح: أخرجه مسلم (٢٠٨٨) فى كتاب اللباس والزينة، باب: تحريم التبختر في المشى من حديث أبى هريرة -رضي الله عنه-.

ولما لبس رسول الله -ﷺ- خميصة لها أعلام قال: **«ألهتني هذه عن صلاتي»**(١).

وهذا كله يوجب الإعراض عن الزينة وما يحرك إلى الفخر والزهو والعجب؛ ولهذا حرم الحرير.

وأقول على أسباب هذا: أن المرقعات التي يتتوق فيها المتصوفة بالسوارك والتلميع، ربما أوجبت زهو الملابس، إما لحسنها في ذاتها، أو لعلمه أنها تنبئ عنه بالتصوف والزهد. وكذلك الخاتم في اليد، وطول الأكمام، والنعال الصرارة، ولا أقول: إن هذه الأشياء تحرم، بل ربما جلبت ما يحرم من الزهو، فينبغي للعاقل أن يتنبه بما قلت في دفع كل ما يحذر من شره، وقد ركب ابن عمر نجيبًا(٢) فأعجبه مشيه فنزل، وقال: يا نافع أدخله في البُدْن.

٢٦١- فصل - من أراد اجتماع همه وإصلاح قلبه، فليحذر من مخالطة الناس في هذا الزمان، فإنه قد كان يقع الاجتماع على ما ينفع ذكره، فصار الاجتماع على ما يضر. وقد جربت على نفسي مرارًا أنْ أحصرها في بيت العزلة، فتجتمع هي ويضاف إلى ذلك النظر في سير السلف فأرى العزلة حمية والنظر في سير القوم دواء، واستعمال الدواء مع الحمية عن التخليط نافع.

فإذا فسحت لنفسي في مجالسة الناس ولقائهم تشتت القلب المجتمع، ووقع الذهول عما كنت أراعيه، وانتقش في القلب ما قد رأته العين، وفي الضمير ما تسمعه الأذن، وفي النفس ما تطمع في تحصيله من الدنيا، وإذا جمهور المخالطين أرباب غفلة، والطبع بمجالستهم يسرق من طباعهم؛ فإذا عدت أطلب القلب لم أجده، وأروم ذاك الحضور فأفقده، فيبقى في غمار ذلك اللقاء للناس أيامًا حتى ما يسلو الهوى.

---

(١) صحيح: أخرجه البخاري (٣٧٣) في كتاب، باب: إذا صلى في ثوب له أعلام ونظر إلى علمها، ومسلم (٥٥٦) في كتاب المساجد ومواضع الصلاة، باب: كراهة الصلاة في ثوب له أعلام من حديث عائشة -رضي الله عنها-.

وما فائدة تعريض البنا للنقض، فإن دوام العزلة كالبنا، والنظر فى سير السلف يرفعه، فإذا وقعت المخالطة انتقض ما بنى فى مدة فى لحظة، وصعب التلاقى، وضعف القلب، ومن له فهم يعرف أمراض القلب وإعراضه عن صاحبه وخروج طائره من قفصه، ولا يؤمن على هذا المريض أن يكون مرضه هذا سبب التلف، ولا على هذا الطائر المحصور أن لا يقع فى الشبكة، وسبب مرض القلب أنه كان محميًا عن التخليط مُغَذًّا بالعلم وسير السلف فخلط؛ فلم يحتمل مزاجه فوقع المرض. فالجد الجد فإنما هى أيام وما نرى من يلقى ولا من يؤخذ منه، ولا من تنفع مجالسته، إلا أن يكون نادراً ما أعرفه:

ما فى الصحابِ أخو وجدٍ نطارِحهُ حديثَ نجدٍ ولا خِلٌّ نَجَاريهِ

فالزم خلوتك، وراعِ ما بقيت. وإذا قلقت النفس مشتاقة إلى لقاء الخلق، فاعلم أنها بعدُ كدرة فرضها ليصير لقاؤهم عندها مكروهًا، ولو كان عندها شغل بالخالق لما أحبت الزحمة، كما أن الذى يخلو بحبيبه لا يؤثر حضور غيره، ولو أنها عشقت طريق اليمن لم تلتفت إلى الشام.

٢٦٢- فصل - تفكرت فى سبب هداية من يهتدى وانتباه من يتيقظ من رقاد غفلته، فوجدت السبب الأكبر اختيار الحق عز وجل لذلك الشخص. كما قيل: إذا أرادك لأمر هيأك له. فتارة تقع اليقظة بمجرد فكر يوجبه نظر العقل، فيتلمح الإنسان وجود نفسه فيعلم أن لها صانعًا، وقد طالبه بحقه وشكر نعمته وخوّفه عقاب مخالفته، ولا يكون ذلك بسبب ظاهر:

ومن هذا ما جرى لأهل الكهف، ﴿إِذْ قَامُوا فَقَالُوا رَبُّنَا رَبُّ السَّمَـٰوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾(١) وفى التفسير: إن كل واحد منهم ألقى فى قلبه يقظة فقال: لابد لهذا الخلق من خالق، فاشتد كرب بواطنهم من وقود نار الحذر، فخرجوا إلى الصحراء، فاجتمعوا عن غير موعد، فكل واحد يسأل الآخر: ما الذى أخرجك فتصادقوا.

(١) سورة الكهف: ١٤.

ومن الناس من يجعل الخالق سبحانه وتعالى لذلك السبب الذى هو الفكر والنظر سببًا ظاهرًا. إما من موعظة يسمعها أو يراها، فيحرك هذا السبب الظاهر فكرة القلب الباطنة. ثم ينقسم المتيقظون فمنهم من يقلبه هواه ويقتضيه طبعه ما يشتهى مما قد اعتاده، فيعود القهقرى ولا ينفعه ما حصل له من الانتباه. فانتباه مثل هذا زيادة فى الحجة عليه.

ومنهم من هو واقف فى مقام المجاهدة بين صفين العقل الآمر بالتقوى، والهوى المتقاضى بالشهوات. فمنهم مَنْ يُغْلَب بعد المجاهدات الطويلة فيعود إلى الشر ويختم له به، ومنهم من يَغلِب تارةً ويُغلَب أخرى فجراحاته لا فى مقتل.

ومنهم من يقهر عدوه فيسجنه فى حبس، فلا يبقى للعدو من الحيلة إلا الوساوس، ومن الصفوة أقوام تيقظوا ما قاموا، ومذ سلكوا ما وقفوا، فهمهم صعود وترق، كلما عبروا مقامًا إلى مقام رأوا نقص ما كانوا فيه فاستغفروا.

ومنهم من يرقى عن الاحتياج إلى مجاهدة إما لخسة ما يعدو إليه الطبع عنده ولا وقع له، وإما لشرف مطلوبه فلا يلتفت إلى عائق عنه.

واعلم أن الطريق الموصلة إلى الحق سبحانه ليست مما يقطع بالأقدام، وإنما يقطع بالقلوب. والشهوات العاجلة قطاع الطريق والسبيل كالليل المدلهم، غير أن عين الموفق بصر فرس لأنه يرى فى الظلمة كما يرى فى الضوء، والصدق فى الطلب منار[1] أين وجد يدل على الجادة، وإنما يتعثر من لم يُخلص. وإنما يمتنع الإخلاص ممن لا يراد. فلا حول ولا قوة إلا بالله.

٢٦٣- فصل - عجبت لمن يعجب بصورته ويختال فى مشيته وينسى مبدأ أمره؛ إنما أوله لقمة ضمت إليها جرعة ماء؛ فإن شئت كسيرة خبز معها تمرات وقطعة من لحم ومذقة من لبن وجرعة من ماء، ونحو ذلك طبخته الكبد فأخرجت منه قطرات منى، فاستقر فى الأنثيين فحركتها الشهوة،

(١) فى نسخة: ينار جمع (نور) بمعنى: أنوار.

فصبت فى بطن الأم مدة حتى تكاملت صورتها فخرجت طفلاً يتقلب فى خرق البول.

وأما آخره فإنه يُلقى فى التراب فيأكله الدود ويصير رفاتًا تسفيه السوافى، وكم يخرج تراب بدنه من مكان إلى مكان آخر، ويقلب فى أحوال أن يعود فيجمع. هذا خبر البدن.

إنما الروح عليها العمل، فإن تجوهرت بالأدب وتقومت بالعلم، وعرفت الصانع، وقامت بحقه فما يضرها نقض المركب، إن هى بقيت على صفتها من الجهالة شابهت الطين بل صارت إلى أخس حالة منه.

٢٦٤- فصل - هيهات أن يجتمع الهم مع التلبس بأمور الدنيا؛ خصوصًا بالشاب الفقير الذى قد ألف الفقر؛ فإنه إذا تزوج وليس له شىء من الدنيا اهتم بالكسب أو بالطلب من الناس، فتشتت همته وجاءه الأولاد فزاد الأمر عليه، ولا يزال يرخص لنفسه فيما يحصل إلى أن يتلبس بالحرام ومن ينكر فهمته ما يأكل وما يأكله أهله، وما ترضى به الزوجة من النفقة والكسوة، وليس له ذلك. فأى قلب يحضر له، وأى هم يجتمع؟ هيهات!.

والله لا يجتمع الهم والعين تنظر إلى الناس، والسمع يسمع حديثهم، واللسان يخاطبهم، والقلب متوزع فى تحصيل ما لابد منه. فإن قال قائل: فكيف أصنع؟ قلت: إن وجدت ما يكفيك من الدنيا، أو معيشة تكفيك فاقنع بها، وانفرد فى خلوة عن الخلق مهما قدرت، وإن تزوجت فبفقيرة تقنع باليسير، وتصبر أنت على صورتها وفقرها، ولا تترك نفسك تطمح إلى من تحتاج إلى فضل نفقة.

فإن رزقت امرأة صالحة جمعت همك، وإن لم تقدر فمعالجة الصبر أصلح لك من المخاطرة وإياك المستحسنات فإن صاحبهن إذا سلم كعابد صنم، وإذا حصل بيدك شىء فأنفق بعضه، فبحفظ الباقى تحفظ شتات قلبك.

واحذر كل الحذر من هذا الزمان وأهله فما بقى مواس ولا مؤثر، ولا من يهتم لسد خلة، ولا من لو سئل أعطى إلا أن يعطى نذرًا بتضجر، ومنه يستعبد بها المعطى بقية العمر، ويستثقله كل من رآه ويستدعى خدمته له ويتردد إليه.

وإنما كان فى الزمان مثل أبى عمرو بن نجيد سمع أبا عثمان المغربى يقول يومًا على المنبر علىّ ألف دينار، وقد ضاق صدرى، فمضى أبو عمرو إليه فى الليل بألف دينار، وقال اقض دينك، فلما عاد وصعد المنبر قال نشكر الله لأبى عمرو فإنه أراح قلبى وقضى دينى. فقام أبو عمرو فقال: أيها الشيخ ذلك المال كان لوالدتى وقد شق عليها ما فعلت فإن رأيت أن تتقدم برده فافعل، فلما كان فى الليل عاد إليه، وقال له: لماذا شهرتنى بين الناس فأنا ما فعلت ذلك لأجل الخلق. فخذه ولا تذكرنى.

ماتوا وغيِّبَ فى الترابِ شخوصُهم ... والنشرُ مسكٌ والعظامُ رميمُ

فالبعد البعد عن من همته الدنيا، فإن زادهم اليوم إلى أن يحصل أقرب منه إلى أن يؤثر، ولا تكاد ترى إلا عدوًّا فى الباطن صديقًا فى الظاهر شامتًا بباطنه حسودًا على نعمته، فاشتر العزلة بما بيعت فإنَّ من له قلب إذا مشى فى الأسواق وعاد منزله تغير قلبه، فكيف إن عرقله بالميل إلى أسباب الدنيا، واجتهد فى جمع الهم بالبعد عن الخلق ليخلو القلب بالتفكر فى المآب وتتلمح عين البصيرة خيم الرحيل.

٢٦٥- فصل - كان المريد فى بداية الزمان إذا أظلم قلبه أو مرض لبه؛ قصد زيارة بعض الصالحين فانجلى ما أظلم. ومتى حصلت ذرة من الصدق لمريد فَرَدَتْهُ فى بيت عزلة، ووجد نسيمًا من روح العافية، ونورًا فى باطن قلبه، وكاد همه يجتمع وشتاته ينتظم، فخرج فَلَقِىَ من يومئ إليه بعلم أو زهد رُئى عند البطالين وهو يجرى معهم مسلك الهذيان الذى لا ينفع، ورأى صورته صورة منمس[1]، وأهون ما عليه تضييع الأوقات فى الحديث الفارغ.

---

(١) المنمس: التنميس: التلبيس.

فما يرجع المريد عن ذلك الوطن إلا وقد اكتسب ظلمة فى القلب وشتاتًا فى العزم، وغفلة عن ذكر الآخرة، فيعود مريض القلب؛ يتعب فى معالجته أيامًا كثيرة حتى يعود إلى ما كان فيه، وربما لم يعد لأن المريد فيه ضعف فإذا رأى شيخًا قد جرب وعرف ثم يؤثر البطالة، لم يأمن أن يتبعه الطبع.

فالأولى للمريد اليوم أن لا يزور إلا المقابر ولا يفاوض إلا الكتب، التى قد حوت محاسن القوم، وليستعن بالله تعالى على التوفيق لمراضيه، فإنه إن أراده هيأه لما يرضيه.

٢٦٦- فصل - تأملت الذين يختارهم الحق عز وجل لولايته والقرب منه؛ فقد سمعنا أوصافهم ومن نظنه منهم ممن رأيناه فوجدته سبحانه لا يختار إلا شخصًا كامل الصورة، لا عيب فى صورته، ولا نقص فى خلقته. فتراه حسن الوجه معتدل القامة سليمًا من آفة فى بدنه.

ثم يكون كاملاً فى باطنه، سخيًّا جوادًا عاقلاً غير خب[1] ولا خادع ولا حقود ولا حسود ولا فيه عيب من عيوب الباطن.

فذاك الذى يربيه من صغره فتراه فى الطفولة معتزلاً عن الصبيان، كأنه فى الصبا شيخ ينبو عن الرذائل ويفزع من النقائص، ثم لا تزال شجرة همته تنمو حتى يرى ثمرها متهدلاً على أغصان الشباب، فهو حريص على العلم، منكمش على العمل، محافظ للزمان، مراع للأوقات، ساع فى طلب الفضائل، خائف من النقائص، ولو رأيت التوفيق والإلهام الربانى كيف يأخذ بيده إن عثر، ويمنعه من الخطأ إن هم، ويستخدمه فى الفضائل، ويستر عمله عنه حتى لا يراه منه.

ثم ينقسم هؤلاء: فمنهم من تفقه على قدم الزهد والتعبد، ومنهم من تفقه على العلم واتباع السنة، ويندر منهم من يجمع له الكل ويرقيه إلى مزاحمة الكاملين.

وعلامة إثبات الكمال فى العلم والعمل، الإقبال بالكلية على معاملة

---

(١) الخب: الرجل الخداع.

الحق ومحبته واستيعـاب الفضائل كلها فلو تصورت النبوة أن تكتسب لدخلت في كسـبه، ومراتب هذا لا يحـتملها الوصف؛ لـكونه درة الوجود، التي لا تكاد تنعقد في الصدف إلا في كل ودود.

نسأل الله عز وجل توفيقنا لمراضيه وقربه، ونعوذ به من طرده وإبعاده.

٢٦٧- فصل - أكثـر الخلايق على طبع رديء لا تقوِّمُـه الرياضة. لا يدرون لمَ خلقوا ولا المراد منهم. غاية همتهم حصـول بغيتهم من أغراضهم، ولا يسألون عند نيلها ما اجـتلبت لهم من ذم؛ يبذلون العِرْض دون الغرَض، ويؤثرون لذة ساعة، وإن اجتلبت زمان مرض. . يـلبسون عند التجارات ثياب محتال، في شعار مختال، ويُلَبِّسُون في المعاملات، ويسترون الحال.

إن كسبوا فشبهة، وأن أكلوا فشهوة؛ ينامون الليل وإن كانوا نيامًا بالنهار في المعنى، ولا نوم بهذه الصـورة. فإذا أصبحـوا سعوا في تحصيل شـهواتهم بحـرص خنزير، وتبصـبص كلب، وافـتراس أسـد، وغارة ذئب، وروغـان ثعلب. ويتأسـفون عند الموت على فقـد الهوى لا على عدم التـقوى ﴿ذَلِكَ مَبْلَغُهُم مِّنَ الْعِلْمِ﴾[1].

كيف يفلـح من يؤثر ما يراه بعينـه على ما يبصـره بعقله، ومـا يدركه ببصـره أعز عنده مما يراه ببصيـرته. تالله لو فتحوا أسـماعهم لسمـعوا هاتف الرحيل في زمـان الإقامة يصـيح في عرصات الدنيا، تـلمحوا تقويض خـيام الأوائل. لكن غمرهم سكر الجهالة، فلم يفيقوا إلا بضرب الحد.

٢٦٨- فصل - رأيت بعض المتـقدمين سـئل عن من يكتسـب حلالاً وحرامًا من السلاطين والأمراء ثم يبني المسـاجد والأربطة، هل له فيها ثواب؟ فـأفـتـى بما يوجب طيب قلب المنـفق، وأن له في إنفـاق مـــا لا يملكه نوع سمسرة[2]، لأنه لا يعرف أعيان المغصوبين فيرد.

فقلت: واعجبًا؛ من متصدين للفتوى لا يعرفون أصول الشريعة. ينبغي

(١) سورة النجم: ٣٠.
(٢) في نسخة: حسنة.

أن ينظر فى حال هذا المنفق أولاً، فإن كان سلطانًا فما يخرج من بيت المال قد عرفت وجوه مصارفه، فكيف يمنع مستحقه ويشغله بما لا يفيد من بناء مدرسة ورباط! وإن كان المنفق من الأمراء ونواب السلاطين، فإنه يجب أن يرد ما يجب رده إلى بيت المال، وليس فيه إلا ما فرض من إيجاب يليق به، فإن تصرف فى غير ذلك كان مصروفًا فيما ليس له، ولو أذن له كان الأذن جائزًا. وإن كان قد أقطع ما لا يقاوم عمله كان ما يأخذه فاضلاً من أموال المسلمين لا حقَّ له فيه، وعلى من أطلقه فى ذلك إثم أيضًا، هذا إذا سلم المال وكان من حله.

فأما إذا كان حرامًا أو غصبًا فكل تصرف فيه حرام، والواجب رده على من أخذ منه أو على ورثتهم فإن لم يعرف طريق الرد كله فى بيت مال المسلمين، يصرف فى مصالحهم، أو يصرف فى الصدقة، ولم يحظ آخذه بغير الإثم.

أنبأنا أحمد بن الحسن بن البنا قال: أخبرنا محمد بن على الزجاجى قال: أخبرنا عبد الله بن محمد الأسدى قال: أخبرنا على بن الحسن قال: حدثنا أبو داود قال: حدثنا محمد بن عون الطائى قال: حدثنا أبو المغيرة قال: حدثنا الأوزاعى قال: حدثنى موسى بن سليمان قال: سمعت القاسم بن مخيمرة يقول قال رسول الله -ﷺ-: **«من اكتسب مالاً من مأثم، فوصل رحمًا، أو تصدق به، أو أنفقه فى سبيل الله، جمع ذلك جميعًا فقذف به فى جهنم»**(١).

فأما إذا كان البانى تاجرًا مكتسبًا للحلال فبنى مسجدًا أو وقف وَقفًا للمتفقهة، فهذا مما يثاب عليه، ويبعد من يكتسب الحلال حتى يفضل عنه هذا المقدار، ويخرج الزكاة مستقصاة، ثم يطيب قلبه بمثل هذا البناء والنفقة؛ إذ مثل هذا البنيان لا يجوز أن يكون من زكاة! وأين سلامة النية وخلوص المقصد؟ وإن بناء المدارس اليوم مخاطرة؛ إذ قد انعكف أكثر المتفقهة على علم

---

(١) ذكره الهيثمى فى «المجمع» (١٠/٢٩٢) بنحوه، وقال: رواه الطبرانى وفيه محمد بن أبان الجعفى، وهو ضعيف.

الجدل، وأعرضوا عن علوم الشريعة، وتركوا التردد فى المساجد، واقتنعوا بالمدارس والألقاب.

وأما بناء الأربطة فليس بشيء أصلاً، لأن جمهور المتصوفة جلوس على بساط الجهل والكسل، ثم يدعى مدعيهم المحبة والقرب، ويكره التشاغل بالعلم، وقد تركوا سيرة سرّى وعادات الجنيد، واقتنعوا بأداء الفرائض، ورضوا بالمرقعات؛ فلا تحسن إعانتهم على بطالتهم وراحتهم، ولا ثواب فى ذلك.

٢٦٩- فصل - عجبت لمن يتصنع للناس بالزهد يرجو بذلك قربة من قلوبهم، وينسى أن قلوبهم بيد من يعمل له، فإن رضى عمله ورآه خالصًا ألفت القلوب إليه، وإن لم يره خالصًا أعرض بها عنه.

ومتى نظر العامل إلى التفات القلوب إليه فقد زاحم الشرك، لأنه ينبغى أن يقنع بنظر من يعمل له، ومن ضرورة الإخلاص إلفات القلوب إليه، فذاك يحصل لا بقصده بل بكراهته لذلك.

وليعلم الإنسان أن أعماله كلها يعلمها الخلق جملة، وإن لم يطلعوا عليها؛ فالقلوب تشهد للصالح بالصلاح وإن لم يشاهد منه ذلك.

فأما من يقصد رؤية الخلق بعمله فقد مضى العمل ضائعًا، لأنه غير مقبول عند الخالق ولا عند الخلق، لأن قلوبهم قد التفتت عنه؛ فقد ضاع العمل، وذهب العمر.

لقد أخبرنا ابن الحصين قال: أخبرنا ابن المذهب قال: أخبرنا أحمد بن جعفر قال: حدثنا عبد الله بن أحمد قال: حدثنى أبى قال: حدثنا حسن بن موسى قال: حدثنا ابن لهيعة قال: حدثنا دراج عن أبى الهيثم عن أبى سعيد الخدرى عن رسول الله -ﷺ- أنه قال: «**لو أن أحدكم يعمل فى صخرة صماء ليس لها باب ولا كوة لخرج للناس كائنًا ما كان**»[1] فليتق الله العبد وليقصد من ينفعه قصده، ولا يتشاغل بمدح مَنْ عن قليل بلى هو وهم.

(١) ضعيف: أخرجه الإمام أحمد فى «مسنده» (٢٨/٣)، وأبو يعلى فى «مسنده» (١٣٧٨) من حديث أبى سعيد الخدرى، والحديث ضعفه الشيخ الألبانى فى «ضعيف الجامع» (٤٧٩٩).

٢٧٠- فصل - قدم علينا بعض فقهاء من بلاد الأعاجم، وكان قاضيًا ببلده فرأيت على دابته الذهب ومعه أتوار[1] الفضة وأشياء كثيرة من المحرمات!. فقلت: أى شىء أفاد هذا العلم؟ بل والله قد كثرت عليه الحجج. وأكبر الأسباب قلة علم هؤلاء بسيرة السلف وما كان عليه رسول الله -ﷺ-؛ إلا أنهم يجهلون الجملة، ولكنهم يتشاغلون بعلم الخلاف، ويقصدون التقدم، وسماع حديث ولا نظرًا فى سير السلف، ويخالطون السلاطين فيحتاجون إلى التزيّى بزيهم، فربما خطر لهم أن هذا قريب، وإن لم يخطر لهم فالهوى غالب بلا صاد، وربما خطر لهم أن هذا يحتمل ويغفر فى جانب تشاغلنا بالعلم.

ثم يرون العلماء يكرمونهم لنيل شىء من دنياهم، ولا ينكرون عليهم، ولقد رأيت من الذين ينتسبون إلى العلم من يستصحب المردان، ويشترى المماليك، وما كان من يفعل هذا إلا من قد يئس من الآخرة، ورأيت من قد بلغ الثمانين من العلماء، وهو على هذه الحالة. فالله الله يا من يريد حفظ دينه ويوقن بالآخرة، إياك والتأويلات الفاسدة، والأهواء الغالية، فإنك إن ترخصت بالدخول فى بعضها جرّك الأمر إلى الباقى، ولم تقدر على الخروج لموضع إلف الهوى، فاقبل نصحى، واقنع بالكسرة، وابعد عن أرباب الدنيا، فإذا ضج الهوى فدعه لهذا، وربما قال لك: فالأمر الفلانى قريب، فلا تفعل، فإنه يدعو إلى غيره ويصعب التلاقى. فالصبرَ الصبرَ على شظف العيش والبعد عن أرباب الهوى، فما يتم دين إلا بذلك، ومتى وقع الترخيص حمل إلى غيره، كالشاطئ إلى اللجة، وإنما هو طعام دون طعام، ولباس دون لباس، ووجه أصبح من وجه، وإنما هى أيام يسيرة.

٢٧١- فصل - من تفكر فى عظمة الله عز وجل طاش عقله لأنه يحتاج أن يثبت موجودًا لا أول لوجوده، وهذا شىء لا يعرفه الحس، وإنما يقربه العقل ضرورة، وهو متحير بعد الإقرار، ثم يرى من أفعاله ما يدل على

---

(١) أتوار: جمع تور، وهو إناء يشرب فيه.

وجوده فلا يخفى وجوده، ثم يجرى فى أقداره أمور لولا ثبوت الدليل على وجوده لأوجبت الجحد، فإنه يفرق البحر لبنى إسرائيل وذلك شىء لا يقدر عليه سوى الخالق، ويصير العصا حية ثم يعيدها عصا، وتلتقف ما صنعوا ولا يزيد فيها شىء، فهل بعد هذا بيان؟ فإذا آمنت السحرة تركهم مع فرعون يصلبهم ولا يمنع.

والأنبياء يبتلون بالجوع والقتل، وزكريا ينشر، ويحيى تقتله زانية، ونبينا -ﷺ- يقول كل عام: من يؤوينى من ينصرنى فيكاد الجاهل بوجود الخالق يقول: لو كان موجودًا لنصر أولياءه.

فينبغى للعاقل الذى قد ثبت عنده وجوده بالأدلة الظاهرة الجلية أن لا يمكّن عقله من الاعتراض عليه فى أفعاله ولا يطلب بها علة، إذ قد ثبت أنه مالك وحكيم. فإذا خفى علينا وجه الحكمة فى فعله نسبنا العجز إلى فهومنا. وكيف لا وقد عجز موسى -عليه السلام- أن يعرف حكمة خرق السفينة وقتل الغلام، فلما بان له حكمة ذلك الفساد فى الظاهر أقر؛ فلو قد بانت الحكمة فى أفعال الخالق جحد العقل جحد موسى يوم الخضر.

فمتى رأيت العقل يقول لِمَ؛ فأخرسه بأن تقول له: يا عاجز أنت لا تعرف حقيقة نفسك، فما لك والاعتراض على المالك.

وربما قال العقل: أى فائدة فى الابتلاء وهو قادر أن يثيب ولا بلاء، وأى غرض فى تعذيب أهل النار وليس ثم تشفى؟ فقل له: حكمته فوق مرتبتك، فسلم لما لا تعلم، فإن أول من اعترض بعقله إبليس فرأى فضل النار على الطين فأعرض، وقد رأينا خلقًا كثيرًا وسمعنا عنهم أنهم يقدحون فى الحكمة لأنهم يحكّمون العقول على مقتضاها، وينسون أن حكمة الخالق وراء العقول.

فإياك أن تفسح لعقلك فى تعليل، أو أن تطلب له جواب اعتراض، وقل له سلم تسلم، فإنك لا تدرى غور البحر إلا وقد أدركك الغرق قبل ذلك. هذا أصل عظيم، متى الآدمى أخرجه الاعتراض إلى الكفر.

٢٧٢- **فصل** - العجب ممن يقول: أخرج إلى المقابر فأعتبر بأهل البلى، ولو فطن علم أنه مقبرة يغنيه الاعتبار بما فيها من غيرها، خصوصًا من قد أوغل فى السن، فإن شهوته ضعفت، وقواه قلّت، والحواس كلّت والنشاط فتر، والشعر ابيض، فليعتبر بما فقد، وليستغن عن ذكر من فقد، فقد استغنى بما عنده عن التطلع إلى غيره.

٢٧٣- **فصل** - متى تكامل العقل فقدت لذة الدنيا فتضاءل الجسم وقوى السقم واشتد الحزن، لأن العقل كلما تلمّح العواقب أعرض عن الدنيا، والتفت إلى ما تلمّح ولا لذة عنده بشىء من العاجل، وإنما يلتذ أهل الغفلة عن الآخرة، ولا غفلة لكامل العقل، ولهذا لا يقدر على مخالطة الخلق، لأنهم كأنهم من غير جنسه، كما قال الشاعر:

ما فى الديار أخو وجد نطارحهُ ... حديثَ نجد ولا خلٌ نُجاريه

٢٧٤- **فصل** - ادعى الطبائعيون أن مادة الموجودات الماء والتراب والنار والهواء، فإذا كان فى القيامة أذهب الأصول، ثم أعاد الحيوان ليعلم أنها كانت بالقدرة لا عن تأثير الكليات.

ومن قدح فى البعث قد بالغ فى القدح فى الحكمة، ومن قال: الروح عرض، فقد جحد البعث، لأن العرض لا يبقى والأجساد تصير ترابًا، إن وجد شىء فهو ابتداء خلق؛ كلا والله يعيد النفس بعينها بدليل إعادة مذكوراتها: ﴿قَالَ قَائِلٌ مِّنْهُمْ إِنِّي كَانَ لِي قَرِينٌ﴾(١) وعزته إن لطفه فى البداية دليل على النهاية، حنن الوالدين، وأجرى اللبن فى الثدى، وأنشأ الأطعمة، وأطلع العقل على العواقب. أفيحسن أن يقال بعد هذا التدبير: إنه يهمل بعد الموت فلا يبعث؟ أترى من أحب أن يُعرَف فأنشأ الخلق وقال: كنت كنزًا لا أعرف فأحببت أن أعرَف(٢) يؤثر أن يعدمهم فيجهل قدره! سبحان من أعمى أكثر القلوب عن معرفته.

---

(١) سورة الصافات: ٥١.

(٢) قال ابن تيمية: ليس هذا من كلام النبى -ﷺ- ولا يعرف له سند صحيح ولا ضعيف. «كشف الخفاء» (٢/ ١٣٢).

٢٧٥- فصل - سبحـان من ظهر لخلقه حتى لم يبق خـفاء، ثم خفى حتى كأنه لا ظهور، أى ظهـور أجلا من هذه المصنوعات التى كلها تنطق بأن لى صانعًـا صنعنى ورتبنى على قانون الحكـمة، خصـوصًا هذا الآدمى الذى أنشـأه من قطرة، وبناه على أعـجب فطرة، ورزقـه الفـهم والذهن واليـقظة والعلم، وبسط له المهاد وأجـرى له الماء والريح، وأنبت له الزرع ورفع له من فوقه السماء فأوقد له مصباح الشمس بالنهار، وجاء بالظلمة ليسكن؛ إلى غير ذلك مما لا يخفى، وكـله ينطق بصوت فصـيح يدل على خالقـه، وقد تجلى الخالق سبحانه بهذه الأفعال فـلا خفاء ثم بعث الرسل فقراء من الدنيا ضعاف الأبدان، فقـهر بهم الجبـابرة، وأظهر على أيديهم من المعجـزات ما لا يدخل تحت مقدور بشر؛ وكل ذلك ينطق وقد تخلى سبحانه بذلك، ثم يأتى موسى -عليه السلام- إلى البـحر فينفـرق فلا يبـقى شك فى أن الخالق فـعل هذا، ويكلم عيسى -عليه السلام- الميت فيقوم، ويبعث طيرًا أبابيل تحـفظ بيته فيهلك قاصديه، وهذا أمر يطول ذكره كله؛ يدل على أن تجلى الخالق سبحانه بغير خفاء.

فإذا ثبت عـند العقلاء ذلك من غـير ارتيـاب ولا شك، جاءت أشـياء كأنها تسـتر الظاهر على ما سبق من تسليط الأعـداء على الأولياء، وإذا ثبت التجلى بأدلة لا تحـتمل التأويل، علمت أن لهـذا الخفا سرًّا لا نعلمه يفترض على العقل فيه التسليم للحكيم فمن سلَّم سلم، ومن اعترض هلك.

٢٧٦- فصل - قد يدعـى أهل مذهب الاجتـهاد فى طلـب الصواب [أنه](١) لا يقصـد إلا الحق؛ فترى الراهب يـتعبـد ويتجوع، واليـهودى يذل ويؤدى الجزية، وصاحب كل مـذهب يبالغ فيه ويحتـمل الضيم والأذى طلبًا للهدى وتحصيل الأجر، ومع هذا فيقطع بضلال الأكثرين، وهذا قد يشكل.

وإنما كشـفه أنه ينبـغى أن يطلب الهدى بأسبـابه، ويستـعمل الاجتـهاد بالإنابة. فأما من فـاتته الأسباب أو فـقد بعض الآلات فلا يقال له مجـتهد؛ فاليهـود والنصارى بين عالم قد عـرف صدق نبينا -صلى الله عليه وسلم- ثم يمسك لرئاسته

---

(١) وضعناها لتصحيح المعنى.

فهذا معانـد، وبين مقلد لا ينظر فهذا مهمل، فهو يتـعبد مع إهمال الأصل، وهذا لا ينفع. وبين ناظر منهم لا ينظر حق النظر، فيقول: فى التوراة ديننا لا ينسخ، وهو على غير ثقة أن هذا غير معمول ولا مدخل فيها ويقول النسخ ذا ولا ينظر فى الفرق، فينبغى أن ينظر حق النظر.

ومن هذا الجنس تعـبد الخـوارج مع اقتنـاعهم بعلمـهم القاصـر، وهو قولهم: لا حكم إلا لله ولم يفهموا أن التـحكيم من حكم الله، فجعلوا قتال علىّ -رضي الله عنه- وقتله مبنيًّا على ظنهم الفاسد.

ولما نهب مسلـم بن عقبـة المدينة وقتل الخلق قال: إن دخـلت النار بعد هذا إننى لشـقىّ، فظن بجهله أنهم لما خـالفوا بيعـة يزيد يجوز اسـتباحـتهم وقتلهم. فالويل لعامى قليل العلم لا يتهم نفسه فى واقعة، ولا يذاكر من هو أعلم منه، بل يقطـع بظنه ويقدم، وهذا أصـل ينبغى تأملـه، فقـد هلك فى إهمـاله خلق لا يحصى، وقـد رأينا خلقًا من العـوام إذا وقع لهم واقعـة لم يقبلوا فتوى ﴿وُجُـوهٌ يَوْمَئِـذٍ خَاشِعَـةٌ ﴿٢﴾ عَامِلَةٌ نَّاصِبَةٌ ﴿٣﴾ تَصْـلَىٰ نَارًا حَامِيَةً﴾(١).

٢٧٧- فصل - للنفس ذخائر فى البدن، منها الدم والمنى وأشياء تتقوى بها، فإذا فقدت الذخائر ولم يبق منها شىء ذهبت.

ومن ذخائرها التقـوى بالمال والجاه وما يوجب الفرح؛ فـإذا فقدت ذلك وكانت عزيزة ذات أنفة خرجت، وقد يهجم عليـها الخوف فلا تجد ذخيرة من الرجاء يقـاومه فتـذهب، ويغب عليهـا الفرح فلا تجـد من الحزن ما يقـاومه فتذهب.

فاجتهد فى حفظ ذخائرها وخـصوصًا لشيخ؛ فإنه ينبغى له أن لا يفرح بإخراج الدم، ولا إخراج المنى وإن وجد شـبقًا، إلا أن يكون الشبق زائدًا فى الحد فيـخرج المؤذى فى كل حين، وعلامة أن يكون مـؤذيًا وجود الراحة عند خروجه؛ فمتى وجد ضعفًا فقد آذى خروجه.

---

(١) سورة الغاشية: ٢-٤.

وليحفظ ذو الأنفة على نفسه حشمته، بأن لا يقف في موقف يعاب به، فإنه يتمتع بذخيرة العز والأنفة، ويضاد النفس وجود ضد ذلك، وكذلك ينبغي أن يستعد لآخر عمره بالمال مخافة أن يحتاج فيذل أو يسعى، وقد كلت[1] الآلة، ولأن يخلّف لعدوه أولى من أن يحتاج إلى صديقه، ولا يلتفت إلى من يذم المال، فإنهم الحمقى الجهال الذين اتكلوا على خبز الراحة، فاستطابوا الكسل والدعة، ولم يأنفوا من تناول الصدقة ولا من التعرض للسؤال، وقد كان لكل نبي معاش ولجميع الصحابة، وخلفوا أموالاً كثيرة فافهم هذا الأصل، ولا تلتفت إلى كلام الجهال.

٢٧٨- فصل - رأيت في زهاد زماننا من الكبر وحفظ الناموس ورتبة الجاه في قلوب العامة ما كدت أقطع به على أنهم أهل رياء ونفاق؛ فترى أحدهم يلبس الثوب الذي يرى بعين الزهد، ويأكل أطايب الطعام، ويتكبر على أبناء الجنس ويصادق الأغنياء، ويباعد الفقراء، ويحب الخطاب لمولانا، ويمشي بحاجته، ويضيع الزمان في الهذيان، ويتقوت بخدمة الناس له والتسليم عليه. ولو أنه لبس ثوبًا يخلطه بالفقهاء لذهب الجاه، ولم يبق له متعلق، ولو أن أفعاله ناسبت ثيابه لهان الأمر، لكنهم بهرجوا على من لا يخفى عليه من الخلق، فكيف الخالق سبحانه وتعالى.

٢٧٩- فصل - كثيراً ما أعيد هذا المعنى الذي أنا ذاكره في هذا الكتاب بعبارات ينبغي للمؤمن أن يتشاغل بمعاشه ويرفق في نفقته، فإنه قد كان للعلماء شيء من بيت الله ورفق من الإخوان، ومعونة من العوام، فانقطع الكل، وبقي المتشاغل بالعلم أو التعبد مسكينًا، خصوصًا ذو العائلة. وما رأينا مثل هذا الزمان القبيح، فما بقي من يومأ إليه بمعونة ولا باستقراض منه، فيحتاج الإنسان أن يدخل في مداخل لا تليق به، وأن يتعرض بما لا يصلح. فينبغي تقليل العائلة وتفويت القوت وترقيع الخلق، وإن أمكن معاش فهو أولى من التشاغل بالتعبد والتعلم لفضول العلم، وإلا ضاع الدين في مداخل لا تصلح، أو التعرض لبذل نذل.

---

(١) كلت: تعبت.

٢٨٠- **فصل** - ينبغي للعاقل أن يحترز غاية ما يمكنه؛ فإذا جرى القدر مع احترازه لم يلم، والاحتراز من كل شيء يمكن وقوعه، وأخذ العدة لذلك، وهذا يكون في كل حال.

قد قص رجل ظفره فخاف عليه فخبثت يده فمات، ومر شيخنا أحمد الحربي وهو راكب بمكان ضيق فتطأطأ على السرج فانعصر فؤاده فمرض فمات، وكان يحيى بن نزار شيخًا يحضر مجلسي قد طرق عليه ثقل الأذن فاستدعى طرقيًا فمصّ أذنه فجرى شيء من مخه فمات، وانظر إلى احتراز رسول الله -ﷺ- حين مر على حائط مائل فأسرع.

وينبغي أن يحترز بالكسب في زمن شبابه ادخارًا لزمن شيبه، ولا ينبغي أن يثق بمعامل إلا بوثيقة، ويبادر بالوصية مخافة أن يطرقه الموت، ويحترز من صديقه فضلاً من عدوه، ولا يثق بمودة من قد آذاه هو، فإن الحقد في القلوب لا يزول، وليحترز من زوجته، فربما أطلعها على سره ثم طلقها فيتأذى بما تفعل به.

وقد كان ابن أفلح الشاعر يكاتب رئيسًا في زمن المسترشد فعلم بذلك بوابه، واتفق أنه صرف بوابه فنمّ عليه ونقضت داره.

فهذه المذكرات أمثلة تنبه على ما لم يذكر، وأهم الكل أن يحترز بأخذ العدة وتحقيق التوبة قبل أن يهجم ما لا يؤمن هجومه، وليحذر من لص الكسل، فإنه محتال على سرقة الزمان.

٢٨١- **فصل** - تأملت خصومات الملوك وحرص التجار، ونفاق المتزهدين، فوجدت جمهور ذلك على لذات الحس، وإذا تفكر العاقل في ذلك علم أن أمر الحسيات قريب يندفع بأقل شيء، وأن الغاية لا يمكن نيلها وإن بالغ عاد بالأذى على نفسه أضعاف ما ناله من اللذة، كمن يأكل كثيرًا أو ينكح كثيرًا؛ فالسعيد من اهتم لحفظ دينه، وأخذ من ذلك بمقدار الحاجة.

واعجبًا؛ هذا الملبوس إذا كان وسطًا خدم، وإذا كان مرتفعًا خدم، فإن

نظر اللابس إليه معجبًا به فإن الله لا ينظر إليه حينئذ؛ وفى الصحيح: «**بينا رجل يتبختر فى بردته خسف به**»(١).

والمشروب إن كان حرامًا فعقابه أضعاف لذته، وهتكه العرض بين الناس عقاب آخر، وإن كان مباحًا فالشره فيه يؤذى البدن.

وأما المنكوح فمداراة المستحسن يؤذى فوق كل أذى، ومقاساة المستقبح أشد أذى؛ فعليك بالتوسط.

وتفكر فى أحوال السلاطين كيف قتلوا ظلمًا وكم ارتكبوا حرامًا، وما نالوا إلا يسيرًا من لذات الحس، فانقشع غيم العمر عن حسرات الفضائل، وحصول العقاب، فليس فى الدنيا أطيب عيشًا من منفرد عن العالم بالعلم، فهو أنيسه وجليسه، قد قنع بما سلم به دينه من المباحات الحاصلة؛ لا عن تكلف ولا تضييع دين، وارتدى بالعز عن الذل للدنيا وأهلها، والْتَحف بالقناعة باليسير، إذا لم يقدر على الكثير فوجدته يسلم دينه ودنياه.

واشتغاله بالعلم يدله على الفضائل، ويفرجه فى البساتين؛ فهو يسلم من الشيطان والسلطان والعوام بالعزلة، ولكن لا يصلح هذا إلا للعالم، فإنه إذا اعتزل الجاهل فاته العلم فتخبط.

٢٨٢- فصل - تأملت حالة تدخل على طلاب العلم توجب الغفلة عن المقصود، وهو حرصهم على الكتابة؛ خصوصًا المحدثين فيستغرق ذلك زمانهم عن أن يحفظوا ويفهموا، فيذهب العمر وقد عروا عن العلم إلا اليسير؛ فمن وفق جعل معظم الزمان مصروفًا فى الإعادة والحفظ، وجعل وقت التعب من التكرار للنسخ فيحصل له المراد؛ والموفق من طلب المهم؛ فإن العمر يعجز عن تحصيل الكل، وجمهور العلوم الفقه، وفى الناس من حصل له العلم وغفل عن العمل بمقتضاه، وكأنه ما حصل شيئًا، نعوذ بالله من الخذلان.

٢٨٣- فصل - ما اعتمد أحد أمرًا إذا هم بشيء مثل التثبت، فإنه متى

---

(١) صحيح: وقد تقدم.

عمـل بواقعـة من غيـر تأمل للعواقب كـان الغالب عليـه الندم؛ ولهـذا أمر بالمشاورة لأن الإنسان بالتثبت يتفكر فتعرض على نفسه بالتفكر الأحوال وكأنه شاور وقد قيل: خمير الرأى خير من فطيره.

وأشـد الناس تفريطًا من عـمل مـبادرة فى واقـعة من غـير تثـبت ولا استشارة؛ خـصوصًا فيما يوجبه الغـضب فإنه طلب الهلاك أو الندم العظيم؛ وكم من غضب قـتل وضرب، ثم لما سكن غضبـه بقى طول دهره فى الحزن والبكا والندم؛ والغالب فى القاتل أنه يقتل فتفوت الدنيا والآخرة.

فكذلك من عرضت له شهوة فاستعـجل لديها ونسى عاقبتها، فكم من ندم يتجرعه فى باقى عـمره، وعتاب يستقبله من بعـد موته وعقاب لا يؤمن وقوعه؛ كل ذلك للذة لحظة كـانت كبرق.. فالله التثـبت التثبت فى كل الأمور والنظر فى عـواقبهـا.. خصوصًا الغـضب المثير للخـصومة وتعـجيل الطلاق.

٢٨٤- فصل - سألنى سـائل، قد قال بعض الحكماء: من لم يحـترز بعقله هـلك بعقله؛ فمـا معنى هذا؟ فـبقيت مـدة لا ينكشف لى المعنى، ثم اتضح؛ وذلك أنه إذا طلبت معـرفة ذات الخالق سـبحانه من العـقل فزع إلى الحس التشبيـه فالاحتراز من العقل بالعقل هو أن ينظر فـيعلم أنه لا يجوز أن يكون جسمًا ولا شبهًا لشيء.

وإذا نظر العاقل إلى أفعال البارى سبحانه رأى أشياء لا يقتضيها العقل، مـثل الآلام والذبح للحيـوان وتسليط الأعـداء على الأولياء مع القـدرة على المنع، والابتلاء بالمجـاعة للصـالحين، والمعاقبـة على الذنب بعد البـعد بزلة، وأشياء كثيرة من هذا الجنس يعرضـها العقل على العادات فى تدبيره فيرى أنه لا حكمة تظهـر له فيها، فـالاحتراز من العقل به أن يقـال له: أليس قد ثبت عندى أنه مالك وأنه حكيم وأنه لا يـفعل شيئًـا عبثًا، فـيقول بلى. فيـقال: فنحن نحترز من تدبيرك الثانى بما ثبت عندك فى الأول، فلم يبق إلا أنه خفى عليك وجه الحكمـة فى فعله؛ فيـجب التسليم له، لعلمنا أنه حكيم، حـينئذ يذعن ويقول: قد سلّمت.

وكثير من الخلق نظروا لمقتضى واقع العقل الأول فاعترضوا؛ حتى أن العامي يقول: كيف قضى عليَّ سوء عاقبتي، ولم ضيق رزقي، وما وجه الحكمة في ابتلائي بفنون البلاء، ولو أنه تلمح أنه مالك حكيم لم يبق إلا التسليم لما خفي.

ولقد أنس ببديهة العقل خلق من الأكابر أولهم إبليس، فإنه رأى تفضيل النار على الطين، فاعترض.

ورأينا خلقًا ممن نسب إلى العلم قد زلوا في هذا واعترضوا ورأوا كثيراً من الأفعال لا حكمة تحتها، والسبب ما ذكرنا وهو الأنس بنظر العقل في البديهة والعادات والقياس على أفعال المخلوقين، ولو استخرجوا علم العقل الباطن، وهو أنه قد ثبت الكمال للخالق وانتفت عنه النقائص وعلم أنه حكيم لا يعبث، لبقي التسليم لما لا يعقل.

واعتبر هذا بحال الخضر وموسى -عليهما السلام- لما فعل الخضر أشياء تخرج عن العادات، أنكر موسى ونسي إعلامه له بأني أنظر فيما لا تعلمه من العواقب. فإذا خفيت مصلحة العواقب على موسى -عليه السلام- مع مخلوق؛ فأولى أن يخفى علينا كثير من حكمة الحكيم.

وهذا أصل إن لم يثبت عند الإنسان أخرجه إلى الاعتراض والكفر، وإن ثبت استراح عند نزول كل آفة.

٢٨٥- فصل - بلغني عن بعض الكرماء أن رجلاً سأله فقال: أنا الذي أحسنت إليك[١] يوم كذا وكذا فقال: مرحبًا بمن يتوسل إلينا بنا؛ ثم قضى حاجته. فأخذت من ذلك إشارة فناجيت بها فقلت: أنت الذي هديته من زمن الطفولة وحفظته من الضلال، وعصمته عن كثير من الذنوب، وألهمته طلب العلم لا بفهم لشرف، لموضع الصغر، ولا بحب والده. ورزقته فهمًا لتفقيه وتصنيفه، وهيأت له أسباب جمعه، وقمت برزقه من غير تعب منه، ولا ذل للخلق بالسؤال، وحاميت عنه الأعداء، فلم يقصده جبار، وجمعت

(١) لعل الأصح وأحسنت إليه.

له ما لم يجمع لأكثر الخلق من فنون العلم التى لا تكاد تجتمع فى شخص، وأضفت إليها تعلق القلب بمعرفتك ومحبتك وحسن العبادة ولطفها فى الدلالة عليك، ووضعت له فى القلوب القبول حتى أن الخلق يُقبلون عليه ويقبلون ما يقوله، ولا يشكّون فيه، ويشتاقون إلى كلامه، ولا يدركهم الملل منه، وصنته بالعزلة عن مخالطة من لا يصلح، وآنسته فى خلوته بالعلم تارة وبمناجاتك أخرى، وإن ذهبت أعدّ لم أقدر على إحصاء عشير العشير ﴿**وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَتَ اللَّهِ لا تُحْصُوهَا**﴾[1] فيا محسنًا إلى قبل أن أطلب لا تخيب أملى فيك وأنا أطلب؛ فبإنعامك المتقدم أتوسل إليك.

(١) سورة إبراهيم: ٣٤، والنحل: ١٨.

البخل.. واختلاف أحوال الناس فى الدنيا

٢٨٦- فصل - سبحان من جعل الخلق بين طرفى نقيض والمتوسط منهم يندر: منهم من يغضب فيقتل ويضرب، ومنهم من هو أبله بقوة الحلم لا يؤثر عنده السب، ومنهم شرهٌ يتناول كلما يشتهى، ومنهم متزهد يتجفف فيمنع النفس حقها.

وكذلك سائر الأشياء المحمود منها التوسط؛ فالمنفق كلما يجد مبذر، والبخيل يخبئ المال ويمنع نفسه حظها، ومعلوم أن المال لا يراد لنفسه بل للمصالح، فإذا برز الإنسان فيه احتاج إلى بذل وجهه ودينه ومنة البخلاء عليه، وهذا لا يصلح. ولأن يخلّف الإنسان لعدوه أحسن ما يحتاج إلى صديقه.

وفى الناس من يبخل ثم يتفاوتُون فى البخل حتى ينتهى بالبخلاء أمر إلى عشق عين المال، فربما مات أحدهم هزالاً ولا ينفقه، فيأخذه الغير ويندم المخلف؛ ولقد بلغنى فى هذا ما ليس فوقه مزيد ذكرته ليعتبر به.

فحدثنى شيخنا أبو الفضل بن ناصر عن شيخه عبد المحسن الصورى، قال: كان بصور تاجر فى غرفة له يأخذ كل ليلة من البقال رغيفين وجوزة، فيدخل إلى غرفته وقت المغرب فيضرم النار فى الجوزة فتضىء بمقدار ما ينزع ثوبه، وفى زمان إحراق القشر تكون قد استوت فيمسح بها الرغيفين ويأكلهما، فبقى على هذا مدة فمات، فأخذ منه ملك صور ثلاثين ألفًا.

ورأيت أن رجلاً من كبار العلماء قد مرض فاستلقى عند بعض أصدقائه ليس له من يخدمه ولا يرفقه وهو مضر، فلما مات وجدوا بين كتبه خمسمائة دينار.

وحدثنى أبو الحسن الراندسى قال: مرض رجل عندنا فبعث إلى

فحضرت فقال: قد ختم القاضى على مالى. فقلت: إن شئت قمت وفتحت الختم وأعطيتك الثلث تفرقه وتعمل به ما تشاء. فقال: لا والله ما أريد أن أفرقه، بل أريد مالى يكون عندى. فقلت: ما يعطونك، بلى أنا آخذ لك الثلث. فقال: لا أريد فمات وأُخِذَ مالُه.

قال: وجاء رجل فحدثنى بعجيبة قال: مرضت حماتى فقالت لى: أريد أن تشترى لى خبيصًا فاشتريت لها، وكانت ملقاة فى صفّة ونحن فى صفة أخرى؛ فجاءنى ولدى الصغير وقال: يا سيدى، إنها تبلع الذهب، فقمت وإذا بها تجعل الدينار فى شىء من الخبيص فتبلعه، فأمسكت يدها وزجرتها عن هذا فقالت: أنا أخاف أن تتزوج على بنتى، فقلت: ما أفعل. فقالت: احلف لى فحلفت، فأعطتنى باقى الذهب ثم ماتت فدفنتها، فلما كان بعد أشهر مات لنا طفل فحملناه إليها، وأخذت معى خرقة خام وقلت للحفار اجمع لى عظام تلك العجوز فى الخرقة، فجئت بها إلى البيت وتركتها فى إجّانة[1] وصببت عليها الماء وحركتها، فأخرجت ثمانين ديناراً أو نحوها كانت قد ابتلعتها.

وحكى لى صديق لنا، أن رجلاً مات ودفن فى الدار، ثم نبش بعد مدة ليخرج فوجد تحت رأسه لبِنة مقيّرة[2] فسئل أهله عنها. فقالوا: هو قيّر هذه اللبنة وأوصى أن تترك تحت رأسه فى قبره. وقال: إن اللبن يبلى سريعًا وهذه لموضع القار لا تبلى؛ فأخذوها فوجدها رزينة، فكسروها فوجدوا فيها تسعمائة دينار فتولاها أصحاب التركات.

وبلغنى أن رجلاً كان يكنس المساجد ويجمع ترابها ثم ضربه لبنًا. فقيل له: هذا لأى شىء؟ فقال: هذا تراب مبارك، وأريد أن يجعلوه على لحدى، فلما مات جعل على لحده، ففضل منه لبنات، فرموها فى البيت، فجاء المطر فتفسخت اللبنات فإذا فيها دنانير، فمضوا وكشفوا اللبن عن لحده وكله مملوء دنانير.

---

(١) الإجانة: مركن يغسل فيه.

(٢) لبنة مقيرة: أى عليها القير، وهو القار الأسود الذى يطلى به.

ولقد مات بعض أصدقائنا وكنت أعلم له مالاً كثيراً، وطال مرضه فما أطلع أهله على شيء، ولا أكاد أشك أنه من شحه وحرصه على الحياة ورجائه أن يبقى لم يعلمهم بمدفونه؛ خوفًا أن يؤخذ فيحيا هو وقد أخذ المال، وما يكون بعد هذا الخزى شيء.

وحدثنى بعض أصحابنا عن حالة شاهدها من هذا الفن. قال: كان فلان له ولدان ذكران وبنت، وله ألف دينار مدفونة؛ فمرض مرضًا شديداً فاحتوشته[1] أهله، فقال لأحد ابنيه: لا تبرح من عندى، فلما خلا به قال له: إن أخاك مشغول باللعب بالطيور، وإن أختك لها زوج تركى، ومتى وصل من مالى إليها شيء أنفقوه فى اللعب، وأنت على سيرتى وأخلاقى، ولى فى الموضع الفلانى ألف دينار، فإذا أنامت فخذها وحدك. فاشتد بالرجل المرض فمضى الولد فأخذ المال فعوفى الأب، فجعل يسأل الولد أن يرد المال إليه فلا يفعل، فمرض الولد فجعل الأب يتضرع إليه، ويقول: ويحك خصصتك بالمال دونهم فتموت فيذهب المال، ويحك لا تفعل، فما زال به حتى أخبره بمكانه، فأخذه، ثم عوفى الولد، ومضت مدة فمرض الأب، فاجتهد الولد أن يخبره بمكان المال وبالغ فلم يخبره ومات وضاع المال. فسبحان من أعدم هؤلاء العقول والفهوم ﴿إِنْ هُمْ إِلاَّ كَالأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلاً﴾[2].

٢٨٧- فصل - كان لنا أصدقاء وإخوان أعتدّ بهم؛ فرأيت منهم من الجفاء وترك شروط الصداقة والأخوة وعجائب فأخذت أعتب، ثم انتبهت لنفسى فقلت: وما ينفع العتاب، فإنهم إن صلحوا فللعتاب لا للصفا، فهممت بمقاطعتهم، ثم تفكرت فرأيت الناس بين معارف وأصدقاء فى الظاهر وإخوة مباطنين، فقلت: لا تصلح مقاطعتهم، إنما ينبغى أن تنقلهم من ديوان الأخوة إلى ديوان الصداقة الظاهرة، فإن لم يصلحوا لها نقلتهم إلى جملة

---

(١) احتوشته: أحاطت به.

(٢) سورة الفرقان: ٤٤.

المعارف، وعاملتهم معاملة المعارف، ومن الغلط أن تعاتبهم، فقد قال يحيى ابن معاذ[١]: بئس الأخ أخ تحتاج أن تقول له اذكرنى فى دعائك.

وجمهور الناس اليوم معارف ويندر فيهم صديق فى الظاهر؛ فأما الأخوة والمصافاة فذاك شىء نسخ فلا يطمع فيه، وما أرى الإنسان يصفو له إخوة من النسب ولا ولده ولا زوجته؛ فدع الطمع فى الصفا، وخذ عن الكل جانبًا، وعاملهم معاملة الغرباء، وإياك أن تنخدع بمن يظهر لك الود، فإنه مع الزمان يبين لك الحال فيما أظهره وربما أظهر لك ذلك لسبب يناله منك.

وقد قال الفضيل بن عياض: إذا أردت أن تصادق صديقًا فأغضبه فإن رأيته كما ينبغى فصادقه، وهذا اليوم مخاطرة؛ لأنك إذا أغضبت أحدًا صار عدوًّا فى الحال.

والسبب فى نسخ حكم الصفا، أن السلف كانت همتهم الآخرة وحدها فصفت نياتهم فى الأخوة والمخالطة فكانت دينًا لا دَيْنًا. والآن فقد استولى حب الدنيا على القلوب، فإن رأيت متملقًا فى باب الدين فاخبر تَقْلُه[٢].

٢٨٨- فصل - رأيت المعافى لا يعرف قدر العافية إلا فى المرض كما لا يعرف شكر الإطلاق إلا فى الحبس، وتأملت على الآدمى حالة عجيبة؛ وهو أن يكون معه امرأة لا بأس بها إلا أن قلبه لا يتعلق بمحبتها تعلقًا يلتذّ به. ولذلك سببان:

أحدهما: أن تكون غير غاية فى الحسن.

والثانى: أن كل مملوك مكروه، والنفس تطلب ما لا تقدر عليه، فتراه يضج ويشتهى شيئًا يحبه أو امرأة يعشقها، ولا يدرى أنه إنما يطلب قيدًا وثيقًا يمنع القلب من التصرف فى أمور الآخرة، أو فى علم أو عمل، ويخبطه فى تصرف الدنيا، فيبقى ذلك العاشق أسير المعشوق، همه كله معه فالعجب بمطلق يؤثر القيد، ومستريح يؤثر التعب.

(١) هو: يحيى بن معاذ، أبو زكريا الرازى، الواعظ، انتقل إلى الرى وسكن نيسابور إلى أن مات بها سنة ٢٥٨هـ.

(٢) لعل الصواب: فاختبره تقله، وتقله: تبغضه.

فإن كانت تلك المرأة تحتاج أن تحفظ فالويل له؛ لا قرار له ولا سكون، وإن كانت من المتبرجات اللواتى لا يؤمن فسادهن فذاك هلاكه بمرة؛ فلا هو إن نام يلتذ بنومه، ولا إن خرج من الدار يأمن محنة، وإن كانت تريد نفقة واسعة وليس له، فكم يدخل مدخل سوء لأجلها، وإن كانت تؤثر الجماع وقد علت سنه فذاك الهلاك العظيم، وإن كانت تبغضه فما بقيت من أسباب تلفه بقية؛ فيكون هذا ساعيًا فى تلف نفسه كما قال القائل:

نحبُّ القدود ونهوى الخُدودَ ونعلم أنا نحبُّ المنونا

وهذا على الحقيقة كعابد صنم:

فليتق الله من عنده امرأة لا بأس بها وليعرض عن حديث النفس ومناها فماله منتهى، ولو حصل له غرضه كما يريد وقع الملل وطلب ثالثة، ثم يقع الملل ويطلب رابعة، وما لهذا أخير. إنما يفيده بالعاجل تعلق قلبه وأسر لبه، فيبقى كالمبهوت، فكره كله فى تحصيل ما يريد محبوبه، فإن جرت فرقة أو آفة فتلك الحسرات الدائمة إن بقى، أو التلف عاجلاً، وإن المستحسن المصون الدين القنوع المحب لمن حبه هذا أقل من الكبريت الأحمر فلينظر فى تحصيل ما يجمع معظم الهم، ولا يلتفت إلى سواد الهوى وغاية المنى، وقد سلم.

٢٨٩- فصل - إذا تم علم الإنسان لم ير لنفسه عملاً وإنما يرى إنعام الموفق لذلك العمل الذى يمنع العاقل أن يرى لنفسه عملاً أو يعجب به، وذلك بأشياء منها أنه وفق لذلك العمل ﴿حَبَّبَ إِلَيْكُمُ الإِيمَانَ وَزَيَّنَهُ فِي قُلُوبِكُمْ﴾(١).

ومنها أنه إذا قيس بالنعم لم يف بمعشار عشرها، ومنها أنه إذا لوحظت عظمة المخدوم احتقر كل عمل وتعبد. هذا إذا سلم من شائبة وخلص من غفلة. فأما والغفلات تحيط به فينبغى أن يغلب الحذر من رده، ويخاف العتاب على التقصير فيه، فيشتغل عن النظر إليه؛ وتأمل على الفطنى أحوالهم فى ذلك:

(١) سورة الحجرات: ٧.

فالملائكة الذين يسبحون الليل والنهار لا يفترون قالوا: ما عبدناك حق عبادتك.

والخليل -عليه السلام- يقول: ﴿وَالَّذِي أَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لِي﴾[(١)] وما أدل بتصبره على النار، وتسليمه الولد إلى الذبح.

ورسول الله -صلى الله عليه وسلم- يقول: «**ما منكم من ينجيه عمله**» قالوا: ولا أنت؟ قال: «**ولا أنا إلا أن يتغمدنى الله برحمته**»[(٢)].

وأبو بكر -رضي الله عنه- يقول: وهل أنا ومالى إلا لك يا رسول الله؟!

وعمر -رضي الله عنه- يقول: لو أن لى طلاع[(٣)] الأرض لافتديت بها من هول ما أمامى قبل أن أعلم ما الخبر[(٤)].

وابن مسعود يقول: ليتنى إذا مت لا أبعث.

وعائشة -رضي الله عنها- تقول: ليتنى كنت نسيًا منسيًّا[(٥)]؛ وهذا شأن جميع العقلاء فرضى الله عن الجميع.

وقد روى عن قوم من صلحاء بنى إسرائيل ما يدل على قلة الأفهام لما شرحته لأنهم نظروا إلى أعمالهم فأدلوا بها؛ فمنه حديث العابد الذى تعبد خمسمائة سنة فى جزيرة وأخرج له كل ليلة رمانة، وسأل الله تعالى أن يميته فى سجوده، فإذا حشر قيل له ادخل الجنة برحمتى. قال: بل بعملى، فيوزن جميع عمله بنعمة واحدة فلا يفى، فيقول: يا رب برحمتك، وكذلك أهل

---

(١) سورة الشعراء: ٨٢.

(٢) صحيح: أخرجه البخارى (٥٦٧٣) فى كتاب الرقاق، باب: القصد والمداومة على العمل، ومسلم (٢٨١٦) فى كتاب صفات المنافقين وأحكامهم، باب: لن يدخل أحد الجنة بعمله، بل برحمة الله تعالى من حديث أبى هريرة -رضي الله عنه-.

(٣) طلاع: ملء.

(٤) صحيح: والخبر أخرجه البخارى (٣٦٩٢) فى كتاب فضائل الصحابة، باب: مناقب عمر ابن الخطاب -رضي الله عنه-.

(٥) صحيح: والأثر أخرجه البخارى (٤٧٥٣) فى كتاب التفسير، باب: ﴿إذ تلقونه بألسنتكم﴾.

الغار الذين انطبقت عليهم الصخرة؛ فإن أحدهم توسل بعمل كان ينبغي أن يستحي من ذكره، وهو أنه عزم على الزنى ثم خاف العقوبة فتركه، فليت شعري بماذا يدل من خاف أن يعاقب على شيء فتركه تخوّف العقوبة؛ إنما لو كان مباحًا فتركه كان فيه ما فيه، ولو فهم لشغله خجل الهمّة عن الإدلال، كما قال يوسف -عليه السلام-: ﴿وَمَا أُبَرِّئُ نَفْسِي﴾[1] للأطفال، والآخر ترك صبيانه إلى الفجر ليسقى أبويه اللبن، وفى ضمن هذا البر أذى، ولكن الفهم عزيز.

وكأنهم لما أحسنوا قال لسان الحال: أعطوهم ما طلبوا، فإنهم يطلبون أجرة ما عملوا، ولولا عزة الفهم ما تكبر متكبر على جنسه، ولكان كل كامل خائفًا محتقرًا لعمله حذرًا من التقصير فى شكر ما أنعم عليه، وفهم هذا المشروح ينكس رأس الكبر، ويوجب مساكنة الذل؛ فتأمله فإنه أصل عظيم.

٢٩٠- فصل - ينبغى للعاقل أن يكون على خوف من ذنوبه وإن تاب منها وبكى عليها، وإنى رأيت أكثر الناس قد سكنوا إلى قبول التوبة، وكأنهم قد قطعوا على ذلك، وهذا أمر غائب، ثم لو غفرت بقى الخجل من فعلها، ويؤيد الخوف بعد التوبة أنه فى الصحاح: «**أن الناس يأتون إلى آدم -عليه السلام- فيقولون: اشفع لنا فيقول: ذنبى، وإلى نوح -عليه السلام- فيقول: ذنبى وإلى إبراهيم، وإلى موسى، وإلى عيسى -صلوات الله وسلامه عليهم-**»[2] فهؤلاء إذا اعتبرت ذنوبهم لم تكن أكثرها ذنوبًا حقيقة، ثم إن كانت فقد تابوا منها واعتذروا وهم بعد على خوف منها.

ثم إن الخجل بعد قبول التوبة لا يرتفع، وما أحسن ما قال الفضيل بن عياض رحمه الله: واسوأتاه منك وإن عفوت؛ فأف والله لمختار الذنوب ومؤثر لذة لحظة تبقى حسرة لا تزول عن قلب المؤمن وإن غفر له؛ فالحذر الحذر من كل ما يوجب خجلاً وهذا أمر قل أن ينظر فيه تائب أو زاهد، لأنه يرى أن

(١) سورة يوسف: ٥٣.

(٢) أخرجه الإمام أحمد فى «مسنده» (١/ ٢٨١ و٢٩٥) من حديث ابن عباس -رضي الله عنهما-.

العفو قد غمر الذنب بالتوبة الصادقة، وما ذكرته يوجب دوام الحذر والخجل.

٢٩١- فصل - نعوذ بالله من سوء الفهم وخصوصًا من المتّسمين بالعلم. روى أحمد فى مسنده أنه تنازع أبو عبد الرحمن السلمى وحيان بن عبد الله؛ فقال أبو عبد الرحمن لحيان: قد علمت ما الذى حدا صاحبك يعنى عليًّا. قال: ما هو؟ قال: قول النبى -ﷺ-: **«لعل الله اطّلع إلى أهل بدر فقال: اعملوا ما شئتم فقد غفرت لكم»**.

وهذا سوء فهم من أبى عبد الرحمن حين ظن أن عليًّا قاتل وقتل اعتمادًا على أنه قد غفر له، وينبغى أن يعلم أن معنى الحديث: لتكن أعمالكم المتقدمة ما كانت فقد غفرت لكم، فأما غفران ما سيأتى فلا يتضمنه ذلك؛ أتراه لو وقع من أهل بدر -وحاشاهم- الشرك -إذ ليسوا بمعصومين- أما كانوا يؤاخذون به فكذلك المعاصى.

ثم لو قلنا: أنه يتضمن غفران ما سيأتى، فالمعنى أن مآلكم إلى الغفران؛ ثم دعنا من معنى الحديث، كيف يحل لمسلم أن يظن فى أمير المؤمنين على -رضي الله عنه- أنه فعل ما لا يجوز اعتمادًا على أنه سيغفر له حوشى من هذا، وإنما قاتل بالدليل المضطر له إلى القتال، فكان على الحق، ولا يختلف العلماء أن عليًّا -رضي الله عنه- لم يقاتل أحدًا إلا والحق مع على، كيف وقد قال رسول الله -ﷺ-: **«اللهم أدرْ معه الحق كيفما دار»**[(١)] فقد غلط أبو عبد الرحمن غلطًا قبيحًا، حمله عليه أنه كان عثمانيًّا.

٢٩٢- فصل - تأملت على متزهدى زماننا أشياء تدل على النفاق والرياء وهم يدّعون الإخلاص، منها أنهم يلزمون زاوية فلا يزورون صديقًا، ولا يعودون مريضًا، ويدعون أنهم يريدون الانقطاع عن الناس اشتغالاً بالعبادة، وإنما هى إقامة نواميس ليشار إليهم بالانقطاع، إذ لو مشوا بين الناس زالت هيبتهم، وما كان الناس كذلك.

---

(١) أخرجه الترمذى (٣٧١٤) فى كتاب المناقب، باب: مناقب على بن أبى طالب -رضي الله عنه-.

كان رسول الله -ﷺ- يعود المريض ويشترى الحاجة من السوق، وأبو بكر -رضي الله عنه- يتجر فى البر، وأبو عبيدة بن الجراح يحفر القبور، وأبو طلحة أيضًا، وابن سيرين يغسل الموتى، وما كان عند القوم إقامة ناموس.

وأصحابنا يلزمون الصمت بين الناس والتخشع والتماوت، وهذا هو النفاق؛ فقد كان ابن سيرين يضحك بالنهار وبين الناس، ويبكى بالليل.

وقد رأيت من المتزهدين من يلزم المسجد ويصلى فيجتمع الناس فيصلون بصلاته ليلاً ونهارًا، وقد شاع هذا له فتقوى نفسه عليه بحب المحمدة، والنبى -ﷺ- قال فى صلاة التطوع: «**اجعلوا هذه فى البيوت**»(١).

وفى أصحابنا من يظهر الصوم الدائم، ويتقوت بقول الناس: فلان ما يفطر أصلاً، وهذا الأبله ما يدرى أنه لأجل الناس يفعل ذلك، ولولا هذا كان يفطر والناس يرونه يومين أو ثلاثة حتى يذهب عنه ذلك الاسم ثم يعود إلى الصوم، وقد كان إبراهيم بن أدهم إذا مرض يترك عنده من الطعام ما يأكله الأصحاء.

ورأيت فى زهادنا من يصلى الفجر يوم الجمعة بالناس ويقرأ المعوذتين والمعنى قد ختمت، فإن هذه الأعمال هى صريحة فى النفاق والرياء، وفيهم من يأخذ الصدقات وهو غنى، ولا يبالى أخذ من الظلمة أو من أهل الخير، ويمشى إلى الأمراء يسألهم، وهو يدرى من أين حصلت أموالهم. فالله الله فى إصلاح النيات فإن جمهور هذه الأعمال مردودة.

قال مالك بن دينار: وقولوا لمن لم يكن صادقًا لا يتعنّى(٢). وليعلم المرائى أن الذى يقصده يفوته، وهو التفات القلوب إليه، فإنه متى لم يخلص حرم محبة القلوب، ولم يلتفت إليه، والمخلص محبوب؛ فلو علم المرائى أن

---

(١) صحيح: أخرجه البخارى (٤٣٢) فى كتاب الصلاة، باب: كراهية الصلاة فى المقابر، ومسلم (٧٧٧) فى كتاب صلاة المسافرين، باب: كراهية الصلاة فى المقابر، من حديث ابن عمر -رضي الله عنهما- بلفظ: «اجعلوا فى بيوتكم من صلاتكم».

(٢) يتعنى: يتعب.

قلوب الذين يرائيهم بيد من يعصيه لما فعل، وكم من قد رأينا من يلبس الصوف ويظهر النسك لا يلتفت إليه، وآخر يلبس جيد الثياب ويبتسم والقلوب تحبه. نسأل الله عز وجل إخلاصًا يخلصنا، ونستعيذ به من رياء يبطل أعمالنا إنه قادر.

٢٩٣- فصل - من الجهل أن يخفى على الإنسان مراد التكليف فإنه موضوع على عكس الأغراض؛ فينبغى للعاقل أن يأنس بانعكاس الأغراض؛ فإن دعا وسأل بلوغ غرض تعبد بالدعاء؛ فإن أعطى مراده شكر، وإن لم ينل مراده فلا ينبغى أن يلح فى الطلب، لأن الدنيا ليست لبلوغ الأغراض، وليقل لنفسه: ﴿وَعَسَىٰٓ أَن تَكْرَهُوا شَيْـًٔا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾(١).

ومن أعظم الجهل أن يتمغص فى باطنه لانعكاس أغراضه، وربما اعترض فى الباطن، وربما قال: حصول غرضى لا يضر، ودعائى لم يستجب.

وهذا كله دليل على جهله وقلة إيمانه وتسليمه للحكمة، ومن الذى حصل له غرض ثم لم يكدر.

هذا آدم طاب عيشه فى الجنة وأخرج منها، ونوح سأل فى ابنه فلم يعط مراده، والخليل ابتلى بالنار، وإسحاق بالذبح، ويعقوب بفقد الولد، ويوسف بمجاهدة الهوى، وأيوب بالبلاء، وداود وسليمان بالفتنة، وجميع الأنبياء على هذا، وما لقى نبينا محمد -ﷺ- من الجوع والأذى وكدر العيش فمعلوم.

فالدنيا وضعت للبلاء فينبغى للعاقل أن يوطّن نفسه على الصبر، وأن يعلم أن ما حصل من المراد فلطف، وما لم يحصل فعلى أصل الخلق والجبلة للدنيا كما قيل:

طُبِعَتْ على كدر وأنتَ تُريدُها ... صفوًا من الأقذار والأكدار
ومُكلف الأيام ضِدَّ طباعِها ... متطلبٌ فى الماءِ جَذوةَ نارِ

---

(١) سورة البقرة: ٢١٦.

وهاهنا يتبين قوة الإيمان وضعفه فليستعمل المؤمن من أدوية هذا المرض التسليم للمالك، والتحكيم لحكمته، وليقل قد قيل لسيد الكل: ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ الأَمْرِ شَيْءٌ﴾(١) ثم ليسلِّ نفسه بأن المنع ليس عن بخل، وإنما هو لمصلحة لا يعلمها، وليؤجر الصابر عن أغراضه، وليعلم الله الذين سلموا ورضوا، وإن زمن الابتلاء مقدار يسير، والأغراض مدخرة تلقى بعد قليل، وكأنه بالظلمة قد انجلت، وبفجر الأجر قد طلع، ومتى ارتقى فهمه إلى أن ما جرى مراد الحق سبحانه، اقتضى إيمانه أن يريد ما يريد، ويرضى بما يقدر، إذ لو لم يكن كذلك كان خارجًا عن بقية العبودية فى المعنى، وهذا أصل ينبغى أن يتأمل ويعمل عليه فى كل غرض انعكس.

٢٩٤- فصل - رأيت خلقًا من العلماء والقُصّاص تضيق عليهم الدنيا فيفزعون إلى مخالطة السلاطين لينالوا من أموالهم، وهم يعلمون أن السلاطين لا يكادون يأخذون الدنيا من وجهها، ولا يخرجونها فى حقها؛ فإن أكثرهم إذا حصل له خراج ينبغى أن يصرف إلى المصالح، وهبه لشاعر. وربما كان معه جندى يصلح أن تكون مشاهرته عشرة دنانير فأعطاه عشرة آلاف، وربما غزا فأخذ ما ينبغى أن يقسم على الجيش فاصطفاه لنفسه، هذا غير ما يجري من الظلم فى المعاملات.

وأول ما يجري على ذاك العالم أنه قد حرم النفع بعلمه؛ وقد رأى بعض الصالحين رجلاً عالمًا يخرج من دار يحيى بن خالد البرمكى فقال: أعوذ بالله من علم لا ينفع، ألم تر المنكرات ولا تنكر، وتتناول من طعامهم الذى لا يكاد يحصل إلا بظلم فينطمس قلبك، وتحرم لذة المعاملة للحق سبحانه، ولا يقدر لك أن يهتدى بك أحد، بل ربما كان فعل هذا سببًا لإضلال الناس فى الاقتداء به، فهو يؤذى نفسه ويؤذى أميره، لأنه يقول لولا أننى على صواب ما صحبنى ولأنكر على.

ويؤذى العوام تارة بأن يروا أن ما فيه الأمير صواب، وأن الدخول

---

(١) سورة آل عمران: ١٢٨.

والسكوت عن الإنكار جائز، ويحبب إليهم الدنيا، ولا خير والله فى سعة من الدنيا ضيقت طريق الآخرة. وأنا أفدى أقوامًا صابروا عطش الدنيا فى هجير الشهوات زمان العمر حتى رووا يوم الموت من شراب الرضا، وبقيت أذكارهم تروَى فتروى صدأ القلوب وتجلو صداها.

هذا الإمام أحمد يحتاج فيخرج إلى اللقاط ولا يقبل مال السلطان، هذا إبراهيم الحربى يتغذى بالبقل ويرد على المعتصم ألف دينار؛ هذا بشر الحافى يشكو الجوع فيقال له: يصنع لك حساء من دقيق؛ فيقول: أخاف أن يقول لى هذا الدقيق: من أين لك؟ بقيت والله أذكار القوم، وما كان الصبر إلا غفوة نوم، وضمت لذات المرخصين وبليت الأبدان، ووهن الدين.

فالصبر الصبر يا من وفق، ولا تغبطن من اتسع له أمر الدنيا، فإنك إذا تأملت تلك السعة رأيتها ضيقًا فى باب الدين، ولا ترخص لنفسك فى تأويل، فعمرك فى الدنيا قليل:

وسواء إذا انقضَى يومُ كسرى فى سرور ويومُ صابر كسرى

ومتى ضجت النفس لقلة صبر فَاتْلُ عليها أخبار الزهاد، فإنها ترعوى وتستحى وتنكسر إن كانت لها همة أو فيها يقظة، ومثّل لها بين ترخص على ابن المدينى وقبوله مال ابن أبى داود، وصبر أحمد، وكم بين الرجلين والذِّكرين؛ وانظر ما يروى عن كل واحد منهما وما يجتمعان به، وسيندم ابن المدينى إذا قال أحمد: سلم دينى(١).

٢٩٥- فصل - تأملت أحوال الناس فرأيت جمهورهم منسلاً من ربقة العبودية، فإن تعبدوا فعادة أو فيما لا ينافىَ أغراضهم منافاة تؤذى القلوب. فأكثر السلاطين يحصلون الأموال من وجوه ردية وينفقونها فى وجوه لا تصلح، وكأنهم قد تملكوها، وليست مال الله؛ فإذا غزا أحدهم فغنم الأموال اصطفاها لنفسه، وأعطاها أصحابه كيف اشتهى، والعلماء لقوة فقرهم وشدة شرههم يوافقون وينخرطون فى سلكهم، والتجار على العقود الفاسدة،

---

(١) فى نسخة: سلم لى دينى.

والعوام فى المعاصى والإهمال لجانب الشريعة؛ فإن فات بعض أغراضهم فربما قالوا ما نريد نصلى، لا صلى الله عليهم، وقد منعوا الزكاة وتركوا الأمر بالمعروف، فمن الناس من يغره تأخير العقوبة، ومنهم من كان يقطع بالعفو وأكثرهم متزلزل الإيمان. فنسأل الله أن يميتنا مسلمين.

٢٩٦- فصل - من العجيب سلامة دين ذى العيال إذا ضاق به الكسب، فما مثله إلا كمثل الماء إذا ضرب فى وجهه سِكْر، فإنه يعمل باطنًا ويبالغ حتى يفتح فتحة، فكذلك صاحب العيال إذا ضاق به الأمر لا يزال يحتال، فإذا لم يقدر على الحلال ترخّص فى تناول الشبهات، فإن ضعف دينه مدّ يده إلى الحرام. فالمؤمن إذا علم ضعفه عن الكسب اجتهد فى التعفف عن النكاح، وتقليل النفقة إذا حصل الأولاد، والقناعة باليسير.

فأما من ليس له كسب كالعلماء والمتزهدين، فسلامتهم ظريفة، إذ قد انقطعت مواد السلاطين ومراعاة العوام، فإذا كثرت عائلتهم لم يؤمن عليهم شر مما يجرى على الجهال. فمن قدر منهم على كسب بالنسخ وغيره فليجتهد فيه مع تقليل النفقة والقناعة باليسير، فإن منهم مَنْ ترخّص اليوم أكل الحرام، لأنه يأخذ من الظّلمة خصوصًا بحجة التنمّس والتزهد، ومن كان له منهم مال فليجتهد فى تنميته وحفظه، فما بقى من يؤثر ولا من يقرض، وقد صار الجمهور بل الكل كأنهم يعبدون المال؛ فمن حفظه حفظ دينه، ولا يلتفت إلى قول الجهلة الذين يأمرون بإخراج المال، فما هذا وقته.

واعلم أنه إذا لم يجتمع الهم، لم يحصل العلم ولا العمل ولا التشاغل بالفكر فى عظمة الله، وقد كان همّ القدماء يجتمع بأشياء؛ جمهورها أنه كان لهم من بيت المال نصيب فى كل عام، وكان يصلهم فيفضل عنهم، وفيهم من كان له مال يتّجر به كسعيد بن المسيب وسفيان وابن المبارك وكان همه مجتمعًا، فقال سفيان فى الديانة: لولاك لبهدلونى. وفقدت بضاعة لابن المبارك فبكى، وقال: هو قوام دينى.

وكان جماعة يسكنون إلى عطاء الإخوان الذين لا يمنّون، وكان ابن

المبارك يبعث إلى الفضل وغيره، وكان الليث بن سعد يتفقد الأكابر، فبعث إلى مالك ألف دينار، وإلى ابن لهيعة ألف دينار، وأعطى منصور بن عمار ألف دينار وجارية بثلاثمائة دينار. وما زال الزمان على هذا إلى أن آل الأمر على انمحاق ذلك، فقلّت عطايا السلاطين، وقلَّ من يؤثر من الإخوان، إلا أنه كان فى ذلك القليل ما يدفع الزمان.

فأما زماننا هذا، قد انقبضت الأيدى كلها، حتى قلّ من يخرج الزكاة الواجبة، فكيف يجتمع همّ من يريد من العلماء والزهاد أن يعمل همه ليلاً ونهاراً فى وجوه الكسب وليس من شأنه ولا يهتدى له. فقد رأينا الأمر أحوج إلى التعرض بالسلاطين والترخص فى أخذ ما لا يصلح، وأخرج المتزهدين إلى التصنع لتحصيل الدنيا.

فالله الله يا من يريد حفظ دينه؛ قد كررت عليك الوصية بالتقليل جهدك، وخفف العلائق مهما أمكنك، واحتفظ بدرهم يكون معك فإنه دينك. وافهم ما قد شرحته، فإن ضَجَّت النفس لمراداتها فقل لها: إن كان عندك إيمان فاصبرى، وإن أردت التحصيل لما يفنى ببذل الدين فما نفعك، فتفكرى فى العلماء الذين جمعوا من غير وجهه وفى المنمسين ذهب دينهم، وزالت دنياهم، وتفكرى فى العلماء الصادقين كأحمد وبشر، اندفعت الأيام وبقى لهم حسن الذكر.

وفى الجملة ﴿وَمَن يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَل لَّهُ مَخْرَجًا ۝٢ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لا يَحْتَسِبُ﴾[1] ورزق الله تارة بإيعاد الصبر على البلاء والأيام تندفع، وعاقبة الصبر الجميل جميلة.

٢٩٧- فصل - شكا رجل من بغضه لزوجته وقال: ما أقدر على فراقها لأمور منها: كثرة دَيْنها علىّ وصبرى قليل، ولا أكاد أسلم من فلتات لسانى فى الشكوى، وفى كلمات تعلم بغضى لها. فقلت له: هذا لا ينفع وإنما تؤتى البيوت من أبوابها، فينبغى أن تخلو بنفسك فتعلم أنها إنما سلطت

---

(١) سورة الطلاق: ٢، ٣.

عليك بذنوبك فتبالغ فى الاعتذار والتوبة، فأما التضجر والأذى لها فما ينفع كما قال الحسن عن الحجاج: عقوبة من الله لكم فلا تقابلوا عقوبته بالسيف وقابلوها بالاستغفار.

واعلم أنك فى مقام مبتلى ولك أجر بالصبر: ﴿وَعَسَىٰ أَن تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾(١) فعامل الله سبحانه بالصبر على ما قضى واسأله الفرج.

فإذا جمعت بين الاستغفار وبين التوبة من الذنوب والصبر على القضاء وسؤال الفرج، حصلت ثلاثة فنون من العبادة تثاب على كل منها، ولا تضيع الزمان بشىء لا ينفع، ولا تحتل ظانًّا منك أنك تدفع ما قدر: ﴿وَإِن يَمْسَسْكَ اللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُ إِلَّا هُوَ﴾(٢) وقد روينا أن جنديًّا نزل يومًا فى دار أبى يزيد، فجاء أبو يزيد فرآه، فوقف وقال لبعض أصحابه: ادخل إلى المكان الفلانى فاقلع الطين الطرى فإنه من وجهة فيه شبهة؛ فقلعه، فخرج الجندى.

وأما أذاك للمرأة فلا وجه له لأنها مسلطة؛ فليكن شغلك بغير هذا، وقد روى عن بعض السلف أن رجلاً شتمه فوضع خده على الأرض، وقال اللهم اغفر لى الذنب الذى سلطت هذا به علىّ. قال الرجل: وهذه المرأة تحبنى زائدًا فى الحد، وتبالغ فى خدمتى، غير أن البغض لها مركوز فى طبعى. قلت له: فعامل الله سبحانه بالصبر عليها فإنك تثاب.

وقد قيل لأبى عثمان النيسابورى: ما أرجى عملك عندك؟ قال: كنت فى صبوتى يجتهد أهلى أن أتزوج فآبى فجاءتنى امرأة فقالت: يا أبا عثمان إنى قد هويتك، وأنا أسألك بالله أن تتزوجنى، فأحضرت أباها وكان فقيراً فزوجنى وفرح بذلك. فلما دخلت إلىّ رأيتها عوراء عرجاء مشوهة، وكانت لمحبتها لى تمنعنى من الخروج فأقعد حفظًا لقلبها ولا أظهر لها من البغض شيئًا، وكأنى على جمر الغضا(٣) من بغضها؛ فبقيت هكذا خمس عشرة سنة حتى ماتت فما من عملى شىء هو أرجى عندى من حفظى لقلبها. قلت له: فهذا عمل الرجال، وأى شىء ينفع. ضجيج المبتلى بالتضجر بإظهار البغض؛

(١) سورة البقرة: ٢١٦.
(٢) سورة الأنعام: ١٧.
(٣) الغضا: شجر، خشبه من أصلب الخشب، ولهذا يكون فحمه جيداً.

وإنما طريقه ما ذكرته لك من التوبة والصبر وسؤال الفرج، وتذكر ذنوبًا كانت هذه عقوبتها، وبالغ فإن وقع فرج فى الحساب، وإلا فاستعمال الصبر على القضاء عبادة، وتكلف إظهار المودة لها وإن لم يكن فى قلبك تثبّت على هذا، وليس للقيد ذنب فيلام، إنما ينبغى التشاغل مع من قيّده والسلام.

٢٩٨- فصل - لا ريب أن القلب المؤمن بالإله سبحانه وبأوامره يحتاج إلى الانعكاف[١] على ذكره وطاعته وامتثال أوامره، وهذا يفتقر إلى جمع الهم، وكفى بما وضع فى الطبع من المنازعة إلى الشهوات مشتتًا للهمّ المجتمع، فينبغى للإنسان أن يجتهد فى جمع همه لينفرد همه بذكر الله سبحانه وتعالى وأوامره والتهيؤ للقائه. وذلك إنما يحصل بقطع القواطع والامتناع عن الشواغل، وما يمكن أن يقطع القواطع جملة، فينبغى أن يقطع ما يمكن. وما رأيت مشتتًا للهم مبددًا للقلب مثل شيئين: **أحدهما:** أن تطاع النفس فى طلب كل شىء تشتهيه وذلك لا يوقف على حد فيه، فيذهب الدين والدنيا ولا ينال كل المراد، مثل أن تكون الهمة فى المستحسنات أو فى جمع المال أو فى طلب الرياسة وما يشبه هذه الأشياء؛ فيا له من شتات لا جامع له، يذهب العمر ولا ينال بعض المراد.

والثانى: مخالطة الناس خصوصًا العوام والمشى فى الأسواق، فإن الطبع يتقاضى بالشهوات وينسى الرحيل عن الدنيا، ويحب الكسل عن الطاعة والبطالة، والغفلة والراحة؛ فيثقل على من ألف مخالطة الناس التشاغل بالعلم أو بالعبادة. ولا يزال يخالطهم حتى تهون عليه الغيبة وتضيع الساعات فى غير شىء؛ فمن أراد اجتماع همه فعليه بالعزلة بحيث لا يسمع صوت أحد؛ فيحنئذ يخلو القلب بمعارفه ولا تجد النفس رفيقًا مثل الهوى يذكرها ما تشتهى، فإذا اضطر إلى المخالطة كان على وفاق؛ كما تتهوى الضفدع لحظة ثم تعود إلى الماء فهذه طريق السلامة، فتأمل فوائدها تطب لك.

٢٩٩- فصل - ما رأت عينى مصيبة نزلت بالخلق أعظم من سبّهم

---

(١) الانعكاف: الاعتكاف، وهو الحبس.

للزمان وعيبهم للدهر، وقد كان هذا فى الجاهلية؛ ونهى رسول الله -ﷺ- عن ذلك فقال: «**لا تسبوا الدهر فإن الله هو الدهر**»(١).

ومعناه أنتم تسبون من فرق شملكم وأمات أهاليكم، وتنسبونه إلى الدهر، والله تعالى هو الفاعل لذلك، فتعجبت كيف علم أهل الأسقام بهذه الحال وهم على ما كان أهل الجاهلية عليه ما يتغيرون؛ حتى ربما اجتمع الفطناء الأدباء الظراف على زعمهم فلم يكن لهم شغل إلا ذم الدهر. وربما جعلوا الله الدنيا، ويقولون فعلت وصنعت حتى رأيت لأبى القاسم الحريرى يقول:

ولما تعامَى الدهرُ وهوَ أبو الرَّدَى ... عن الرُّشْد فى أنحائه ومقاصده
تعاميتُ حتى قيلَ إنى أخو عَمى ... ولا غروَ أن يَحذُو الفَتَى حذو والدِهِ

وقد رأيت خلقًا يعتقدون أنهم فقهاء وفهماء ويتحاشون من هذا، هؤلاء إنما أرادوا بالدهر مرور الزمان، فذاك لا اختيار له ولا مراد ولا يعرف رشدًا من ضلال، ولا ينبغى أن يلام، فإنه زمان مدبَّر لا مدبِر فيتصرف فيه ولا يتصرف، وما يظن بعاقل أنه يشير إلى أن المذموم المعرض عن الرشد السيىء الحكم هو الزمان. فلم يبق إلا أن القوم خرجوا عن ربقة الإسلام، ونسبوا هذه القبائح إلى الصانع، فاعتقدوا فيه قصور الحكمة وفعل ما لا يصح، كما اعتقده إبليس فى تفضيل آدم، وهؤلاء لا ينفعهم مع هذا اعتقاد إسلام، ولا فعل صلاة؛ بل هم شر من الكفار، لا أصلح لهم شأنًا ولا هداهم إلى رشاد.

٣٠٠- فصل - من عجائب ما أرى من نفسى ومن الخلق كلهم الميل إلى الغفلة عما فى أيدينا مع العلم بقصر العمر، وإن زيادة الثواب هناك بقدر العمل هاهنا. فيا قصير العمر اغتنم يومى منى، وانتظر ساعة النفر، وإياك أن

---

(١) صحيح: أخرجه البخارى (٤٨٢٦) فى كتاب التفسير، باب: ﴿وما يهلكنا إلا الدهر﴾، ومسلم (٢٢٤٦) فى كتاب الألفاظ من الأدب، باب: النهى عن سب الدهر واللفظ له من حديث أبى هريرة -رضي الله عنه-.

تشغل قلبك بغير ما خلق له، واحـمل نفسك على المرّ واقمعها إذا أبت، ولا تسرح لها فى الطول، فما أنت إلا فى مرعى، وقبيح بمن كان بين الصفين إذا تشاغل بغير ما هو فيه.

٣٠١- فصل - قد كررت هذا المعنى فى هذا الكتاب، وهو الأمر بحفظ السر والحذر من الانبساط فيما لا يصلح بين يدى الناس. فرب منبسط بين يدى من يظنه صديقًا بقول فى صديق أو فى سلطان أنه لا يتهم فى ذلك، فيكون سبب هلاك ذاك. فأوصى السليم الصدر الذى يظن فى الناس الخير أن يحترز من الناس، وأن لا يقول فى الخلق كلمة لا تصلح للخلق، ولا يغتر بمن يظهر الصداقة أو التدين فقد عم الخبث.

٣٠٢- فصل - تأملت على أكثر الناس عبادتهم فإذا هى عادات؛ فأما أرباب اليقظة فعادتهم عبادة حقيقة. فإن الغافل يقول سبحان الله عادة، والمتيقظ لا يزال فكره فى عجايب المخلوقات أو فى عظمة الخالق، فيحركه الفكر فى ذلك فيقول: سبحان الله، ولو أن إنسانًا تفكر فى رمّانة، فنظر فى تصفيف حبها وحفظه بالأغشية لئلا يتضاءل، وإقامة الماء على عظم العجم، وجعل الغشاء عليه يحفظه. وتصوير الفرخ فى بطن البيضة، والآدمى فى حشا الأم، إلى غير ذلك من المخلوقات، أزعجه هذا الفكر إلى تعظيم الخالق؛ فقال: سبحان الله، وكان هذا التسبيح ثمرة الفكر، فهذا تسبيح المتيقظين، وما تزال أفكارهم تجول فتقع عباداتهم بالتسبيحات محققة. وكذلك يتفكرون فى قبائح ذنوب قد تقدمت؛ فيوجب ذلك الفكر حذر الباطن وقلق القلب وندم النفس؛ فيثمر ذلك أن يقول قائلهم: استغفر الله؛ فهذا هو التسبيح والاستغفار. فأما الغافلون فيقولون ذلك عادة، وشتان ما بين الفريقين.

٣٠٣- فصل - لا يصفو التعبد والتزهد والاشتغال بالآخرة إلا بالانقطاع الكلى عن الخلق، بحيث لا يبصرهم ولا يسمع كلامهم إلا فى وقت ضرورة كصلاة جمعة أو جماعة، ويحترز فى تلك الساعات منهم.

وإن كان عالمًا يريد نفعهم وعدهم وقتًا معروفًا واحترز فى الكلام.

وأما من يمشى فى الأسواق اليوم ويبيع ويشترى مع هذا العالم المظلم، ويرى المنكرات والمستهجنات فما يعود إلى البيت إلا وقد أظلم القلب.

فلا ينبغى للمريد أن يكون خروجه إلا إلى الصحراء والمقابر، وقد كان جماعة من السلف يبيعون ويشترون ويحترزون، ومع هذا ما صفا لصافيهم وقت حتى قاطع الخلق.

قال أبو الدرداء: زاولت العبادة والتجارة فلم يجتمعا؛ فاخترت العبادة.

وقد جاء فى الحديث: «**الأسواق تُلهى وتلغى**» فمن قدر على الحمية النافعة واضطر إلى المخالطة والكسب للعائلة، فليحترز احتراز الماشى فى الشوك، وبعيد سلامته.

همة المؤمن.. وأهواء المبطلين..

٣٠٤- فصل - من رزق قلبًا طيبًا ولذة مناجاة فليراع حاله وليحترز من التغير وإنما تدوم له حاله بدوام التقوى. وكنت قد رزقت قلبًا طيبًا ومناجاة حلوة، فأحضرني بعض أرباب المناصب إلى طعامه، فما أمكن خلافه؛ فتنازلت وأكلت منه فلقيت الشدائد، ورأيت العقوبة في الحال، واستمرت مدة، وغضبت على قلبي، وفقدت كل ما كنت أجده. فقلت: واعجبًا كنت في هذا كالمكره، فتفكرت وإذا به قد يمكن مداراة الأمر بلقيمات يسيرة، وإنما التأويل تناول بشهوة أكثر مما يدفع المداراة. فقالت النفس: ومن أين لي أن عين هذا حرام؟ فقالت اليقظة: وأين الورع عن الشبهات! فلما تناولت بالتأويل لقمة استجلبتها بالطبع لقيت الأمرين بفقد القلب، فاعتبروا يا أولي الأبصار.

٣٠٥- فصل - همة المؤمن متعلقة بالآخرة؛ فكل ما في الدنيا يحركه إلى ذكر الآخرة. وكل من شغله شيء فهمته شغله، ألا ترى أنه لو دخل أرباب الصنايع إلى دار معمورة رأيت البزار ينظر إلى الفرش ويحزر قيمته، والنجار إلى السقف والبناء إلى الحيطان والحائك إلى نسج الثياب.

والمؤمن إذا رأى ظلمة ذكر ظلمة القبر، وإن رأى مؤلمًا ذكر العقاب، وإن سمع صوتًا فظيعًا ذكر نفخة الصور، وإن رأى الناس نيامًا ذكر الموتى في القبور، وإن رأى لذة ذكر الجنة؛ فهمته متعلقة بما تم، وذلك يشغله عن كل مأثم. وأعظم ما عنده أنه يتخايل دوام البقاء في الجنة، وإن بقاءه لا ينقطع ولا يزول ولا يعتريه نغصة، فيكاد إذا تخايل نفسه متقلبًا في تلك اللذات الدائمة التي لا تفنى يطيش فرحًا ويسهل عليه ما في الطريق إليها من ألم ومرض وابتلاء وفقد محبوب وهجوم الموت ومعالجة غصصه، فإن المشتاق إلى

الكعبــة يهون عليــه رمل زرود والتائق[١] إلى العافيــة لا يبالى بمرارة الدواء، ويعلم أن جودة الثــمر ثم على مقدار جودة البــذر هاهنا فهو يتخــير الأجود، ويغتنم الزرع فى تشرين العمر من غير فتور.

ثم يتخــايل المؤمن دخول النار والعقــوبة فيتنغص عــيشه ويقــوى قلقه، فعنده بالحــالين شغل عن الدنيا وما فيــها، فقلبه هائم فى بــيداء الشوق تارة، وفى صــحراء الخــوف أخرى، فــما يرى البنيــان، فإذا نازله الموت قَــوَّى ظنه الملائكة بالسلامة، ورجى لنفسه النجاة فيــهون عليه؛ فإذا نزل إلى القبر وجاءه يسألونه، قال بعــضهم لبعض: دعوه فــما استراح إلا الساعــة. نسأل الله عز وجل يقظة تامة تحركنا إلى طلب الفضائل، وتمنعنا من اختيار الرذائل، فإنه إن وفق، وإلا فلا نافع.

٣٠٦- فصل - لقد اعتبــرت على مولاى سبحانه وتعالى أمرًا عــجيبًا وهو أنه تعالى لا يختــار لمحبته القرب منه إلا الــكامل صورة ومعنى. ولست أعنى حسن التــخاطيط وإنما كمــال الصورة اعتــدالها، والمعتــدلة ما تخلو من حسن، فتتــبعها حسن الصورة الباطنة، وهو كــمال الأخلاق وزوال الأكدار، ولا يرى فى باطنه خبثًا ولا كدرًا، بل قد حسن باطنه كما حسن ظاهره.

وقد كان موسى -عليه السلام- كل من رآه يحبه، وكان نبينا -ﷺ- كالقمر ليلة البدر، وقد يكون الولى أسود اللون، لــكنه حسن الصورة لطيف المعانى. فعلى قدر مــا عند الإنسان من التمام فى كمــال الخلق والخلق، يكون عمله، ويكون تقريبه إلى الحــضرة بحسب ذلك. فمنهم كــالخادم على الباب، ومنهم حاجب، ومنهم مــقرب، ويندر من يتم له الكمال. ولعله لا يوجــد فى مائة سنة منهم غير واحد، وهذه حكاية ما تحصل بالاجــتهاد؛ بل الاجتهاد يحصل منها؛ لأنه إذا وقع تمام حث على الجــد على قدر نقصــانه، وهذا لا حيلة فى أصله، إنما هو جبلة. وإذا أرادك لأمر هيأك له.

٣٠٧- فصل - تأملت على قوم يدعون العقول، يعترضون على حكمة الخالق. فينبغى أن يقال لــهم هذا الفهم الذى دلكم علي رد حكمته أليس هو

---

(١) التائق: المشتاق.

من منحه! أفأعطاكم الكمال ورضى لنفسه بالنقص! هذا هو الكفر المحض الذى يزيد فى القبح على الجحد.

فأول القوم إبليس، فإنه رأى بعقله أن جوهر النار أشرف من جوهر الطين فرد حكمة الخالق، ومر على هذا خلق كثير من المعترضين، مثل ابن الراوندى والبصرى وهذا المعرى اللعين يقول كيف يعاب ابن الحجاج بالسخف والدهر أقبح فعلاً منه: أترى يعنى به الزمان! كلا. فإن مر الأوقات لا يفعل شيئًا وإنما هو تسقيف. وكان يستعجل الموت ظنًّا منه أنه يستريح، وكان يوصى بترك النكاح والنسك، ولا يرى فى الإيجاد حكمة إلا العناء والتعب ومصير الأبدان إلى البلا. وهذا لو كان كما ظن كان الإيجاد عبثًا، والحق منزه عن العبث.

قال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَاطِلاً﴾[1] فإذا كان ما خلق لنا لم يخلق عبثًا. أفنكون نحن -ونحن مواطن معرفته ومحال تكليفه- قد أوجدنا عبثًا!؟

ومثل هذا الجهل إنما يصدر ممن ينظر فى قضايا العقول التى يحكم بها على الظواهر، مثل أن يرى مبنيًا ينقض، والعقل بمجرده لا يرى ذلك حكمة ولو كشفت له حكمة ذلك لعلم أنه صواب؛ كما كشف لموسى مراد الخضر فى خرق السفينة وقتل الغلام، ومعلوم أن ذبح الحيوان وتقطيع الرغيف ومضغ الطعام لا يظهر له فائدة سوى الإطلاق؛ فإذا علم أنه غذاء لبدن من هو أشرف بدنًا من المذبوح حسن ذلك الفعل.

واعجبًا ما تقتضى العقول بوجوب طاعة الحكيم الذى يعز عن معرفة حكم مخلوقاته، فكيف يعارضه فى أفعاله، نعوذ بالله من الخذلان.

٣٠٨- فصل - ينبغى لمن وعظ سلطانًا أن يبالغ فى التلطف ولا يواجهه بما يقتضى أنه ظالم، فإن السلاطين حظهم التفرد بالقهر والغلبة؛ فإذا جري نوع توبيخ لهم كان إذلالاً وهم لا يحتملون ذلك.

---

(١) سورة ص: ٢٧.

وإنما ينبغى أن يمزج وعظه بذكر شرف الولاية، وحصول الثواب فى رعاية الرعايا، وذكر سير العادلين من أسلافهم، ثم لينظر الواعظ فى حال الموعوظ قبل وعظه، فإن كانت سيرته حميدة كما كان منصور بن عمار وغيره يعظون الرشيد وهو يبكي وقصده الخير زاد فى وعظه ووصيته، وإن رآه ظالمًا لا يلتفت إلى الخير، وقد غلب عليه الجهل، اجتهد فى أن لا يراه ولا يعظه، لأنه إن وعظه خاطر بنفسه، وإن مدحه كان مداهنًا، فإن اضطر إلى موعظته كان كالإشارة.

وقد كان أقوام من السلاطين يلينون عند الموعظة ويحتملون الواعظين حتى أنه قد كان المنصور يواجه بأنك ظالم فيصبر وقد تغير الزمان، وفسد أكثر الولاة وداهنهم العلماء، ومن لا يداهن لا يجد قبولاً لصواب فيسكت.

وقد كانت الولايات لا يسألها إلا من أحكمته العلوم، وثقفته التجارب. والآن أكثر الولاة يتساوون فى الجهل فتأتي الولاية على من ليس من أهلها، ومثل هؤلاء ينبغى الحذر منهم والبعد عنهم. فمن ابتلى بوعظهم فليكن على غاية التحرز فيما يقول ولا ينبغى أن يغتر بقولهم ظنًّا، فإنه لو قال كلمة لا توافق أغراضهم ثارت حراراتهم. وليحذر مُذكِّر السلطان أن يعرِّض له بأرباب الولايات فإنهم إذا سمعوا بذلك صار الواعظ مقصوداً لهم بالإهلاك خوفًا من أن يعتبر السلطان أحوالهم فتفسد أمورهم. والبعد فى هذا الزمان عنهم أصلح، والسكوت عن المواعظ لهم أسلم، فمن اضطر تلطف غاية التلطف، وجعل وعظه للعوام وهم يسمعون، ولا يعنيهم منه بشيء والله الموفق.

٣٠٩- فصل - الحق لا يشتبه بباطل؛ إنما يموه الباطل عند من لا فهم له، وهذا فى حق من يدعى النبوات، وفى حق من يدعى الكرامات. أما النبوات فإنه قد ادعاها خلق كثير ظهرت قبائحهم، وبانت فضائحهم؛ ومنها ما يوجبه خسة الهمة والتهتك فى الشهوات، والتهافت فى الأقوال والأفعال حتى افتضحوا.

فمنهم الأسـود العنسى، ادعى النبوة ولقب نفسه ذا الحمـارة لأنه كان يقول يأتينى ذو الحمار، وكان أول أمره كاهنًا يشعوذ فيظهر الأعاجيب؛ فخرج فى أواخر حياة النبى -ﷺ- فكاتبته مذحج وواعد ونجـران، وأخرجوا عمرو ابن حزم وخالد بن سعيد صاحبى رسول الله -ﷺ- وصفا له اليمن، وقاتل شهر بن بادام فقتله وتزوج بنته؛ فأعـانت على قتله فهلك فى حياة رسول الله -ﷺ-، وبان للعقلاء أنه كان يشعبذ.

ومنهم مسـيلمة، ادعى النبوة وتسمى رحـمان اليمامـة لأنه كان يقول: الذى يأتينى رحـمان؛ فآمـن برسول الله -ﷺ- وادعى أنه قد أشـرك معه، فالعجب أنه يـؤمن برسول ويقول إنه كذاب؛ ثم جاء بقـرآن يضحك الناس، مثل قوله: يا ضـفدع بنت ضفدعين تنقى ما تـنقين، أعلاك فى الماء وأسفلك فى الطين. ومن العجائب شاة سوداء تحلب لبنًا أبيض؛ فانهتك ستره فى هذه الفـصاحـة، ثم مسح بيـده على رأس صـبى فذهب شـعره، وبصق فى بئـر فيبست، وتزوج سـجاح التى ادعت النبوة. فقالوا: لابد لها من مـهر فقال: مهرها أنى قد أسقطت عنكم صلاة الفجر والعتمة.

وكانـت هذه سجاح قـد ادعت النبـوة بعد مـوت رسول الله -ﷺ-، فاستجاب لها جماعة. فقـالت: أعدوا الركاب، واستعدوا للنهاب، ثم اعبروا على الرباب[1]، فليس دونهم حجاب، فقاتلوهم. ثم قصـدت اليمامة فهابها مسـيلمة فراسلها وأهـدى لها فحضـرت عنده فقالت: اقـرأ علىَّ ما يأتيك به جبريل. فقال: إنكن معشـر النساء خلقتن أفواجًا، وجعلتن لنا أزواجًا، نولجه فيكن إيلاجًا. فقالت: صدقت أنت نبى. فـقال لها: قومى إلى المخدع، فقد هيئ لك المضجع، فإن شئت مستلقـاة وإن شئت على أربع، وإن شئت بثلثيه وإن شئت به أجمع. فـقالت: بل به أجمع فهـو للشمل أجمع؛ فافـتضحت عند العقلاء من أصحابها، فقال منهم عطارد بن حاجب:

أضحتْ نبـيتُنا أنثى يُـطافُ بها وأصبحتْ أنبـياءُ الناسِ ذُكرانا

---

(١) الرباب: السحاب الأبيض.

فلعنةُ الله ربِّ الناسِ كُلِّهم على سجاحِ ومَنْ بالإفك أغوانا
أعنى مُسيلمةَ الكذابَ لا سُقيت أصداؤه مِن رغيثٍ[1] حيثما كانا

ثم إنها رجعت عن غيِّها وأسلمت، وما زالت تبين فضائح مسيلمة حتى قتل.

ومنهم طليحة بن خويلد، خرج بعد دعوى مسيلمة النبوة، وتبعه عوام ونزل سميرا، فتسمى بذى النون، ويقول: إن الذى يأتيه يقال له ذو النون، وكان من كلامه: إن الله لا يصنع بتعفير وجوهكم ولا قبح أدباركم شيئًا فاذكروا الله أعفة قيامًا. ومن قرآنه: والحمام واليمام والصرد الصوام ليبلغن ملكنا العراق والشام، وتبعه عيينة بن حصين، فقاتله خالد بن عيينة فجاء عيينة إلى طليحة فقال: ويحك أجاءك الملك؟ قال: لا فارجع فقاتل، فقاتل ثم عاد، فقال: أجاءك؟، فقال: لا، فعاد، فقاتل، فقال: أجاءك؟ قال: نعم. قال: ما قال لك؟ قال: إن لك جيشًا لا تنساه، فصاح عيينة بالرجل: والله كذاب فانصرف الناس منهزمين، وهرب طليحة إلى الشام. ثم أسلم وصح إسلامه وقُتِلَ بنهاوند.

وذكر الواقدى: أن رجلاً من بنى يربوع يقال له جندب بن كلثوم، كان يلقب كردانًا ادّعى النبوة على عهد رسول الله -ﷺ-، وكان يزعم أن دليله على نبوته أنه يسرج مسامير الحديد والطين؛ وهذا لأنه كان يطلى ذلك بدهن البيلسان فتعمل فيه النار. وقد تنبأ رجل يقال له كهمش الكلابى، وكان يزعم أن الله تعالى أوحى إليه: يا أيها الجائع اشرب لبنًا تشبع، ولا تضرب الذى لا ينفع، فإنه ليس بمقنع، وزعم أن دليله على نبوته أنه يطرح بين السباع الضارية فلا تأكله، وحيلته فى ذلك أنه يأخذ دهن الغار وحجر البرسان وقنفذًا محرقًا وزيد البحر وصدفًا محرقًا مسحوقًا وشيئًا من الصبر والخبط فيطلى به جسمه، فإذا قربت منه السباع فشمت تلك الأرياح وزفورتها نفرت.

وتنبأ بالطايف رجل يقال له أبو جعواتة العامرى، وزعم أن دليله أنه يطرح فى النار القطن فلا يحترق، وهذا لأنه يدهنه بدهن معروف.

(١) الرغيث: الرغوث، وهى المرأة المرضع.

ومنهم هذيل بن يعفور من بنى سعد بن زهير، حكى عنه الأصمعى أنه عارض سورة الإخلاص فقال: قل هو الله أحد إله كالأسد جالس على الرصد لا يفوته أحد ومنهم هذيل بن واسع، كان يزعم أنه ولد النابغة الذبيانى، عارض سورة الكوثر فقال له رجل: ما قلت؟ فقال: إن أعطيناك الجواهر، فصل لربك وجاهر، فما يردنك إلا كل فاجر. فظهر عليه السنوى فقتله وصلبه على العمود، فعبر عليه الرجل فقال: إنا أعطيناك العمود، فصل لربك من قعود، بلا ركوع ولا سجود، فما أراك تعود.

وممن ظهر فادعى أنه يوحى إليه المختار بن أبى عبيد، وكان متخبطًا فى دعواه، وقتل خلقًا كثيراً وكان يزعم أنه ينصر الحسين -رضوان الله عليه- ثم قتل.

ومنهم حنظلة بن يزيد الكوفى، كان يزعم أن دليله أنه يدخل البيضة فى القنينة ويخرجها منها صحيحة، وذاك أنه كان ينقع البيضة فى الخل الحامض فيلين قشرها ثم يصب ماء فى قنينة، ثم يدس البيضة فيها، فإذا لقيت الماء صلبت. وقد تنبأ أقوام قبل نبينا -ﷺ- كزرداشت مانى، وافتضحوا، وما من المدعين إلا من خذل.

وقد جاءت القرامطة بحيل عجيبة، وقد ذكرت جمهور هؤلاء وحيلهم فى كتابى التاريخ المسمى (بالمنتظم) وما فيهم من يتم له أمر إلا ويفتضح.

ودليل صحة نبوة نبينا -ﷺ- أجلى من الشمس، فإنه ظهر فقيراً والخلق أعداؤه فوعد بالملك فملك، وأخبر بما سيكون فكان، وصين من زمن النبوة عن الشره وخساسة الهمة والكذب والكبر، وأيد بالثقة والأمانة والنزاهة والعفة، وظهرت معجزاته للبعيد والقريب، وأنزل عليه الكتاب العزيز الذى حارت فيه عقول الفصحاء، ولم يقدروا على الإتيان بآية تشبهه فضلاً عن سورة، وقد قال قائلهم وافتضح. ثم أخبر أنه لا يعارض فيه فكان كما قال. وذلك قوله تعالى: ﴿فَأْتُوا بِسُورَةٍ﴾[1]. ثم قال: ﴿فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا وَلَن

---

(١) سورة البقرة: ٢٣، ويونس: ٣٨.

تَفْعَلُوا﴾[١]. وكذلك قوله: ﴿فَتَمَنَّوُا الْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿٩٤﴾ وَلَن يَتَمَنَّوْهُ﴾[٢] فما تمناه أحد إذ لو قال قائل قد تمنيته لبطلت دعواه، وكان يقول ليلة غزاة بدر: غداً مصرع فلان هاهنا فلا يتعداه[٣]، وقال: إذا هلك كسرى فلا كسرى بعده، وإذا هلك قيصر فلا قيصر بعده[٤]؛ فما ملك بعدهما من له كبير قدر، ولا من استتب له حال.

ومن أعظم دليل على صدقه أنه لم يرد الدنيا فكان يبيت جائعًا، ويؤثر إذا وجد، ويلبس الصوف ويقوم الليل؛ وإنما تطلب النواميس لاجتلاب الشهوات، فلما لم يردها دل على أنه يدل على الآخرة التي هى حق؛ ثم لم يزل دينه يعلو حتى عم الدنيا، وإن كان الكفر فى زوايا الأرض إلا أنه مخذول، وصار فى تابعيه من أمته الفقهاء الذين لو سمع كلامهم الأنبياء القدماء تحيروا فى حسن استخراجهم، والزهّاد الذين لو رآهم الرهبان تحيروا فى صدق زهدهم، والفطناء الذين لا نظير لهم فى القدماء. أو ليس قوم موسى يعبدون بقرة، ويتوقفون فى ذبح بقرة، ويعبرون البحر، ثم يقولون: اجعل لنا إلهًا، وقوم عيسى يدخرون من المائدة وقد نهوا، والمعتدون فى السبت يعصون الله لأجل الحيتان. وأمتنا بحمد الله تعالى سليمة من هذه الأشياء، وإنما فى بعضها ميل إلى الشهوات المنهى عنها، وذلك من الفروع لا فى الأصول، فإذا ذكّروا بكوا وندموا على تفريطهم. فنحمد الله على هذا الدين وعلى أننا من أمة هذا الرسول -ﷺ-.

وقد كان جماعة من المتصنعين بالزهد مالوا إلى طلب الدنيا والرياسة،

---

(١) سورة البقرة: ٢٤.

(٢) سورة البقرة: ٩٤، ٩٥.

(٣) صحيح: أخرجه مسلم (١٧٧٩) فى كتاب الجهاد والسير، باب: غزوة بدر من حديث أنس -رضي الله عنه-.

(٤) صحيح: أخرجه البخارى (٣١٢٠) فى كتاب فرض الخمس، باب: قول النبى -ﷺ-: «أحلت لنا الغنائم»، ومسلم (٢٩١٨) فى كتاب الفتن وأشراط الساعة، باب: لا تقوم الساعة حتى يمر الرجل بقبر الرجل فيتمنى أن يكون مكان الميت» من حديث أبى هريرة -رضي الله عنه-.

فاستغواهم الهـوى؛ فخرقوا بإظهار ما يشبه الكـرامات كالحلاج وابن الشاش وغيرهمـا ممن ذكرت حال تلبيـسه فى كتاب تلبـيس إبليس، وإنما فعلوا ذلك لاختلاف أغـراضهم. ولم يزل الله ينشئ فى هذا الدين من الفقـهاء من يظهر مـا ستـره المتعلمـون، كـما ينشئ من علمـاء الحـديث من يهتك مـا أخفـاه الواضعون، حفظًا لهذا الدين، ودفعًا للشبهات عنه، فلا يزال الفقيه والمحدث يظهر أن عـوار كل ملبس بوضع حديث أو بإظهـار دعوى تزهد وتنمس[1]، فلا يؤثر ما ادعياه إلا عند جـاهل بعيد من العلم والعمل ﴿لِيُحِقَّ الْحَقَّ وَيُبْطِلَ الْبَاطِلَ وَلَوْ كَرِهَ الْمُجْرِمُونَ﴾[2].

٣١٠- فصل - واعجبًا من موجود لا يفهم معنى الوجود، فإن فهم لم يعمـل بمقتضـى فهمـه، يعلم أن العمـر قصـير وهو يضـيعـه بالنوم والبطالة والحديث الفـارغ، وطلب اللذات، وإنما أيامه أيام عـمل لا زمان فـراغ. وقد كلف بذل المال بمخالفة الطبع من الشرع فبـخل به إلى أن تضايق الخناق فيقول حينئذ: فرقـوا عنى بعد موتى وافعلوا كذا، فأين يقع هـذا لو فعل؟ وبعيد أن يفعل، وإنما يراد بإنفاقك فى صحتك مخالفة للطبع فى تكلف مشاق الإخراج فى زمن السلامـة، فافرق بين الحـالتين إن كان لك فهم. فالـسعيد من انتـبه بنفسه وعمل بمقـتضى عقله، واغتنم زمنًا نهايته الزمن وانتـهب عمراً يا قرب انقطاعه.

ويحك ما تصنع بادخار مـال لا يؤثر حسنة فى صحيـفة ولا مكرمة فى تاريخ.. أما سمعت بإنفاق أبى بكر وبخل ثعلبـة؟ أما رأيت تأثير مدح حاتم وبخل الحـباحب! ويحك لو ابتـلاك فى مالك لاسـتغـثت، أو فى بدنك ليلة بمرض لشكوت.. فـأنت تستـوفى مطلوباتك منه، ولا تستـوفى حقـه عليك ﴿وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ﴾[3] ولتعلم أن هذا القـدر المفرّط فيـه يحل الخلود الدائم فى ثواب العمل فيه. فـسبحان من منّ على أقوام فهموا المراد فـأتعبوا الأجساد،

(١) التنميس: التلبيس.
(٢) سورة الأنفال: ٨.
(٣) سورة المطففين: ١.

وغطى على قلوب آخرين فوجودهم كالعدم، وكيف لا يتعب العاقل بدنه إتعاب البُدْن والمقصود منى. أترى ما بال الحق متجليًا فى إيجادك أيها العبد! بلى. والله إن وجودك دليل وجوده، وإن نعمه عليك دليل جوده. فكما قدمك على سائر الحيوانات، فقدّمه فى قلبك على كل المطلوبات. واخيبة من جَهِلَهُ، وأفْقَرَ من أعرض عنه، وأذلَّ من اعتز بغيره، واحسرة من اشتغل بغير خدمته.

٣١١- **فصل** - إنى أعجب من عاقل يرى استيلاء الموت على أقرانه وجيرانه كيف يطيب عيشه، خصوصًا إذا علت سنه. واعجبًا لمن يرى الأفاعى تدبُّ إليه وهو لا ينزعج! أما يرى الشيخ دبيب الموت فى أعضائه، قد أخرج سكين القوى وأنزل متغشرم الضعف، وقلب السواد بياضًا، ثم فى كلٍّ يوم يزيد الناقص. ففى نظر العاقل إلى نفسه ما يشغله عن النظر إلى خراب الدنيا وفراق الإخوان وإن كان ذلك مزعجًا، ولكن شغل من احترق بيته بنقل متاعه يلهيه عن ذكر بيوت الجيران. وإنه لما يسلى عن الدنيا ويهون فراقها استبدال المعارف ثم تنكّرهم، فقد رأينا أغنياء كانوا يؤثرون وفقراء كانوا يصبرون، ومحاسبين لأنفسهم يتورعون، فاستبدل السفهاء عن العقلاء والبخلاء عن الكرماء؛ فيا سهولة الرحيل، لعل النفس تلقى من فقدت، فتلحق بمن أحبت.

٣١٢- **فصل** - نظرت فى قول الله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَسْجُدُ لَهُ مَن فِي السَّمَٰوَاتِ وَمَن فِي الْأَرْضِ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَالنُّجُومُ وَالْجِبَالُ وَالشَّجَرُ وَالدَّوَابُّ﴾(١) ثم قال: ﴿وَكَثِيرٌ مِّنَ النَّاسِ﴾ فرأيت الجمادات كلها قد وصفت بالسجود، واستثنى من العقلاء، فذكرت قول بعضهم: شعر

ما جحدَ الصامتُ مَنْ أنشأهُ ... ومِنْ ذوى النُّطقِ أتى الجحُودُ

فقلت: إن هذه لقدرة عظيمة، يوهب عقل الشخص ثم يسلب فائدته وإن هذا لأقوى دليل على قادر قاهر، وإلا فكيف يحسن من عاقل أن لا

(١) سورة الحج: ١٨.

يعرف بوجوده وجود من أوجده، وكيف ينحت صنمًا بيده ثم يعبده غير أن الحق سبحانه وتعالى وهب لأقوام من العقل ما يثبت عليهم الحجة، وأعمى قلوبهم كما شاء عن المحجة.

٣١٣- **فصل** - ما رأيت أكثر أذى للمؤمن من مخالطة من لا يصلح، فإن الطبع يسرق، فإن لم يتشبه بهم ولم يسرق منهم فتر عن عمله؛ فإن رؤية الدنيا تحث على طلبها. وقد رأى رسول الله -ﷺ- سترًا على بابه فهتكه وقال: «**ما لى وللدنيا**»[1]، ولبس ثوبًا له طراز فرماه، وقال: «**شغلتنى أعلامه**»[2]، ولبس خاتمًا ثم رماه وقال: «**نظرت إليكم ونظرت إليه**»[3].

وكذلك رؤية أرباب الدنيا ودورهم وأحوالهم، خصوصًا لمن له نفس تطلب الرفعة، وكذا سماع الأغانى ومخالطة الصوفية اليوم الذين لا نظر لهم فى الرزق الحاصل، بل لو كان من أين كان قبلوه، ولا يتورعون أن يأخذوا من ظالم، وليس عندهم خوف كما كان أوائلهم.

فقد كان سرى السقطى يبكى طول الليل، وكان يبالغ فى الورع، ولا لهم تعبد الجنيد، وإنما ثم أكل ورقص وبطالة وسماع أغانى من المردان، حتى قال بعض من يعتبر قوله: حضرت مع رجل كبير يومأ إليه من مشائخ الربط ومغنيهم أمرد، فقام الشيخ ونقطه بدينار على خده، وادعاؤهم أن سماع هذه الأشياء تدعو إلى الآخرة فوق الكذب، وليس العجب منهم، إنما العجب من جهال ينافقُون عليهم فيِنفقون عليهم. ولقد كان جماعة من القدماء يرون أوائل الصوفية يتعبدون ويتورعون فيعجبهم حالهم، وهم معذورون فى إعجابهم بهم، وإن كان أكثر القوم فى تعبدهم على غير الجادة، كما ذكرت فى كتابى المسمى (بتلبيس إبليس).

فأما اليوم فقد برح الخفاء، أحدهم يتردد إلى الظلمة ويأكل أموالهم، ويصافحهم بقميص ليس فيه طراز، وهذا هو التصوف فحسب. أو لا يستحى

---

(١)، (٢)، (٣) تقدموا.

من الله من زهد فى رفيع الأثواب لأجل الخلائق لا لأجل الحق، ولا يزهد فى مطعم ولا فى شبهة، فالبعد عن هؤلاء لازم.

وينبغى للمنفرد لطاعة الله تعالى عن الخلق أن لا يخرج إلى سوق جَهدَه، فإن خرج ضرورة غض بصره، وأن لا يزور صاحب منصب ولا يلقاه، فإن اضطر دارى الأمر، ولا يخالط عاميًّا إلا لضرورة مع التحرز، ولا يفتح على نفسه باب التزوج بل يقنع بامرأة فيها دين فقد قال الشاعر:

والمرءُ ما دامَ ذا عين يقلبها في أَعين الغيد موقوفٌ على الخطر
يسر مقلته ما ضر مهجته لا مَرحبًا بسرور عاد بالضرر

فإن كان يغلب عليه العلم انفرد بدراسته، واحترز عن اتباع المتعلمين. وإن غلبت عليه العبادة، زاد فى احترازه، وليجعل خلوته أنيسه، والنظر فى سير السلف جليسه، وليكن له وظيفة من زيارة قبور الصالحين والخلوة بها، ولا ينبغى أن يفوته ورد قيام الليل، وليكن بعد النصف الأول؛ فليطل مهما قدر، فإنه زمان بعيد المثل، وليمثل رحيله عن قرب ليقصر أمله، وليتزود فى الطريق على قدر طول السفر. نسأل الله عز وجل يقظة من فضله، وإقبالاً على خدمته، وأن لا يخذلنا بالالتفات عنه؛ إنه قريب مجيب.

٣١٤ - **فصل** - كلما نظرت فى تواصل النعم علىّ تحيرت فى شكرها، وأعلمُ أن الشكر من النعم فكيف أشكر، لكنى معترف بالتقصير، وأرجو أن يكون اعترافى قائمًا ببعض الحقوق. وعندى خلة أرجو بها كل خير، وهى أن من يصوم أو يصلى يرى أنه تعبد ويخدم كأنه يقضى حق المخدوم، وأنا أرى أنى إذا صليت ركعتين فإنما قمت أكدى(١) فلنفسى أعمل، إذ المخدوم غنى عن طاعتى. وكان بعض المشائخ يقول: جاء فى الحديث: «**الدعاء عبادة**»(٢)

(١) أكدى الرجل: إذا قل خيره.

(٢) صحيح: أخرجه الترمذى (٢٩٦٩) فى كتاب التفسير، باب: ومن سورة المؤمنون، و(٣٢٤٧) فى كتاب الدعوات، باب: منه من حديث النعمان بن بشير بلفظ «الدعاء هو العبادة»، والحديث صححه الشيخ الألبانى.

وأنا أقول: العبادة دعـاء. فالعجب ممن يقف للخدمة يسـأل حظ نفسه، كيف يرى أنه قد فـعل شيئًا؟! إنما أنت فى حـاجتك. ومنة من أيقظك لا تقاومـها خدمتك؛ فأنا أقول كما قال الأول:

يا مُنتـهى الآمـال أنتَ كَـفلْتَـنى وحَـفظْتَنى
وعـدا الزمانُ علىّ كى يجتـاحَنى فَمنَعْـتَنى
فـانقـادَ لـى مـتـخـشّـعًـا لما رآكَ نَـصـرْتَنى
وكَـسَوْتَنى ثوبَ الغنـا ومنَ المطالب صُنْتَنى
فـإذا سـكتُّ بَدَأْتنى وإذا سَـألْتُ أجَبْـتنى
فـإذا شَكَرْتُكَ زِدْتـنى فـمنحْـتَنى وبَـهَـرْتنى
أو إنْ أجُـدْ بالمـال فـالأمْـوَال أنت أفَـدْتنى

٣١٥- فصل - رأيت أكثر العلماء يتشاغلون بصورة العلم؛ فهمُّ الفقيه التدريس، وهم الواعظ الوعظ؛ فهذا يراعى درسه فيـفرح بكثرة من يسمعه، ويقدح فى كلام من يخالفه، ويمضى زمانه فـى التفكر فى المناقضات، ليقهر من يجادله!. وعـينه إلى التصدر والارتفـاع فى المجالس، وربما كانت همـته جمع الحطام، ومخالطة السلاطين.

والواعظ همته ما يزوّق به كلامـه ويكثر جمعه ويجلب به قلوب الناس إلى تعظيمه، فـإن كان له نظير فى شغله أخذ يطعن فـيه، وهذه قلوب غافلة عن الله عـز وجل، إذ لو كانت لهـا به معـرفة لاشـتغلت به، وكـان أنسهـا بمناجاته، وإيثـارها لطاعاته، وإقبالها عـلى الخلوة به، لكنها لما خلت من هذا تشاغلت بالدنـيا وذاك دنيا مثـلها؛ فإذا خلت بخـدمة الله تعالى لم تجـد لها طعمًا، وكـان جميع الناس أحب إليهـا، وزيارة الخلق لها آثر عندها، وهـذه علامـة الخذلان.

وعلى ضد هذا متى كان العالم مقبلاً على الله سبحانه مشغولاً بطاعته،

كان أصعب الأشياء عنده لقاء الخلق ومـحادثتهم، وأحب الأشياء إليه الخلوة، وكان عنده شـغل عن القدح فى النظر أو عن طلب الرياسة، فـإن ما علق به همته من الآخرة أعلى من ذلك، والنفس لابد لها مما تشناغل به. فمن اشتغل لخدمـة الخلق أعرض عن الحق؛ فـإنما يربى رياستـه، وذلك يوجب الإعراض عن الحق، وما جعل الله لرجل من قلبين فى جوفه.

التأمل فى فهم حقائق الأشياء

٣١٦- فصل - قد جاء فى الأثر: اللهم أرنا الأشياء كما هى، وهذا كلام حسن غاية، وأكثر الناس ما يرون الأشياء بعينها، فإنهم يرون الفانى كأنه باق، ولا يكادون يتخايلون زوال ما هم فيه وإن علموا ذلك. . إلا أن عين الحسن مشغولة بالنظر إلى الحاضر. . ألا ترى زوال اللذة وبقاء إثمها، ولو رأى اللص قطع يده هان عنده المسروق، فمن جمع الأموال ولم ينفقها فما رآها بعينها، إذ هى آلة لتحصيل الأغراض، لا تراد لذاتها.

ومن رأى المعصية بعينى الشهوة فما رآها، إذ فيها من العيوب ما شئت ثم ثمرتها عقوبة آجلة، وفضيحة عاجلة.

وانظر إلى أكبر شهوات الحس وهو الوطء؛ فإن الماء لا يحصل إلا بعد مطعم ومشرب؛ ومن تفكر فى المطعم نظر إلى حرث الأرض وأنها تفتقر إلى بقر للحراثة عليهن المحراث، وهو حديد ومعه خشب ويتعلق به حبال، فمن تفكر فى عمل الحبال نظر فى زرع القنب وتسريحه وفتله والحديد وجلبه وضربه، والخشب ونباته ونجارته، ودوران الدولاب وعمله، ثم استحصاد الزرع وحصده وتذريته وطحنه وعجنه وخبزه، ومن عمل التنور وجلب الشوك.

ومن هذا الجنس إذ نظر فيه كثر جداً حتى قالوا لا تنال لقمة إلا وقد عمل فيها ثلاثمائة نفس أو نحوهم. فإذا أكل تلك اللقمة فليفكر فى خلق الأسنان لقطعها والأضراس لطحنها، وعذوبة ماء الفم لخلطها، واللسان ليقلبها، وعضلات الفم يصعد منها شىء ويبقى شىء حتى يصلح البلع، ثم يتناولها المعا فيوصلها إلى الكبد فيقوم طابخًا لها، فإذا صارت دمًا نفت رسوبها إلى الطحال، ومائيتها إلى المثانة، واستخلصت من أخلص الدم وأصفاه للكبد والدماغ والقلب، وأخذت أجود ذلك فحدرته إلى الأنثيين معداً

لخلق آدمى، فإذا تحركت نيران الشهوة تورث تلك النطفة، وقد حكم الشرع بطهارتها؛ وحكم لها بطهارة الرحم والمحل الذى يباشره الذكر فيخلق منها الآدمى الموحد.

فما جاء هذا الشخص إلا بأغلى الغلاء وبعد عجائب أشرنا إليها، لا أنّا عددناها. أفَمن فهم هذا يحسن منه أن يبدد تلك النطفة فى حرام! وأن يطأ فى محل نجس فتضيع!. فكم يتعلق بالزنى من محن لا يفى معشار عشرها بلذة لحظة؛ منها هتك العرض بين الناس، وكشف العورات المحرمة، وخيانة الأخ المسلم فى زوجته إن كانت متزوجة، وفضيحة المزنى بها وهى كأخت أو بنت. فإن علقت منه ولها زوج ألحقته بذلك الزوج، وكان هذا الزانى سببًا فى ميراث من لا يستحق، ومنع من يستحق، ثم يتسلسل ذلك من ولد إلى ولد، وأما سخط الحق سبحانه فمعلوم.

قال تعالى: ﴿وَلَا تَقْرَبُوا الزِّنَىٰ إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَسَاءَ سَبِيلًا﴾[1] وقال -ﷺ-: «**ما من ذنب بعد الشرك أعظم عند الله تعالى من نطفة وضعها رجل فى رحم لا يحل له**»[2]، ومن له فهم فهو يعلم أن المراد من النطفة إيجاد الموحدين، ولولا تركيب الشهوة لم يقع الوطء؛ لأنه التقاء عضوين غير مستحسنين ولا صورتهما حسنة ولا ريحهما طيب، وإنما الشهوة تغطى عين الناظر ليحصل الولد أصلاً فهى عارض فمن طلب الشهوة ونسى جنايته بالزنى فما رأى الأشياء على ما هى، وقس على هذا المطعم والمشرب وجمع المال وغير ذلك.

٣١٧- فصل - إن قال قائل أى فائدة فى خلق ما يؤذى؟ فالجواب إنه قد ثبتت حكمة الخالق فإذا خفيت وجب التسليم. ثم إن المستحسنات فى الجملة أنموذج ما أعد من الثواب، والمؤذيات أنموذج ما أعد من العقاب، وما خلق شىء يضر إلا وفيه منفعة.

---

(١) سورة الإسراء: ٣٢.

(٢) ضعيف: أخرجه ابن أبى الدنيا عن الهيثم بن مالك الطائى كما فى «ضعيف الجامع» (٥١٧٣).

قيل لبعض الأطباء: إن فلانًا يقول أنا كالعقرب أضرّ ولا أنفع. فقال: ما أقل علمه، إنها لتنفع إذا شق بطنها ثم شدت على موضع اللسعة، وقد تجعل فى جوف فخار مسدود الرأس مطبق الجوانب، ثم يوضع الفخار فى تنور فإذا صارت رمادًا سقى من ذلك الرماد مقدار نصف دانق أو أكثر من به الحصاة فيفتها من غير أن يضر بشيء من سائر الأعضاء، وقد تلسع العقرب من به حمى عتيقة فتزول، ولسعت رجلاً مفلوجًا فزال عنه الفالج، وقد تلقى فى الدهن حتى يجتذب قواها فيزيل ذلك الدهن الأورام الغليظة، ومثل هذا كثير؛ فالجاهل عدو لما جهل. وأكبر الحماقة رد الجاهل على العالم.

٣١٨- فصل - كلما أوغلت الفهوم فى معرفة الخالق فشاهدت عظمته ولطفه ورفعته، تاهت فى محبته فخرجت عن حد الثبوت.

وقد كان خلق من الناس غلبت عليهم محبته فلم يقدروا على مخالطة الخلق. ومنهم من لم يقدر على السكوت عن الذكر، وفيهم من لم ينم إلا غلبة، وفيهم من هام فى البرارى، وفيهم من احترق فى بدنه. فيا حسن مخمورهم ما ألذّ سكره، ويا عيش قلقهم ما أحسن وجدَه.

كان أبو عبيدة الخواص قد غلبه الوجد فكان يمشى فى الأسواق ويقول: واشوقاه إلى من يرانى ولا أراه، وكان فتح بن سخرف يقول: قد طال شوقى إليك، فعجل قدومى عليك، وكان قيس بن الربيع كأنه مخمور من غير شراب، وكان ابن عقيل يقول: إن التبذل فيه سبحانه أحسن من التجمل فى غيره.. هل رأيت قط عراة أحسن من المحرمين! هل رأيت للمتزينين برياش الدنيا كأثواب الصالحين! هل رأيت خِماراً أحسن من نعاس المتهجدين!.

هل رأيت سكرًا أحسن من صعق الواجدين! هل شاهدت ماء صافيًا أصفى من دموع المتأسفين؟ هل رأيت رءوسًا مائلة كرءوس المنكسرين، هل لصق بالأرض أحسن من جباه المصلين! هل حرك نسيم الأسحار أوراق الأشجار فبلغ مبلغ تحريكه أذيال المتهجدين! هل ارتفعت أكف وانبسطت أيدى فضاهت أكف الراغبين! هل حرك القلوب صوت ترجيع لحن أو رنّة وتر كما

حرك حنين المشتاقين؛ وإنما يحسن التبذل فى تحصيل أوْفَى الأغراض. فلذلك حسن التبذل فى خدمة المنعم.

٣١٩- فصل - فى سبب تبذير الولاة. أكثرهم لا يعرف ولا يتأدب بآدابه بمرة. ينفق قلة العقل فى أصل الوضع، ثم ذلك القليل لا يعاون بل يعان عليه، وذاك أن الجارحة إذا دام تعطلها عن عملها الذى هيئت له تعطلت وخمدت، ولهذا تنقص أبصار النساخ والرفائين وتحتد أبصار أهل البوادى؛ لأنه لا صادم لإبصارهم، وشغل العقل التفكر والنظر فى عواقب الأحوال والاستدلال بالشاهد على الغائب، وهم يمتلئون من الطعام دائمًا وذلك يؤذى العقل، ثم يطيلون النوم، فإذا انتبهوا شربوا المسكر فاتفق للعقل تعطيل وتغطية فساء التدبير.

٣٢٠- فصل - من المخاطرات العظيمة تحديث العوام بما لا يحتمله قلوبهم، أو بما قد رسخ فى نفوسهم ضده : مثاله أن قومًا قد رسخ فى قلوبهم التشبيه، وإن ذات الخالق سبحانه ملاصقة للعرش، وهى بقدر العرش، ويفضل من العرش أربعة أصابع، وسمعوا مثل هذا من أشياخهم، وثبت عندهم أنه إذا نزل انتقل إلى السماء الدنيا، فخلت منه ست سموات، فإذا دعى أحدهم إلى التنزيه وقيل له ليس كما خطر لك، إنما ينبغى أن تمر الأحاديث كما جاءت من غير مساكنة ما توهمه، صعب هذا عليه لوجهين:

أحدهما: لغلبة الحس عليه والحس على العوام أغلب.

والثاني: لما قد سمعه من ذلك من الأشياخ الذين كانوا أجهل منه؛ فالمخاطب لهذا مخاطر بنفسه، ولقد بلغنى عن بعض من كان يتدين أنه ممن قد رسخ فى قلبه التشبيه أنه سمع من بعض العلماء شيئًا من التنزيه فقال: والله لو قدرت عليه لقتلته. فالله الله أن تحدث مخلوقًا من العوام بما لا يحتمله، فإنه لا يزول ما فى نفسه، ويخاطر المحدث له بنفسه فكذلك كل ما يتعلق بالأصول.

٣٢١- فصل - لا يغرك من الرجل طنطنته وما تراه يفعل من صلاة

وصوم وصدقة وعزلة عن الخلق، إنما الرجل هو الذى يراعى شيئين: حفظ الحدود، وإخلاص العمل، فكم قد رأينا متعبدًا يخرق الحدود بالغيبة وفعل ما لا يجوز مما يوافق هواه، كما قد اعتبرنا على صاحب دين أنه يقصد بفعله غير الله تعالى، وهذه الآفة تزيد وتنقص فى الخلق.

فالرجل كل الرجل هو الذى يراعى حدود الله، وهى ما فرض عليه ويلتزم به، ويحسن القصد، فيكون عمله وقوله خالصًا لله تعالى، لا يريد به الخلق ولا تعظيمهم له. فرب خاشع ليقال ناسك، وصامت ليقال خائف، وتارك للدنيا ليقال زاهد.

وعلامة المخلص أن يكون فى جلوته كخلوته، وربما تكلف بين الناس التبسم والانبساط لينمحى عنه اسم زاهد؛ فقد كان ابن سيرين يضحك بالنهار فإذا جن الليل فكأنه قتل أهل القرية.

واعلم أن المعمول معه لا يريد الشركاء؛ فالمخلص مفرد له بالقصد، والمرائى قد أشرك ليحصل له مدح الناس، وذلك ينقلب؛ لأن قلوبهم بيد من أشرك معه، فهو يقلبها عليه لا إليه. فالموفق من كانت معاملته باطنة وأعماله خالصة، وذاك الذى تحبه الناس وإن كرهوا، كما يمقتون المرائى وإن زاد تعبده. ثم إن الرجل الموصوف بهذه الخصال لا يتناهى عن كمال العلوم ولا يقصر عن طلب الفضائل، فملأ الزمان أكثر مما يسعه من الخير، وقلبه لا يفتر عن العمل القلبى، إلا أن شغله بالحق سبحانه وتعالى.

٣٢٢- فصل - رأيت خلقًا يفرّطون فى أديانهم ثم يقولون: احملونا إذا متنا إلى مقبرة أحمد . أتراهم ما سمعوا أن رسول الله امتنع من الصلاة على من عليه دين[(١)]، وعلى الغال[(٢)] وقال: ما ينفعه صلاتى عليه! ولقد

---

(١) صحيح: والحديث أخرجه البخارى (٢٢٨٩) فى كتاب الحوالة، باب: إن أحال دين الميت على رجل جاز، من حديث سلمة بن الأكوع -رضي الله عنه-.

(٢) ضعيف: والحديث أخرجه أبو داود (٢٧١٠) فى كتاب الجهاد، باب: فى تعظيم الغلول، والنسائى (٤/ ٦٤) فى كتاب الجنائز، باب: الصلاة على من غل، وابن ماجه (٢٨٤٨) فى كتاب الجهاد، باب: الغلول، من حديث زيد بن خالد الجهنى -رضي الله عنه-، والحديث ضعفه الشيخ الألبانى.

رأيت أقوامًا من العلماء حملهم حب الصيت على أن استخرجوا إذنًا من السلطان فدفنوا فى دكة أحمد بن حنبل وهم يعلمون أن هناك خلقًا بعضهم على بعض، وما فيهم إلا من يعلم أنه ما يستحق القرب من مثل ذلك.

فأين احتقار النفوس، أما سمعوا أن عمر بن عبد العزيز قيل له تدفن فى الحجرة فقال: لأن ألقى الله بكل ذنب ما خلا الشرك أحب إلىَّ من أن أرى نفسى أهلاً لذلك؛ لكن العادات وحب الرياسة غلبت على هؤلاء، فبقى العلم يجرى على الألسن عادة لا للعمل به، ثم آل الأمر إلى جماعة خالطوا السلاطين وباشروا الظلم، يزاحمون على الدفن بمقبرة أحمد ويوصون بذلك، فليتهم أوصوا بالدفن فى موضع فارغ، إنما يدفنون على موتى، ويخرج عظام أولئك فيحشرون على ما ألفوا من الظلم حتى فى موتهم، وينسون أنهم كانوا من أعوان الظلمة.

أترى ما علموا أن مساعد الظالم ظالم! وفى الحديث: **«كفى المرء خيانة أن يكون أمينًا للخونة»** قال السجَّان لأحمد بن حنبل: هل أنا من أعوان الظلمة؟ فقال: لا أنت من الظلمة. إنما أعوان الظلمة من أعانك فى أمر.

٣٢٣- فصل - رأيت الناس يذمون الحاسد ويبالغون ويقولون: لا يحسد إلا شرير يعادى نعمة الله، ولا يرضى بقضائه، ويبخل على أخيه المسلم. فنظرت فى هذا فما رأيته كما يقولون؛ وذاك أن الإنسان لا يحب أن يرتفع عليه أحد، فإذا رأى صديقه قد علا عليه تأثر ولم يحب أن يرتفع عليه، وود أن لو لم ينل صديقه ما ينال، أو أن ينال هو ما نال ذاك لئلا يرتفع عليه وهذا معجون فى الطين، ولا لوم على ذلك.

إنما اللوم أن يعمل بمقتضاه من قول أو فعل، وكنت أظن أن هذا قد وقع لى عن سرّى وفحصى، فرأيت الحديث عن الحسن البصرى قد سبقنى إليه قال: قال: أخبرنا عبد الخالق بن عبد الصمد قال: أخبرنا ابن النقور قال: أخبرنا المخلص[1] قال: حدثنا البغوى قال: حدثنا أبو روح قال: حدثنا مخلد

(١) هو: الشيخ المحدث، أبو طاهر، محمد بن عبد الرحمن بن العباس البغدادى الذهبى، مخلص الذهب من الغش، ولد سنة ٣٠٥هـ، وتوفى سنة ٣٩٣هـ.

ابن الحسين عن هشام عن الحسن قال: ليس من ولد آدم أحد إلا وقد خلق معه الحسد، فمن لم يجاوز ذلك بقول ولا بفعل لم يتبعه شيء.

٣٢٤- فصل - من أعظم الضرر الداخل على الإنسان كثرة النساء، وأنه أولاً يتشتت همه فى محبتهن، ومجاراتهن وغيرتهن، والإنفاق عليهن ولا يأمن إحداهن أن تكرهه وتريد غيره فلا تتخلص إلا بقتله، ولو سلم من جميع ذلك لم يسلم فى الكسب لهن، فإن سلم لم ينج من السآمة لهن أو لبعضهن، ويطلب ما لا يقدر عليه من غيرهن، حتى أنه لو قدر على نساء بغداد كلهن فقدمت امرأة مستترة من غير البلد ظن أنه يجد عندها ما ليس عندهن.

ولعمرى إن فى الجدة لذة، ولكن رب مستور إذا انكشف افتضح، وإذا سلم من كل أذى يتعلق بهن أنهك بدنه فى الجماع، فيكون طلبه للالتذاذ مانعًا من دوام الالتذاذ، ورب لقمة منعت لقمات، ورب لذة كانت سببًا فى انقطاع لذات، والعاقل من يقتصر على الواحدة إذا وافقت غرضه، ولابد أن يكون فيها شيء لا يوافق إنما العمل على الغالب فيوهب الخلة الردية للمجيدة وينبغى أن يكون النظر إلى باب الدين قبل النظر إلى الحسن، فإنه إذا قل الدين لم ينتفع ذو مروءة بتلك المرأة ومما يهلك الشيخ سريعًا الجماع، فلا يغتر بما يرى من انبساط الآلة وحصول الشهوة وذلك مستخرج من قوته ما لا يعود مثله، فلا ينبغى أن يغتر بحركة وشهوة ولا يقرب من النساء إن كان له رأى فى البقاء.

٣٢٥- فصل - إذا رأيت قليل العقل فى أصل الوضع فلا ترج خيره؛ فأما إن كان وافر العقل لكنه يغلب عليه الهوى فارجه، وعلامة ذلك أنه يدبر أمره فى جهله؛ فيستتر من الناس إذا أتى فاحشة، ويراقب فى بعض الأحوال، ويبكى عند الموعظة، ويحترم أهل الدين، فهذا عاقل مغلوب بالهوى؛ فإذا انتبه بالندم انبسط شيطان الهوى وجاء ملك العقل.

فأما إذا كان قليل العقل فى الوضع، وعلامته أن لا ينظر فى عاقبة

عاجلة ولا آجلة ولا يستحى من الناس أن يروه على فاحشة، ولا يدبر أمر دنياه، فذاك بعيد الرجاء، وقد يندر من هؤلاء من يفلح، ويكون السبب فيه خميرة من العقل غطى عليها كثرة الهوى؛ فمثلهم كمثل مصروع أفاق.

٣٢٦- فصل - ينبغى الاحتراز من كل ما يجوز أن يكون، ولا ينبغى أن يقال الغالب السلامة؛ وقد رأينا من نزل مع الخيل فى سفينة فاضطربت فغرق من فى السفينة وإن كان الغالب السلامة.

وكذا ينبغى أن يقدر الإنسان فى نفقته وإن رأى الدنيا مقبلة، لجواز أن تنقطع تلك الأسباب وحاجة النفس لابد من قضائها، فإذا بذّر وقت السعة فجاء وقت الضيق لم يأمن أن يدخل فى مداخل سوء، وأن يتعرض بالطلب من الناس، وكذلك ينبغى للمعافى أن يعد للمرض، وللقوى أن يتهيأ للهرم.

وفى الجملة فالنظر فى العواقب وفيما يجوز أن يقع شأن العقلاء؛ فأما النظر فى الحالة الراهنة فحسب فحالة الجهلة الحمقى. مثل أن يرى نفسه معافى وينسى المرض، أو غنيًّا وينسى الفقر أو يرى لذة عاجلة وينسى ما يجنى عواقبها، وليس للعقل شغل إلا النظر فى العواقب، وهو يشير بالصواب؛ أين من يقبل.

٣٢٧- فصل - يبين إيمان المؤمن عند الابتلاء، فهو يبالغ فى الدعاء ولا يرى أثرًا للإجابة، ولا يتغير أمله ورجاؤه ولو قويت أسباب اليأس، لعلمه أن الحق أعلم بالمصالح، أو لأن المراد منه الصبر أو الإيمان فإنه لم يحكم عليه بذلك إلا وهو يريد من القلب التسليم لينظر كيف صبره، أو يريد كثرة اللجا والدعا. فأما من يريد تعجيل الإجابة ويتذمر إن لم تتعجل فذاك ضعيف الإيمان، يرى أن له حقًّا فى الإجابة، وكأنه يتقاضى بأجره عمله.

أما سمعت قصة يعقوب -عليه السلام-؛ بقى ثمانين سنة فى البلاء ورجاؤه لا يتغير، فلما ضم إلى فقد يوسف فقد بنيامين لم يتغير أمله وقال: ﴿عَسَى اللَّهُ أَن يَأْتِيَنِي بِهِمْ جَمِيعًا﴾[1] وقد كشف هذا المعنى قوله تعالى: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن

(١) سورة يوسف: ٨٣.

تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُم مَّثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلِكُم مَّسَّتْهُمُ الْبَأْسَاءُ وَالضَّرَّاءُ وَزُلْزِلُوا حَتَّىٰ يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ مَتَىٰ نَصْرُ اللَّهِ أَلا إِنَّ نَصْرَ اللَّهِ قَرِيبٌ﴾(١).

ومعلوم أن هذا لا يصدر من الرسول والمؤمنين إلا بعد طول البلاء وقرب اليأس من الفرج. ومن هذا قول رسول الله -ﷺ-: «**لا يزال العبد بخير ما لم يستعجل، قيل له: وما يستعجل؟ قال: يقول دعوت فلم يستجب لى**»(٢) فإياك إياك أن تستطيل زمان البلاء، وتضجر من كثرة الدعاء، فإنك مبتلى بالبلاء، متعبد بالصبر والدعاء، ولا تيأس من روح الله وإن طال البلاء.

٣٢٨- فصل - تذكرت فى سبب دخول جهنم فإذا هو المعاصى، فنظرت فى المعاصى فإذا هى حاصلة من طلب اللذات، فنظرت فى اللذات فرأيتها خدعًا ليست بشىء، وفى ضمنها من الأكداء ما يصيّرها نغصًا فتخرج عن كونها لذات، فكيف يتبع العاقل نفسه ويرضى بجهنم لأجل هذه الأكدار.

فمن اللذات الزنى، فإن كان المراد إراقة الماء فقد يراق فى حلال، وإن كان فى معشوق فمراد النفس دوام البقاء مع المعشوق، فإذا هو ملكك فالمملوك مملوك، وإن هو قاربه ساعة ثم فارقه فحسرة الفراق تربو على لذة القرب، وإن كان ولد من الزنى فالفضيحة الدايمة، والعقوبة التامة، وتنكيس الرأس عند الخالق والمخلوق.

وأما الجاهل فيرى لذاته فى بلوغ ذلك الغرض، وينسى ما يجنى مما يكدر عيش الدنيا والآخرة، ومن ذلك شرب الخمر، فإنه تنجيس للفم والثوب، وإبعاد للعقل، وتأثيراته معلومة عند الخالق والمخلوق؛ فالعجب ممن يؤثر لذة ساعة تجنى عقابًا وذهاب جاه، وربما خرج بالعربدة إلى القتل.

وعلى هذا فقس جميع المذوقات، فإنَّ لذاتها إذا وزنت بميزان العقل لا تفى بمعشار عشير عواقبها القباح فى الدنيا والآخرة، ثم هى نفسها ليست

---

(١) سورة البقرة: ٢١٤.

(٢) أخرجه الإمام أحمد فى «مسنده» (٣/ ٢١٠) من حديث أنس -رضي الله عنه-، وأصله فى الصحيح بنحوه مختصرًا.

بكثير شيء فكيف تباع الآخرة بمثل هذا؟ سبحان من أنعم على أقوام كلما لاحت لهم لذة نصبوا ميزان العقل ونظروا فيما يجنى، وتلمحوا ما يؤثر تركها فرجحوا الأصلح، وطمس على قلوب فهى ترى صورة الشيء وتنسى جناياته.

ثم العجب أنا نرى من يبعد عن زوجته وهو شاب ليضرب فى الطريق فيقال ساعى، فيغلّب هواه لطلب ما هو أعلى وهو المدح؛ كيف لا يترك محرمًا ليمدح فى الدنيا والأخرى! ثم قدّر حصول ما طلبت من اللذات وذهابها، وأحسب أنها قد كانت وقد هانت وتخلصت من محنها، وأين تعب عالم قد درس العلم خمسين سنة! ذهب التعب وحصل العلم، وأين لذة البطال! ذهبت الراحة وأعقبت الندم.

٣٢٩- فصل - من وقف على موجب الحس هلك، ومن تبع العقل سلم؛ لأن مجرد الحس لا يرى إلا الحاضر وهو الدنيا، وأما العقل فإنه ينظر إلى المخلوقات، فيعلم وجود الخالق قد منح وأباح وأطلق وحظر؛ وأخبر أنى سائلكم ومبتليكم ليظهر دليل وجودى عندكم بترك ما تشتهون طاعة لى، وإنى قد بنيت لكم دارًا غير هذه لإثابة من يطيع وعقوبة من يخالف. ثم لو ترك الحس وما يشتهى مع أغراضه قرب الأمر؛ إنما من يزنى فيجلد، ويشرب الخمر فيعاقب، ويسرق فيقطع ويفعل زلة فيفضح بين الخلق، ويعرض عن العلم إلى البطالة فيقع الندم عند حصول الجهل ثم إنا نرى الكثير ممن عمل بمقتضى عقله قد سلمت دنياه وآخرته، ومُيز بين الخلق بالتعظيم، وكان عيشه فى لذاته غالبًا خيرًا من عيش موافق للهوى؛ فليعتبر ذو الفهم بما قلت وليعمل بمقتضى الدليل وقد سلم.

٣٣٠- فصل - العجب لمؤثر شهوات الدنيا؛ ألا يتدبر أمرها بالعقل قبل أن يصير إلى منقولات الشرع. إن أعظم لذات الحس الوطء فالمرأة المستحسنة إنما يكون حال كمالها من وقت بلوغها إلى الثلاثين فإذا بلغتها أثر فيها، وربما ابيضت شعرات من رأسها فينفر الإنسان منها، وقد يقع الملل قبل

ذلك، وطول الصحبة يكشف العيوب. وما عيب نساء الدنيا بأبلغ من قوله تعالى: ﴿وَلَهُمْ فِيهَا أَزْوَاجٌ مُطَهَّرَةٌ﴾(١) فلو تفكر الإنسان فى جسد مملوء بالنجاسة ما طاب له ضمه، غير أن الشهوة تغطى عين الفكر. فالعاقل من حفظ دينه ومروءته بترك الحرام، وحفظ قوته فى الحلال فأنفقها فى طلب الفضائل من علم أو عمل، ولم يسع فى إفناء عمره وتشتيت قلبه فى شىء لا تحسن عاقبته:

ما فى هوادجكم من مهجتى عوضٌ إنْ متُّ شوقًا ولا فيها لها ثمنُ

وعموم من رأينا من الكبار غلبت عليهم شهوة الوطء فانهدمت أعمارهم، ورحلوا سريعًا. وقد رأينا من العقلاء من زجر نفسه عن هذه المحنة ولم يستعملها إلا وقت الحاجة، فبقى لهم سواد شعورهم وقوتهم حتى تمتعوا بها فى الحياة وحصلوا المناقب، وعرفت منهم النفوس قوة العزيمة فلم تطالبهم بما يؤذى.

٣٣١- فصل - قد أشكل على بعض الناس رؤية النبى -ﷺ- وقوله: **«من رآنى فى المنام فقد رآنى»**(٢). فقال ظاهر الحديث أنه يراه حقيقة، وفى الناس من يراه شيخًا وشابًّا ومريضًا ومعافى. فالجواب أنه من ظن أن جسد رسول الله -ﷺ- المودع فى المدينة خرج من القبر وحضر فى المكان الذى رآه فيه فهذا جهل ولا جهل يشبهه. فقد يراه فى وقت واحد ألف شخص فى ألف مكان على صور مختلفة، فكيف يتصو بهذا فى شخص واحد! وإنما يرى مثاله لا شخصه. فيبقى من رآنى فقد رآنى معناه قد رأى مثالى الذى يعرفه الصواب وتحصل به الفائدة المطلوبة.

---

(١) سورة البقرة: ٢٥.

(٢) صحيح: أخرجه البخارى (١١٠) فى كتاب العلم، باب: إثم من كذب على النبى -ﷺ-، ومسلم (٢٢٦٦) فى كتاب الرؤيا، باب: قول النبى -عليه الصلاة والسلام-: «من رآنى فى المنام فقد رآنى» من حديث أبى هريرة -رضي الله عنه-.

فإن قيل: فما تقولون فى رؤية الحق سبحانه! فنقول: يُرى مثالاً لا مثيل، والمثال لا يفتقر إلى المساواة والمشابهة كما قال تعالى: ﴿أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌ بِقَدَرِهَا﴾[1] فضربه مثالاً للقرآن وانتفاع الخلق به، ويوضح هذا أنه إنما يرى من رأى الحق سبحانه وتعالى على هيئة مخصوصة -والحق سبحانه وتعالى منزه- قد توحّد فوضح ما قلناه.

(١) سورة الرعد: ١٧.

المؤمن بين رفيقين - العلم والعقل

٣٣٢- فصل - غزير الفائدة. اعلم أنه لو اتسع العمر لم أمنع من الإيغال فى كل علم إلى منتهاه؛ غير أن العمر قصير، والعلم كثير؛ فينبغى للإنسان أن يقتصر من القراءات إذا حفظ القرآن على العشرة، ومن الحديث على الصحاح، والسنن والمسانيد المصنفة؛ فإن علوم الحديث قد انبسطت زائدة فى الحد، وما فى هذا الجزء، وإنما الطرق تختلف.

وعلم الحديث يتعلق بعضه ببعض وهو مشتهى، والفقهاء يسمونه علم الكسالى، لأنهم يتشاغلون بكتابته وسماعه، ولا يكادون يعانون حفظه، ويفوتهم المهم وهو الفقه، وقد كان المحدثون قديمًا هم الفقهاء، ثم صار الفقهاء لا يعرفون الحديث، والمحدثون لا يعرفون الفقه؛ فمن كان ذا همة ونصح نفسه تشاغل بالمهم من كل علم، وجعل جل شغله الفقه، فهو أعظم العلوم وأهمها.

وقد قال أبو زرعة: كتب إلىّ أبو ثور: فإن هذا الحديث قد رواه ثمانية وتسعون رجلاً عن رسول الله -ﷺ-، والذى صح منه طرق يسيرة؛ فالتشاغل بغير ما صح يمنع التشاغل بما هو أهم، ولو اتسع العمر كان استيفاء كل الطرق فى كل الأحاديث فى غاية الجودة؛ لكن العمر قصير، ولما تشاغل بالطرق مثل يحيى بن معين فاته من الفقه كثير، حتى أنه سئل عن الحائض أيجوز أن تغسل الموتى؟! فلم يعلم، حتى جاء أبو ثور فقال: يجوز، لأن عائشة -رضي الله عنها- قالت: «كنت أرجّل رأس رسول الله -ﷺ- وأنا حائض»(١)، فيحيى أعلم بالحديث منه، ولكن لم يتشاغل بفهمه؛ فأنا أنهى أهل الحديث أن يشغلهم كثرة الطرق.

(١) صحيح: أخرجه البخارى (٢٩٥) فى كتاب الحيض، باب: غسل الحائض رأس زوجها وترجيله.

ومن أقبح الأشياء أن تجرى حادثة يسأل عنها شيخ قد كتب الحديث ستين سنة فلا يعرف حكم الله عز وجل فيها، وكذلك أنهى من يتشاغل بالتزهد والانقطاع عن الناس أن يعرض عن العلم، بل ينبغى أن يجعل لنفسه منه حظًا ليعلم إن زل كيف يتخلص.

٣٣٣- فصل - معرفة الله سبحانه لا تحصل إلا لكامل العقل.. صحيح المزاج والترقى إلى محبته بذلك يكون.

وإن أقوامًا قلت عقولهم وفسدت أمزجتهم فساءت مطاعمهم وقلّت، فتخايلتْ لهم الخيالات الفاسدة فادعوا معرفة الحق ومحبته، ولم يكن عندهم من العلم ما يصدهم عما ادعوا فهلكوا.

وليعلم أن فى المأكولات إفساد العقل، وفيها ما يزيد فى السوداء فيوجب الماليخوليا، فترى صاحبها يحب الخلوة، ويهرب من الناس، ويقلل المطعم، فيقوى مرضه فيتخايل له خيالات يظنها حقًا.

فمنهم من يقول: إنى رأيت الملائكة، وفيهم من يخرجه الأمر إلى دعوى محبة الحق والوله فيه ولا يكون ذلك عن أصل معتمد عليه.

وإنما العاقل العالم يسير فى الطريق بين الرفيقين العلم والعقل؛ فإن تقلل من الطعام فبعقل؛ وحدّ التقلل ترك فضول المطعم وما يخاف شره من شبهة أو شهوة يحذر تعودها، وأما زيادة التقلل مع القدرة فليس لعقل ولا شرع... إلا أن يكون الفقر عم فيتقلل ضرورة، ومن تأمل حال رسول الله -ﷺ- وأصحابه، وجدهم يأخذون بمقدار، ولا يتركون حظوظ النفس التى تصلحها.

وما أحسن الأمر وأعدله قول رسول الله -ﷺ-: «**ثلث طعام، وثلث شراب، وثلث نفس**»(١).

وقد قال لعلى بن أبى طالب -رضي الله عنه- وهو مريض: «أصب من هذا الطعام فهو أوفق لك من هذا»(٢). وكان -ﷺ- يشاور الأطباء ويحتجم

---

(١)، (٢) تقدما.

ويحث على التداوى ويقول: «**ما أنزل الله داء إلا وأنزل له شفاء فتداووا**»(١).

فجاء أقام جهلوا العلم والحكمة فى بنيان الأبدان، فمنهم من أقام فى الجبال يأكل البلوط فأصباه القولنج، ومنهم من قلل المطعم إلى أن ضعفت قواهم، ومنهم من اقتصر على نبات الصحراء، ومنهم من كان لا يقوت إلا الباقلاء والشعير، فأوجبت هذه الأفعال أمراضًا فى البدن، وترقت إلى إفساد العقل؛ واتفق لهم قلة العلم، إذا لو علموا لفهموا أن الحكمة تنهى عن مثل هذا، فإن البدن مبنى على أخلاط إذا اعتدلت وقعت السلامة، وإذا زاد بعضها وقع المرض، وأكثر هؤلاء مرضوا وتعجل لهم الموت، وفيهم من خرج إلى التسودن. وفيهم من لاحت له لوائح فادعى رؤية الملائكة إلى غير ذلك.

فأما أهل العلم والعقل فهربهم من الخَلْق لخوف المعاصى ورؤية المنكر، وفيهم من قويت معرفته فشغلته معرفة الحق ومحبته من ملاقاة الخلق؛ فهذه هى الخلوات الصافية، لأنها تصدر عن علم وعقل فتحفظ البدن، لأنه ناقة توصل، ولا ينبغى أن يتهاون بالمأكولات، خصوصًا من لم يعتده، ولا يلبس الصوف على البدن من لم يعتده، ولينظر فى طريق رسول الله -ﷺ- وصحابته، فإنهم القدوة، ولا يلتفت إلى بنيات الطريق، فيقال: فلان الزاهد قد أكل الطين، وفلان كان يمشى حافيًا، وفلان بقى شهراً ما أكل، فإن المحققين من هؤلاء المخلصين لله تعالى على غير الجادة؛ لأن الجادة اتباع رسول الله -ﷺ- وأصحابه وما كانوا يفعلون.

هذا ولعمرى إنه قد كان فيهم من يقنع بالمذقة من اللبن، ويصبر الأيام عن الطعام؛ ولكن إما لضرورة، أو لأنه معتاد لذلك كما يعتاد البدوى شرب اللبن وحده ولا يؤذيه ذلك. وفى الحديث: «**عوّدوا كل بدن ما اعتاد**»(٢) وفى المتزهدين من أخرج ماله كله عن يده زهدًا.

---

(١) تقدم.

(٢) أخرجه أبو محمد الخلال عن عائشة كما فى «زيادة الجامع الصغير» للسيوطى.

ومعلوم أن الحاجات لا تنقضى، فلما احتاج تعرَّض للطلب، وافتقر إلى أخذ مال من يد من يعلم أنه ظالم وبذل وجهه، وقد كانت الصحابة تتجر وتحفظ المال.

وجهال المتزهدين يرون جمع المال ينافى الزهد. فَمَمْخضة[1] هذا الفصل أن أقول: ينبغى لمن رزق فهمًا أن يسعى فى صلاح بدنه، ولا يحمل عليه ما يؤذيه، ولا يناوله من القوت ما لا يوافقه، ولا يضيع ماله، وليجتهد فى استثماره لئلا يحتاج، فإنه ما نافق زاهد إلا لأجل الدنيا: ولينظر فى سير الكاملين من السلف، وليتشاغل بالعلم، فإنه الدليل. فحينئذ يحمله الأمر على الخلوة بربه، والاشتغال بحبه، فيكون ما ظهر منه ثمرة نضجه لا فجه. والله الموفق.

٣٣٤- فصل - ما رأيت أظرف من لعب الدنيا بالعقول، وقد سمعنا ورأينا جماعة من الفطناء الكاملى العقل لعبت بهم الدنيا حتى صاروا كالمجانين، فولوا الولايات فخرجوا إلى القتل والضرب والحبس والشتم وذهاب الدين، والمباشرة للظلم كله لأجل دنيا تذهب سريعًا، وفى مدة إقامتها هى معجونة بالنغص.

فيا أيها المرزوق عقلاً لا تبخسه حقه، ولا تطفئ نوره، واسمع ما نشير به، ولا تلتفت إلى بكاء طفل الطبع لفوات غرضه، فإنك إن رحمت بكاءه لم تقدر على فطامه، ولم يمكنك تأديبه، فيبلغ جاهلاً فقيراً:

لا تسه عن أدبِ الصغيـ ـرِ ولو شكَا ألَم التّعبْ
ودع الكبيرَ لشأنِه كَبرَ الكبيرُ عن الأدبْ

واعلم أن زمان الابتلاء ضيف قِرَاه الصبر، كما قال أحمد بن حنبل: إنما هو طعام دون طعام، ولباس دون لباسٍ، وإنها أيام قلائل، فلا تنظر إلى لذة المترفين، وتلمح عواقبهم، ولا تضق صدراً بضيق المعاش، وعلل الناقة بالحدْو تسير.

(١) الممخضة: الزبدة.

طاولْ بها الليلَ مال النجمُ أم جنحَا ... وما طل النومَ ضنَّ الجفنُ أمْ سمحَا
فإنْ تشكَّتْ فَعَلِّلْهَـا المجرَّة مِنْ ضو ... ء الصبـاحِ وعِدْها بالـرواحِ ضُحى

وقـد كان أهدى إلى أحـمـد بن حنبل هدية فردهـا، ثم قال بعـد سنة لأولاده: لو كنا قبلناها كانت قد ذهبت.

ومر بشر على بئر، فقال له صاحبه: أنا عطشان، فقال: البئر الأخرى، فمر عليها، فقال له: الأخرى، ثم قال: كذا تقطع الدنيا.

ودخلوا إلى بشـر الحافـى وليس فى داره حصـيـر، فقـيل له: ألا بذا نؤذى، فقال: هذا أمر ينقضى.

وكان لداود الطائى دار يأوى إليها، فوقـع سقف فانتقل إلى سقف إلى أن مات فى الدهليز؛ فهؤلاء الذين نظروا فى عواقب الأمور.

وبعد هذا فـلا أطالبك بهذه الرتبة، بل أقـول لك: إن حصل لك شيء من المباح لا مـنّ فيه ولا أذى ولا نلتـه بسؤال ولا من يد ظالم تعـلم أن ماله حرام أو شبهة، فافسح لنفسك فى مبـاحاتها بمقدار ما تحتاج إليه، وكن مقدراً للنفقة غير مبذر، فإن الحـلال لا يحتمل السرف، ومتى أسرفت احتجت إلى التعرض للخلق والتناول من الأكدار، وإن ضاق بك أمـر فاصبر، فإن ضعف الصبر فصل فاتح الأبواب، فهو الكريم وعنده مفاتح الغيب.

وإياك أن تبذل دينك بتـصنع للخلق، أو بتقرب إلى الأمراء وتسـتعطى أموالهم، واذكر طريق السلف.

كان ابن سمعون[(١)] له ثياب يجلس فيها للناس، ثم يطويها إلى المجلس الآخر ورثها عن أبيه بقيت أربعين سنة.

---

(١) هو: محـمد بن أحمد بن إسـماعيل بن عـيسى بن سمعـون، أبو الحسين، زاهد واعظ، علت شهـرته فى الوعظ حتى قـيل: أوعظ من ابن سمعـون، ولد سنة ٣٠٠هـ، وتوفى سنة ٣٨٧هـ.

وكانت ميمونة بنت ساقولة[١] تعظ الناس ولها ثياب قد بقيت أربعين سنة. . ومن صفا نظره وتهذب لفظه، نفع وعظه، ومن كدر كُدِّر عليه، والحالة العالية فى هذا إقبال القلب على الله عز وجل، والتوكل عليه والنظر إليه، والتفات القلب عن الخلق، فإن احتجت فاسأله، وإن ضعفت فارغب إليه، ومتى ساكنت الأسباب انقطعت عنه، ومتى استقام باطنك استقامت لك الأمور.

٣٣٥- فصل - رأيت نفسى تأنس بخلطاء نسميهم أصدقاء فبحثت التجارب عنهم فإذا أكثرهم حساد على النعم، وأعداء لا يسترون زلة ولا يعرفون لجليس حقًّا، ولا يواسون من مالهم صديقًا فتأملت الأمر، فإذا الحق سبحانه يغار على قلب المؤمن أن يجعل له شيئًا يأنس به، فهو يكدر عليه الدنيا وأهلها ليكون أنسه به.

فينبغى أن يعد الخلق كلهم معارف ليس فيهم صديق، بل تحسبهم أعداء، ولا تظهر سرك لمخلوق منهم، ولا تُعدّنّ من يصلح لشدة لا ولدًا ولا أخًا ولا صديقًا، بل عاملهم بالظاهر، ولا تخالطهم إلا حالة الضرورة بالتوقى لحظة، ثم انفر عنهم وأقبل على شأنك متوكلاً على خالقك، فإنه لا يجلب الخير سواه، ولا يصرف السوء إلا إياه، فليكن جليسك وأنيسك وموضع توكلك وشكواك، فإن ضعف بصرك فاستغث به، وإن قل يقينك فسله القوة، وإياك أن تميل إلى غيره فإنه غيور، وأن تشكو من أقداره، فربما لم يحتمل.

أوحى الله عز وجل إلى يوسف -عليه السلام-: من خلصك من الجب، من فعل من فعل، قال: أنت. قال: فلم ذكرت غيرى. . فلأطيلن حبسك، أو كما قال. هذا وإنما تعرض يوسف -عليه السلام- بسبب مباح ﴿اذْكُرْنِي عِندَ رَبِّكَ﴾[٢] ﴿وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ﴾[٣] وما أعرف العيش إلا لمن يعرفه ويعيش معه ويتأدب بين يديه فى حركاته وكلماته كأنه يراه، ويقف على

(١) هى: ميمونة بنت ساقولة (شاقولة) من ربات الوعظ والإرشاد، توفيت سنة ٣٩٣هـ.
(٢) سورة يوسف: ٤٢.
(٣) سورة التوبة: ٢٥.

باب طرفه حارسًا من نظرة لا تصلح، وعلى باب لسانه حافظًا له من كلمة لا تحسن، وعلى بـاب قلبه حمـاية لمسكنه من دخول الأغـيار، ويسـتوحش من الخلق شغـلاً به، وهذا يكون على سيـرة الروحانيـين. . فأما المخـلَّط فالكدر غالب عليه. والمحق لا يطلب إلا الأرفع قال القائل:

ألا لا أحبُّ السيرَ إلا مصاعداً ... ولا البـرقَ إلا أنْ يكـونَ يمانيـا

٣٣٦- فصل - رأيت أكثـر العلماء مشـتغلين بصـورة العلم دون فهـم حقيقته ومقصوده.

فالقارئ مشغول بالروايات، عاكف على الشواذ، يرى أن المقصود نفس التـلاوة، ولا يتلمح عظمـة المتكلم، ولا زجـر القرآن ووعـده، وربما ظن أن حفظ القرآن يدفع عنه، فتراه يترخص الذنوب. ولو فهم لعلم أن الحجة عليه أقوى ممن لم يقرأ.

والمحدث يجمع الطرق، ويحفظ الأسانيـد، ولا يتأمل مقصود المنقول، ويرى أنه قد حفظ عـلى الناس الأحاديث؛ فهو يرجو بـذلك السلامة، وربما ترخص فى الخطايا ظنًّا منه أن ما فعل فى الشريعة يدفع عنه.

والفقيـه قد وقع له أنه بما قد عرف من الجدال الذى يقوِّى به خـصامه، والمسائل التى قـد عرف فـيها المذهب؛ قـد حصل بما يفتى بـه الناس ما يرفع قدره، ويمحو ذنبه، فربما هجم على الخطايا ظنًّا منه أن ذلك يدفع عنه، وربما لم يحفظ القرآن ولم يعرف الحديث وأنهما ينهيان عن الفواحش بزجر ورفق، وينضاف إليـه مع الجهل بهما حب الرياسـة، وإيثار الغلبة فى الجدل؛ فـتزيد قسوة قلبه.

وعلى هذا أكثر الناس، صور العلم عندهم صناعة: فهى تكسبهم الكبر والحماقة.

وقد حكى بعض المغتبرين عن شيخ أفنى عمره فى علوم كثيرة، أنه فتن فى آخر عمره بفسق أصر عليـه، وبارز الله به، وكانت حاله تعطى بمضمونها أن علمى يدفع عنى شر ما أنا فيه ولا يبـقى له أثر. وكان كأنه قد قطع لنفسه

بالنجاة، فلا يرى عنده أثر لخوف ولا ندم على ذنب قال فتغير فى آخر عمره ولازمه الفقر، فكان يلقى الشدائد ولا ينتهى عن قبح حاله، إلى أن جمعت له يومًا قراريط على وجه الكدية[١] فاستحيا من ذلك وقال يا رب إلى هذا الحد، قال الحاكى: فتعجبت من غفلته كيف نسى الله عز وجل، وأراد منه حسن التدبير له والصيانة وسعة الرزق، وكأنه ما سمع قوله تعالى: ﴿وَأَلَّوِ اسْتَقَامُوا عَلَى الطَّرِيقَةِ لَأَسْقَيْنَاهُم مَّاءً غَدَقًا﴾[٢]، ولا علم أن المعاصى تسد أبواب الرزق، وأن من ضيع أمر الله ضيعه الله، فما رأيت علمًا ما أفاد كعلم هذا، لأن العالم إذا زل انكسر، وهذا مصرٌّ لا تؤلمه معصيته، وكأنه يجوز له ما يفعل، أو كأن له التصرف فى الدين تحليلاً وتحريمًا، فمرض عاجلاً ومات على أقبح حال.

قال الحاكى: ورأيت شيخًا آخر حصّل صور علم فما أفادته؛ كان أى فسق أمكنه لم يتحاش منه، وأى أمر لم يعجبه من القدر عارضه بالاعتراض على المقدر واللوم؛ فعاش أكدر عيش، وعلى أقبح اعتقاد حتى درج[٣].

وهؤلاء لم يفهموا معنى العلم، وليس العلم صور الألفاظ، إنما المقصود فهم المراد منه، وذاك يورث الخشية والخوف، ويرى المنة للمنعم بالعلم، وقوة الحجة له على المتعلم.

نسأل الله عز وجلٍ يقظة تفهمنا المقصود، وتعرفنا المعبود، ونعوذ بالله من سبيل رعاع يتسمون بالعلماء لا ينهاهم ما يحملون، ويعلمون ولا يعملون، ويتكبرون على الناس بما لا يعملون، ويأخذون عرض الأدنى وقد نهوا عما يأخذون، غلبتهم طباعهم وما راضتهم علومهم التى يدرسون، فهم أخس حالاً من العوام الذين يجهلون ﴿يَعْلَمُونَ ظَاهِرًا مِّنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ الآخِرَةِ هُمْ غَافِلُونَ﴾[٤].

---

(١) الكدية: شدة الدهر، والأرض الغليظة، والصفاة (الحجرة) العظيمة الشديدة، والشىء الصلب بين الحجارة والطين، وما جمع من طعام أو شراب فجعل كثبة.

(٢) سورة الجن: ١٦.

(٣) درج: مات.

(٤) سورة الروم: ٧.

٣٣٧- فصل - للفقيه أن يطالع من كل فن طرفًا من تاريخ وحديث ولغة وغير ذلك فإنَّ الفقه يحتاج إلى جميع العلوم؛ فليأخذ من كل شيء منها مهمًّا.

ولقد رأيت بعض الفقهاء يقول اجتمع الشبلى وشريك القاضى فاستعجبت له كيف لا يدرى بعد ما بينهما!.. وقال آخر فى مناظرة: كانت الزوجية بين فاطمة وعلى -ﷺ- غير منقطعة الحكم، فلهذا غسلها. فقلت له: ويحك فقد تزوج أمامة بنت زينب وهى بنت أختها فانقطع.

ورأيت فى كتاب إحياء علوم الدين للغزالى من هذا ما يدهش من التخليط فى الأحاديث والتواريخ، فجمعت من أغاليطه فى كتاب، وقد ذكر فى كتاب له سماه المستظهرى وعرضه على المستظهر بالله؛ أن سليمان بن عبد الملك بعث إلى أبى حازم فقال له: ابعث لى من فطورك، فبعث إليه نخالة مقلوة فأفطر عليها، ثم جامع زوجته فجاءت بعبد العزيز، ثم ولد له عمر. وهذا تخليط قبيح، فإنه جعل عمر بن عبد العزيز بن سليمان بن عبد الملك، فجعل سليمان جده، وإنما هو ابن عمه.

وقد ذكر أبو المعالى الجوينى فى أواخر كتاب الشامل فى الأصول. قال: قد ذكرت طائفة من الثقات المعتنين بالبحث عن البواطن أن الحلاج والجبائى القرمطى وابن المقفع تواصوا على قلب الدول، وإفساد المملكة واستعطاف القلوب؛ وارتاد كل منهم قطرًا؛ فقطن الجبائى فى الأحساء[١] وتوغل ابن المقفع فى أطراف بلاد الترك، وقطن الحلاج ببغداد، فحكم عليه صاحباه بالهلكة والقصور عن بلوغ الأمنية؛ لبعد أهل بغداد عن الانخداع، وتوفر فطنهم وصدق فراستهم.

قلت: ولو أن هذا الرجل أو من حكى عنه عرف التاريخ لعلم أن الحلاج لم يدرك ابن المقفع؛ فإن ابن المقفع أمر بقتله المنصور فقتل فى سنة أربع وأربعين ومائة. وأبو سعيد الجبائى القرمطى ظهر فى سنة ست وثمانين

(١) الأحساء: اسم موضع.

ومـائتـين. والحلاج قـتل سنة تـسـع وثلاثمـائة؛ فزمـان القـرمطى والحـلاج متقاربان؛ فأما ابن المقفع فكلاً.

فينبغـى لكل ذى علم أن يسام بباقى العلوم فيطالع منهـا طرفًا، إذ لكل علم بعلم تعلق، ومـا أقبح بمحدث يُسـأل عن حادثة فلا يدرى، وقـد شغله منها جمع طرق الأحاديث، وقـبيح بالفقيه أن يقال له: مـا معنى قول رسول الله -ﷺ- كذا؟ فلا يدرى صحة الحديث ولا معناه. نسأل الله عز وجل همة عالية لا ترضى بالنقائص بمنّه ولطفه.

٣٣٨- فصل - كـانت همم القدمـاء من العلمـاء عليـة، تدل عليهـا تصانيـفهم التى هى زبدة أعمالـهم؛ إلا أن أكثر تصانيـفهم دثرت؛ لأن همم الطلاب ضعفت، فصاروا يطلبـون المختصرات، ولا ينشطون للمطولات، ثم اقتصروا على ما يدرسون به من بعضها، فدثرت الكتب ولم تنسخ.

فـسبـيل طالب الكمـال فى طلب العلم الاطلاع على الكتب التى قـد تخلفت من المصنفـات، فليكثـر من المطالعة فـإنه يرى من علوم القـوم وعلو هممهم ما يشحذ خاطره ويحرك عزيمته للجد؛ وما يخلو كتاب من فائدة.

وأعوذ بالله من سير هؤلاء الذين نعاشـرهم؛ لا نرى فيهم ذا همة عالية فيقتدى بـها المبتدئ، ولا صاحب ورع فيستـفيد منه الزاهد. فالله الله عليكم بملاحظة سير السلف، ومطالعة تصانيفـهم وأخبارهم؛ فالاستكثار من مطالعة كتبهم رؤية لهم كما قال:

فـاتنى أن أَرَى الديارَ بطَرْفى فلعلِّى أَرَى الديارَ بِسَـمْـعِى

وإنى أخبر عن حالى، ما أشـبع من مطالعة الكتب، وإذا رأيت كتابًا لم أره فكأنى وقعت على كنز، ولقد نظرت فى ثبت الكـتب الموقوفة فى المدرسة النظاميـة، فإذا به يحـتوى على نحو سـتة آلاف مجلد، وفـى ثبت كتب أبى حنيفة، وكتب الحميدى، وكـتب شيخنا عبد الوهاب وابن ناصر، وكتب أبى محمد بن الخشاب وكانت أحمـالاً، وغير ذلك من كل كتاب أقدر عليه. ولو قلت: إنى طالعت عشرين ألف مجلد كان أكثر وأنا بعد فى الطلب.

فاستفدت بالنظر فيها من ملاحظة سير القوم وقدر هممهم وحفظهم وعباداتهم وغرائب علومهم ما لا يعرفه من لم يطالع فصرت أستزرى ما الناس فيه، وأحتقر همم الطلاب ولله الحمد.

٣٣٩- فصل - ليس للآدمى أعز من نفسه، وقد عجبت ممن يخاطر بها ويعرضها للهلاك، والسبب فى ذلك قلة العقل وسوء النظر؛ فمنهم من يعرضها للتلف ليمدح بزعمه.. مثل قوم يخرجون إلى قتل السبع، ومنهم من يصعد إلى إيوان كسرى ليقال شاطر، وساع يمشى ثلاثين فرسخًا، وهؤلاء إذا تلفوا حملوا إلى النار؛ وذهبت النفس التى يراد المال لأجلها.

وأعجب من الكل من يخاطر بنفسه فى الهلاك ولا يدرى، مثل أن يغضب فيقتل المسلم فيشفى غيظه بالتعذيب فى جهنم. وأظرف من هذا اليهود والنصارى، فإن أحدهم يبلغ فيجب عليه أن ينظر نبينا -ﷺ- فإذا فرَّط فله الخلود فى جهنم، ولقد قلت لبعضهم: ويحك تخاطر بنفسك فى عذاب الأبد، نحن نؤمن بنبيكم فنقول: لو أن مسلمًا آمن بنبينا وكذب بنبيكم أو بالتوراة خُلِّد فى النار، فما بيننا وبينكم خلاف، إذ نحن مؤمنون بصدقه وكتابه، فلو لقيناه لم نخجل ولو عاتبنا مثلاً وقال: هل قمتم بالسبت، والسبت من الفروع والفروع، لا يعاقب عليها بالخلود، فقال لى رئيس القوم: ما نطالبكم بهذا لأن السبت إنما يلزم بنى إسرائيل فقلت: فقد سلِمنا بإجماعكم وأنتم هالكون؛ لأنكم تخاطرون بأرواحكم فى العذاب الدائم.

والعجب بمن يهمل النظر فيما إذا توانى فيه أوجب الخلود فى العقاب الدائم؛ وأعجب من الكل جاحد الخالق وهو يرى إحكام الصنعة ويقول لا صانع. والسبب فى الأشياء كلها قلة العقل وترك إعماله فى النظر والاستدلال.

٣٤٠- فصل - لا ينبغى للعاقل أن يظهر سرًا حتى يعلم أنه إذا ظهر لا يتأذى بظهوره، ومعلوم أن السبب فى بث السر طلب الاستراحة ببثه، وذلك ألم قريب فليصبر عليه، فرب مظهر سرًّا لزوجته فإذا طلقت بثته وهلك؛ أو

لصديقه فيظهره عليه حسداً له إذا كان مماثلاً، وإن كان عاميًّا فالعامى أحمق. ورب سر أظهر فكان سبب الهلاك.

٣٤١- فصل - ما يتناهى فى طلب العلم إلا عاشق العلم. والعاشق ينبغى أن يصبر على المكاره، ومن ضرورة المتشاغل به البعد عن الكسب، ومذ فُقِدَ التفقد لهم من الأمراء ومن الإخوان فلازمهم الفقر ضرورة. والفضائل تنادى: ﴿هُنَالِكَ ابْتُلِيَ الْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا زِلْزَالاً شَدِيداً﴾(١) فكلما خافت من ابتلى قالت:

لا تحسب المجدَ تمرًا أنتَ آكلُهُ ... لَنْ تَبْلُغَ المجدَ حتى تَلْعقَ الصَّبِرا

ولما آثر أحمد بن حنبل -رضي الله عنه- طلب العلم وكان فقيراً، بقى أربعين سنة يتشاغل به ولا يتزوج. فينبغى للفقير أن يصابر فقره كما فعل أحمد، ومن يطيق ما أطاق، فقد رد من المال خمسين ألفًا وكان يأكل الكامخ، ويتأدم بالملح، فما شاع له الذكر الجميل جزافًا، ولا ترددت الأقدام إلى قبره إلا لمعنى عجيب. فيا له ثناء ملأ الآفاق، وجمالاً زين الوجود، وعزًّا نسخ كل ذل. هذا فى العاجل، وثواب الآجل لا يوصف.

وتلمح قبور أكثر العلماء لا تعرف ولا تزار.. ترخّصوا وتأوّلوا وخالطوا السلاطين فذهبت بركة العلم ومحى الجاه، ووردوا عند الموت حياض الندم، فيالها حسرات لا تتلافى، وخسرانًا لا ينجبر، كانت صحبة اللذات طرفة عين، ولازم الأسف دائمًا. فالصبر الصبر أيها الطالب للفضائل؛ فإن لذة الراحة بالهوى أو بالبطالة تذهب ويبقى الأسى، وقال الشافعى -رضى الله تعالى عنه-:

يا نفسُ ما هى إلا صبرُ أيام ... كأنَّ مُدَّتَها أضغاثُ أحلامِ
يا نفسُ جوزى عن الدنيا مبادرةً ... وخَلِّى عنها فإنَّ العَيْشَ قُدَّامِ

ثم أيها العالم الفقير. أيسرك ملك سلطان من السلاطين، وأن ما تعلمه من العلم لا تعلمه.. كلا. ما أظن بالمتيقظ أن يؤثر هذا.

---

(١) سورة الأحزاب: ١١.

ثم أنت إذا وقع لك خاطر مستحسن أو معنى عجيب تجد لذة لا يجدها ملتذ باللذات الحسية، فقد حرم من رزق الشهوات ما قد رزقت، وقد شاركتهم فى قوام العيش، ولم يبق إلا الفضول الذى إذا أخذ لم يكد يضر.

ثم هم على المخاطرة فى باب الآخرة غالبًا، وأنت على السلامة فى الأغلب؛ فتلمح يا أخى عواقب الأحوال، واقمع الكسل المثبط عن الفضائل، فإن كثيراً من العلماء الذين ماتوا مفرّطين يتقلبون فى حسرات وأسف.

رأى رجل شيخنا ابن الزاغونى فى المنام، فقال له الشيخ: أكثر ما عندكم الغفلة، وأكثر ما عندنا الندامة. فاهرب وفقك الله قبل الحبس، وافسخ عقد الهوى على الغبن الفاحش، واعلم أن الفضائل لا تنال بالهوينى، وإن يسير التفريط يشين وجه المحاسن.. فالبدار البدار ونفس النفس يتردد، وملك الموت غائب ما قدم بعد، وانهض بعزيمة عازم:

إذا همَّ ألْقَى بين عينيه عَزْمَهُ ... ونَكَّبَ عن ذكر الحوادث جانبا
ولم يستشرْ فى أمرِهِ غيرَ نفسه ... ولمْ يرضَ إلا قائمَ السيفِ صاحبا

وارفض فى هذه العزيمة الدنيا وأربابها.. فبارك الله لأهل الدنيا فى دنياهم، فنحن الأغنياء، وهم الفقراء. كما قال إبراهيم بن أدهم: ولو علم الملوك وأبناء الملوك ما نحن فيه لجالدونا عليه بالسيوف.

فأبناء الدنيا أحدهم لا يكاد يأكل لقمة إلا حرامًا أو شبهة، وهو وإن لم يؤثر ذلك فوكيله يفعله، ولا يبالى هو بقلة دين وكيله. وإن عمروا داراً سخَّروا الفعلة، وإن جمعوا مالاً فمن وجوه لا تصلح. ثم كل منهم خائف أن يقتل أو يعزل أو يشتم، فعيبهم نقص، ونحن نأكل ما ظاهر الشرع يشهد له بالإباحة، ولا نخاف من عدو، ولا ولايتنا تقبل العزل، والعز فى الدنيا لنا لا لهم، وإقبال الخلق علينا، وتقبيل أيدينا وتعظيمنا عندهم كثير.

وفى الآخرة بيننا وبينهم تفاوت إن شاء الله تعالى فإن ألفت أرباب الدنيا أعناقهم يعلمون قدر مزيتنا وإن غُلّت أيديهم عن إعطائنا فلذة العفاف أطيب، ومرارة المنن لا تفى بالمأخوذ: وإنما هو طعام دون طعام ولباس دون لباس.

وإنها أيام قلائل والعــجب لمن شرفت نفسه حتى طلــبه العلم. إذ لا يطلبه إلا نفس شريفة كـيف يذل لبذل ما عزه إلا بالدنانير، ولا فـخره إلا بالمكنة ولقد أنشدني أبو يعلى العلوى:

رُبَّ قَــومٍ في خَــلائقِــهِمْ　　عــررٌ قـد صُــيِّـرُوا غــررا
سـتـرَ الــمَـالُ القـبـيحَ لهمْ　　سَتَرى إنْ زالَ مــا ســتــرا

أيقظنا الله من رقـدة الغافلين، ورزقنـا فكر المتيـقظين، ووفقنا للعـمل بمقتضى العلم والعقل. إنه قريب مجيب.

٣٤٢- فصل - لا ينبغي للإنسان أن يحـمل على بدنه ما لا يطيق فإنّ البدن كالراحلة إن لم يرفق بها لم تصل بالراكب.. فترى فى الناس من يتزهد وقد ربى جسده على الترف؛ فـيعرض عما ألفه فيتجـدد له الأمراض فتقطعه عن كثير من العبادات.

وقد قيـل: «**عـوِّدوا كل بدن ما اعتـاد**»[١] وقد قـرّب إلـى رسـول الله -ﷺ- ضب فقال: «**أجدنى أعافه لأنه ليس بأرض قومى**»[٢]. وفى حديث الهجـرة: أن أبا بكر -رضي الله عنه- طالب لرسول الله -ﷺ- الظل وفرش له فروة وصب على القدح الذى فيه اللبن ماء حتى برد وجاء رسول الله -ﷺ- على قوم فقال: «**إن كان عندكم مـاء بات فى شن وإلا كرعنا**»[٣]. وكان -ﷺ- يأكل لحم الدجاج وفى الصحيح: «**إنه كان يحب الحلوى والعسل**»[٤]. وكان إذا لم يقدر أكل ما حضر.

ولعـمرى إن فـى العرب وأهل السـواد من لا يؤثر عنده التـخـشن فى المطعم والملبس، وذاك إذا جرى بعد نوبته على عادته لم يسـتضر. فأما من قد ألف اللطف؛ فإنه إذا غـير حالتـه تغير بدنه وقلت عـبادته، وقد كـان الحسن يديم أكل اللحم ويقول: لا رغيفى مالك ولا صحنى فرقد، وكان ابن سيرين لا يخلو منزله من حلوى. وكـان سفيـان الثورى يسافـر وفى سفـرته الحمل

---

(١)، (٢)، (٣)، (٤): تقدموا.

المشوى والفالوذج. وقالت رابعة: ما أرى لبدن يراد به العمل لله إذا أكل الفالوذج عيبًا.

فمن ألف الترف فينبغى أن يتلطف بنفسه إذا أمكنه، وقد عرفت هذا من نفسى، فإنى ربيت فى ترف فلما ابتدأت فى التقلل وهجر المشتهى، أثر معى مرضًا قطعنى عن كثير من التعبد حتى إنى قرأت فى أيام كل يوم خمسة أجزاء من القرآن، فتناولت يومًا ما لا يصلح فلم أقدر فى ذلك اليوم على قراءتها، فقلت: إن لقمة تؤثر قراءة خمسة أجزاء بكل حرف عشر حسنات؛ إنّ تناولها لطاعة عظيمة. وإن مطعمًا يؤذى البدن فيفوته فعل خير ينبغى أن يهجر.

وقد رأى رسول الله -ﷺ- رجلاً من أصحابه حضر عنده وقد تغير من التقشف فقال له: «من أمرك بهذا؟»[(١)]. فالعاقل يعطى بدنه من الغذاء ما يوافقه كما ينقى الغازى شعير الدابة ولا تظنن أنى آمر بأكل الشهوات، ولا بالإكثار من الملذوذ، إنما آمر بتناول ما يحفظ النفس، وأنهى عما يؤذى البدن. فأما التوسع فى المطاعم، فإنه سبب النوم، والشبع يعمى القلب، ويهزل البدن ويضعفه، فافهم ما أشرت إليه.. فالطريق هى الوسطى.

٣٤٣- فصل - إذا تكامل العقل قوى الذكاء والفطنة، والذكى يتخلص إذا وقع فى آفة كما قال الحسن: إذا كان اللص ظريفًا لم يُقطع.. فأما المغفّل فيجنى على نفسه المحن.

هؤلاء إخوة يوسف -عليهم السّلام- أبعدوه عن أبيه ليتقدموا عنده، وما علموا أن حزنه عليه يشغله عنهم، وتهمته إياهم تُبغضهم إليه. ثم رموه فى الجب فقالوا: ﴿يَلْتَقِطْهُ بَعْضُ السَّيَّارَةِ﴾[(٢)] وليس بطفل إنما هو صبىّ كبير، وما علموا أنه إذا التُقط يحدّث بحاله، فيبلغ الخبر إلى أبيه، وهذا تغفيل. ثم

(١) ضعيف: أخرجه ابن ماجه (١٧٤١) فى كتاب الصيام، باب: صيام أشهر الحرم من حديث أبى مجيبة الباهلى عن أبيه أو عن عمه.

(٢) سورة يوسف: ١٠.

أنهم قالوا: أكله الذئب، وجاءوا بقميصه صحيحًا، ولو خرقوه احتمل الأمر، ثم لما مضوا إليه يمتارون قال: ﴿ائْتُونِي بِأَخٍ لَّكُم﴾(١) فلو فطنوا علموا أن ملك مصر لا غرض له فى أخيهم، ثم حبسه بحجة. ثم قال: هذا الصواع يخبرنى أنه كان كذا وكذا.. هذا كله وما يفطنون.

فلما أحس بهذه الأشياء يعقوب -عليه السلام- قال: ﴿اذْهَبُوا فَتَحَسَّسُوا مِن يُوسُفَ وَأَخِيهِ﴾(٢) وكان يوسف -عليه السلام- قد نُهِىَ بالوحى أن يعلم أباه بوجوده. ولهذا لما التقيا قال له: هلاّ كتبت إلىّ فقال: إن جبريل -عليه السلام- منعنى. فلما نهى أن يعرّفه خبره لينفذ البلاء؛ كان ما فعل بأخيه تنبيهًا، فصار كأنه يعرّض بخطبة المعتدة، وعلى فهم يوسف والله بكى يعقوب، لا على مجرد صورته.

٣٤٤- فصل - الآدمى موضوع على مطلوبات تشتت الهم. العين تطلب المنظور، واللسان يطلب الكلام، والبطن يطلب المأكول، والفرج المنكوح، والطبع يحب جمع المال، وقد أمرنا بجمع الهم لذكر الآخرة والهوى يشتته. فكيف إذا اجتمعت إليه حاجات لازمة من طلب قوت البدن وقوت العيال، وهذا يبكر إلى دكانه ويتفكر فى التحصيل، ويستعمل آلة الفهم فى نيل ما لابد منه، فأىّ همٍّ يجتمع منه خصوصًا إن أخذه الشرَهُ فى صورة فيمضى العمر، فينهض من الدكان إلى القبر.

فكيف يحصل العلم أو العمل أو إخلاص القصد أو طلب الفضائل؛ فمن رزق يقظة، فينبغى أن يصابر لنيل الفضائل؛ فإن كان متزهدًا بغير عائلة فقد كان السبتى يعمل يوم السبت فيكتفى به طول الأسبوع؛ فإن كان له مال باضع به من يكفيه بدينه، وثقته أن يهتم هو، وإن كان له عائلة جمع همه فى نية الكسب عليهم فيكون متعبدًا. أو أن يكون قنية مال كعقار؛ ناصفه فى نفقته ليكفيه دخله، وليقلل الهم على مقدار ما يمكنه من حذف العلائق

(١) سورة يوسف: ٥٩.
(٢) سورة يوسف: ٨٧.

جهدَه، لـيجمع الهم فى ذكر الآخـرة فإن لم يفعل أخذ فى غـفلته وندم فى حفرته.

وأقبح الأحوال حال عالم فقيه كلما جمع همه لذكر الآخرة شتته طلب القـوت للعائلة، وربما احـتاج إلى التـعرض بالظلمـة وأخذ الشـبهـات وبذل الوجه؛ فيلزم هذا التـقدير فى النفقة، وإذا حصل له شىء من وجـه دبر فيه، ولا ينبغى أن يحملـه قصر الأمل على إخراج ما فى يده، فـقد قال -ﷺ-: **«لأن تترك ورثتك أغنياء خير من أن تتركهم عالة يتكففون الناس»**(١).

وأذل من كل ذل التـعـرض للبـخلاء والأمـراء. فليـدبر أمـره، ويقلل العلائق، ويحفظ جـاهه، فالأيام قلائل، وقد بُعث إلى أحـمد بن حنبل مال فسأله ابنه قبوله فقال: يا صالح صنّى. ثم قـال: أستخير الله، فأصبح فقال: يا بنىّ قد عزم لى أن لا أقـبله، هذا وكان العطاء هنيًا، وجاءته من وجوه. فانعكس الأمر اليوم.

---

(١) صحيح: وقد تقدم.

نصائح يصلح بها طريق السالك

٣٤٥- فصل - العزلة عن الخلق سبب طيب العيش، ولابد من مخالطة بمقدار؛ فدار العدو واستمله، فربما كادك فأهلك، وأحسن إلى من أساء إليك، واستعن على أمورك بالكتمان، ولتكن الناس عندك معارف، فأما أصدقاء فلا؛ لأن أعز الأشياء وجود صديق، لأن الصديق ينبغى أن يكون فى مرتبة مماثل. فإن صادقته عاميًا لم تنتفع به لسوء أخلاقه وقلة علمه وأدبه، وإن صادقت مماثلاً أو مقاربًا حسدك، وإذا كان لكل يقظة تلمحت من أفعاله وأقواله ما يدل على حسدك ﴿وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِي لَحْنِ الْقَوْلِ﴾[1] وإذا أردت تأكيد ذلك فضع عليه من يضعك عنده، فلا يخرج إليه بما فى قلبه.

فإن أردت العيش فأبعد عن الحسود، لأنه يرى نعمتك فربما أصابها بالعين، فإن اضطررت إلى مخالطته فلا تفش إليه سرك ولا تشاوره، ولا يغرنك تملقه لك، ولا ما يظهره من الدين والتعبد، فإن الحسد يغلب الدين، وقد عرفت أن قابيل أخرجه الحسد إلى القتل، وإن إخوة يوسف باعوه بثمن بخس، وكان أبو عامر الراهب من المتعبدين العقلاء، وعبد الله بن أبى من الرؤساء؛ أخرجهما حسد رسول الله -ﷺ- إلى النفاق وترك الصواب، ولا ينبغى أن تطلب لحاسدك عقوبة أكثر مما هو فيه، فإنه فى أمر عظيم متصل لا يرضيه إلا زوال نعمتك؛ وكلما امتدت امتد عذابه، فلا عيش له، وما طاب عيش أهل الجنة إلا حين نزع الحسد والغل من صدورهم، ولولا أنه نزع تحاسدوا وتنغص عيشهم.

٣٤٦- فصل - من سار مع العقل وخالف طريق الهوى ونظر إلى العواقب أمكنه أن يتمتع من الدنيا أضعاف ما تمتع من استعمل الشهوات، فأما

---

(١) سورة محمد: ٣٠.

المستعجل فيفوِّت نفسه حظ الدنيا والذكر الجميل، ويكون ذلك سببًا لفوات مراده من اللذات.

وبيان هذا من وجهين: أحدهما: إن مال إلى شهوات النكاح وأكثر منها قل التذاذه وفنيت حرارته وكان ذلك سببًا في عدم مطلوبه منها. ومن استعمل ذلك بمقدار ما يجيزه العقل ويحتمله كان التذاذه أكثر، لبعد ما بين الجماعين، وأمكنه التردد لبقاء الحرارة.

وكذلك من غش فى معاملته أو خان، فإنه لا يعامل فيفوته ربح المعاملة الدائمة لخيانته مرة، ولو عرف بالثقة معاملة الناس له فزاد ربحه. والثانى: أنه من اتقى الله وتشاغل بالعلم أو تحقيق الزهد، فتح له من المباحات ما يلتذ به كثيرًا. ومن تقاعد به الكسل عن العلم، أو الهوى عن تحقيق الزهد لم يحصل له إلا اليسير من مراده. قال عز وجل: ﴿**وَأَلَّوِ اسْتَقَامُوا عَلَى الطَّرِيقَةِ لَأَسْقَيْنَاهُم مَّاءً غَدَقًا**﴾[1].

٣٤٧- فصل - ينبغى أن يكون العمل كله لله ومعه ومن أجله، وقد كفاك كل مخلوق عليك الحال، ويفوتك المقصود وفى الحديث: «**من أرضى الناس بسخط الله عاد حامده من الناس ذامًّا**»[2]. وأطيب العيش عيش من يعيش مع الخالق سبحانه؛ فإن قيل كيف يعيش معه قلت بامتثال أمره، واجتناب نهيه، ومراعاة حدوده، والرضا بقضائه، وحسن الأدب فى الخلوة، وكثرة ذكره، وسلامة القلب من الاعتراض فى أقداره، فإن احتجت سألته؛ فإن أعطى وإلا رضيت بالمنع، وعلمت أنه لم يمنع بخلاً، إنما نظرًا لك، ولا تنقطع عن السؤال لأنك تتعبد به، ومتى دمت على ذلك رزقك محبته وصدق التوكل عليه، فصارت المحبة تدلك على المقصود، وأثمرت لك محبته إياك، أن تعيش عيش الصديقين. ولا خير فى عيش إن لم يكن كذا؛ فإن أكثر

---

(١) سورة الجن: ١٦.

(٢) رواه ابن لال عن عائشة مرفوعًا كما فى «كشف الخفاء» (٢٤١١). وانظر «صحيح الجامع» (٦٠١٠).

الناس مخبّط فى عيشه، يدارى الأسباب ويميل إليها بقلبه، ويتعب فى تحصيل الرزق بحرص زائد على الحد، ويرغب إلى الخلق ويتعرض عند انكسار الأغراض، والقدر يجرى ولا يبالى بسخط، ولا يحصل له إلا ما قدر، وقد فاته القرب من الحق والمحبة له، والتأدب معه، فذلك العيش عيش البهائم.

٣٤٨- فصل - نظرت فى حكمة المطعم والمشرب والملبس والمنكح، فرأيت أن الآدمىّ لما خلق من أصول تتحلل وهى الماء والتراب والنار والهواء، وبقاؤه إنما يكون بالحرارة والرطوبة دائمًا، فلم يكن له بد من شىء يخلف ما بطل، ولما كان اللحم لا ينوب عنه إلا اللحم، أباح ذبح الحيوان ليتقوى به من هو أشرف منه، ولما كان بدنه يحتاج إلى كسوة وله قدرة تميز، وقدرة بصنع بها ما يقيه الأذى من القطن والصوف، لم يجعل على جلده ما يقيه خلفة بخلاف الحيوان البهيم، فإنه لما لم يكن له قدرة على ما يغطى جلده عوضه بالريش والشعر والوبر، ولما لم يكن بد من فناء الآدمى والحيوان هيج شهوة الجماع لتُخلف النسل. فمقتضى العقل الذى حرك على طلب هذه المصالح أن يكون التناول للمطعم والمشرب مقدار الحاجة والمصلحة، ليقع الالتذاذ بالعافية.

ومن البلية طلب الالتذاذ بالمطعم وإن كان منه غير صالح والشره فى تناوله وكذلك الكسوة والنكاح. ومن الحزم جمع المال وادخاره لعارض حاجة من ذلك.

ومن التغفيل إنفاق الحاصل، فربما عرضت حاجة فلم يقدر عليها فأثر عدمها فى البدن أو فى العرض بطلبها من الأنذال. ومن أقبح الأمور الانهماك فى النكاح طلبًا لصورة اللذة ناسيًا ما يجنى ذلك من انحلال القوة، ويزيد فى الحرام بالعقوبة؛ فمن مال إلى تدبير العقل سلم فى دنياه وآخرته، ومن أعرض عن مشاورته أو عن القبول منه تعجل عطبه. فليفهم مقصود الموضوعات وحكمها والمراد منها، فمن لم يفهم ولم يعمل بمقتضى ما فهم كان كأجهل العوام، وإن كان عالـمًا.

٣٤٩- **فصل** - فى مخالطة الأمراء. العجب ممن له مسكة من عقل أو عنده قليل من دين كيف يؤثر مخالطتهم، فإنه بالمخالطة لهم أو العمل معهم يكون خائفًا من عزل أو قتل أو سم، ولا يمكنه أن يعمل إلا بمقتضى أوامرهم. فإن أمروا بما لا يجوز لم يقدر أن يراجع فقد باع دينه قطعًا بدنياه فمنعه بالخوف، ولم يبق بيده إلا عاجل التعظيم وأن يقال بين يديه بسم الله، وأن ينفذ أوامره وذلك بعيد من السلامة فى باب الدين وما يلتذ به منه فى الدنيا ممزوج بخوف العزل والقتل.

٣٥٠- **فصل** - من الغلط العظيم أن يتكلم فى حق معزول بما لا يصلح فإنه لا يؤمن أن يلى فينتقم، وفى الجملة لا ينبغى أن يظهر العداوة لأحد أصلاً، فقد يرفع المحتقر وقد يتمكن من لا يعد، بل ينبغى أن يكتم ما فى النفوس عن الأعداء، فإن أمكن الانتقام منهم كان العفو انتقامًا لأنه يذهلهم. وينبغى أن يحسن إلى كل أحد، خصوصًا من يجوز أن يكون له ولاية، وأن يخدم المعزول، فربما نفع فى ولايته.

وقد روينا أن رجلاً استأذن على قاضى القضاة ابن أبى دواد، وقال: قولوا له أبو جعفر بالباب فلما سمع دهش لذلك وقال: ائذنوا له، فدخل فقام وتلقاه وأكرمه وأعطاه خمسة آلاف وودعه. فقيل له: رجل من العوام فعلت به هذا! قال: إنى كنت فقيراً، وكان هذا صديقًا فجئته يومًا فقلت له: أنا جائع. فقال: اجلس وخرج فجاء بشواء وحلوى وخبز فقال: كل. فقلت: كل معى. قال: لا. قلت: والله لا آكل حتى تأكل معى؛ فأكل فجعل الدم يجرى من فمه. فقلت: ما هذا؟ فقال: مرض، فقلت: والله لابد أن تخبرنى، فقال: إنك لما جئتنى لم أكن أملك شيئًا، وكانت أسنانى مضببة بشريط من ذهب، فنزعته واشتريت به. فهل أكافئ مثل هذا.

وعلى عكس هذه الأشياء كان ابن الزيات -وزير الواثق- وكان يضع من المتوكل فلما ولى عذبه بأنواع العذاب. وكذلك ابن الجزرى كان لا يوقر المسترشد قبل الولاية فجرت عليه الآفات لما ولى.

فالعاقل من تأمل العواقب وراعاها، وصور كلما يجوز أن يقع فعمل بمقتضى الحزم، وأبلغ من هذا تصوير وجود الموت عاجلاً، لأنه يجوز أن يأتى بغتة من غير مرض؛ فالحازم من استعدَّ له، وعمل عمل من لا يندم إذا جاءه، وحذر من الذنوب فإنها كعدو مراصد بالجزاء، وادخر لنفسه صالح الأعمال فإنها كصديق صدّيق ينفع وقت الشدة. وأبلغ من كل شىء أن يعلم المؤمن أنه كلما زاد عمله فى الفضائل علت مرتبته فى الجنة، وإن نقص نقصت، فهو وإن دخل الجنة ما يجد فى نقص بالإضافة إلى كمال غيره، غير أنه قد رضى به ولا يشعر بذلك. فرحم الله من تلمح العواقب، وعمل بمقتضى التلمح. والله تعالى الموفق.

٣٥١- فصل - لما جمعت كتابى المسمى بالمنتظم فى تاريخ الملوك والأمم، اطلعت على سير الخلق من الملوك والوزراء والعلماء والأدباء والفقهاء والمحدثين والزهاد وغيرهم، فرأيت الدنيا قد تلاعبت بالأكثرين تلاعبًا أذهب أديانهم، حتى كانوا لا يؤمنون بالعقاب.

فمن الأمراء من يقتل ويصادر ويقطع ويحبس بغير حق، ثم ينخرط فى سلك المعاصى كأن الأمر إليه، أو قد جاءه الأمن من العقاب. فربما تخايل أن حفظى الرعايا يرد عنى، وينسى أنه قد قيل لرسول الله -ﷺ-: ﴿**قُلْ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ**﴾[1]. وقد انخرط جماعة ممن يتسم بالعلم فى سلك المعاصى لتحصيل أغراضهم العاجلة فما نفعهم العلم، ورأينا خلقًا من المتزهدين لنيل أغراضهم.

وهذا لأن الدنيا فخ والناس كعصافير، والعصفور يريد الحبة وينسى الخنق؛ قد نسى أكثر الخلق مآلهم ميلاً إلى عاجل لذاتهم، فأقبلوا يسامرون الهوى ولا يلتفتون إلى مشاورة العقل، فلقد باعوا بلذة يسيرة خيراً كثيراً، واستبدلوا بشهوات مرذولة عذابًا عظيمًا، فإذا نزل بأحدهم الموت قال: ليتنى لم أكن، ليتنى كنت ترابًا، فيقال له الآن: فواأسفى لفائت لا يمكن استدراكه،

---

(١) سورة الأنعام: ١٥، والزمر: ١٣.

ولمرتهن لا يصح فكاكه، ولندم لا ينقطع زمانه، ولمعذب عز عليه أمانه. . بالله ما نفعت العقول إلا لمن يلتفت إليها ويعول عليها! ولا يمكن قبول مشاورها إلا بعزيمة الصبر عما يشتهى.

فتأمل فى الأمراء عمر بن الخطاب وابن عبد العزيز -ﷺ-، وفى العلماء أحمد بن حنبل -رحمة الله عليه-، وفى الزهاد أويس القرنى؛ لقد أعطوا الحد حقه وفهموا مقصود الوجود، وما هلك الهالكون إلا لقلة الصبر عن المشتهى، وربما كان فيهم من لا يؤمن بالبعث والعقاب، وليس العجب من ذاك إنما العجب من مؤمن يوقن، ولا ينفعه يقينه، ويعقل العواقب، ولا ينفعه عقله.

٣٥٢- فصل - من رزق همة عالية يعذب بمقدار علوها كما قال الشاعر:

وإذَا كانتِ النفوسُ كباراً ... تعبتْ فى مرادِها الأجْسَامُ

وقال الآخر:

ولكلٍّ جسمٍ فى النحولِ بليةٌ ... وبلاء جسمِى مِنْ تَفَاوُت همتِى

وبيان هذا أن من علت همته طلب العلوم كلها، ولم يقتصر على بعضها وطلب من كل علم نهايته، وهذا لا يحتمله البدن.

ثم يرى أن المراد العمل فيجتهد فى قيام الليل وصيام النهار، والجمع بين ذلك وبين العلم صعب. ثم يرى ترك الدنيا ويحتاج إلى ما لابد منه، ويحب الإيثار ولا يقدر على البخل، ويتقاضاه الكرم البذل، ويمنعه عز النفس عن الكسب، فإن هو جرى على طبعه من الكرم، احتاج وافتقر، وتأثر بدنه وعائلته، وإن أمسك فطبعه يأبى ذلك.

وفى الجملة يحتاج إلى معاناة، وجمع بين أضداد، فهو أبدًا فى نصَب لا ينقضى، وتعب لا يفرغ. ثم إذا حقق الإخلاص فى الأعمال زاد تعبه وقوى وصبه. فأين هو ومن دنت همته؛ إن كان فقيهًا فسئل عن حديث قال

ما أعرفه، وإن كان محدثًا فسئل عن مسألة فقهية قال ما أدرى، ولا يبالى إن قيل عنه مقصر. والعالى الهمة يرى التقصير فى بعض العلوم فضيحة قد كشفت عيبه، وقد رأت الناس عورته، والقصير الهمة لا يبالى بمنن الناس ولا يستقبح سؤالهم ولا يأنف من رد، والعالى الهمة لا يحتمل ذلك، ولكن تعب العالى الهمة راحة فى المعنى. وراحة القصير الهمة تعب وشين إن كان ثم فهم، والدنيا دار سباق إلى أعالى المعالى. فينبغى لذى الهمة أن لا يقصر فى شوطه؛ فإن سبق فهو المقصود، وإن كبا جواده مع اجتهاده لم يُلَم.

٣٥٣- فصل - المصيبة العظمى رضا الإنسان عن نفسه واقتناعه بعلمه، وهذه محنة قد عمت أكثر الخلق؛ فترى اليهودى والنصرانى يرى أنه على الصواب، ولا يبحث ولا ينظر فى دليل نبوة نبينا -ﷺ-، وإذا سمع ما يلين قلبه مثل القرآن المعجز هرب لئلا يسمع، وكذلك كل ذى هوى يثبت عليه، إما لأنه مذهب أبيه وأهله، أو لأنه نظر نظراً أولاً فرآه صوابًا، ولم ينظر فيما يناقضه، ولم يباحث العلماء ليبينوا له خطأه؛ ومن هذه حال الخوارج على أمير المؤمنين على -رضى الله تعالى عنه-؛ فإنهم استحسنوا ما وقع لهم ولم يرجعوا إلى من يعلم، ولما لقيهم عبد الله بن عباس -رضي الله عنهما- فبين لهم خطأهم رجع عن مذهبه منهم ألفان، وممن لم يرجع عن هواه ابن ملجم، فرأى مذهبه هو الحق فاستحل قتل أمير المؤمنين -رضى الله تعالى عنه-، ورآه دينًا حتى أنه لما قطعت أعضاؤه لم يمانع، فلما طلب لسانه ليقطع انزعج وقال: كيف أبقى ساعة فى الدنيا لا أذكر الله، ومثل هذا ما له دواء.

وكذلك كان الحجاج يقول: والله ما أرجو الخير إلا بعد الموت، هذا قوله وكم قد قتل من لا يحل قتله، منهم سعيد بن جبير.

وقد أخبرنا عبد الوهاب وابن ناصر الحافظ قالا: أخبرنا المبارك بن عبد الجبار قال: أخبرنا الحسين بن محمد النصيبى قال: أخبرنا إسماعيل بن سعيد قال: حدثنا أبو بكر بن الأنبارى قال: حدثنا أبو عيسى الختلى قال: حدثنا أبو يعلى قال: حدثنا الأصمعى قال: حدثنا أبو عاصم عن عباد بن كثير عن

قحدم قال: وجد فى سجن الحجاج ثلاثة وثلاثون ألفًا، ما يجب على واحد منهم قطع ولا قتل ولا صلب. قلت: وعموم السلاطين يقتلون ويقطعون ظنًّا منهم جواز ذلك، ولو سألوا العلماء بينوا لهم، وعموم العوام يبارزون بالذنوب اعتمادًا على العفو وينسون العقاب.

ومنهم من يعتمد أنى من أهل السنة، أو أن لى حسنات قد تنفع، وكل هذا لقوة الجهل. فينبغى للإنسان أن يبالغ فى معرفة الدليل ولا يساكن شبهته، ولا يثق بعلم نفسه نسأل الله السلامة من جميع الآفات.

٣٥٤- فصل - ينبغى تأمله. اعلم أن الجزاء بالمرصاد إن كان حسنة أو كان سيئة، ومن الاغترار أن يظن المذنب إذا لم ير عقوبة أنه قد سومح، وربما جاءت العقوبة بعد مدة، وقلَّ من فعل ذنبًا إلا وقوبل عليه. قال عز وجل: ﴿مَن يَعْمَلْ سُوءًا يُجْزَ بِهِ﴾(١) هذا آدم -عليه السلام- أكل لقمة فقد عرفتم ما جرى عليه؛ قال وهب بن منبه: أوحى الله تعالى إليه ألم اصطنعك لنفسى وأحللتك دارى، وأسجدت لك ملائكتى فعصيت أمرى ونسيت عهدى، وعزتى لو ملأت الأرض كلهم مثلك يعبدون ويسبحون فى الليل والنهار ثم عصونى لأنزلتهم منازل العاصين؛ فنزع جبريل التاج عن رأسه، وحل ميكاييل الإكليل عن جبينه، وجذب بناصيته فأهبط، فبكى آدم ثلاث مائة عام على جبل الهند تجرى دموعه فى أودية جبالها، فنبتت بتلك المدامع أشجار طيبكم هذا.

وكذلك داود -عليه السلام-، نظر نظرة فأوجبت عتابه وبكاءه الدائم حتى نبتت العشب من دموعه.

وأما سليمان -عليه السلام- فإن قومًا اختصموا إليه، فكان هواه مع أحد الخصمين فعوقب وتغير فى أعين الناس، وكان يقول: أطعمونى فلا يطعم.

وأما يعقوب -عليه السلام-. فإنه يقال أنه ذبح عجلاً بين يدى أمه؛ فعوقب بفراق يوسف.

---

(١) سورة النساء: ١٢٣.

وأما يوسف -عليه السلام- فأوخذ بالهمّ، وكل واحد من إخوته ولد له اثنا عشر ولدًا، ونقص هو ولدًا لتلك الهمة.

وأما أيوب -عليه السلام- فإنه قصر فى الإنكار على ملك ظالم لأجل خيل كانت فى ناحيته فابتلى.

وأما يونس -عليه السلام- فخرج عن قومه بغير إذن فالتقمه الحوت. وأوحى الله عز وجل إلى أرميا: إن قومك تركوا الأمر الذى أكرمت به آباءهم، وعزتى لأهيجن عليهم جنودًا لا يرحمون بكاءهم، فقال: يا رب هم ولد خليلك إبراهيم، وأمة صفيك موسى، وقوم نبيك داود. فأوحى الله تعالى إليه: إنما أكرمت إبراهيم وموسى وداود بطاعتى، ولو عصونى لأنزلتهم منازل العاصين.

ونظر بعض العباد شخصًا مستحسنًا فقال له شيخه: ما هذا النظر؟ ستجد غبه، فنسى القرآن بعد أربعين سنة.

وقال آخر: قد عبت شخصًا قد ذهب بعض أسنانه فانتثرت أسنانى، ونظرت إلى امرأة لا تحل؛ فنظر إلى زوجتى من لا أريد.

وكان بعض العاقِّين ضرب أباه وسحبه إلى مكان، فقال له الأب: حسبك إلى هاهنا سحبت أبى.

وقال ابن سيرين: عيرت رجلاً بالإفلاس فأفلست، ومثل هذا كثير.

ومن أعجب ما سمعت فيه عن الوزير ابن حصير الملقب بالنظام أن المقتفى غضب عليه وأمر بأن يؤخذ منه عشرة آلاف دينار، فدخل عليه أهله محزونين وقالوا له: من أين لك عشرة آلاف دينار! فقال: ما يؤخذ منى عشرة ولا خمسة ولا أربعة. قالوا: من أين لك؟ قال: إنى ظلمت رجلاً فألزمته ثلاثة آلاف فما يؤخذ منى أكثر منها. فلما أدى ثلاثة آلاف دينار وقع الخليفة بإطلاقه ومسامحته فى الباقى.

وأنا أقول عن نفسى: ما نزل بى آفة أو غم أو ضيق صدر إلا بزلل

أعرفه حتى يمكننى أن أقول: هذا بالشيء الفلانى، وربما تأولت فيه بعد، فأرى العقوبة. فينبغى للإنسان أن يترقب جزاء الذنوب فقل أن يسلم منه، وليجتهد فى التوبة.

فقد روى فى الحديث: «**ما من شىء أسرع لحاقًا بشىء من حسنة حديثة لذنب قديم**»، ومع التوبة يكون خائفًا من المؤاخذة متوقعًا لها، فإن الله تعالى قد تاب على الأنبياء -عليهم السلام-، وفى حديث الشفاعة يقول آدم ذنبى ويقول إبراهيم وموسى ذنبى.

فإن قال قائل: قوله تعالى: ﴿**مَن يَعْمَلْ سُوءًا يُجْزَ بِهِ**﴾[1] خبر فهو يقتضى أن لا يتجاوز عن مذنب، وقد عرفنا قبول التوبة والصفح عن الخاطئين. فالجواب من وجهين: أحدهما أن يحمل على من مات مصراً ولم يتب، فإن التوبة تجب ما قبلها، والثانى أنه على إطلاقه؛ فهو الذى أختاره أنا واستدل بالنقل والمعنى. . أما النقل؛ فإنه لما نزلت هذه الآية قال أبو بكر: يا رسول الله أو نجازى بكل ما نعمل؟ فقال: ألست تمرض، ألست تحزن، أليس يصيبك اللأواء فذلك ما تجزون به[2]. وأما المعنى فإن المؤمن إذا تاب وندم كان أسفه على ذنبه فى كل وقت أقوى من كل عقوبة، فالويل لمن عرف مرارة الجزاء الدائم، ثم آثر لذة المعصية لحظة.

٣٥٥- **فصل** - تفكرت فى نفسى يومًا تفكر محقق، فحاسبتها قبل أن تحاسب، وزنتها قبل أن توزن، فرأيت اللطف الربانى، فمن بدء الطفولة وإلى الآن أرى لطفًا بعد لطف، وستراً على قبيح، وعفواً عما يوجب عقوبة وما أرى لذلك شكراً إلا باللسان، ولقد تفكرت فى خطايا لو عوقبت ببعضها لهلكت سريعًا، ولو كشف للناس بعضها لاستحييت.

ولا يعتقد معتقد عند سماع هذا أنها من كبائر الذنوب، حتى يظن فىَّ

---

(١) سورة النساء: ١٢٣.

(٢) إسناده ضعيف: أخرجه أحمد فى «مسنده» (١/ ١١)، وابن حبان فى «صحيحه» (٢٩١٠).

ما يظن في الفساق، بل هي ذنوب قبيحة في حق مثلي، وقعت بتأويلات فاسدة؛ فصرت إذا دعوت أقول: اللهم بحمدك وسترك على اغفر لي؛ ثم طالبت نفسي بالشكر على ذلك فما وجدته كما ينبغي. ثم أنا أتقاضى القدر مراداتي ولا أتقاضى نفسي بصبر على مكروه ولا بشكر على نعمة، فأخذت أنوح على تقصيري في شكر المنعم، وكوني أتلذذ بإيراد العلم من غير تحقيق عمل به، وقد كنت أرجو مقامات الكبار، فذهب العمر وما حصل المقصود.

فوجدت أبا الوفاء بن عقيل قد ناح نحو ما نحت فأعجبتني نياحته فكتبتها هاهنا. قال لنفسه: يا رعنا. تقوِّمين الألفاظ ليقال مُناظر، وثمرة هذا يا مناظر، كما يقال للمصارع الغارة، ضيعتِ أعز الأشياء وأنفسها عند العقلاء، وهي أيام العمر حتى شاع لك بين من يموت غدًا اسم مناظر، ويُنسى الذاكر والمذكور إذا درست القبور.. هذا إن تأخر الأمر إلى موتك، بل ربما نشأ شاب أفره منك فموّهوا له وصار الاسم له، والعقلاء عن الله تشاغلوا بما إذا انطووا نشرهم وهو العمل بالعلم والنظر الخالص لنفوسهم.

أفٍّ لنفسي وقد سطرت عدة مجلدات في فنون العلوم وما عبق بها فضيلة.. إن نوظرت شمخت، وإن نوصحت تعجرفت، وإن لاحت الدنيا طارت إليها طيران الرخم وسقوط الغراب على الجيف، فليتها أخذت أخذ المضطر من الميتة؛ توفر في المخالطة عيوبًا تبلى ولا تحتشم نظر الحق إليها، وإن انكسر لها غرض تضجرت، فإن امتدت بالنعم اشتغلت عن المنعم. أفٍّ والله مني اليوم على وجه الأرض وغدًا تحتها، والله إن نتن جسدي بعد ثلاث تحت التراب أقل من نتن خلائقي وأنا بين الأصحاب، والله إنني قد أبهرني حلم هذا الكريم عني كيف سترني وأنا أنهتك، ويجمعني وأنا أشتت، وغدًا يقال: مات الحبر العالم الصالح، ولو عرفوني حق معرفتي بنفسي ما دفنوني.

والله لأنادين على نفسي نداء المتكشفين معائب الأعداء، ولأنوحن نواح الثاكلين إذ لا نائح لي ينوح عليّ لهذه المصائب المكتومة، والخلال المغطاة التي

قد سترها من خبرها، وغطاها من علمها، والله ما أجد لنفسي خلة استحسن أن أقول متوسلاً بها. . اللهم اغفر لي كذا بكذا، والله ما التفت قط إلا وجدت منه سبحانه برًّا يكفيني، ووقاية تحميني، مع تسلط الأعداء، ولا عرضت حاجة فمددت يدي إلا قضاها. . هذا فعله معي وهو رب، غني عني، وهذا فعلي وأنا عبد فقير إليه، ولا عذر لي فأقول ما دريت أو سهوت.

والله لقد خلقني خلقًا صحيحًا سليمًا، ونوّر قلبي بالفطنة، حتى أن الغائبات والمكتومات تنكشف لفهمي، فواحسرتاه على عمر انقضى فيما لا يطابق الرضا، واحرماني لمقامات الرجال الفطناء. . يا حسرتي على ما فرطت في جنب الله وشماتة العدو بي. . واخيبة من أحسن الظن بي إذا شهدت الجوارح عليّ، واخذلاني عند إقامة الحجة. . سخر والله مني الشيطان وأنا الفطن.

اللهم توبة خالصة من هذه الأقذار. . ونهضة صادقة لتصفية ما بقي من الأكدار، وقد جئتك بعد الخمسين وأنا من خلق المتاع، وأبى العلم إلا أن يأخذ بيدي إلى معدن الكرم، وليس لي وسيلة إلا التأسف والندم، فوالله ما عصيتك جاهلاً بمقدار نعمك، ولا ناسيًا لما أسلفت من كرمك فاغفر لي سالف فعلي.

٣٥٦- فصل - عداوة الأقارب صعبة، وربما دامت كحرب بكر وتغلب بني وائل، وعبس وذبيان ابني بغيض، والأوس والخزرج ابني قيلة. قال الجاحظ: ركدت هذه الحرب أربعين عامًا.

والسبب في هذا أن كل واحد من الأقارب يكره أن يفوقه قريبه فيقع التحاسد؛ فينبغي لمن فضل على أقاربه أن يتواضع لهم، ويرفعهم جهده، ويرفق بهم لعله يسلم.

قال رجل لرسول الله -ﷺ-: لي أقارب أصلهم فيقطعوني فقال: **«فكأنما تسفهم الملّ، ولن يزال معك من الله ظهير ما دمت على ذلك»**[1].

---

(١) صحيح: أخرجه مسلم (٢٥٥٨) في كتاب البر والصلة، باب: صلة الرحم وتحريم قطيعتها من حديث أبي هريرة -رضي الله عنه-، و(الملّ) هو الرماد الحار.

٣٥٧- فصل - رأيت كلاب الصيد إذا مرت بكلاب المحلة نبحتها وبالغت وأسرعت خلفها، وكأنها تراها مكرمة مجللة فتحسدها على ذلك.

ورأيت كلاب الصيد حينئذ لا تلتفت إليها ولا تعيرها الطرف ولا تعد نباحها شيئًا، فرأيت أن كلاب الصيد كأنها ليست من جنس تلك الكلاب، لأن تلك غليظة البدن كثيفة الأعضاء لا أمانة لها، وهذه لطيفة دقيقة الخلقة ومعها آداب قد ناسبت خلقتها اللطيفة، وإنها تحبس الصيد على مالكها خوفًا من عقابه، أو مراعاة شكر نعمته عليها؛ فرأيت أن الأدب وحسن العشرة يتبع لطافة البدن وصفاء الروح، وهكذا المؤمن العاقل لا يلتفت إلى حاسده ولا يعده شيئًا، إذ هو فى واد وذاك فى واد. . ذاك يحسده على الدنيا، وهذا همته الآخرة؛ فيا بُعد ما بين الواديين.

٣٥٨- فصل - ملاحظته من أهم الأشياء؛ ينبغى لمن آمن بالله تعالى أن يسلم له فى أفعاله، ويعلم أنه حكيم ومالك، وأنه لا يغيب؛ فإذا طالبه العقل بحكمة الفعل قال: ما بانت لى، فيجب علىّ تسليم الأمر لمالكه. وإن أقوامًا نظروا بمجرد العقل إلى كثير من أفعال الحق سبحانه فرأوها لو صدرت من مخلوق نسب فيها إلى ضد الحكمة، فنسبوا الخالق إلى ذلك، وهذا الكفر المحض، والجنون البارد، والواجب نسبة الجهل إلى النفوس؛ فإن العقول قاصرة عن مطالعة حكمته.

وأول من فعل ذلك إبليس فإنه قد رآه قد فضل طينًا على نار، والعقل يرى النار أفضل فعاب حكمته، وعمت هذه المحنة خلقًا (ممن)(١) ينسب إلى العلم، وكثير من العوام فكم قد رأينا عالمًا يعترض وعاميًا يرد فيكفر.

وهذه محنة قد شملت أكثر الخلق، يرون عالمًا يضيَّق عليه وفاسقًا يوسع عليه؛ فيقولون هذا لا يليق بالحكمة، وقد علم العلماء أن الله تعالى قد فرض الزكوات والخراج والجزية والغنائم والكفارات ليستغنى بها الفقراء، فاختص بذلك الظلمة، وصانع من تجب عليه الزكاة بإخراج بعضها، فجاع الفقير.

(١) زيادة ليست فى الأصل. ولكنها وضعت لأجل إتمام المعنى.

فينبغى أن نذم هؤلاء الظلمة ولا نعترض على من قدَّر الكفاية للفقراء، وقد حصل فى ضمن هذا عقوبة الظالمين من حبسهم الحقوق، وابتلاء الفقراء بصبرهم عن حظوظهم، وأكثر هؤلاء المعترضين لا يكادون يسلمون وقت خروج الروح من اعتراض يخرج إلى الكفر فتخرج النفس كافرة؛ فكم عامى يقول: فلان قد ابتلى وما يستحق، ومعناه أنه قد فعل به ما لا يليق بالصواب وقد قال بعض الخلعاء:

أيا ربٌّ تخلقُ أقمارَ ليل ... وأغصانَ بان وكثبانَ رملِ
وتَنْهَى عبادَكَ أن يَعْشَقُوا ... أيا حاكم العدْل ذا حُكْمُ عَدْلِ

ومثل هذا ينشده جماعة من العلماء ويستحسنونه، وهو كفر محض. وما فهم هؤلاء الثلاثة القائلين لهذا، أنه ما نهى عن العشق وإنما نهى عن العمل بمقتضى العشق من الأشياء المحرمة كالنظر واللمس والفعل القبيح، وفى الامتناع عن المشتهى دليل على وجود الناهى كصبر العطشان فى رمضان عن الماء، فإنه دليل على الإيمان بوجود من أمر بالصوم، وتسليم النفوس إلى القتل والجهاد دليل على اليقين بالجزاء.

ثم المستحسن أنموذج ما قد أعد فأين العقل المتأمل؟ كلا. لو تأمل وصبر قليلاً لربح كثيراً، ولو ذهبت أذكر ما قد عرفت من اعتراض العلماء والعوام لطال.

ومن أحسن الناس حالاً فى ذلك، ما يحكى عن ابن الراوندى أنه جاع يومًا واشتد جوعه فجلس على الجسر وقد أمضَّه الجوع، فمرت خيل مزينة بالحرير والديباج، فقالوا: لعلى بن بلتق غلام الخليفة، فمرت جوار مستحسنات فقال: لمن هذه؟ فقالوا: لعلى بن بلتق. فمر رجل فرآه وعليه أثر الضرّ فرمى إليه رغيفين؛ فأخذهما ورمى بهما، وقال: هذه لعلى بن بلتق وهذا لى، ونسى الجاهل الأحمق ما يقول ويعترض ويفعل[1] قبل هذه المجاعة.

فيا معترضين وهم فى غاية النقص على من لا عيب فى فعله.. أنتم

(١) بياض بالأصل.

فى البداية من ماء وطين، وفى الثانى من ماء مهين، ثم تحملون الأنجاس على الدوام، ولو حبس عنكم الهـواء لصرتم جيـفًا. ولو أليق[١] منكم أهلككم. وكم من رأى يراه حـازمكم فـإذا عـرضه على غـيـره تبين له قـبح رأيه. ثم المعاصى منكم زايدة فى الحـد، فما فيكم إلا الاعـتراض على المالك الحكيم، ولو لم يكن فى هذه البـلاوى إلا أن يراد التسليم، ولو أنه أنشـأ الخلق ليدلوا على وجوده ثم أهلكهم ولـم يُعدهم كان ذلك له، لأنه مـالك؛ لكنه بفضله وعد بالإعادة والجزاء والبـقاء الدائم فى النعيم. فمتى مـا جرى أمر لا تعرف علته فانسب ذلك إلى قصور علمك، وقـد ترى مقتولاً ظلمًا وكم قتل وظلم حتى قوبل ببعضه وقل أن يجرى لأحد آفـة إلا ويستحقها غير أن تلك الآفات المجازى بهـا غائبة عنا ورأينا الجزاء، فـسلم تسلم، واحذر كلمة اعـتراض أو إضمار، فربما أخرجتك من دائرة الإسلام.

٣٥٩- فصل - رأيت الناس يوم العيد فشبهت الحال بالقيامة؛ فإنهم لما انتـهبـوا من نومهم خـرجوا إلى عـيـدهم كخـروج الموتى من قبـورهم إلى حشـرهم، فمنهم من زينتـه الغاية ومركـبه النهاية، ومنهم المـتوسط، ومنهم المرذول، وعلى هذا أحوال الناس يوم القيامة، قال تعالى: ﴿**يَوْمَ نَحْشُرُ الْمُتَّقِينَ إِلَى الرَّحْمَنِ وَفْدًا**﴾[٢] أى ركبانًا ﴿**وَنَسُوقُ الْمُجْرِمِينَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ وِرْدًا**﴾[٣] أى عطاشًا.

وقـال -عليه الـصلاة والسـلام-: «**يحـشـرون ركـبـانًا ومـشـاة وعلى وجوههم**»[٤].

ومن الناس من يداس فى زحمـة العيد، وكذلـك الظلمة يطأهم الناس بأقدامهم فى القيامة، ومن الناس يوم العيد الغنى المتصدق، كذلك يوم القيامة

(١) بياض بالأصل.

(٢) سورة مريم: ٨٥.

(٣) سورة مريم: ٨٦.

(٤) أخرجه الترمذى (٢٤٢٤) فى كتاب صفة القـيامة، باب: ما جاء فى شأن الحشر، وأحمد فى «مسنده» (٥/ ٣ و٥) من حديث معاوية بن حيدة -رضي الله عنه-.

أهل المعروف فى الدنيا هم أهل المعروف فى الآخرة، ومنهم الفقير السائل فقد يعطى: أعددت شفاعتى لأهل الكبائر، ومنهم من لا يعطف عليه: ﴿فَمَا لَنَا مِن شَافِعِينَ ﴿١٠٠﴾ وَلا صَدِيقٍ حَمِيمٍ﴾(١) والأعلام منشورة فى العيد.

كذلك أعلام المتقين فى القيامة، والبوق يضرب.. كذلك يخبر بحال العبد فيقال: يا أهل الموقف إن فلانًا قد سعد سعادة لا شقاوة بعدها، وإن فلانًا قد شقى شقاوة لا سعادة بعدها، ثم يرجعون من العيد بالخواص إلى باب الحجرة يخبرون بامتثال الأوامر ﴿أُوْلَئِكَ الْمُقَرَّبُونَ﴾(٢). فيخرج التوقيع إليهم ﴿فَأُوْلَئِكَ كَانَ سَعْيُهُم مَّشْكُوراً﴾(٣) ومن هو دونهم يختلف حاله. فمنهم من يرجع إلى بيت عامر ﴿بِمَا أَسْلَفْتُمْ فِي الأَيَّامِ الْخَالِيَةِ﴾(٤) ومنهم متوسط، ومنهم من يعود إلى بيت قفر «فاعتبروا يا أولى الألباب»(٥).

٣٦٠- فصل - يتضمن نصيحة للعلماء والزهاد: يا قوم قد علمتم أن الأعمال بالنيات. وقد فهمتهم قوله تعالى: ﴿أَلا لِلَّهِ الدِّينُ الْخَالِصُ﴾(٦) وقد سمعتم عن السلف أنهم كانوا لا يعلمون ولا يقولون حتى تتقدم النية وتصح. أيذهب زمانكم يا فقهاء فى الجدل والصياح! وترتفع أصواتكم عند اجتماع العوام تقصدون المغالبة! أو ما سمعتم «**من طلب العلم ليباهى به العلماء، أو ليمارى به السفهاء، أو ليصرف به وجوه الناس إليه، لم يرح رائحة الجنة**» ثم يقدم أحدكم على الفتوى وليس من أهلها، وقد كان السلف يتدافعونها.

يا معشر المتزهدين إنه يعلم السر وأخفى، أتظهرون الفقر فى لباسكم وأنتم تستوفون شهوات النفوس! وتظهرون التخاشع والبكاء فى الجلوات دون الخلوات.

(١) سورة الشعراء: ١٠٠، ١٠١.
(٢) سورة الواقعة: ١١.
(٣) سورة الإسراء: ١٩.
(٤) سورة الحاقة: ٢٤.
(٥) سورة الحشر: ٢.
(٦) سورة الزمر: ٣.

كان ابن سيرين يضحك ويقهقه فإذا خلا بكى أكثر الليل. وقال سفيان لصاحبه: ما أوقحك تصلى والناس يرونك:

أفْـدِي ظباءَ فـلاةٍ مـا عَرَفْنَ بهـا   مضغ الكلام ولا صَبْغَ الحواجيبِ

آه للمرائى من يوم ﴿وَحُصِّلَ مَا فِي الصُّدُورِ﴾(١) وهى النيات. فأفيقوا من سكركم، وتوبوا من زللكم، واستقيموا على الجادة ﴿أَن تَقُولَ نَفْسٌ يَا حَسْرَتَىٰ عَلَىٰ مَا فَرَّطتُ فِي جَنبِ اللَّهِ﴾(٢).

٣٦١- فصل - رأيت جمهور الناس حائدين عن الشريعة جارين على ما ألفوا من العادة، وقد يخلص منهم فريقان: علماء وعباد فتأملت جمهور العلماء فرأيتهم فى تخليط.

منهم من يقتصر على علم معاملات الدنيا ويعرض عن معاملات الآخرة، إما لجهله بها، أو لثقل أمرها عليه، فهو يجرى على ما يثقل عليه مما يوجبه العلم، ويتبع فى الباقى العادات. وربما تخايل أنه يسامح فى الخطايا لكونه عالمًا، وقد نسى أن العلم حجة عليه.

ومنهم من هو واقف مع صورة العلم، غافل عن المقصود بالعلم، وفيهم من يخالط السلطان، فيتأذى المخالط بما يرى من الذنوب والظلم ولا يمكنه الإنكار، وربما مدح، ويتأذى السلطان فيقول: لولا أنى على صواب ما جالسنى هذا، ويتأذى العوام فيقولون: لولا أن أمر السلطان قريب ما خالطه هذا العالم، ورأيت الأشراف يثقون بشفاعة آبائهم وينسون أن اليهود من بنى إسرائيل.

وأما الفريق الثانى وهم العباد فرأيت أكثرهم فى تخليط؛ أما الصحيحو القصد منهم فعلى غير الجادة فى أكثر عملهم، قد وضع لهم جماعة من المتقدمين كتبًا فيها دفاين قبيحة، وأحاديث غير صحيحة، ويأمرون فيها أشياء تخالف الشريعة، مثل كتب الحارث المحاسبى، وأبى عبد الله الترمذى، وقوت

(١) سورة العاديات: ١٠.
(٢) سورة الزمر: ٥٦.

القلوب لأبى طالب المكى، وكتاب الإحيا لأبى حامد الطوسى، فإذا فتح المبتدئ عينه وهمّ بسلوك الطريق بهذه الكتب حملته إلى الخطايا، لأنهم قد بنوا على أحاديث محالة، ويذمون الدنيا ولا يدرون ما المذموم منها، فيتصور المبتدئ ذم ذات الدنيا، فيهرب المنقطع إلى الجبل، وربما فاتته الجماعة والجمعة، ويقتصر على البلوط والكمثرى فيورثه القولنج، ويقنع بعضهم بشرب اللبن فينحل الطبع، أو يأكل الباقلاء والعدس فيحدث له قراقر. وإنما ينبغى لقاصد الحج أن يرفق أولاً بالناقة ليصل، ألا ترى للفطن من الأتراك يهتم بفرسه قبل تحصيل قوت نفسه.

وربما تصدى القاص لشرح أحوال قوم من السلف والمتزهدين فيتبعهم المريد فيتأذى بذلك، ومتى رددنا ذلك المنقول وبينا خطأ فاعله قال الجهال: أترد على الزهاد، وإنما ينبغى اتباع الصواب، ولا ينظر إلى أسماء المعظمين فى النفوس.

فإنا نقول: قال أبو حنيفة ثم يخالفه الشافعى، وإنما ينبغى أن يتبع الدليل. قال المروزى: مدح أحمد بن حنبل النكاح فقلت له: قد قال إبراهيم ابن أدهم؛ فصاح وقال: وقعنا فى بنيات الطريق، عليك بما كان عليه رسول الله -ﷺ- وأصحابه. وتكلم أحمد فى الحارث المحاسبى ورد على سرى السقطى حين قال: لما خلق الله الحروف وقف الألف وسجدت الياء. فقال: نفِّروا الناس عنه، فالحق لا ينبغى أن يحابى فإنه جد؛ وإنى أرى أكثر الناس قد حادوا عن الشريعة، وصار كلام المتزهدين كأنه شريعة لهم، فيقال: قال أبو طالب المكى: كان من السلف من يزن قوته بكَرَبَة فينقص كل يوم، وهذا شىء ما عرفه رسول الله -ﷺ- ولا أصحابه وإنما كانوا يأكلون دون الشبع.

فأما الحمل على النفس بالجوع فمنهى عنه، ويقول: قال داود الطائى لسفيان: إذا كنت تشرب الماء البارد متى تحب الموت، وكان ماؤه فى دن؛ وما علم أن للنفس حظًّا، وأن شرب الماء الحار يرهّل المعدة ويؤذى، وأن رسول الله -ﷺ- كان يبرد الماء.

ويقول آخر منهم: منذ خمسين سنة أشتهى الشواء ما صفا لى درهمه،

ويقول آخـر: أشتهى أن أغْـمِس جزرة فى دبس فـما صح لى. أتراهم أرادوا حبة منذ خرجت من المعن ما دخلت فى شبـهة؛ هذا شىء ما نظر فيه رسول الله -ﷺ- وإن كان الورع حسنًا، ولكن لا على حمل المشاق الشديدة.

وهذا بشر الحافى يقول: لا أحدث لأنى أشتهى أن أحدث، وهذا تعليل لا يصلح، لأن الإنسان مـأمور بالنكاح، وهو من أكبـر المشتهى. وكـان بشر حافيًـا حتى قيل له الحافى، ولو سـتر أمره بنعلين كان أصلـح، والحفا يؤذى العين، وليس من أمر الدنيا فى شىء؛ فقد كان لرسول الله -ﷺ- نعلان وما كانت سيرة رسول الله -ﷺ- وأصحابه على ما المتزهدون عليه اليوم.

فقـد كان رسـول الله -ﷺ- يضحـك ويمزح ويختـار المستحـسنات، ويسابق عـائشة -رضي الله عنها-، وكان يأكل اللحم، ويحب الحلوى، ويُستـعذب له الماء؛ وعلى هذا كان طـريقة أصحـابه. فأظهر المتـزهدون طرائق كأنهـا ابتداء شريعة، وكلها على غير الجادة، ويحتجون بقول المحاسبى والمكى، ولا يحتج أحد منهم بصحابى ولا تابعى ولا بإمام من أئمة الإسلام فإن رأوا عالـمًا لبس ثوبًا جميلاً أو تزوج مستحـسنة، أو أفطر بالنهار أو ضحك عابوه. فينبغى أن يعلم أن أكثـر من صح قصـده منهم على غيـر الجادة لقلة علمـهم؛ حتى أن بعضهم يقول: منذ ثمانين سنة ما اضطجعت، ويقول آخر: حلفت لا أشرب الماء سنة، وهؤلاء على غيـر صواب، فإن للنفس حقًّـا، فأما من سـاء قصده ممن نافق وراءى لاجتلاب الدنيـا وتقبيل الأيدى فلا كلام معـه، وهم جمهور المتصـوفة، فإنهم رفـعوا الثيـاب الملونة ليراهم الناس بعين التـرك للزينة، وما معهم أحسن من السفلاطون؛ وإنما رقع القدماء للفقر. فهم فى اللذات وجمع المال وأخذ الشبهات واستعـمال الراحة واللعب ومخالطة السلاطين وهؤلاء قد كشفوا القناع وباينوا زهد أوائلهم، بلى أعجب منهم من ينفق عليهم.

٣٦٢- فصل - إن الله عز وجل جعل أحوال الآدمى أمثلة ليـعتبر بها. فمن أمـثلة أحواله القـمر الذى يتـبدئ صـغيـرًا ثم يتكامل بدرًا، ثم يتناقص بانمحاق، وقد يطرأ عليه ما يفسده كالكسوف، فكذلك الآدمى أوله نطفة، ثم

يترقى من الفساد إلى الصلاح. فإذا تم كان بمنزلة البدر الكامل ثم تتناقص أحواله بالضعف فربما هجم الموت قبل ذلك هجوم الكسوف على القمر. قال الشاعر:

والمرء مثل هلال عند طلعته ... يبدو ضئيلاً لطفيًا ثم يتّسق
يزداد حتى إذا ما تم أعقبه ... كر الجديدين نقصًا ثم ينمحق

ومن أمثلة حاله دود القز فإنه يكون حيًّا إلى أن يبتدئ نبات فوقه وهو ورق الفرصاد، فإذا اخضر الورق دبت الروح فيه ثم ينتقل من حال إلى حال كانتقال الطفل، ثم يرقد كغفلة الآدمى عن النظر فى العواقب ثم ينتبه فيحرص على الأكل كحرص الشره على تحصيل الدنيا ثم يسد على نفسه كما يحطب الآدمى الأوزار على دينه، فيرتهن فى ذلك الحبس كما يرتهن الميت فى قبره، ثم يقرض فيخرج خلقًا آخر كما تنشر الموتى غُرلاً بُهْما[1]؛ وقد دله على البعث تكوّن النطفة كالميت، ثم تصير آدميًّا، وإلقاء الحب تحت الأرض فيفسد ثم يهتز خضراً.

إذا المرء كانت له فكرة ... ففى كل شىء له عبرة

٣٦٣- **فصل** - إنما العقل بتأمل العواقب. فأما القليل العقل فإنه يرى الحال الحاضرة، ولا ينظر إلى عاقبتها، فإن اللص يرى أخذ المال وينسى قطع اليد. والبطال يرى لذة الراحة وينسى ما تجنى من فوات العلم وكسب المال فإذا كبر فسئل عن علم لم يدر، وإذا احتاج سأل فذل، فقد أربا ما حصل له من التأسف على لذة البطالة، ثم يفوته ثواب الآخرة بترك العمل فى الدنيا. وكذلك شارب الخمر يلتذ تلك الساعة وينسى ما يجنى من الآفات فى الدنيا والآخرة، وكذلك الزنى، فإن الإنسان يرى قضاء الشهوة، وينسى ما يجنى

---

(١) غرلاً بهما: الغرل، جمع الأغر، وهو الأقلف، والغرلة: القلفة، والبهم: جمع، وهو فى الأصل الذى لا يخالط لونه لون سواه، يعنى ليس فيهم شىء من العاهات والأعراض التى تكون فى الدنيا، كالعمى والعرج والعور وغير ذلك، وإنما هى أجساد مصححة لخلود الأبد فى الجنة أو النار، وقال بعضهم بها: أى من أعراض الدنيا.

منه فضيحة الدنيا والحد، وربما كان للمرأة زوج فألحقت الحمل من هذا به وتسلسل الأمر. فقس على هذه النبذة وانتبه للعواقب، ولا تؤثر لذة تفوِّت خيرًا كثيرًا، وصابر مشقة تحصل ربحًا وافرًا.

٣٦٤- فصل - ليس فى الدنيا عيش إلا لعالم أو زاهد. بلى، قد يقع فى صفاء حالهما كدر. وهو أن العالم يشتغل بالعلم أو بالانقطاع عن الكسب، وقد يكون له عائلة، فربما تعرض بالسلطان ففسد حاله. وكذلك الزاهد فينبغى للعالم والعابد أن يحركا فى معاش كنسخ بأجرة أو عمل الخوص أو إن فتح له بشىء واقتنع باليسير، فلا يستعبده أحد.

كما كان أحمد بن حنبل له أجرة لعلها لا تبلغ دينارًا يتقوت بها؛ ومتى لم يقنع أفسدت مخالطة السلاطين والعوام دينه.

وفى الناس من يريد التوسع فى المطاعم، ومنهم من لا يوافقه خشن العيش، وهيهات أن يصح الدين مع تحصيل اللذات. وإذا قنع العالم والزاهد بما يكفى، لم يتبذل للسلطان ولم يستخدم بالتردد إلى بابه، ولم يحتج الزاهد إلى تصنع، والعيش اللذيذ للمنقطع الذى لا يتبذل به ولا يحمل منه.

٣٦٥- فصل - ما أكثر تفاوت الناس فى الفهوم، حتى العلماء يتفاوتون التفاوت الكثير فى الأصول أو الفروع. فترى أقوامًا يسمعون أخبار الصفات فيحملونها على ما يقتضيه الحسن كقول قائلهم: ينزل بذاته إلى السماء وينتقل؛ وهذا فهم ردىء، لأن المنتقل يكون من مكان إلى مكان ويوجب ذلك كون المكان أكثر منه ويلزم منه الحركة وكل ذلك محال على الحق عز وجل.

وأما فى الفروع فكما يروى عن داود[١] أنه قال فى قوله: **«لا يبولن أحدكم فى الماء الدائم ثم يتوضأ منه»**[٢]. فقال: إن بال غيره جاز؛ فما يفهم

(١) هو: داود بن على بن خلف، أبو سليمان الفقيه الظاهرى، أصبهانى الأصل، وهو إمام أصحاب الظاهر، مات سنة ٢٧٠هـ، وله ٦٨ سنة.

(٢) أخرجه الترمذى (٦٨) فى كتاب الطهارة، باب: ما جاء فى كراهية البول فى الماء الراكد، من حديث أبى هريرة -رضي الله عنه- وهو فى الصحيحين «بلفظ: ثم يغتسل منه» بدلاً منه «يتوضأ» التى انفرد بها الترمذى.

المراد من التنجيس بل يأخذ بمجرد اللفظ، وكذلك يقول: لحم الخنزير حرام لا جلده نعوذ بالله من سوء الفهم، وكذلك يتفاوت الشعراء الذين شغلهم التفطن لدقائق الأحوال كقول قائلهم:

لنا الجفنات الغر يلمعن بالضحى وأسيافنا فى الحرب يقطرن من دم

والجفنات عدد يسير فلو قال الجفان لكان أبلغ، ولو قال بالدجى لكان أحسن. ويقطرن دليل على القلة. وكذلك قول القائل:

هَمُّهَا العطر والفراش يعلو ها لجين منظوم ولؤلؤ

وهذا قاصر، فإنه لو فعلت هذا سوداء لَحَسَّنَهَا. إنما المادح هو القائل:

ألم تر أنى كلما جئت طارقًا وجدتُ بها طِيبًا وإن لم تُطَيَّب

وكذا قول القائل:

أدعو إلى هجرها قلبى فيتبَعنى حتى إذا قلت: هذا صادق نزعا

ولو كان صادقًا فى المحبة لما كان له قلب يخاطبه. وإذا خاطبه فى الهجر لم يوافقه. إنما الحب الصادق هو القائل:

يقولون لو عاتبْتَ قلبَك لارْعَوَى فقلت: وهل للعاشقين قلوبُ؟

ومثل هذا إذا نوقش كثير. فأقل موجود فى الناس الفهم، والغوص على دقائق المعانى.

٣٦٦- فصل - من تأمل الدنيا علم أنه ليس فيها لذة أصلاً، فإن وُجدت لذةٌ شيبت بالنغص التى تزيد على اللذة أضعافًا. فمن اللذات النساء. فربما تثبت المستحسنة، وربما لم تحب الزوج، فمتى علم ذلك يعزل عنها، وربما خانت، وذلك الهلاك.

فإن تمت المرادات فذكر الفراق زائد فى التألم على الالتذاذ. ومن اللذات الولد، ومقاساة البنت إلى أن تتزوج، وما تلقى من زوجها وخوف عارها محن قبيحة.

والابن إن مرض ذاب الفؤاد، وإن خرج عن حد الصلاح زاد الأسف، وإن كان عدوًا فمراده هلاك الأب، ثم إن تم المراد فذكر فراقه يذيب القلوب.

ولو أن فاسقًا أحب بعض المردان انهتك عرضه فى الدنيا وذهب دينه، ثم لا يلبث أن تتغير حليته فيصير مبغوضًا مع ما سبق من الهتكة والإثم. وكم قد غلبت شهوة رجل وطئ الجوارى السود فجاء الولد أسود فبقى عاراً عليه! ومن هذا الجنس الالتذاذ بالمال، وفى تحصيله آثام، وفراقه حسرة، وذهاب العمر فيه غبينة[1] وهذا أنموذج لما لم يذكر.

فينبغى لمن وفقه الله سبحانه أن يأخذ الضرورى الذى يميل إلى سلامة الدين والبدن والعافية، ويهجر الهوى الذى نُغَصُه تتضاعف على لذته، ومن صبر على ما يكره قصْدَ النفع فى العاقبة التذَّ أضعافًا، كطالب العلم فإنه يتعب يسيرًا وينال خير الدارين مع سلامة العاقبة. ولذة البَطَالة تعقب عدم العلم والعمل، فيزيد الأسى على اللذة أضعافًا.

فالله الله أن يغلبك هواك العاجل. ومتى همَّ الهوى بالتوثُّبِ فامنعه وزن عاجله بآجله. وما يتذكر إلا أولو الألباب.

٣٦٧- فصل - رأيت إبليس قد احتال بفنون الحِيَل، على الخلق، ومال أكثرهم عن العلم الذى هو مصباح السالك، فتركهم يتخبطون فى ظلمات الجهل، وشغلهم بأمور الحسن، ولا يلتفتون إلى مشورة العقل. فإذا ضاق بأحدهم عيشه أو نُكِبَ اعترض فكفر.

فمنهم مَن ينسب ذلك إلى الدهر، ومنهم مَن يَسبُّ الدنيا. وهذا إسفاف لأن الدهر والدنيا لا يفعلان، وإنما هو عيب للمقدِّر. ومنهم مَن يخرجه الأمر إلى جحد الحكمة، فيقول: أى فائدة فى نقض المبنى؟! وزعم بعضهم أنه لا يتصور عود المنقوض، وأنكروا البعث. ويقولون: ما جاء من ثَمَّ أحد! ونسوا أن الوجود ما انتهى بعدُ ولو خُلِّفنا لصار الإيمان بالغيب عيانًا، ولا يصلح أن يستدل على الأحياء بالأحياء.

---

(١) فى نسخة: غبن.

ثم نظر إبليس فرأى فى المسلمين قومًا فيهم فطنة فأراهم أن الوقوف على ظواهر الشريعة حالة يشاركهم فيها العوام، فحسّن لهم علوم الكلام وصاروا يحتجون بقول أبقراط وجَالينُوس وفيثاغُورس، وهؤلاء ليسوا بمتشرعين، ولا تبعوا نبينا -ﷺ-. إنما قالوا بمقتضى ما سولّت لهم أنفسهم.

وقد كان السلف إذا نشأ لأحدهم ولد شغلوه بحفظ القرآن وسماع الحديث، فيثبت الإيمان فى قلبه. فقد توانى الناس عن هذا، فصار الولد الفطن يتشاغل بعلوم الأوائل وينبذ أحاديث الرسول -ﷺ-، ويقول أخبار آحاد! وأصحاب الحديث عندهم يسمون حَشَوِيَّة. ويعتقد هؤلاء أنّ العلم الدقيق علم الطَّفْرَة والهَيُولَى والجزء الذى لا يتجزأ، ثم يتصاعدون إلى الكلام فى صفات الخالق، فيدفعون ما صح عن رسول الله -ﷺ- بواقعاتهم. فيقول المعتزلة: إن الله لا يُرى لأن المرئىَّ يكون فى جهة، ويخالفون قول رسول الله -ﷺ-: **«إنكم ترون ربكم كما ترون القمر لا تضامون فى رؤيته»**(١). فأوجب هذا الحديث إيثار رؤيته وإن عجزنا عن فهم كيفيتها.

وقد عزُل هؤلاء الأغبياء عن التشاغل بالقرآن، وقالوا مخلوق، فزالت حرمته من القلوب، وعن السنة وقالوا: أخبار آحاد.

وإنما مذاهبهم السرقة من أبقراط وجالينوس. وقد استفاد من تبع الفلاسفة أنه يرفِّه نفسه عن تعب الصلاة والصوم. وقد كان كبار العلماء يذمون علم الكلام، حتى قال الشافعى: حكمى فيهم أن يركبوا على البغال ويُشَهَّروا، ويقال: هذا جزاء من ترك الكتاب والسنة واشتغل بالكلام. وقد آل بهم الأمر إلى أن اعتقدوا أنَّ مَن لم يعرف تحرير دليل التوحيد فليس بمسلم. فالله الله من مخالطة المبتدعة. وعليكم بالكتاب والسنة ترشدوا.

٣٦٨- فصل - رأيت العادات قد غلبت الناس فى تضييع الزمان وكان القدماء يحذرون من ذلك. قال الفُضَيل: أعرف من يعدُّ كلامه من الجمعة

(١) صحيح: أخرجه البخارى (٥٥٤) فى كتاب المواقيت، باب: فضل صلاة العصر، ومسلم (٦٣٣) فى كتاب المساجد، باب: فضل صلاتى الصبح والعصر، من حديث جرير بن عبد الله -رضي الله عنه-.

إلى الجمـعة. ودخلوا على رجل من السلف فـقالوا: لعلنا أشغلناك؟ فـقال: أصدقكم، كنت أقرأ فـتركت القراءة لأجلكم. وجاء رجل من المتـعبدين إلى سَرِيّ السَّقَطِي فرأى عنده جماعـة فقال: صرتَ مُنَاخ البَطَّالين! ثم مضى ولم يجلس.

ومتى لان الـمَزُور طمع فيه الزائر، فأطال الجلوس فلم يَسْلَم من أذى. وقد كان جمـاعة قعوداً عند معروف فأطالوا فقـال: إن ملَك الشمس لا يفتر فى سوقها أفما تريدون القيام؟ وممن كان يحفظ اللحظات عامر بن عبد قيس، قال له رجل: قف أكلمك، قال: فأمـسك الشمس. وقيل لكُرْزِ بن وَبَرَة: لو خـرجت إلى الصحـراء، فقـال: يبطل الزوجـار. وكان داود الطائى يسـتف الفتيت ويقول: بين سف الفتيت وأكل الخبز قراءة خمسين آية.

وكان عثـمان الباقلانى دائم الذكر لله تعـالى، فقال: إنى وقت الإفطار أحس بروحى كأنهـا تخرج لأجل اشتغـالى بالأكل عن الذكر! وأوصى بعض السلف أصحابه فقال: إذا خرجتم من عندى فتفرَّقوا، لعل أحدكم يقرأ القرآن فى طريقه، ومتى اجتمعتم تحدثتم.

واعلم أن الزمان أشرف مَن أن يضيّع منـه لحظة، فإن فى الصحيح عن رسول الله -ﷺ- أنه قال: «**من قال سـبحان الله العظيم وبحمـده غُرِسَتْ له بها نخلةٌ فى الجنة**»(١). فكم يضيّع الآدمـى من ساعات يفـوته فيهـا الثواب الجزيل.

وهذه الأيام مثل المزرعة، فكأنه قيل للإنســان: كلما بَذَرْتَ حبةٌ أخرجنا لك ألف كُرٍّ(٢)، فهل يجوز للعاقل أن يتوقف فى البَذْرِ ويتوانى؟

والذى يعين على اغتنام الزمان الانفراد والعزلة مهما أمكن، والاختصار على السلام أو حـاجة مهمـة لمن يلقى، وقلة الأكل، فإن كثـرته سبب النوم

(١) أخرجه الترمـذى (٣٤٦٤ و٣٤٦٥) فى كتاب الدعوات، باب: ما جاء فى فـضل التسبيح والتكبير والتهليل والتحميد من حديث جابر -رضي الله عنه-.

(٢) الكر: من المكاييل القديمة، وهى حوالى ستين قفيزاً وأربعون أردبًا.

الطويل وضياع الليل. ومَن نظر فى سير السلف وآمن بالجزاء بان له ما ذكرته.

٣٦٩- فصل - ينبغى للعاقل أن يتخير امرأة صالحة من بيت صالح، يغلب عليها الفقر لترى ما يأتيها به كثيراً، وليتزوج مَن يقاربه فى السن. فأما الشيخ فإنه إذا تزوج صبية آذاها، وربما فجرت، أو قتلته، أو طلبت الطلاق وهو يحبها فيتأذى.

وليتتم نقصه بحسن الأخلاق وكثرة النفقة ولا ينبغى للمرأة أن تَقْرَبَ من زوجها كثيراً، ولا تبعد عنه فينساها.

ولتكن وقت قربها إليه كاملة النظافة متحسنة، ولتحذر أن يرى فرجها أو جسمها كله، فإن جسم الإنسان ليس بمستحسن. وكذلك ينبغى ألا يريها جسمه، وإنما الجماع فى الفراش.

ورأى كسرى يومًا كيف يسلخ الحيوان ويطبخ فتقلبت نفسه ونفى اللحم. فذكر ذلك لوزيره. فقال: أيها الملك، الطبيخ على المائدة، والمرأة فى الفراش. ومعناه لا تفتش على ذلك.

قالت عائشة -رضي الله عنها-: «ما رأيت من رسول الله -ﷺ- ولا رآه منى». «وقام ليلةً عُريانًا فما رأيت جسمه قبلها»(١)، وهذا الحزم. وكذلك يعيب الرجل المرأة لأنه لم ير عيوبها. وليكن للمرأة فراش وله فراش. فلا يجتمعان إلا فى حال الكمال.

ومن الناس من يستهين بهذه الأشياء فيرى المرأة مُتَبَذِّلة تقول: هذا أبو أولادى: وَيَتَبَذَّل هو فيرى كل واحد من الآخر ما لا يشتهى فينفر القلب وتبقى المعاشرة بغير المحبة. وهذا فصل ينبغى تأمله والعمل به فإنه أصل عظيم.

٣٧٠- فصل - لا عيش فى الدنيا إلا للقنوع باليسير، فإنه كلما زاد الحرص على فضول العيش زاد الهم وتشتت القلب، واستعبد العبد. وأما

(١) أخرجه الترمذى (٢٧٣٢) فى كتاب الاستئذان، باب: ما جاء فى المعانقة والقبلة.

القنوع فلا يحتاج إلى مخالطة من فوقه ولا يبالى بمَن هو مثله، إذا عنده ما عنده.

وإن أقوامًا لم يقنعوا وطلبوا لذيذ العيش فأزْرَوْا(١) بدينهم وذلوا لغيرهم، وخصوصًا أرباب العلم فإنهم ترددوا إلى الأمراء فاستعبدوهم، ورأوا المنكرات فلم يقدروا على إنكارها، وربما مدحوا الظالم اتقاءً لشره. فالذى نالهم من الذل وقلة الدين أضعاف ما نالوا من الدنيا.

ومن أقبح الناس حالاً مَن تعرَّض للقضاء والشهادة، ولقد كانتا مرتبتين حسنتين وكان عبد الحميد القاضى يحابى. فبعث إلى المُعْتضِد، وقال له: قد استأجرت وقوفًا فأدِّ أجرتها ففعل. وقال له المعتضد: قد مات فلان ولنا عليه مال، فقال: أنت تذكر لما وليتنى قلت لى: قد أخرجت هذا الأمر من عنقى ووضعته فى عنقك، ولا أقبل هذا إلا بشاهدين، وكذلك كان الشهود.

دخل جماعة على بعض الخلفاء فقال الخادم: اشهدوا على مولانا بكذا فشهدوا، فتقدم المجذوعى إلى الستر فقال: يا أمير المؤمنين، أشهد عليك بما فى هذا الكتاب؟ فقال: اشهد، قال: إنه لا يكفى فى ذلك، لا أشهد حتى تقول نعم، قال: نعم.

فأما فى زماننا فتغيرت تلك القواعد من الكل، خصوصًا من يتقرب بالمال ليستشهد، فتراه يُسحب ليشهد على ما لا يرى. قال لى أبو المَعَالى بن شَافع: كنت أحمل على بعض أهل السواد، وهو محبوس وأشهد عليه، وأعلم أنه لولا أنه مكره لجاء إلىَّ بقدميه، وأنا أستغفر الله من ذلك. وليس للشهود جراية فيحملون ذلك لأجلها، وإنما الذى يحصل جَرُّ الطَّيْلَسَان، وطرق الباب، وقول المعرِّف: حَرَسَ الله نعمتك، شهادة.

ولما قيل لإبراهيم النَّخَعى: تكون قاضيًا، لبس قميصًا أحمر وجلس فى السوق! فقالوا: هذا لا يصلح.

ودخل بعض الكبار على الرشيد وقد أحضره ليوليه القضاء فسلم وقال

(١) أزرى به: أى قعد فيه.

له: كيف أنت وكيف الصبيان؟ فقيل: هذا مجنون. فيالله جنون هو العقل. وما أظن الإيمان بالآخرة إلا متزلزلاً في أكثر القلوب. نسأل الله سبحانه سلامة للدين فإنه قادر.

٣٧١- فصل - قد تكرر معناه في هذا الكتاب، إلا أن إعادته على النفوس مهمة لئلا يُغفل عن مثله.

ينبغي للمؤمن أن يعلم أن الله سبحانه مالك حكيم لا يعبث. وهذا العلم يوجب نفي الاعتراض على القدر. وقد لَهجَ خلق بالاعتراض قدحًا في الحكمة، وذلك كفر. وأولهم إبليس في قوله: ﴿خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُ مِن طِينٍ﴾[1] ومعنى قوله: أن تفضيلك الطين على النار ليس بحكمة!

وقد رأيت مَن كان فقيهًا دأبه الاعتراض، وهذا لأن المعترض ينظر إلى صورة الفعل، ولو أن صورة الفعل صدرت من مخلوق مثلنا حسن أن يعترض عليه، فأما مَن نقصت الأفهام عن مطالعة حكمته، فاعتراض الناقص الجاهل عليه جنون. فأما اعتراض الخلعاء فدائم، لأنهم يريدون جريان الأمور على أغراضهم، فمتى انكسر لأحدهم غرض اعترض.

وفيهم مَن يتعدى إلى ذكر الموت فيقول: بنى ونقض!! وكان لنا رفيق قرأ القرآن والقراءات، وسمع الحديث الكثير، ثم وقع في الذنوب وعاش أكثر من سبعين سنة، فلما نزل به الموت ذُكر لي أنه قال: قد ضاقت الدنيا إلا من روحي.

ومن هذا الجنس سمعت شخصًا يقول عند الموت: ربي يظلمني، وهذا كثير.

ويكره أن يحكي كلام الخلعاء في جنونهم واعتراضاتهم الباردة. ولو فهموا أن الدنيا ميدان مسابقة ومَارِسْتَان صبر ليبين بذلك أثر الخالق لما اعترضوا. والذي طلبوه من السلامة وبلوغ الأغراض أمامهم لو فهموا فَهْم «كالزورجاري» يتلوث بالطين، فإذا فرغ لبس ثياب النظافة. ولما أريد نقض

---

(١) سورة ص: ٧٦.

هذا البدن الذى لا يصلح للبقاء نحيت عنه النفس الشريفة، ثم بُنى بناء يقبل الدوام.

وبعد هذا فقل للمعترض: ﴿فَلْيَمْدُدْ بِسَبَبٍ إِلَى السَّمَاءِ ثُمَّ لْيَقْطَعْ فَلْيَنظُرْ هَلْ يُذْهِبَنَّ كَيْدُهُ مَا يَغِيظُ﴾[١] قل له: إن اعترض لم يَمنع ذلك جريان القدر، وإن سلَّم جرى القدر، فلأن يجرى وهو مأجور خير من أن يجرى وهو مأزور. وما أحسن سكوت وَضَّاح اليمن لما اختبأ فى صندوق فقال السلطان: أيها الصندوق إن كان فيك ما نظن فقد محونا أثرك، وإن لم يكن فليس بدفن خشب من جناح، فلو أنه صاح ما انتفع بشىء، ولربما أخرج فقتل أقبح قتلة.

٣٧٢- فصل - مَن تلمح أحوال الدنيا علم أن مراد الحق سبحانه اجتنابها. فمن مال إلى مباحها ليلتذ وجد مع كل فرحة ترحة، وإلى جانب كل راحة تعبًا، وآخر كل لذة نقصًا يزيد عليها. وما رفع شىء من الدنيا إلا ووضع[٢]: أحب الرسول -ﷺ- عائشة -رضي الله عنها- فجاء حديث الإفك[٣]، ومال إلى زينب، فجاء: ﴿فَلَمَّا قَضَىٰ زَيْدٌ مِّنْهَا وَطَرًا﴾[٤] ثم يكفى أنه إذا حصل محبوبه فعين العقل ترى فراقه فيتنغص عند وجوده كما قال الشاعر:

أتمُّ الحُزْنِ عندى فى سرورٍ تَيَقَّنَ عنه صاحبُه انتقالا

فيعلم العاقل أن مراد الحق بهذا التكدير التنفير عن الدنيا، فيبقى أخذ البُلْغَة منها ضرورة، وترك الشواغل، فيجتمع الهم فى خدمة الحق. ومَن عدل عن ذلك ندمَ على الفوات.

٣٧٣- فصل - العاقل يدبِّر بعقله عيشته فى الدنيا. فإن كان فقيراً

---

(١) سورة الحج: ١٥.

(٢) صحيح: وهو بمعناه أخرجه البخارى (٢٨٧٢) فى كتاب الجهاد، باب: ناقة النبى -ﷺ-.

(٣) صحيح: وحديث الإفك أخرجه البخارى (٤٧٥٠) فى كتاب التفسير، باب: ﴿لولا إذ سمعتموه قلتم ما يكون لنا أن نتكلم بهذا...﴾.

(٤) سورة الأحزاب: ٣٧.

اجتهد فى كسب وصناعة تُكفه عن الذل للخلق، وقلل العلائق واستعمل القناعة فعاش سليمًا من مِنَنِ الناس عزيزًا بينهم.

وإن كان غنيًّا فينبغى له أن يدبر فى نفقته خوفَ أن يفتقر فيحتاج إلى الذل للخلق.

ومن البلية أن يبذر فى النفقة ويباهى بها ليُكْمِد الأعداء، كأنه يتعرض بذلك -إن أكثر- لإصابته بالعين.

وينبغى التوسط فى الأحوال، وكتمان ما يصلح كتمانه. ولقد وجد بعض الغسَّالين مالاً فأكثر النفقة، فعلم به فأُخذ منه المال، وعاد إلى الفقر.

وإنما التدبير حفظ المال، والتوسط فى الإنفاق. وكتمان ما لا يصلح إظهاره. ومن الغلط إطلاع الزوجة على قدر المال. فإنه إن كان قليلاً هانَ عندها الزوج. وإن كان كثيرًا طلبت زيادة الكسوة والحُلِىّ. قال الله عز وجل: ﴿وَلَا تُؤْتُوا السُّفَهَاءَ أَمْوَالَكُمُ﴾(١) وكذلك الولد. وكذلك الأسرار ينبغى أن تحفظ منها ومن الصديق. فربما انقلب. فقد قال الشاعر:

احذرْ عدوَّك مرةً ... واحذَرْ صديقَك ألفَ مَرَّة
فلربما انقلبَ الصديـ ... ـقُ فكان أعلمَ بالمضرة

بحمد الله تعالى قد نجز ما توخاه الفكر الفاتر من تقييد ما جمعه القلم من **صيد الخاطر**. مقتصرًا فيه على ما به التخلى من الأمراض النفسية، والتحلى بالآداب الشرعية، والأخلاق المرضيَّة.

جعله الله تعالى خيرَ هادٍ على منبر الوعظ والإرشاد، وأنفع كتاب تجلى فى مرايا الظهور لهداية العباد.

والحمد لله أولاً وآخرًا وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

---

(١) سورة النساء: ٥.

فهرس الموضوعات

الموضـــــوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضـــــوع	الصفحة

الموضـــــوع الصفحة

الموضــــوع	الصفحة

الموضــــوع **الصفحة**

الموضـــــوع	الصفحة

الموضـــوع	الصفحة

الموضـــوع **الصفحة**

الموضــــوع	الصفحة

الموضـــوع **الصفحة**

الموضـــــوع **الصفحة**

الموضـــــوع	الصفحة

الموضـــــوع	الصفحة



أمام الباب الأخضر ـ سيدنا الحسين
ت ٥٩٠٤١٧٥ ـ ٥٩٢٢٤١٠

التوفيقية

مكتبة

التوفيقية

مكتبة

التوفيقية

التوفيقية

مكتبة

التوفيقية

مكتبة

التوفيقية